امرأة تحدق في الشمس

نوال السعداوي

امرأة تحدق في الشمس

تأليف
نوال السعداوي

هنداوي

امرأة تحدق في الشمس

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢١١٥ ١

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٢
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، ومن ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.
All rights reserved.

المحتويات

ثمن الكتابة ٩
الإهداء ١٥

الفصل الأول: هويتي المتعددة ١٧
في غرفتي بالفندق بمدينة بروكسل ١٩
أخطاؤها المقدسة ٢٥
الرحيل الدائم بحثًا عن الحب والإبداع والعدل والحرية ٢٩
جدَّتي الفلاحة المصرية وفرجينيا وولف الكاتبة البريطانية ٣٥
الحركات النسائية عام ٢٠١٠م تطالب بفصل الدين عن الدولة ٣٩
عن النقاب والنفاق والسلطة ٤٣
شهرزاد جديدة أكثر تحرُّرًا ٤٧
سارة بالين وجواري القرن الواحد والعشرين ٥١
مدينة أثينا – ولاية أوهايو ٥٥
نصف رجل وأمي الأبية ٥٩
حَيْرة امرأة بين الجنس والفقر ٦٣

الفصل الثاني: ديمقراطية الخداع ٦٧
باراك أوباما في القاهرة؟ ٦٩
تناقُض الرأسمالية في علاج الأزمة الاقتصادية ٧٥

حوار حول مذابح غزة في راديو أطلانطا ٧٩
عن أحلامي ٨٣
ماكين وأوباما ٩١
بين الدين والسياسة ٩٩
هل يحدث تغييرٌ جَذْري في عصر باراك أوباما؟ ١٠٧
الموت المبكِّر للشباب في الوطن ١١١
الصورة المُفبرَكة بدل الحقيقة المؤلمة ١١٧
عن التواطؤ ضد صحة الملايين في بلادنا ١٢١
من وحي النخبة في مصر والبرتغال ١٢٥
هل تكفي الكتابة لرفع الحجاب عن العقل؟ ١٢٩
في البدء كان الطعام والأرض ١٣٥
صمتوا حين كان الكلام واجبًا! ١٣٩

الفصل الثالث: بعيدة عن الوطن والأهل ١٤٣
تأمُّلات في فضاءٍ بلا حدود ١٤٥
في القطار من روتردام إلى بروكسل ١٥٧
أنا أكتب إذن أنا أعيش ١٧١
أهي بَرَكة الأُمِّ البركانيَّة أم انتقامُها؟ ١٧٩
هروب ١٨٣
بروكسل ١٩١
رحلة كازاخستان ١٩٧
سحابة صيف في أعالي جبل لبنان ٢٠١
فقاعات هواء في الفضائيات ٢٠٥
صديقتي الأمريكية أديل ٢٠٩
ذكرياتي ومذكِّراتي بعيدًا عن الوطن والأهل ٢١٣
ذكريات ومذكِّرات بعيدًا عن الوطن والأهل ٢٢١
ذكرياتي ومذكِّراتي وراء المحيط ٢٢٩
ذكرياتي وراء المحيط في إندونيسيا وبلادٍ أخرى ٢٣٧

الفصل الرابع: أملي بعالمٍ أفضل ٢٤٥
في الطائرة إلى مونتريال، كندا ٢٤٧
الدكتوراه الفخريَّة والتعدُّديَّة والنسبيَّة ٢٥٥
دروس في التاريخ ٢٥٩
في البرلمان الأوروبي في مدينة بروكسل ٢٦٧
هل تأخَّرتِ الثورة سبعين عامًا؟ ٢٧١
هل ينتصر النقاء الثوري على أخطبوط الفساد؟ ٢٧٧
هل يمكنهم إجهاض الثورات الشعبيَّة؟ ٢٨١
مليونيَّة الشباب والشابَّات، يوم المرأة العالمي ٢٨٥
نَجحَت الثورة المصريَّة، سوف تستمرُّ وتحقِّق أهدافها كلها ٢٨٩
نساء تونس ونجاح الثورة الشعبيَّة ٢٩٣
الثورة المصريَّة تضع قيمًا وعقدًا اجتماعيًّا جديدًا ٢٩٧
الثورة المصرية مستمرَّة حتى تحقِّق أهدافها كلها ٣٠١
هل يبدع العقل المصري بمبادرة استعماريَّة؟ ٣٠٥
أين العدالة الاجتماعيَّة أيُّها السادة؟ ٣٠٩
لم يَرَ واحدًا منهم له عينٌ واحدة ٣١٣
فكر الثورة الواضح والفكر القديم المراوغ ٣١٧
ألا نتحرَّر من عبوديَّة تقديس الفرد؟ ٣٢١
أقول لكم أيُّها السادة والسيِّدات ٣٢٥

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدتْ وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتْها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحتْ أقلَّ حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدقُّ بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وإنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساءٌ ورجالٌ من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدَي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، أمَّال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لَمَّا الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشمُّوا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشَّون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمُّون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنتُ أُحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطِّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي اللي مش معقولة.

– ازاي؟

– إيه يهمك من عمري؟
– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة.)[١]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[١] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

الإهداء

إلى كل من هجر وطنه بحثًا عن الحريَّة.
وإلى كل من دفع حريَّته ثمن الصدق.

نوال السعداوي

الفصل الأول

هويتي المتعددة

في غرفتي بالفندق بمدينة بروكسل

١٩ فبراير ٢٠٠٧م

خبرٌ منشور في الصحف يُبشِّر النساء الفقيرات في إنجلترا وأوروبا كلها: سوف تحصل المرأة على ٢٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا مقابل ما تعطيه للبنك من بَيْضاتها، سوف يمكن للعجائز الأثرياء من الرجال والنساء أن ينجبوا أطفالًا في أي وقت، وبأي عدد، وبأي شكل.

تكتب المُحرِّرة في الجريدة: هذا المبلغ سوف يساعد الأم الفقيرة على سد نفقات أطفالها في المدارس، أو شراء الطعام لهم أو الملابس الشتوية الجديدة، كما أن المرأة لن تخسر شيئًا؛ فهي تفقد بيضتها التي يفرزها المبيض كل شهر، مع دم الحيض الذي يطرده الرحم شهريًّا، هي امرأةٌ فقيرة لا تحتاج مزيدًا من الأطفال، مُرهَقة بالعمل ليلَ نهار، ليس عندها الوقت أو الجهد للتفكير في بيضاتها أو في ممارسة الجنس أو الحب، أو غير ذلك من كماليات الحياة، مع زوجٍ أو حبيب إن كان لها زوجٌ أو حبيب، وسوف يستفيد من هذه البيضات النساء والرجال المصابون بالعقم، أو بأمراض الشيخوخة والثراء، مثل مرض القلب وتصلُّب الشرايين وألزهايمر والباركينسون والانفصام، أو نتائج الفياجرا في حياة العجائز من الرجال مع عشيقاتهم المراهقات الفقيرات، من عمر الابنة أو الحفيدة. وقد أصبح الشبق الجنسي لدى العجائز الأثرياء شائعًا في بلاد العالم؛ إذ تحسَّنَت صحة العجائز مع تطوُّر عمليات القلب، وتوسيع الشرايين المتقلِّصة المتكلِّسة بالدعامات. أصبح الواحد منهم يعيش حتى التسعين أو المائة (أو ما بعد المائة) بقوةٍ جنسية يُحسَد عليها. وتساعد حبوب الفياجرا على تدفُّق الدم إلى أعضائهم الذكورية المنكمشة بالزمن، وهناك بحوثٌ علمية جديدة لاكتشاف نوع من الفياجرا للنساء العجائز، زوجات هؤلاء الرجال العجائز، حتى يمكن للزوجة العجوز الثرية التي هجرها زوجها إلى فتاةٍ شابة أن تكتسب قوةً

جنسية جديدة تُشجِّعها على أن تفعل ما يفعله زوجها، فيصبح لها من العشاق الشباب الفقراء ما تشاء، وأن تنجب منهم بعد شراء البيضات من البنك.

قد يبدو الأمر مُقزِّزًا، لكن هذا هو العالم الرأسمالي الذكوري القائم على السوق، لا يسعى إلا إلى الربح، وإن تضاعف القرف.

أحيانًا أفكر في أمي، يتراءى لي وجهها من خلال ضبابٍ كثيف، يسري صوتها الهامس مثل حفيف النسيم: اسمعي يا ابنتي، السرطان لم يقتلني بل الحزن، اضحكي يا ابنتي اضحكي فالضحك يطيل العمر. أكانت أمي فيلسوفة أم شاعرة؟ هي التي حرَّرَتني من سطوة الدين، همسَت في أذني وأنا طفلة وقالت: ما فيش نار ولا جهنم، الجحيم فوق الأرض. آه يا أمي الحبيبة! لم أعرف قيمتك إلا بعد موتك، لم أسألكِ عن منبع الحزن في حياتك، كنتُ أظنك زوجةً سعيدة مع أبي، وكان أبي في نظري ونظر العالم زوجًا وأبًا مثاليًّا، فمن أين جاء الحزن؟

هل ورثَت ابنتي الحزن عنكِ يا أمي، فكتبَت هذه القصائد الحزينة: «مسافرة إلى المُحال»، هذا عنوان قصائدها الجديدة. تعشق ابنتي المحال، المستحيل، تراه جميلًا مثل الموت، لولا الموت لأصبحَت الحياة مستحيلة، تعشق ابنتي جمال المُحال، جمال الحياة يكمن في فَنائها، لا كائن حيًّا يعيش إلى الأبد. الأبدية ليست صفة الأحياء بل الأموات، ألهذا يعيش الإله إلى الأبد؟

الأبدية شيءٌ مرعب، لا يفكر في الأبدية إلا المرضى من البشر أمثال الفراعنة، الأباطرة، الملوك، السلاطين، المساطيل الذين فقدوا العقل والبصيرة. يعيشون وَهْم أنهم خالدون إلى الأبد، لا يموتون، وإن ماتت أجسادهم (وتعفَّنَت وأكلها الدود) فإن أرواحهم تعيش، تتقمَّص أجسادًا أخرى بعد الموت، وتعيش في دار النعيم إلى الأبد.

إنهم الفراعنة في مصر القديمة الذين اخترعوا فكرة الأبدية والحياة بعد الموت، ودار النعيم (أو الجنة) التي يستمتع بها الفرعون الأكبر توءم الإله الأكبر، وأعوانه من الكهنة ورجال الدولة والدين. لم يكن الحاكم الأرضي ينفصل عن الإله السماوي، وكان الحاكم الإله «إخناتون» الذي نصَّب نفسه إلهًا واحدًا على السماء والأرض، يتبدَّى في قرص الشمس كل صباح. إخناتون هو أول حاكم وأول إلهٍ واحد يخترع فكرة التوحيد، ورثها عنه موسى، مؤسس الدين اليهودي، ثم مؤسسو المسيحية والإسلام وغيرهما من الأديان.

أوَّل مرة رأيتُ صورة إخناتون ظننتُ أنه امرأة، له ثديان كبيران وردفان ثقيلان عريضان أكبر من أرداف الإناث، فهل كان إخناتون امرأةً حكمَت مصر وتبدَّت في قرص

الشمس مثل الإلهة إزيس؟ ثم حوَّله المؤرخون الرجال إلى رجلٍ ذَكرٍ مع تصاعُد القوى السياسية الأبوية الذكورية العبودية؟

تكتب أمي وابنتي الشاعرتان قصيدتهما الحزينة:

الحياة إلى الأبد لا تستهويني، الفجر لا يكون دون الغسق، الحب لا يكن دون الموت، لو عاش الحب إلى الأبد أصبح رعبًا، الفراق في قمة الحب أفضل منه عند الموت. ألهذا تعددت قصص الحب في حياتي، أفترق عنه قبل أن يفترق عني. أُنهي قصة الحب قبل أن تموت؟ أمضي وأتركها حيةً تنبض في الطريق، قبل أن يخبو في العينَين البريق، قبل أن ينطفئ في القلب الحريق، قبل أن تتبخر قطرات الندى ويخلو الزهر من الرحيق، أتركه وأمضي وحيدة في الكون دون رفيق، لماذا نخاف الوحدة أو الموت وهما الغسق الجميل قبل الفجر الجديد؟ لماذا لا أفارق الحب في عنفوانه قبل أن يأتي الرحيل، قبل أن يصبح غريبًا عني وأنا غريبة عنه في القبر الدفين؟

أقول لأمي وابنتي الشاعرتَين الحزينتَين: لماذا نعجل بالفراق قبل أن يأتي الرحيل؟ لماذا لا نمشي في الكون لآخر الطريق؟ لماذا لا نشرب كئوسنا لآخر قطرة في الرحيق؟ لماذا نُنهي الحب قبل أن يبرد في القلب اللهيب؟ لماذا نصبح غريبَين في قمة الرغبة قبل أن تذوب الشهوة في البحر الغريق؟ آه يا أمي ويا ابنتي كم يشدو الشعر بسحر المحال وجمال المستحيل، وما هو المستحيل؟

هو كل ما يتعارض مع التفكير العقلي المنطقي العلمي المبني على البرهان والدليل. كيف أصبح المستحيل هو الحقيقة غير القابلة للشك واليقين؟ لماذا حرَّمَت الأديان التساؤل عن حقيقة وجود خالق للكون أو حياة بعد الموت، أو جنة فيها حُورٌ عذراوات يستمتع بهن الرجال، أو نار جهنم يحترق فيها الناس إلى الأبد؟

في طفولتي تساءلتُ عن عدالة الله، سألته لماذا تُفضِّل أخي عليًّ، مع أنني أشتغل أكثر منه في البيت والمدرسة، وأنجح بتفوق وهو يرسب كل عام. قال لي المدرس إن هذا السؤال إثمٌ عظيم سوف يعاقبني عليه الله بالحرق في نار جهنم. كان يمكن لي أن أكُفَّ عن الأسئلة خوفًا من الحرق لولا أمي التي همست في أذني قائلة: لا تُوجد نارٌ يا ابنتي، لا تسمعي كلام المدرس.

كلمات أمي فتحَت عقلي، جعلَتني أطرح ما أشاء من الأسئلة دون خوف من النار، قتلَت أمي فيروسَ الخوف في جسدي وعقلي، قتلَت فيروسَ الشر في كياني؛ لأن الشر والخوف توءمان؛ لأن حرية التفكير هي أساس الإبداع والخلق في العلوم والفنون.

لكن كم من الأطفال لهم هذه الأم الواعية الشجاعة؟!

في المؤتمر النسائي الدولي في بروكسل، قلتُ لهم إن التعليم الديني يقتل في الأطفال التفكير الإبداعي الحر، يجعلهم عبيدًا يطيعون السلطة الحاكمة، في البيت والمدرسة والدولة والدين. يلعب التعليم الديني السياسي دورًا في قتل العقل النقدي للطفل، ينمو خادمًا أسيرًا لكل من له نفوذ عليه، هكذا تنجح الأنظمة الحاكمة في الاستبداد بالشعوب، هكذا تخضع الشعوب نساءً ورجالًا للحكم السياسي الديني، دون تمرد أو ثورة. لم ينفصل أي حكم منذ الفراعنة حتى اليوم عن الدين. وقد زادت أعداد المدارس الدينية في جميع بلاد العالم في هذا القرن الواحد والعشرين، تحت حكم توني بلير وجورج بوش وأنجيلا ميركل وغيرهم في أوروبا وأمريكا. مع تصاعُد التيارات المسيحية واليهودية، عاد كثير من الناس إلى الإيمان بالخزعبلات والردَّة إلى الوراء، وبالمثل تصاعدَت التيارات الإسلامية السياسية في بلادنا وتصاعدَت معها الخزعبلات والردَّة إلى الوراء. تُساند الأديان بعضها البعض؛ لأن سقوط أحدها يقود بالضرورة إلى سقوط الآخر. إنْ تهاوى الإله الجبار في التوراة تهاوت معه الآلهة الأخرى المنتقمة الجبارة التي تحرق الناس في النار وتأمر بقتلهم لمجرد اعتناقهم أفكارًا أخرى. أخطر ما في الدين تحريم الإبداع والمعرفة. قامت النهضة العلمية في أوروبا بعد معارك عنيفة بين العلماء ورجال الدين، في كل بلاد العالم نهض الفكر والإبداع ضد إرادة رجال الدين.

حاول أستاذٌ متخصص في المسيحية أن يقنع الحاضرين أن المسيحية دين التسامح والمحبة. راح ينتقي من الأناجيل ما يشاء ليدعم فكرته. حاول أستاذٌ متخصص في اليهودية أن يقنع السامعين أن اليهودية دين السلام والعدل، دعم كلامه بعباراتٍ اقتطعها من التوراة. وفعل الأستاذ الإسلامي مثلهما، واختار من القرآن الآيات التي تدعو إلى العدل والرحمة والسلام وحرية الفكر والعقيدة. جاء دوري للكلام فقلت إن مشكلة هذه الكتب الدينية أنها تحتوي على الشيء ونقيضه، تدعو للعدل والسلام والحب في صفحة، وفي صفحةٍ أخرى تدعو للنقيض؛ الظلم والحرب والكره. ينتقي الحكام وأعوانهم من رجال الدين الآيات التي تُحقِّق مصالحهم في ذلك المكان وذلك الزمان، ضد مصالح الأغلبية من الشعب، لتبرير القتل والقهر والتفرقة بين الناس لاختلاف الدين أو الجنس أو العقيدة.

يغرق تاريخ الأديان في الدم والحروب من أجل المال والسلطة تحت اسم الله. راجعوا تاريخ اليهودية منذ نشوئها حتى اليوم، هذه المذابح المستمرة للشعب الفلسطيني بالآلة العسكرية الإسرائيلية، أليست تستند إلى آية في التوراة عن الأرض الموعودة؟ كيف يعطي الإله العادل هذه الأرض لشعبه المختار ويأمرهم بقتل سكانها وإبادتهم؟ ولماذا يُفضِّل هذا الإله شعبًا على شعبٍ آخر، لمجرد الاختلاف في العقيدة، أو الفكر أو الجنسية أو الهوية؟ ولماذا يُفضِّل الرجال على النساء؟ لماذا يعتبر دم الوالدة نجسًا، تتضاعف النجاسة إذا كانت المولودة أنثى؟

لا تَقِلُّ المسيحية ازدراءً للمرأة عن اليهودية، وتاريخ المسيحية لا يَقِل دموية عن تاريخ اليهودية. لقد شرع الله لليهود سرقة أرض فلسطين وقَتْل أهلها، لكنه شرع للمسيحيين سرقة الكرة الأرضية وما عليها. تحت اسم سيف المسيح، قامت الإمبراطورية الرومانية بسيف المسيحية ونارها وجيوشها وبوليسها. تحت شعار الإمبراطورية: لا تُوجد أي قوة إلا قوة الله (وهي نفسها قوة الجيش الروماني والبوليس ورجال الدين)، ملايين القتلى تحت شعار «الإنجيل في يد والسيف في اليد الأخرى» (مثل شعار الإخوان المسلمين في مصر «المصحف والسيف»). أقامت المسيحية محاكم التفتيش، أَحرقَت الكتب والمكتبات بما فيها مكتبة الإسكندرية في مصر. قتَلَت المفكرين والفلاسفة، نساءً ورجالًا، ومَزَّقَت أجسادهم، بمن فيهم الفيلسوفة المصرية هيباتيا. أشعلت حروب الاستعمار، بما فيها الحروب الصليبية، بدأت الحرق بالنيران منذ القرن الرابع في عصر قسطنطين، تاجرت في البشر بمن فيهم عبيد أفريقيا.

ثم بعد أن شَبِعَت من قتل الآخرين انقلَبَت على نفسها تقتل المسيحيين لمجرد الاختلاف في المذهب أو الطائفة. أُريقت الدماء في الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت. كم من الملايين قُتلوا تحت شعار الأخوة والمحبة؟! سعَوا إلى المال والقصور العامرة، بنَوا الكنائس بالذهب والياقوت والرخام الفاخر. ضربت عساكرهم الفقراء والجوعى الثائرين.

والفاتيكان (بكل ما فيه من بابوات وكنائس وقسس) أيد أدولف هتلر وتعاون مع النازية والفاشستية، وفي عصرنا الحديث في عام ١٩٩٣م اعترف البابا جان بول الثاني بشرعية دولة إسرائيل.

يغرق تاريخ الأديان جميعًا في الحروب والغزوات، لم ينفصل الدين عن الدولة والحكم. يُشارِك رجال الدين في السلطة والمال واقتناء الذهب والفضة. بُنِيَت المساجد بالذهب والرخام مثل الكنائس. ضرب عساكر الحكام المسلمين الفقراء والجوعى الثائرين. بعد أن يقتلوا

الكفار يندار الحكام المسلمون لقتل بعضهم البعض. تقوم الحروب والمذابح الطائفية بين السُّنة والشيعة. لا تكُفُّ الحروب الطائفية حتى اليوم، يُشعلها الاستعمار العالمي مع الحكام المحليين. فرِّق تسُد. يلعبُ الدين دورًا ناجعًا في تقسيم البشر فيسهُل حكمهم بالحديد والنار.

أحدَث المؤتمر جدلًا ساخنًا في الجلسات المتعددة. لا يحب رجال الدين الجدل، يعتبرونه من وحي الشيطان. يخشى رجال الدين أن يقود الجدل إلى كشْف خزعبلاتهم ورفْع الحجاب عن العقل؛ لهذا يلجئون إلى قتْل العقل بالخوف من النار، وقتْل المفكرين المبدعين أو نفيهم أو حبسهم، حتى لا تنتشر عدوى التفكير إلى الملايين المضلَّلين، الذين يرثون الدين عن آبائهم دون تفكير.

طالَعَني خبر في صحف بروكسل منذ أيامٍ قليلة يقول: أرسل الأزهر في مصر مذكرةً إلى النائب العام بالتحقيق مع الكاتبة المصرية نوال السعداوي، بتهمة ازدراء الذات الإلهية في مسرحيتها «الإله يقدم استقالته في اجتماع القمة»، وتوقيع أشد العقاب عليها. نوال السعداوي جاءت إلى بروكسل يوم ٨ فبراير للمشاركة في المؤتمر الدولي النسائي الذي عُقد يوم ٩ فبراير ٢٠٠٧م، لم تهرب نوال السعداوي من مصر كما ذكَرت بعض الصحف المصرية والغربية، وهي في طريقها إلى جامعة وست فرجينيا بأمريكا لتسلُّم جائزة الأدب الأفريقي الدولية عن عام ٢٠٠٧م، التي تمنحها الجمعية الأفريقية العالمية كل عام لأحد كبار الأدباء المبدعين من قارة أفريقيا.

أخطاؤها المقدسة

صديقة عمري اسمها «صديقة»، رسَّامةٌ مبدعة لا تنتمي لأي مدرسة في الرسم، لا يرى لوحاتها أحد، لا تحب الإعلام. تقول: الشهرة مرضٌ عضال، تُحوِّل الإنسان إلى حيوان. نُقَّاد الفن في نظرها ديدانٌ طفيلية. لم تعرض صديقتي لوحاتها في مكانٍ عام.

تقول: المعارض مثل المباول العامة، تنتهك الذوق والإحساس.

لا تدَّعي صديقة الهروب من الأضواء كما يفعل المشهورون العاشقون للأضواء. تقول: لا يحرق اللوحة مثل الضوء. يتهمها الناس بالجنون، لكنها في نظري أعقل من العقلاء، لا تختلف عن المجانين في شيء إلا أنها ليست مجنونة. بلغت صديقة ستة وسبعين عامًا من العمر في ٢ مارس ٢٠١٠م، وُلدت في ٢ مارس عام ١٩٣٤م. تمارس رياضة السباحة لمدة ساعة كل يومَين، تلعب التنس مرتَين في الأسبوع، لا تذهب إلى أي مكان يستدعي ركوب سيارة، أو حيث يُدخِّن أحدهم سيجارة. تُقاطِع الاجتماعات الأدبية والفنية والسياسية، ومهرجانات توزيع جوائز العلم والإيمان. كلُّ شيء تريده لا يَبعُد عن بيتها أكثر من خمسة كيلومترات. النادي الرياضي تذهب إليه سيرًا على قدمَيها. لا تسمح لأحد بزيارتها في بيتها إلا صديقة عمرها، وشقيقتها التي تسكن البيت المجاور، وفي أحيانٍ قليلة يزورها صديقٌ جديد كانت تحبه، أو حبيبٌ قديم تحوَّل إلى صديق. قلبها ربيعيٌّ لا يكُفُّ عن الخفَقان، مثل عقلها وروحها وجسدها.

شقيقتها التوءم وُلدت قبلها بسبع دقائق، كأنما وُلدت قبلها بسبع سنين أو سبعة قرون، تجاوزَت شقيقتها الشيخوخة وما بعد الشيخوخة. أحزان وجهها محفورة في أحزان الجسد والروح.

تبدو صديقة إلى جوارها شابةً نشيطة الحركة تفيض بالسعادة، في كل مرةٍ أراها أسألها: من أين تأتيك السعادة يا صديقة؟ تُطلِق ضحكتها الطلِقة تَرنُّ كالفضة: عاوزة السبب الحقيقي يا نوال؟ قابلتُ الرجل الخطأ في حياتي، كلُّ من قابلتُهم لم يكونوا ما أريد، تعلَّمتُ من الخطيئة أكثر مما علَّمَتني الفضيلة، أصبحَت أخطائي مُقدَّسة. عنوانٌ جيد لروايتي الجديدة، سأجعلُكِ بطلة الرواية يا صديقة.

لا أُحب كلمة بطل أو بطلة، الأبطال مقدَّسون لا يخطئون، معقَّمون مثل مِشرَط الجراحة، إن لم تُقدِّسي أخطائي فلن تدخل روايتك التاريخ، لن يلعنها نقَّاد الأدب والفن، لن يجمعها البوليس من البيوت والأرصفة، لن يحرقوها بالجاز والبنزين، وفي عيد الأدب تنالُ روايتُكِ الجائزة الأُولى.

فماذا تُريدين لروايتِكِ؟ البقاء أم رضا النقاد؟ أسألها: وماذا تريدين أنتِ بلوحاتك؟

أريد تجسيد أخطائي، المُحلِّقة في سماء حياتي، مثل ضوء العذراء فوق قُبة الكنيسة، اليوم يُقدِّسونها، كلهم يبالغون في تقديسها اليوم. بالأمس حين عاشت لعنوها، فرضوا عليها الهرب والهجرة من وطنها، اتهموها بالخطيئة، كيف حملَت ووضعَت طفلها دون رجل؟ لم تَردَّ عليهم، لاذت بالصمت البليغ.

كانت تعرف أن الطفل المقدَّس لا تُنتجه إلا الأم وحدها حين تحترم خطيئتها، ترفعها إلى درجةٍ عُليا، أعلى منهم ومن حياتهم المزيَّفة. لا تستسلم الأم المقدَّسة العذراء، لا تنتحر، لا تنهزم، تطلب العدل من أصحاب الضمير وصاحباته، لا تطلب الصفح ولا التسامُح من الآلهة وأصحاب القداسات.

لوحاتها قبل الأخيرة بعنوان: «ظهور العذراء في القرن الواحد والعشرين، عادت بكبرياء وشموخ تطلب العدل لكل المقهورات والمقهورين، مثل الآلهة المصرية «إزيس أو معات»، أحبَّت كرامة العدل الإنساني وليس مذلة الصفح أو التسامُح الإلهي» تسألهم هذا السؤال بلوحتها:

من يملك حق التسامُح؟ من يصفح عمَّن؟ وماذا عن أخطائكم أنتم يا أيها المقدَّسون المعصومون الذين لا يخطئون؟

لوحتها الأخيرة تُصوِّر مجلسًا من آلهة العدل الرجال (بعد موت الإلهتَين إزيس ومعات وأُمِّهما نوت) يمنعون دخول امرأةٍ واحدة من بابهم، تقول لهم: إلى هذا الحد تخافونها؟ هل واحدةٌ فقط قادرة على تفكيك عالمكم الواهي؟ فقط رجلٌ واحدٌ منهم لا يخافها، فتح لها الباب مُرحِّبًا، واحدُ فقط قادر على حبها؛ فالخوف والحب لا يجتمعان في قلبٍ واحد.

سألَتْني صديقة: هل قابلتِ رجلًا قادرًا على حبك؟ سألتُها أيَّ حب تقصدين؟ ضحِكَت صديقة وأخذَتْني إلى لوحةٍ أخرى في الركن، عنوانها: «تاريخ»، الرجل في اللوحة يرتعد خوفًا منها، دفين منذ قديم الزمان، وإن جلس على عرش الحكم يظل يرتعد، هشٌّ مصنوع من القش، كتِفاه العريضتان محشُوَّتان بالقطن وفضلات القماش في حوانيت الترزية، مثل العرائس. ممسوك من أعلى المسرح بخيوط المؤلف، لا يستطيع أبدًا أن يكون هو المؤلف أو المبدع الخلَّاق، وضحِكَت صديقة: ترزية بذلاتهم مثل ترزية قوانينهم، قشٌّ وقشٌّ وفضلات المحشي والأكل الدسم.

في لوحاتهم عن المرأة يحشُون ثديَيها بالقطن كالعروسة، مثل أكتافهم المحشوَّة، يألفون الحشو، يخافون دمها، لحمها الحي. أكثر ما يخافون هو عقلها، وجسدها حين يصبح العقل.

قالت صديقة: منذ ولادتها يتنافسون على تجريدها من سلاحها الوحيد «عقلها» يملئون الفراغ في رأسها بالبلاهة، يستبدلونها بكلمةٍ أخرى مثل «الأنوثة»، «الأمومة»، «الإخلاص للزوج». يبيعون لها الإخلاص في أكياس اللب والقرطاس، وروايات الحب العذري المنزوع الجسد، ومِقشَّات المسح والكنس، وصواني الفرن، ومراهم التدليك، وشد الجلد، وشفْط الدهون، ونتْف الشعر، وإخفاء التجاعيد. يمنعون عنها كتب الفلسفة باعتبارها كفرًا، وروايات الحب غير الروحي السماوي الطاهر. يسمحون لها بتعلُّم التدبير المنزلي، وفن الطبخ وسرير الزوجية، أو التمريض وغسل الصديد، أو الطب النسائي والأطفال. قد يسمحون لها بدراسة القانون (بشرط ألا تكون قاضية في مجلس الدولة) وعلوم الكيمياء والقوة النووية (بشرط ألا تكتسب أي قوة، وتظل أنثى هشَّة العظام تتكسَّر عظامها في أوَّل عناق).

هناك دائمًا شروط إن أرادت أن تخرج إلى العمل بأجر. أوَّل الشروط:

مكانُكِ الطبيعي في البيت، خروجُكِ منه هو خروج عن المعلوم من التقاليد والأخلاق والدين. خروجُكِ ممنوعٌ إلا بأمرٍ من زوجك ولصالح الأُسرة، هو الذي يُقرِّر هذا الصالح وليس أنتِ. يمكن أن يفرض عليكِ الاستقالة من عملك (بعد الاستقالة تُصبحين عالةً عليه مثل عياله، مثل دولةٍ تعيش على معونات الغير). بعد الاستقالة يمكن أن تجوعي في الشوارع، إنْ طردَكِ بكلمة الطلاق ينطقها مع الهواء، لا تعترضي إن طلَّقكِ دون سبب، وإن جمَع بينك والنساء الأخريات، فهذه أوامر الله. إنْ قال لك عقلك إن أوامر الله ليست عدلًا،

فإن عقلك كافر. حاولي إلغاء عقلكِ طلبًا للإيمان الكامل، إن عجزتِ عن إلغاء عقلكِ فأنت تستحقين الضرب والرجم والموت، والحرق بالنار بعد الموت.

تنطق اللوحات بالغضب الإنساني من الظلم، الحيوان أيضًا يغضب إن ظُلم، لا يمكن لصديقتي أن تعيش مع رجلٍ ظالم، فما بالُ الإله؟ تقول لوحتها الأخيرة:

الطفلة تَتربَّى على إلغاء عقلها لقبول الظلم، إن رفضَتْه تصبح رافضة لأوامر الله. شيء لا يمكن لطفلة تحمُّله، الموت عندها أهون من عدم الإيمان، وفقدان العقل أهون من الموت.

سألتُ صديقة: وكيف خرجتِ في طفولتك من هذا المأزق الكبير؟

لم أخرج منه، ظل عقلي ملغيًّا حتى قابلتُ الرجل الخطأ، كم مرة قابلتُ الرجل الخطأ، تعلَّمتُ من تكرار الخطأ، أصبح الخطأ أستاذي المقدَّس، ألا يقولون يا نوال: من علَّمني حرفًا صرت له عبدًا؟

هذا المثَل لا أُحبه يا صديقتي، يشتمل على كلمة «عبد». أكره العبيد وكل مشتقات العبودية، ضحِكت صديقة وقالت: لم أصبح عبدة لأخطائي، ولا أميل أيضًا إلى تقديسها، بل مجرد الاعتراف بها واحترامها. علينا إذن يا صديقة تغيير اللغة والأمثال الموروثة ونقول: «من علَّمني حرفًا صرتُ له صديقًا أو صديقة.»

الرحيل الدائم بحثًا عن الحب والإبداع والعدل والحرية

١٣ أكتوبر ٢٠٠٩م

في المؤتمرات الدولية عن الهُويَّة الأصلية، التي أَصبحَت موضة العصر، في الغرب والشرق، يسألونني دائمًا: ما هي هُويَّتُك؟ هل أنتِ مصرية أم عربية؟ أفريقية أم بحر أبيض متوسطية؟ مسلمة أو مسيحية أو يهودية أو بوذية أو هندوكية؟ هل أنتِ سوداء أو بيضاء أو صفراء؟ هل أنتِ رجل أو امرأة أو شابة أو عجوز؟ هل أنتِ طبيبةٌ نفسية أو جسدية، أو ناشطةٌ سياسية أو باحثةٌ جامعية أو كاتبةٌ روائية؟ أتأمَّل السؤال طويلًا ثم أبتسم وأقول لهم: أنا كل ذلك؛ لأن دمائي مختلطة وهُويَّتي متعددة؛ فالدم النقي أو الهُويَّة النقية هي العنصرية أيها السادة والسيدات، جذور الإنسان مثل جذور الشجرة، تمتد وتشرب من مياه الأرض كلها، وفروعها تمتد إلى الفضاء تتنفَّس ما تشاء من الهواء. أصلنا واحد هو الإنسانية في سعيها الدءوب إلى العدل والحرية والحب والإبداع والتطور اللانهائي.

وفي أحد المؤتمرات الدولية النسائية في أطلانطا، ٨ مارس ٢٠٠٩م، يوم المرأة العالمي، التقيتُ ببعض الشخصيات التي تُطلِق على نفسها لقب «فيمينيست» في بلادٍ متعددة، منها أمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا وأفريقيا وآسيا وبلادٌ عربية. تحمَّسَت بعضهن لما يُسمَّى الدفاع عن الهوية الأصلية، والخصوصية الثقافية، والتراث الديني والثقافي في كل بلد. هذه هي النغمة الحديثة أو ما بعد الحديثة لفكرة احترام التعددية الثقافية والدينية والأخلاقية، تحت اسم الهوية الأصلية لكل شعب في الشرق أو الغرب.

قالت الأستاذة الأمريكية رئيسة قسم دراسات المرأة في جامعة كاليفورنيا:

نعم أيها السادة والسيدات، يجب أن نحترم الهوية الأصلية للمرأة المسلمة في مصر والسودان واليمن والصومال وغيرها، والخصوصية الثقافية والدينية في هذه البلاد، ولا نفرض عليهم أفكارنا الغربية التي لا تتماشى مع هُويَّتِهِم الأصلية وتُراثهم وقِيَمِهِم. مثلًا يجب ألا نُوجِّه النقد إلى حجاب المرأة المسلمة أو ختانها. هذه القِيَم جزء من هُويَّة المرأة في تلك البلاد، تقتضي الديمقراطية القائمة على التعدُّدية أن نترك الحرية لهؤلاء النساء لارتداء الحجاب أو الخضوع للختان.

نَهضَت شابة من اليمن وقالت:

لا أوافق على هذا الكلام أيها السادة والسيدات؛ لأنه يفتح الباب أمام العنصرية والتفرقة بين الناس، بسبب الجنس والطبقة والدين والتراث والثقافة والهُويَّة وغيرها من المُسمَّيات. أنا من اليمن وقد رفض أبي وأمي ختاني حفاظًا على صحتي وشخصيتي. أبي طبيبٌ يعرف مضارَّ الختان، وأمي تمَّ تختينها في طفولتها وعانت من ذلك آلامًا نفسية وجسمية واجتماعية، أقلُّها أن أبي كان يُعاشِر نساءً من أوروبا تعويضًا عن البرود الجنسي لدى أمي بسبب الختان. حين عرفَت أمي بخيانة أبي لها طلبت الطلاق. هكذا عانيتُ أنا أيضًا بسبب ختان أمي، وعشتُ ممزقةً بين أم وأب أحبهما، لكن لا يمكن لهما الحياة معًا، ومن قال إن الختان جزء من التراث العريق أو الهُويَّة الأصلية للمرأة المسلمة في اليمن؟ أرجو منكم دراسة تاريخ اليمن وحضارة حضرموت القديمة الإنسانية، التي احترمَت النساء. هل سمعتم عن الملكة بلقيس؟ الملكة بلقيس لم يختتنها أحد، عملياتُ ختان الإناث في اليمن طرأت على اليمن منذ نشوء العبودية، أو النظام الطبقي الأبوي. الختان لا علاقة له بالهُويَّة الأصلية للمرأة اليمنية أو تراثها العريق.

وقالت شابَّةٌ من مصر:

أيها السادة والسيدات، لكل بلدٍ تراثٌ قديم، بعضه إيجابي يتماشى مع العدل والحرية، وبعضه سلبيٌّ يُكرِّس الظلم والتفرقة بين الناس، على أساس الجنس أو العقيدة أو اللون أو العِرْق أو غير ذلك. نحن نعيش مرحلة الرأسمالية الاستعمارية العسكرية الجديدة القائمة على العولمة الاقتصادية، أو كسر الحواجز القديمة بين الدول لمرور البضائع ورءوس الأموال في سهولة ويسر، مع إقامة حواجزَ جديدةٍ تمنع مرور البشر المهاجرين من دولة إلى دولة، بحثًا عن الرزق أو فرص العمل. تشمل الحواجز الجديدة أيضًا مفاهيمَ قديمة. عبودية تُكرِّس روابط الدم والدين والعِرْق والإثنية والقومية واللغة والثقافة والقيم والتقاليد،

وغيرها من الهُويَّات الصغيرة الضيقة، أو ما يسمى الخصوصية المحلية أو الهُويَّة الأصلية أو الهُويَّة النقية، وهي فكرةٌ عنصرية تعود بنا إلى عصور العبودية، وسيطرة النظام الطبقي الأبوي العنصري الديني على المجتمع، وبالتالي تقسيم المجتمع وتفتيته ليسهل التحكُّم به.

هل العودة إلى الماضي، إلى التراث القديم، إلى الدين والهُويَّة البيولوجية، هل هي رَدُّ فعل الشعوب على العولمة الاستعمارية الشرسة وحروبها العسكرية في منطقة البترول، بترول الخليج العربي والإيراني، وفي أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية؟

إذا كانت هي ردَّ فعل في مواجهة العولمة فهي ردُّ فعل خاطئ أيها السادة والسيدات، هي ضد مصلحة الشعوب المقهورة بالعولمة والاستعمار الجديد. انظروا ما يحدُث في العراق تحت الاحتلال الأمريكي الإسرائيلي. يتفتَّت الشعب العراقي وتُراق دماؤه باسم الدين والطائفة والمذهب والهُويَّة والخصوصية وكل تلك الشعارات الخادعة للشعوب الساذجة، والنخب الثقافية غير الواعية، أو التابعة عقليًّا لمفكري الرأسمالية الاستعمارية، يُردِّدون شعاراتهم الحديثة كالببغاوات، من نوع صراع الحضارات، صراع الثقافات، صراع الأديان، صراع الهويات. هذا الغطاء المزيَّف للصراع الحقيقي على البترول والأراضي ومياه الأنهر والبحار والكواكب في الفضاء وما تحت الأرض من معادن ثمينة وذهب وفضَّة وألماس. أيُّ صراع حضارات؟ ونحن نعيش حضارةً واحدة رأسمالية طبقية أبوية ذكورية دينية يهودية أو مسيحية أو إسلامية أو بوذية أو هندوكية أو غيرها. هل هناك هُويَّةٌ نقية في أي بلد؟ هل هناك دينٌ نقي غير مخلوط بدياناتٍ سابقة عليه؟ هل هناك دمٌ نقي غير ممتزج بدماءٍ أخرى كثيرة متعددة؟ هل هناك هُويَّةٌ ثابتة مثل درعٍ عسكرية حول الصدر أو حذاءٍ حديدي في القدم؟

الدم النقي أو الهُويَّة الأُحادية النقية هي «العنصرية» أيها السادة والسيدات، هي النازية الفاشستية، هي ادِّعاء «هتلر» أن الدم الألماني «نقي» لا تُلوِّثه دماءٌ أخرى، أن الهُويَّة الألمانية صافية لا تشوبها شبهاتُ هوياتٍ أخرى. هذا التشبُّث الساذج بالهُويَّة العرقية الدينية القومية الجنسية الثقافية في مواجهة الاستعمار الجديد والعولمة ليس إلا خدعةً عالمية ومحلية للانحراف بالمقاومة الشعبية عن هدفها الصحيح، عن تحرير الأرض والعقل، من أجل تقسيم الشعوب تحت اسم الخوف على فقدان الهوية أو ضياع الجذور والتراث وفكر الأسلاف.

تقوم العولمة الاستعمارية على كسر الحواجز الدولية والمحلية أمام تحرُّك الأموال والتجارة بكل شيء، حتى الجنس. النساء والشباب والأطفال، وأعضاؤهم من الكلية إلى العين والمخ والقلب وفلذة الكبد. الاستعمار الجديد هو كَسرُ الحواجز أمام السلع الرأسمالية لتسافر بحريةٍ في الأسواق، ثم إقامة الحواجز أمام البشر المهاجرين سعيًا وراء العمل أو الكرامة، أو هربًا من الموت في الحروب والمجاعات، أو داخل السجون وزنازين الديمقراطية الدكتاتورية المحلية الدولية.

منذ أن وعيتُ الدنيا وأنا في رحيلٍ دائم، داخل الوطن وخارجه، بحثًا عن الحب والعدل والحرية والإبداع. عشتُ الغربة داخل الوطن وخارجه. فما هي الغربة وما هو الوطن؟ لكني كنتُ دائمًا أعود إلى الجذور في أي بلد، إلى الأصل، إلى المعدن الإنساني الأصيل. خلال رحيلي الطويل خارج بلدي لم يكن يسأل عني إلا أفرادٌ قلائل، لا تجمعني بهم روابط الدم أو صلات الرحم، لم تلدهم أمي، كان صوتهم يأتيني عبر الهاتف، عبر الأسلاك أو اللاأسلاك. وفي يومٍ دقَّ جرس التلفون في بيتي بمدينة أطلانطا، في ربيع عام ٢٠٠٨م، رفعتُ السماعة: ألو، أنتِ نوال السعداوي؟ نعم، من أنتَ؟ أنا محمد السيد سعيد، مجلتنا الجديدة «البديل» مفتوحة لكِ لتكتبي فيها، ما رأيكِ؟ أشكركَ أولًا لأنكَ تذكَّرتني في غيابي، في وقتٍ لا يتذكرني فيه أقرب الأقرباء من الرحم الواحدة وروابط الدم، بل وأصدقاء العمر وصديقاته، لم يُكلِّمني منهم أحدٌ خلال غيابي الطويل. وقال محمد السيد السعيد: رغم غيابكِ فأنت حاضرة بأفكاركِ وكتبكِ في كل مكان، أرسلي إلينا مقالًا كل شهر على الأقل، وسلامي وسلام كل أسرة «البديل» إليكِ ونترقب عودتكِ قريبًا.

حين رأيتُ مقالي الأول منشورًا في مجلة «البديل» أحسستُ كأنما عُدتُ إلى الوطن، أصبحتُ مقروءة بلغة أمي العربية. نُشِرَت كتبي بلغات العالم كله، من إندونيسيا إلى اليابان إلى إريتريا والهند والسند وأوروبا وأمريكا، شمالًا وجنوبًا، لكن الكتابة بلغة الأم لها مذاقٌ خاص، لذَّة، وسعادةٌ خاصة. صوتُه في أذني يقول: نترقبُ عودتكِ قريبًا. تُشجِّعني كلماته الرقيقة على العودة إلى الوطن. وأعود في سبتمبر ٢٠٠٩م لأتلقَّى الخبر الحزين أن «البديل» لم تعُد تصدر، ومحمد السيد السعيد لم يعُد يظهر، حَجبَه المرض ثم الموت، قرأتُ الخبر في الصحف يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩م. أدركَتْني الدهشة، ليس لموته؛ فأصحاب الفكر المبدع لا يموتون، تبقَى من بعدهم أفكارهم ترفع الإنسانية إلى درجةٍ أرقى، لكني دُهشت لهذا السيل من المقالات المنشورة تنعَى موته، فقيد الوطن المفكر الكاتب الكبير، لا يحظى في بلادنا بهذا اللقب الضخم المفكرون الحقيقيون إلا بعد موتهم، وبعضهم لا يحظَون به

أبدًا وإن ماتوا، أو بعد موتهم بأربعة قرون. ربما كان محمد السيد سعيد أكثر حظًّا من غيره من المفكرين الحقيقيين؛ ربما لأنه اشتغل ذات يومٍ في مؤسسة الأهرام العظمى، حيث يتحول فيها أي صحافيٍّ صغير إلى أحد أهرامات مصر. لكن ما جدوى النعي في الصحف الكبيرة؟ وهل يبقى الإنسان لأنهم نعَوه في الأهرام أو في أبو الهول؟ أم لأنه أنتج فكرًا جديدًا قائمًا على الإبداع والحرية والعدل والحب؟

جدَّتي الفلاحة المصرية وفرجينيا وولف الكاتبة البريطانية

في العاشرة من عمري، رأيتُ جدتي، ذات صباح، جالسةً على عتبة دارها في القرية، تتطلع إلى الأفق البعيد، تُوجِّه كلماتٍ غير مفهومة إلى السماء، عيناها متسعتان تكسوهما دمعةٌ تروح وتجيء فيما يشبه الرجفة، أول مرة في حياتي أرى الرجفة في هاتَين العينَين الجسورتَين، لم يرفَّ لهما جفن وإن سقطت السماء على الأرض، وإن هددها العمدة بالحبس أو القتل، أو الملك فاروق أو إمبراطور الإنجليز، أو العفريت الأزرق ظهر لها في الليل. سألتها: بابا مات؟ تصورت أن الكارثة الوحيدة التي ترجفها هي موت أبي، ابنها الوحيد، روح قلبها ونور عينها وكبدها وطحالها، تدعو له بطول العمر، أن يأخذها الله قبل أن يأخذه.

أخيرًا اعترفَت لي بالسر الدفين: أنا قتلت جدك أبو أبوكِ يا بنت ابني، العمدة جاء يقبض عليَّ، اوعي تقولي لأبوك أو أمك.

قتلتيه؟ إزاي؟ ليه؟ إمتى؟ ده جدي مات قبل ما اتولد يا جدتي!

تحكي لي الحكاية وهي غائبة في شرودها نحن السماء: كان راجل ندل زي أبوه، يمشي مع النسوان ويكذب ويسرق وينافق ربنا ويصلي ويصوم، ويحج كل سنة وربنا يمسح ذنوبه، كرهته وقلت يا رب تاخده، لكن ربنا أخد أحسن الرجال، وجدك عايش زي الهم ع القلب، ما يقعد ع المتاود إلا شر البقر يا بنت ابني.

وبعدين يا جدتي؟ ولا بعدين فكرت أرمي نفسي في النيل وأستريح منه، لكن قلت لنفسي، تموتي ليه يا حمارة؟ هو اللي يستاهل الموت، مسكت الفاس وضربته ضربةً واحدة على راسه، راح فيها، بعدما دفنوه سخنتُ صفيحة مية وغسلتُ شعري ولبستُ جلابيتي الجديدة وزغرَدْت.

لم أنم ليلتها بجوار جدتي، خفتُ أن تضربني بالفأس على رأسي. من شدة الخوف حكيتُ لأمي وأبي، ضحكت أمي وقالت إن جدتي صاحبة خيالٍ واسع، وإنها رغم جسارتها وقوتها فهي إنسانةٌ شديدة الرقة ولا تقتل بعوضة. أبي أكد ما قالته أمي، وأضاف: أمي لو تعلَّمَت القراءة والكتابة لأصبحت كاتبةً مبدعة مثل مي زيادة وفرجينيا وولف، هي عاقلةٌ جدًّا ومجنونة جدًّا مثل كل المبدعين والمبدعات.

أصبحتُ أتطلع إلى جدتي بعيونٍ جديدة، أريد أن أتأكد من عقلها أو جنونها، أستدرجها لتحكي لي عن زوجها أو جدي الذي مات قبل أن أُولد، سألتها هل أحبته؟ شوَّحَت بيدَيها الكبيرتَين السمراوَين وصاحت: حبه برص وعشرة خرس! ليه اتجوزتيه يا جدتي؟ جوزوني يا بنت ابني وعمري عشر سنين، جوازتي كانت جنازتي! كان لازم أقتله لأجل أعيش.

لم تكن جدتي نائمة تحلم، كانت صاحية واعية تمامًا، بل أخذَتْني معها إلى العمدة، تطلب منه القبض عليها، لكن الرجل صرفها برقة قائلًا: ده هو اللي قتلك يا حاجة مبروكة؟ صاحت فيه جدتي: ده كان يخاف من خياله ما يقتل نملة.

لم أفهم جدتي إلا بعد تعمُّقي في دراسة الطب النفسي، ومعاشرة النساء القاتلات في سجن السادات. تقتضي القدرة على القتل القدرة على الحنان والرقة في أحيانٍ كثيرة. أحسستُ من قوة شخصية جدتي ورقة قلبها أنها يمكن أن تقتل، امرأة جسورة لا تهاب الموت، تقود أهل القرية ضد العمدة والملك والإنجليز، ربطَت بطنها بالحزام لتُوفِّر لابنها مصاريف التعليم العالي.

لم تكُن جدَّتي تستسلم للقدر، إن كرهَت زوجَها وأرادته ميتًا فلن تنتظر القدر ليُخلِّصها منه. سوف تقتلُه بيدها. هكذا قال أبي، لكن جدَّتك كانت تُحِب جدَّكِ وتخاف عليه من الهوا الطاير، وقالت أمي إن جدتي ضرَبَت شيخ الخفر بالعصا الخيزران حين شتم جدِّي، وصرفَت على جدي من عَرَق جبينها حين رقد مريضًا، أرهقَه المرض ومات موتة ربنا وهي في عز شبابها، جاءها رجالٌ كثيرون يطلبون الزواج منها، رفضتهم كلهم وأقسمَت ألا تتزوج بعد جدي. قالت أمي: لم تشأ أن يلمسها رجل بعد جدِّكِ من شدة حبها له، تمتمَت جدتي بصوت لم يسمعه سواي: من شدة كُرهي له كرهتُ كل الرجال.

أصبحَت الحقيقة مراوغةً شديدة الغموض، مثل روايةٍ أدبية جميلة تستولي علينا فلا ننام الليل. اسأل نفسي: هل صحيحٌ قتلَت جدَّتي زوجها أم إنه مات من المرض؟ لكنه مات شابًّا وكان قوي الجسم كما سمِعْتُ، لا بد أنها قتلَتْه، لكن كيف قتلَتْه؟ خيالي يَسبَح

في السموات السبع، هل لجدتي شخصيتان يعني مزدوجة الشخصية؟ أصبحتُ معلَّقة في الفراغ لا أعرف الحقيقة من الخيال، هل تمنَّت جدتي موت زوجها حتى تخيلَت أنها قتلَته؟ حتى أصبحَت تحلم كل ليلة أنها قتلَتْه، وتحوَّل الخيال إلى حقيقة في عقلها الباطن؟

كنتُ أقرأ فرجينيا وولف، الكاتبة البريطانية، وأشعر أنها كَرِهَت زوجها وأرادت أن تقتله، لكنها لم تملِك الشجاعة فقتلَت نفسها، هل الانتحار أو قتل الذات لا يقتضي شجاعة قتل الآخر؟ هل كانت جدتي أشجع من فرجينيا وولف، فأقدَمَت على قتْل زوجها وليس قتْل نفسها؟

هل جدَّتي قتلَت زوجها في الحقيقة أم في الخيال؟

سؤالٌ لم أعرف الإجابة عليه حتى ماتت جدتي ومعها السر، لم تعترف لأحدٍ غيري، أو هي لم تعترف بالمعنى الصحيح للاعتراف، بل كانت تتذكر الحادث، تُكرِّره وهي تتطلَّع إلى الأفق. تُكلِّم نفسها ولا تُكلِّمني، تندم على جريمتها، تطلب من الله أن يغفر لها. تذهب إلى العمدة وتطلب العقاب، لكن العمدة كان مثل أبي وأمي يُؤكِّد أن جدتي تمزح، أو تخلط الواقع بالخيال نتيجة الشيخوخة، أو أنها أَحبَّت زوجها إلى حد الموت. كانت تموت فيه وهو يموت فيها. هناك علاقة في أذهان الناس بين الحب والموت أو القتل.

أو ربما كانت جدَّتي روائيةً مبدعة، تعيش الخيال كالحقيقة، تستعذب لذة المغامرة، تغلبها رغبة الفضول والاستطلاع، تُحقِّق لها قصة قتل زوجها متعةً كبيرة في الخيال كأنما الحقيقة، تنفصل عن ذاتها القاتلة المتنمرة على القضاء والقدر، إلى ذاتها الأخرى الهادئة المستسلمة للقدَر وإرادة الله. كانت جدَّتي تؤمن بالله وعذاب الآخرة بعقلها الوادع المستكين، وتتمرد عليهما بعقلها الآخر المبدع.

هناك علاقة بين الإبداع والتمرد، بين الإبداع والجنون، لكنه جنون العقل حين يتحوَّل اللاوعي إلى وعي، أو ما يُسمَّى الوعي الأعلى، حين يلتحم العقل الواعي بالعقل الباطن، والحقيقة بالخيال والجسد بالروح بالنفس بالعقل، ويصبح الإنسان كائنًا كليًّا مجنونًا وعاقلًا في آنٍ واحد.

في طفولتي حين كان أبي أو أمي يرفضان خروجي للعب مع أولاد الجيران كنت أحلم بموتهما. وأحيانًا، من شدة الكُره والحب، أخنقهما في النوم بحبل الغسيل، أما حبي الوحيد، الرجل الذي لم أتزوَّجْه، فكان، مثل جدي، يتعرض للقتل كل ليلة وأنا نائمة.

الحركات النسائية عام ٢٠١٠م تطالب بفصل الدين عن الدولة

٨ مارس ٢٠١٠م

في ٦ مارس، خلال المؤتمر النسائي الدولي في جوتنبيرج بالسويد، والمؤتمر الثاني في كوبنهاجن ٨ مارس، بمناسبة يوم المرأة العالمي عام ٢٠١٠م، التقيتُ بعددٍ كبير من نساء الشمال والجنوب والشرق والغرب، ونساءٍ من السعودية والعراق وسوريا والمغرب وإيران وأفغانستان وباكستان وغيرها. أغلبُ الحركات النسائية جاءت لتتضامن معًا من أجل تحرير العالم، من قبضة النظام الرأسمالي العسكري الاستعماري الذي يستخدم الاختلافات الدينية والثقافية والعرقية لتقسيم الشعوب، وتقوية نفوذه الاقتصادي السياسي الإعلامي.

ارتفع وعي الحركات النسائية في العالم رغم الاختلافات. لم تعُد مطالب النساء في التحرر منفصلة عن مطالب الفقراء والأجراء والمهاجرين، من كافة الجنسيات والأديان والعقائد والأعراق والفصائل والعناصر. تم الربط الوثيق بين القهر الجنسي والقهر الطبقي والعنصري والإثني والديني والنوعي.

منذ أكثر من أربعين عامًا، شاركتُ لأول مرة في مؤتمرٍ نسائي دولي في نيويورك. هاجت ضدي الحركات النسائية الأمريكية والأوروبية، حين ربطتُ في كلمتي بين القهر الرأسمالي الاستعماري العالمي وقهر النساء. اتهموني بالشيوعية. في ذلك الوقت كانت كلمة «طبقة» أو «فقر» تعني الشيوعية. أغلبُهن كن من الطبقة العليا أو الوسطى، يناضلن ضد القهر الذكوري (البطريقي أو الأبوي)، أو قهر الرجال للنساء، في انفصال عن أنواع القهر الأخرى.

وفي بلادنا كانت الفِرَق السياسية، خاصةً الشيوعية، تتهمني بالبورجوازية أو الانشغال بقضايا ثانوية (مثل قضية المرأة والجنس والختان) عن القضايا الكبرى الاقتصادية والسياسية، مع أنني، في كل كتاباتي، لم أَفصِل بين قضايا النساء الجنسية والاجتماعية، والقضايا الاقتصادية والسياسية. لكن في ذلك الوقت كانت كلمةُ جنس أو ختان تكفي لتلويث سُمعة من يذكرها، خاصةً إذا ذكَرَتها امرأة.

خلال العقود الأربعة الماضية، تطوَّرَت المفاهيم عن قضية المرأة، سقطَت محرماتٌ كثيرة في الغرب والشرق. تعدَّدتِ المؤتمرات الدولية النسائية التي تُنظِّمها الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات. كان الصراع يدور دائمًا في تلك المؤتمرات بين الحركات النسائية، فيما يُسمُّونه العالم الأول، والحركات النسائية فيما أطلقوا عليه العالم الثالث. كنت أعترض دائمًا على كلمة العالم الثالث. أقول وأكرر في كل مؤتمر: نحن نعيش في عالمٍ واحد، يحكمه نظامٌ واحد طبقي أبوي عنصري استعماري عسكري.

كانت الكتلة اليمينية المسيحية اليهودية تتصاعد قوتها، تحت حكم رونالد ريغان في أمريكا. وفي مصر كان أنور السادات يعمل لفتح الأسواق المصرية للبضائع الأمريكية، وضَرْب الإنتاج المصري المحلي، تحت اسم الانفتاح. يُشجِّع التيارات الإسلامية والمسيحية، لتقسيم الشعب طائفيًّا تحت اسم الديمقراطية. وَقعَت الفتن الطائفية التي استمرَّت حتى اليوم في مصر وبلادٍ أخرى. زادت خطورةً في القرن الواحد والعشرين تحت اسم الديمقراطية والتعدُّدية والحريات الدينية، مع تزايد الفقر والبطالة، خاصة بين النساء والشباب.

تمَّ ضرب الحركات النسائية في العالم كله، مع تصاعُد التيارات الدينية اليمينية في الغرب والشرق على السواء، من جميع الأديان، اليهودية والمسيحية والإسلامية والهندوكية والبوذية وغيرها، وكانت النساء أوَّل الضحايا، لسببٍ رئيسي، هو أن وضع المرأة أدنى من وضع الرجل، في أغلب الأديان والعقائد، رغم اختلاف الدرجة ونوع القهر الذي تتعرض له النساء، خاصة الفقيرات منهن؛ فالقهر الطبقي يُلازِمه القهر الجنسي، منذ نُشوءِ النظام العبودي في التاريخ حتى اليوم.

تمرَّس الاستعمار البريطاني القديم باستخدام الدين لتحقيق أهدافه الاقتصادية. في المؤتمر النسائي الدولي في نيروبي، عام ١٩٨٥م، قالت لي امرأةٌ كينية ريفية: حين دخل الإنجليز بلادنا كنا نملك الأرض وكانوا يملكون الإنجيل، حين خرجوا أصبحنا نملك الإنجيل وهم يملكون الأرض.

هذه هي الخديعة الاستعمارية القديمة والحديثة وما بعد الحديثة. كانت النساء أوَّل من تَعلَّم الدرس لأنهنَّ أوَّل من يعاني الفقر والقهر. أدركتِ النساء، في الجنوب والشمال والشرق والغرب، الترابُط الوثيق بين تصاعُد القوى الدينية الداخلية وتصاعُد القوى الاستعمارية الخارجية. تضامنَتِ النساء لضرب الاستعمار الخارجي والداخلي معًا، السياسي الاقتصادي الديني العنصري في آنٍ واحد، استعمار الأرض والجسد والعقل في آنٍ واحد. يشمل التحرير الثلاثة معًا: الأرض والجسد والعقل.

هذا هو الوعي الجديد الذي اكتسبَته الحركات النسائية العالمية وداخل كل بلد. لا يمكن تحرير نصف المجتمع من النساء، في ظل الاحتلال أو الاستعمار أو الحكم الطبقي أو الأبوي أو الديني.

أَصبحَت حركات تحرير النساء في العالم كلِّه ترفع شعار فصل الدين عن الدولة أو ما يُسمَّى «العلمانية». تعلَّمتِ النساء الدرْس القاسي تحت نِيرِ الحكم اليهودي العنصري في إسرائيل، والحكم المسيحي اليميني في جنوب أفريقيا، وفي جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، ما يُسمَّى اليوم «حزام الإنجيل»، والحكم الإسلامي الاستبدادي في إيران، وحكم الطالبان في أفغانستان، وغيرها من الدول الدينية.

بل في البلاد التي تُسمِّي نفسها ديمقراطية، والتي يحكمها دستور، وقانونٌ مدني، دأبَت هذه البلاد في الغرب والشرق على التضحية بحقوق النساء، من أجل ما سُمي «السلام الاجتماعي»، أو منع الصراعات الدينية والإثنية المتصاعدة مع تصاعُد اليمين في الحكم؛ مما أثار غضب الحركات النسائية، فأصبحَت تُنظِّم نفسها عالميًّا ومحليًّا، من أجل الدفاع عن حقوقها المسلوبة.

في فرنسا مثلًا، لولا التضامُن النسائي مع المقاومة الشعبية، لما كان ممكنًا إصدار القانون عام ٢٠٠٥م الذي يمنع التلاميذ والتلميذات من ارتداء الرموز الدينية جميعًا، سواء أكانت يهودية أو مسيحية أو إسلامية أو هندوكية أو غيرها.

في كندا، نَجحَت الحركات النسائية الكندية، مع تضامُن القوى الشعبية العالمية، في إجهاض المحاولة اليمينية لإدخال تعديلاتٍ دينية في قانون محاكم الأُسرة والأحوال الشخصية.

تعرضَت حقوق النساء لضرباتٍ متتالية في معظم بلاد العالم خلال العقود الثلاثة الماضية، تعاونَت قوى اليمين في الكنيسة الكاثوليكية، مع القوى الرأسمالية المسيحية في أوروبا والأمريكتَين مع التيارات الإسلامية اليمينية في آسيا وأفريقيا، رغم الاختلافات بينهم

تعاونوا معًا، (تحت اسم الهُويَّة الأصلية والخصوصيات الثقافية واحترام العقائد والأديان) لضرب الحركات التحريرية، للنساء والشباب والفقراء والمهاجرين، والتدخُّل في حياة الناس الخاصة والعامة، وفرض الدكتاتورية عليهم والاستبداد والاستغلال، وتمَّ استبدال القانون المدني بالقانون الديني، تحت اسم الله.

في ألمانيا مثلًا (في أبريل، عام ٢٠٠٧م) اعتمدت قاضيةٌ ألمانية يمينية على القانون الديني في حالةِ طلاق، مما شَكَّل مشكلة للقضاء الألماني. في العام نفسه (٢٠٠٧م) في بريطانيا، ثم السماح بتطبيق القانون الديني في بعض المحاكم بدلًا من القانون المدني.

نافقَت بعض الدول، في الغرب والشرق، القوى الدينية اليمينية المتصاعدة سياسيًّا واقتصاديًّا، وتنازلَت عن دورها في حماية حقوق النساء القانونية، تحت اسم الحريات الدينية والتعددية، واحترام الهويات الأصلية، وما سُمي النسبية الثقافية، واحترام الآخر.

بل إن الأمم المتحدة ذاتها شاركَت في هذه اللُّعبة الخطيرة، تحت ضغط القوى المسيحية اليمينية واليهودية والإسلامية؛ فقد أدانت الأمم المتحدة مؤخرًا أي نقدٍ يُوجَّه لأي دينٍ من الأديان، أو لأي نبيٍّ من الأنبياء، أو لأيِّ عرق من الأعراق.

بالطبع، هناك فرقٌ بين النقد العلمي البنَّاء، والشتيمة أو القذف. لولا النقدُ العلمي البناء للكنيسة في أوروبا العصور الوسطى، ما كانت النهضة العلمية، ولا التقدُّم الإنساني الذي نعيشه اليوم.

هذا القرار الأخير من الأمم المتحدة يُعد تراجُعًا عن ميثاقها وعن جميع القوانين والدساتير، في كل بلاد العالم التي تَكْفُل حرية الفكر والتعبير والنقد.

في المؤتمر الدولي النسائي الأخير (٨ مارس ٢٠١٠م) في السويد، طالبَتِ النساء بحق التعبير وحق النقد البنَّاء لأي معتقداتٍ سياسية أو دينية أو غيرها، ورفعَتِ النساء شعار: «فصل الدين عن الدولة قضية النساء»، «الدين علاقة خاصة بين الفرد وربه»، «لا مواطنة دون قانونٍ مدني كامل يحقق العدالة والمساواة، دون تفرقةٍ على أساس الدين أو الجنس أو الجنسية».

عن النقاب والنفاق والسلطة

وقف عددٌ من المبدعين والمبدعات ضد الردَّة الثقافية والفكرية التي اجتاحت بلادنا، خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، وقَفُوا بشجاعة ضد النقاب والختان والاستعمار والفساد، وقضايا الحسبة التي خَرجَت من قبور الماضي، لتضرب حرية الفكر والإبداع الأدبي والعلمي والفني.

أصحاب وصاحبات الشجاعة أقلِّية، يُسانِدون علنًا من يتعرض لبطش المتاجرين بالدين، في سوق السياسة والوطنية والأخلاق. يحظى بالمساندة أكثر مِن غيره مَن تَدعمُه السلطة الحاكمة في مجال الثقافة والإعلام.

كانت حملةً قوية إيجابية تلك التي ساندَت طبْع كتاب ألف ليلة وليلة، فلماذا لا يحظى بمثل هذه الحملة مبدعون ومبدعات غير مدعومين من السلطات الحاكمة؟

كان يوسف إدريس يقول لي: «لا يمكن لكِ يا نوال، أو لأي كاتبٍ مبدع، أن يحظى بلقب كاتبٍ كبير، دون أن تكون له كباري مع السلطة الحاكمة، مؤسسة الأهرام لها سلطة أكبر من الحكومة، نحن نُعارِض الرءوس الكبيرة على صفحات الأهرام، بما فيهم الوزراء ورئيس الوزراء، مُطمئنِّين إلى حماية السلطة. يقول لنا رئيس التحرير: اسحبوا السجَّادة من تحت قدمَي المعارضة. أنا يوسف إدريس أكتب مقالاتٍ بالأهرام تنقُد الحكومة أكثر شجاعة من مقالات المعارضة؛ لأن لي ظهرًا، ومن له ظَهْر لا يُضرب على بطنه.»

أتذكَّر هذه الكلمات اليوم، وأنا أقرأ المقالات الكبيرة المعارضة على صفحات «الأهرام». تتمتَّع مؤسسة الأهرام بقوةٍ مادية وأدبية، تضم الحكوميين والمعارضين في جسمٍ واحد. تتمتَّع بحصانةٍ أكبر من هرم خوفو، تجعلها فوق النقد، فوق القانون.

قرأتُ في جريدة «المصري اليوم» الصادرة في ٢٤ مايو ٢٠١٠م، مقالًا بقلم الأستاذ أحمد المسلماني، يقول فيه: «وباتَ على الأهرام التي تربح أكثر من مليار جنيه سنويًّا أن تُواجِه شركاتٍ أهرامية خاسرة، وإنفاقًا يتراوح بين الخطأ والسفه وديونًا. كتب أحد أعضاء مجلس إدارة الأهرام، يضع ألفَ دليلٍ ودليلٍ على صحة ما تنشره الصحف بشأن فساد الرئيس الأسبق للأهرام، وكانت الصحف تنشُر مع اتهاماتها نصوصًا ووثائقَ للرقابة الإدارية والجهاز المركزي للحسابات، وقِيل وقتها إن ثروة الرجل من الأهرام أكثر من مليار، ووصل أحدهم بالرقم إلى أربعة مليارات جنيه، وبعد كل ذلك وغيره، كسب المسئول الأهرامي الكبير كل المعارك في ساحة القضاء، ثم عاد إلى مبنى الأهرام قبل أيام، كيف للعقل أن يفهم وكيف للضمير أن يستريح؟»

تصوَّرتُ أن هذا المقال وغيره سوف يفعل شيئًا، لكن لا شيء حدث. وكم من رءوسٍ كبيرة كشفتها تحقيقات الفساد دون أن يُصاب أحدهم بسوء! لا يُعاقَب في بلادنا إلا الضعفاءُ الفقراءُ الذين ليس لهم ظَهرٌ في الثروة والسلطة الحاكمة.

كيف نخرجُ من هذا المأزق؟ لم تعُدِ الكتابة أو المعارضة في الصحف تقود إلى التغيير المنشود. تَتمزَّق فرق المعارضة وتسقُط في أي امتحانٍ بسيط. تتعشَّى مع الحكومة واليمين والدينيين، وتُفطِر مع المعارضة واليسار والعلمانيين، تحت اسم التعدُّدية والليبرالية والديمقراطية. تصل المسافة بين الضمير الحي والضمير الميت إلى أربعة مليارات جنيه.

الخروج من المأزق يقتضي تغييرًا جذريًّا في مفهوم المعارضة ذاتها، بما فيها مفهوم الأحزاب السياسية، يسار ويمين ووسط، بهدف تغييرٍ جذري في شخصية الشعب المصري نفسه، تغيير عقلية المتعلمين وغير المتعلمين، تغيير التعليم والثقافة والإعلام. لن يتم ذلك عَبْر الكتابة في الصحف، أو الحوارات السطحية في الفضائيات، أو إعطاء النصائح للآخرين، أو اتهام الآخرين.

على كل واحدةٍ أو واحدٍ منا أن يبدأ بنفسه أو نفسها، من هنا والآن نبدأ، وليس غدًا أو في مكانٍ آخر غير مكاني. علينا إصلاح أنفسنا وبيوتنا وأُسرنا وجيراننا في الشارع الذي نعيش فيه؛ فما أسهل الكلام عن النضال الثوري، بعيدًا عن الأنا والذات، بعيدًا عن الأهل والوطن! ما أسهل أن نتَّهم الآخرين الأجانب بما نقترفه في حياتنا الحميمة من جرائم!

إن الأمانة والوفاء للعهد يبدآن في حياتنا داخل البيت قبل خارجه. المرأة التي تخون العهد مع زوجها، أو الرجل الذي يخون العهد مع زوجته، هل يُخلِصان لقضية العمال والفلاحين أو قضية العراق أو فلسطين؟

الضمير الحي لا يموت في حياتنا الزوجية الخاصة، ثم يصحو في حياتنا الوطنية العامة. ما أَسهلَ تبنِّي قضايا حقوق الإنسان العالمية! وما أَصعبَ تبنِّي قضية الزوج أو الزوجة المسلوبة الحقوق في البيت! وقد جاءت إلى عيادتي النفسية زوجاتٌ يُعانِين القهر والظلم من أزواجهن، وبعض أزواجهن قياداتٌ عالية الصوت دفاعًا عن حقوق الإنسان، بل حقوق المرأة أيضًا.

هذا التناقُض الخطير سمةٌ شائعة بين القيادات السياسية، حكومة ومعارضة، يسارًا ويمينًا. هي نتاج التربية الأبوية الطبقية في البيوت والمدارس، يرضع الطفل والطفلة احتقار المرأة والخادم في الوقت ذاته، يترسَّب في وجدان الأطفال أن اسم الأب هو الشرف واسم الأم عار. تنخر الازدواجية في عصبِ الشخصية المصرية من الولادة حتى الموت.

الخروج من هذا المأزق ليس بالكلام أو الكتابة، بل بالفعل وعمل النموذج في البيت وخارجه، لقيمٍ أخلاقية جديدة لها مكيالٌ واحد لا مكيالان أو أكثر.

الخروج من المأزق يقتضي الصدق وعدم النفاق، أو المراوغة في الكلام. من الواضح أن وجه الإنسان ليس عورة بل شرفٌ وكرامة تدل على الهوية الإنسانية. إنسان لا وجه له يعني لا إنسان. من الواضح أن المرأة إنسان، فكيف نفرض عليها إخفاء وجهها بالنقاب، تحت اسم الدين أو الأخلاق أو الهُويَّة أو حرية الاختيار؟

أي مجتمعٍ إنساني يجب أن يمنع إخفاء وجه الإنسان بالقانون، سواءٌ أكان الإنسان رجلًا أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا، غنيًّا أو فقيرًا، حاكمًا أو محكومًا؟ فما هذه الضجة حول منعِ نقاب المرأة بالقانون، داخل أي بلد في الشرق أو الغرب؟ هؤلاء الذين يقولون إن نقاب المرأة رمزٌ إسلامي مثل مئذنة الجامع يُسيئون إلى الإسلام، ويُراوِغون ويُنافِقون التيارات السياسية الدينية. إن منع النقاب بالقانون واجب على كل دولة في العالم، مثل قانون منع العُرْي. إخفاء الوجه في الأماكن العامة جريمةٌ إنسانية واجتماعية، مثل تعرية الأعضاء الجنسية في الطريق العام. هل يمكن أن تمشي عاريًا في الشارع دون أن يوقفك البوليس؟ التغطية الكاملة، للإنسان مثل التعرية الكاملة، ضد الإنسانية والمجتمع الصحي السليم.

الخروج من المأزق يقتضي منا الشجاعة والصدق والنقد البنَّاء، ومساندة المبدعين والمبدعات، وإن كانوا خارج السلطة. كم عدد الذين تصدَّوا لمساندة مبدعات ومبدعين ليس لهم ظهر في السلطة الحاكمة؟ وكم عدد المساندين لنشر كتاب ألف ليلة وليلة؟ أليس

الفارق ضخمًا؟ هل يدل هذا الفارق الضخم على ضخامة النفاق في بلادنا؟ نحن في حاجة إلى تجميع أسماء كل المبدعين والمبدعات الذين يتعرضون لقضايا الحسبة، وغيرها من أساليب القهر والمنع، من أجل التضامُن معهم، وشَرحِ أعمالهم للناس، وتحليلها ونقدها علميًّا أو أدبيًّا على نحوٍ بنَّاء، فمن يقوم بهذه المهمة؟

شهرزاد جديدة أكثر تحرُّرًا

كم من رجالٍ كتبوا عن شهرزاد، من وحي أحلامهم، في اليقظة والمنام. الأُسطورة المرأة انتصَر ذكاؤها الأنثوي المراوغ على بطش الذكورة الأعمى. عَرَفنا مسرحية توفيق الحكيم «شهرزاد». تَجسَّد فيها خيال المؤلف، أشد ذكورية من المؤلف الأصلي. كثيرون من المبدعين في الشرق والغرب وقعوا تحت سحر شهرزاد، كتبوا عنها بعد أن غزت خيالهم، تصوَّر كلٌّ منهم نفسه الإمبراطور شهريار، الذكر المتعطش للدماء، ارتبطَت اللذة الجنسية في خياله بلذة العنف والقتل. ألَمْ يقتلِ العصفورة في طفولته رغم تغريدها له كل صباح؟ ألم يَصطَدْ اليمامات البريئات بالنبلة؟ ألَمْ يُمزِّق جسد القطة المولودة بالمطواة لمجرد المتعة؟

كثيرون أيضًا كتبوا عن «إزيس» الإلهة المصرية القديمة منهم توفيق الحكيم (١٩٧٦م). لم يعرفوا عنها سوى أنها زوجة أوزوريس. لم يكن لها كيانٌ في عقلهم إلا من خلال زوجها، مع أنها كانت إلهةَ الحكمة والإبداع الفكري، انتَشرَت فلسفتُها في مصر وانتقلَت إلى أوروبا وبقيت حتى القرن السادس ميلادي، رغم حروب الإبادة التي أرادت دفنها في التاريخ. أغلب المبدعات من النساء تم دفنُهن بيد مؤرخي النظام العبودي الطبقي الأبوي، من الإلهات القديمات، نوت وإنانا وإزيس ومعات، إلى الشخصيات النسائية الخلَّاقة في عصرنا الحديث، تم دفنهن جسديًّا وأدبيًّا وفكريًّا، وهُنَّ على قيد الحياة. تمَّت سرقة أفكارهن وأُعطيت للمؤلفين من الرجال التابعين للسلطة الحاكمة. نال الرجل جوائز تحرير المرأة والمجد والشرف، على حين توارت المؤلفة الأصلية عن الأنظار، أو اتُّهمَت بالشذوذ والنشاز، أو تم اختزال شخصية المرأة المفكرة، لتصبح الزوجة الوفية أو الأم المثالية، تلد الذكور ولا تلد الإناث، كل المبدعات في التاريخ الطبقي الأبوي أنجبن الابن، وليس البنت. إزيس ولدت ابنها حورس، السيدة مريم ولدت ابنها المسيح، شهرزاد أنجبت لزوجها شهريار ثلاثة أبناء كلهم ذكور، ليست فيهم بنتُ واحدة. عجز الخيال الذكوري في الماضي

والحاضر عن تصور ابنة للإلهة إزيس، بدلًا من ابنها حورس، أو أن السيدة مريم ولدت بنتًا أطلقت عليها اسم «بنت الله» بدلًا من ابنها المسيح ابن الله، أو أن شهر زاد أنجبت ثلاث بنات بدلًا من ثلاثة ذكور، أكان شهريار يقتلها؟ كم من الرجال كتبوا عن شهرزاد؟ طه حسين نشر كتابه «أحلام شهرزاد» أول إصدارات «اقرأ» بدار المعارف (١٩٤٣م). عبد الرحمن الخميسي كتب عن شهرزاد، وأندريه جيد الفرنسي، وجوته الألماني، وغيرهم كثيرون من أدباء الشرق والغرب. في الأزمنة القديمة والحديثة، تأثروا بحكاياتها المبدعة، استلهموا منها السحر والخيال، لكن أحلامهم الأبوية الطبقية أعجزتهم عن إدراك شخصيتها النسائية الأصلية، بعضهم صورها على نحوٍ أكثر تقدُّمًا من الآخرين. اعتبروها محررة المرأة، انتَصَرَت لبنات جنسها، أَخضعَت الإمبراطور الدموي شهريار لسحر حكاياتها. ألقى سلاحه وركع عند قدمَيها عاشقًا مستسلمًا. استطاعت بالدهاء والمكر أن تنقذ نفسها وغيرها من البنات.

لكن التحرُّر الإنساني الحقيقي يقوم على الصدق والمواجهة، لا على المراوغة والتحايل والمكر. التحرر الإنساني الحقيقي يقوم على مقاومة الطغيان في المجتمع كله، لا ضد الزوج الطاغي فقط، بل ضد النظام الذي يُنتِج هذا العنف الذكوري الدموي في الأُسرة والدولة.

من الليلة التاسعة بعد الألف، تبدأ «شهرزاد طه حسين» حكايتها الجديدة. ينهل طه حسين من أحلامه عنها. رغم تحرُّره العقلي، يظل خياله سجين الوجدان الذكوري، مثل توفيق الحكيم. كانا، مثل غيرهما من المبدعين، نتاج عصرهما الطبقي الأبوي.

كان أبي يحترم أمي، يساعدها في أعمال البيت، لا ينتظر منها أن تخدمه بالنهار، وتسليه بالحكايات في الليل حتى ينام مثل شهريار. في السابعة من عمري اعتبرت الملك شهريار أكثر طفولة مني؛ لأني أنام وحدي دون الحاجة إلى الحكايات السحرية عن الجن والجنيات. أيضًا لم تكن شهرزاد تحظى بتقديري؛ فهي بلا عمل إلا تسلية زوجها، تُلهيه بالحكايات مثل الجواري والإماء، وهو حاكمٌ مستبد، يتمتع بحريةٍ مطلقة لسفك الدماء. تعلمتُ من أبي أن الحرية هي المسئولية وليس الفوضى والاستبداد، لم تكن شهرزاد مَثَلي الأعلى في الحياة. تعلَّمتُ من أمي أن الأنوثة هي الصدق والصراحة وعدم المراوغة أو المكر. لم تُغيِّر شهرزاد من سطوة زوجها الذكورية، فقط امتنع عن قتلها وقتل البنات، وظل مريضًا بالسلطة الأبوية، مُدللًا كالطفل، لا ينام إلا على الحكايات السحرية. أنجبَت له ثلاثة أبناءٍ ذكور لتُشبع ذكورته حتى الثمالة.

أبرز ما يُميِّز شهرزاد هو الدافع الجنسي الأنثوي العبودي، يمنحها المكر والدهاء للسيطرة على الرجل. هنا يكمن الوهم أنها علَّمَت شهريار الإنسانية. الحقيقة أنها علَّمَت

النساء المكر والدهاء والمداهنة، كيف يسيطرن على الرجل بالخداع والمراوغة، لا بالصدق والشجاعة والمواجهة. إنه ذكاء الإماء والعبيد لا ذكاء الأحرار من الرجال والنساء.

تخرج الأفكار في قصص الرجال عن شهرزاد من المنبع ذاته الذي يخرج منه شهريار، وهي العبودية الأبوية الطبقية العنصرية؛ فالخادم العبد أسود اللون، محتقَر منبوذ نجس، يقطع الملك رأسه دون سبب، أو لمجرد الشك، كما يقطع رءوس البنات البريئات بعد اغتصابهن ليلةً واحدة، أو نصف ليلة. كان شهريار ضحية امرأةٍ فاسدة شريرة خانته مع الخادم العبد، لكن جاءت من بعدها شهرزاد المرأة الصالحة المخلصة، فأخذت بيده وأرشدته كالأم الطاهرة إلى الطريق الصحيح. هنا يتضح غباء الغطرسة الذكورية الطفولية؛ فالرجل، وإن كبر وشاخ، يظل طفلًا أو ألعوبة في يد الأنثى الشيطانة أو العذراء الملاك؛ أي إن المرأة هي الفاعلة في مجال الشر ومجال الخير، والرجل هو المفعول به، وإن تقمص دور الفاعل. لم يكن لشهرزاد دور في الحياة خارج بيتها. انحصر دورها في تسلية زوجها، التفنُّن في إغوائه والإمساك به من قرنَيه، وإخضاعه لعقلها وذكائها وحيلها الإبداعية. لم يكن لشهرزاد دور في الحياة العامة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية؛ لهذا السبب اعتبرها الرجال نموذجًا للمرأة الصالحة، نموذجًا للزوجة المخلصة المتفانية في خدمة أهواء زوجها، نموذجًا للأم المثالية التي تلد الذكور وليس الإناث. لم يحكم أحد عليها بالمرض النفسي أو الجنون كما حدث لغيرها من النساء، اللائي شاركن في الحياة العامة والفكر والإبداع، اللائي لم يتزوجن ولم يلدن من مثيلات الكاتبة ميِّ زيادة. أي ثمن باهظ تدفعه المرأة الخلَّاقة المفكرة لتحافظ على إبداعها وعقلها في الماضي والحاضر؟!

سارة بالين وجواري القرن الواحد والعشرين

سمعتهم في أمريكا يقولون إن القرن الواحد والعشرين هو قرن المرأة، فهل هذا صحيح؟ وأيَّ امرأة يقصدون؟ أنجيلا ميركل؟ هيلاري كلينتون؟ سارة بالين؟ هل يكفي أن يكون المرءُ امرأة ليحكم بالعدل والديمقراطية الحقيقية والأخلاق؟ هل هذه القيم الإنسانية العليا صفةٌ بيولوجية تتعلق بالهرمونات؟ أم إنها تربية ضميرٍ عادل نزيه للولد والبنت منذ الطفولة، وسلوك وأخلاق مستقيمة يتعود عليها الإنسان، وفكر مستنير وعقل مبدع يتحدى التخلف، وعمل مخلص نابع من الإيمان بالعدل والحرية واحترام حقوق الغير؟

لماذا تفوَّقَت مارجريت تاتشر على الرجال (رغم كونها امرأة) في ظلمها ودمويتها وقهرها للفقراء والنساء؟ ولماذا نجحَت نساءٌ من نوع أنجيلا ميركل أو سارة بالين في هذه السنين الأخيرة؟

لماذا أصبحَت نساء الأعمال والمذيعات والممثلات في المقدمة؟ وتراجعَت المفكرات وصاحبات الخلق المستقيم والعقل المبدع إلى الوراء؟ لماذا طغت عقلية السوق، والبيع والشراء، والمكسب والخسارة، والأنوثة والخضوع والنفاق، على قيم الصدق والسعي نحو العدل والكرامة؟

أصبح الإعلام الأمريكي يقود العالم. طغت صورة المرأة المزخرفة التاجرة في الإعلام المدعوم بأموال السوق والسلاح. تنتمي سارة بالين للجناح المسيحي اليميني المحافظ في الحزب الجمهوري. تُبالغ في التديُّن والمحافظة على التقاليد، مع المبالغة في الأنوثة والمراوغة وليِّ الحقائق. تلعب في السياسة وموسم الانتخابات بكونها امرأة، إن فشِلَت الأنوثة أمسكَت السلاح بيدٍ والكتاب المقدَّس بيدها الأخرى. تَتهدَّل خصلة شعرها فوق جبينها لتُخفي نصف

عينها اليمنى أو اليسرى، حسب حركات رأسها وهي تُلقي خُطبها. سمعتُها تخطُب في معركتها الانتخابية ضد باراك أوباما ٢٠٠٧م، ألصقَت به تهمة الإسلام، دين أبيه الأفريقي، مع أنه مسيحي على دين أمه الأمريكية، ادَّعَت أنه عربيٌّ إرهابي ضد السامية مع أنه يدعم إسرائيل بالكامل. اتهمَتْه بأنه ضد البيض لأنه أسود اللون مع أنه غير ذلك. سمِعتُها من فوق المنصة تُعبِّئ الشعب الأمريكي للحرب العسكرية ضد الشعوب في القارات الخمس، وكلِّ من يهدد مصالح إسرائيل وأمريكا. تفاخَرَت بأنها تنام في الليل محتضنةً سلاحها تحلُم بالقتل. أصبح للإعلام في أمريكا والعالم الدور الرئيسي في السياسة والانتخابات. يملِك الإعلام أصحاب الأموال والشركات والبنوك والسوق والسلاح. يمكن لأضواء التلفزيون أن تجعل من شخصٍ غائب العقل نجمًا أو نجمةً سياسية تحصد الأصوات في الانتخابات. أصبحت سارة بالين زعيمةً في موسم الانتخابات عام ٢٠٠٧م، اليوم هي تتربع على عرش الإعلام والسياسة الأمريكية. تراجعَتِ الحركات الشعبية والنسائية المناضلة ضد الحروب والفقر والسوق. استطاعت سارة بالين أن تتسرب إلى بيوت الملايين عَبْر الشاشة الصغيرة، أنوثتها التجارية المصنوعة أصبحَت المثل الأعلى لنساء أمريكا وكل البلاد، ومنها بلادنا.

أصبحَتِ المرأة المثالية هي المرأة المتناقضة المزدوجة الشخصية، الأنثى الخاضعة اللينة، والمرأة السياسية الصلبة المتمردة، عينٌ منكسرة ناعسة وعينٌ مفنجلة متحدية، توارت قيم الصدق والصراحة والنزاهة والشهامة والإخلاص في العمل والقول. بَرزَت قيم التسلُّق والانتهازية والنفاق والتديُّن السطحي والمتاجرة بالأخلاق. تم تغييب جمال العقل والروح والشخصية وإبراز الجسد الأنثوي والشفاه المكتنزة. أصبح ذكاء المرأة هو قدرتها على تحقيق طموحها عن طريق الرجال، كلٌّ حسب قدرته، تجعل الحب تجارة من أجل المكاسب؛ المال أو الشهرة أو النجاح. تخلع رداء العقل والجدية والتحدي خارج البيت لترتدي رداء الأنوثة في البيت والمراوغة والخضوع. تُمسِك قلم الحواجب مع قلم الكتابة، يتحوَّل القلم في يدها إلى حربايةٍ تتلوَّن مع حركتها من مكان إلى مكان.

حين أنظر إلى صور نساء السياسة والأعمال (البيزنس) أراها تُشبه صورة سارة بالين، حتى طريقة الكلام وإلقاء الخطب. تختلف اللغة من الإنجليزية إلى العربية، لكن نبرة الصوت تكاد تكون واحدة. تسريحة الشعر، الثوب يكشف عن الركبتَين وجزء من الفخذَين المضمومتَين. القدمان المقوَّستان فوق الكعب العالي المدبب. البحَّة أو الشهقة والابتسامة الأنثوية، ثم الشخطة الذكورية والصرامة. بشرة الوجه المشدودة بمشرط التجميل متوردةٌ ناعمة كأنما لطفلة أو فتاةٍ مراهقة، مع نظرة العينَين الغارقة في الكحل والزمن والتجاعيد.

تكشف العينان العمر الحقيقي للإنسان رغم مشارط الجراحين، رغم استبدال الجفنَين العجوزَين بغيرهما، رغم تركيب الرمشَين الغزيرَين الصناعيَّين. تبدو الواحدة منهن مثل دميةٍ متعددة الألوان، متعددة الأصوات، متعمقة في شئون السياسة والاقتصاد الحر والسوق، وشئون البيت والطبخ وطاعة الله والزوج، قد تلفُّ رأسها بحجابٍ حسب الموضة، أو تُعرِّي أجزاءً من جسدها حسب الموضة أيضًا. تجلس المتغطية بجوار المتعرية، جنبًا إلى جنب في انسجامٍ كامل، ترفعان شعار التعدُّدية والحرية الشخصية. تُصفِّق الجماهير المحتشدة في ساحة الإعلام.

أصبحَتِ الإعلانات التجارية والإعلام السطحي يُشكِّلان الرأي العام، في أمريكا، وبلاد العالم، ومنها بلادنا. لفِظَتِ الحركات النسائية الجادة أنفاسها تحت سطوة اليمين الديني المتصاعد. ماتت النخب النسائية المناضلة ضد النظام الرأسمالي الأبوي، توارت في بيوتها بسبب الشيخوخة أو الاكتئاب أو المطاردات، تمَّ إفساح الساحة للجواري من النساء المحجَّبات أو المتعرِّيات، وأقرانهن من رجال الأعمال والسياسة، أصبحت السياسة بيزنس. يعمل الوزراء والوزيرات بالبيزنس، يحدُث التزاوُج بين السلطة والثروة، تتركَّز الأموال في يد القلة من أصحاب المناصب، في الدولة والقطاع الخاص. تتسع الهوة بين الفقراء والأغنياء. تشتد النعرات الدينية الداعية إلى الزهد والعفة. يطغى الفساد حتى يعُم الحياة العامة والخاصة.

أليس هذا هو حال بلادنا والعالم في هذا القرن الواحد والعشرين؟ يقولون عنه قرن النساء، لكن أي نوع من النساء؟ ألم تُصبِح صورة المرأة الجارية (مُتعرِّية أو مُتحجِّبة) هي الصورة السائدة؟ ألم تعكس المسلسلات التلفزيونية في مصر خلال شهر رمضان، أغسطس ٢٠١٠م، هذه الحال البائسة؟ الإعلام المرئي والمسموع هو مرآةٌ عاكسة للواقع الفاسد، في ظروف الردَّة التي نعيشها يتدهور الإعلام والفنون الدرامية مع تدهور السياسة والاقتصاد والثقافة والأخلاق، تعكس النساء هذا التدهور أكثر من الرجال، بحكم وضعهن الأدنى. تمارس القوى الصاعدة السياسية الدينية قهرها للنساء قبل الرجال. يظهر القهر على جسد المرأة، يفرض عليها التغطية طاعة لله، أو يفرض عليها التعرية طاعة لأوامر السوق الحرة وزيادة توزيع البضائع.

يلعب الإعلام في بلادنا اليوم دورًا رئيسيًّا في تغييب العقل أو تزييف الوعي، في مضاعفة الأرباح لرجال ونساء الأعمال الشاغلين للمناصب العليا في الدولة، المتحكمين أو المالكين لقرارات السياسة والتجارة والسوق والأحزاب والانتخابات والقوانين والشرائع والدستور،

أصحاب السلطة والثروة القادرين على رفع شعار التغيير لصالح أعمالهم وأرباحهم، المالكين للقنوات الإعلامية الأرضية والفضائية، المسيطرين على الدراما والفنون، على المنتجين والمخرجين والممثلين والممثلات. يكسبون الملايين من الإعلام والقنوات التلفزيونية. تدخُل جيوبَهم أرباحُ الإعلانات التي يدفعها الشعب الفقير المغيَّب الوعي، الجالس أمام الشاشة فاتحًا فمه، متأملًا أجساد النساء العارية، حالمًا بالجنة والحوريات بعد الموت. يتجاوب مع قيم الاستهلاك والفساد، يُصاب بالانفصام في الشخصية. يفرض على زوجته الحجاب وخضوع الجواري، ويذهب إلى صندوق الانتخاب ليكتب اسم سارة بالين المتعرية، أو شبيهتها المذيعة نجمة التلفزيون والمرشَّحة في الانتخابات المصرية.

مدينة أثينا - ولاية أوهايو

٢٤ يونيو ٢٠٠٧م

رأيتُ صورتها فوق شاشة الإنترنت، صورة بدور، الوجه المضيء بالأمل في المستقبل، يُشبِه وجهي حين كنتُ طفلة في عمرها، منذ ستين عامًا وأكثر، حين أمسكَتْني أربع نساءٍ من الفتوَّات، ذوات الأصابع الحديدية، قبضن على ذراعي وساقي، كتَّفْنَني مثل الدجاجة قبل الذبح، ثم قَطعنَ بالموسى الصدئة العضو الآثم الملعون، المخلوق بالطبيعة بين فخذيَّ.

كانت أمي واقفةً وراءهن ترمُقني بابتسامةٍ مريرة، تعرف أنهن يبتُرن من جسدي ما بَتَرْنه من جسدها وهي طفلة. تعرف أنها لم تعرف في حياتها معنى السعادة، أو اللذة الجسمية، أنها تزوَّجَت وأنجبَت تسعة من البنات والأولاد، دون أن ترتعش فيها خليةٌ واحدة باللذة، التي كانت تغمر زوجها وتجعله ينتفض بالنشوة. وكانت تحسُده، وفي أعماقها تلعن أمها وأباها وجميع أفراد العائلتَين الكبيرتَين في الريف والمدينة، الذين تعاونوا معًا من أجل حرمانها من السعادة.

ويقول لها الرجال ممن يخطبون في الراديو والمساجد، وأطباءُ وطبيباتٌ من أتباع الخطباء، وضعوا الحجاب على عقولهم: «إن السعادة لا علاقة لها بذلك العضو الآثم الملعون، بل السعادة التخلُّص منه، والتفرُّغ لخدمة الزوج والأطفال، والصوم والصلاة وزيارة قبر الرسول قبل الموت.»

وماتت أمي في ربيع شبابها. قبل أن تموت قالت لي: «اغفري لي يا ابنتي، لقد فعلتُ بك ما فعلوه بي دون أن أدري، عشتُ حياتي داخل الخوف والجهل، وأموت اليوم بالخوف والجهل.»

كلماتُ أمي كانت كالضوء، نزعَت الغشاوة عني، لم أعُد أصب اللعنات على أمي، ولا أبي ولا الخطباء في المساجد، ولا الأطباء أو الطبيبات. حوَّلْتُ الغضب في أعماقي إلى طاقةٍ جديدة للكتابة، لكشف ريف الخطباء والأطباء، وتخلُّف الموروثات. أصدرتُ كتابًا يفضح عمليات الختان، يكشف جرائمها ضد البنات، ومضارَّها للجسد والنفس، ومخاطرها للفرد والمجتمع.

كان ذلك في منتصف القرن الماضي. وما إن صدر الكتاب حتى انتشر رجال البوليس في الشوارع يجمعونه، قالوا عنه كتابٌ من وحي الشيطان. قالوا إن غُدَّة الشيطان تُفرِز هذه الأفكار المعادية للدين والأخلاق. وكان وزير الصحة، مثل غيره من الأطباء، يعيش الجهل والخوف، فأصدر قرارًا بإعدام الكتاب، وعقاب المؤلِّفة بالفصل من عملها، وتشويه صورتها في الصحف والإعلام، باعتبارها خارجةً عن تعاليم الطب السليم والدين الحنيف.

إلا أن عمري امتد وطال طويلًا، لأعيش وأقرأ أن وزير الصحة يُصدِر قرارًا يُحرِّم ختان البنات، بسبب أضراره الخطيرة على صحة الجسم والنفس والمجتمع. بل أغربُ ما أشهَد في حياتي أن يعلن مفتي الديار في مصر أن ختان البنات حرام، أن الله حرَّمه تحريمًا كبيرًا. لم يكن الحبر قد جَفَّ بعدُ عن فتاوى رجال الدين الأحياء والأموات، وأصواتهم الزاعقة في الأبواق ومُكبِّرات الصوت: «إن تَرْك هذا العضو الآثم في أجساد النساء إثمٌ وضلالٌ وتشجيعٌ على الفسق والانحلال.»

أكان يجب أن تموتي يا بدور حتى يتسرب بعض الضوء إلى العقول المظلمة؟ أكان يجب أن تدفعي حياتك الغالية ثمنًا حتى يتعلم الأطباء شيئًا بديهيًّا؟ أكان يجب أن تنزفي آخر قطرة من دمك الطاهر الطفولي حتى يتعلَّم رجال الدين أن الدين الصحيح لا يقطع أعضاء الأطفال بالموسى، حفاظًا على العفة والأخلاق؟ أن يعرفوا أن الأخلاق سلوك في الحياة اليومية يتدرب عليه الإنسان منذ الطفولة، وليس مشرطًا يقطع أعضاءه؟

وكم من طفلةٍ وطفلٍ نزفًا على يد حلَّاقي الصحة والدايات في الريف، وعلى يد الأطباء والطبيبات في المدن؟ إلا أن موت الأطفال الذكور والبنات يندثر في العدم، ولا يصل إلى الإعلام كما وصلَت حالة بدور وكشفَها الناس. وهل تنتظرون أيها السادة موت طفلٍ ذكر في عملية ختان حتى تُحرِّموا ختان الذكور؟

منذ سنينَ كثيرة أرسلتُ إلى وزير الصحة رسالةً طويلة، ورسالةً إلى نقابة الأطباء وإلى أصحاب العقول والضمائر في بلادنا، أوضحتُ فيها مخاطر ختان الذكور، جسديًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا. نشَرت بعض الصحف رسالتي، وصدر لي كتابٌ منذ سنوات يشمل فصلًا عن

هذا الموضوع، وصدرَت لي ولغيري كتبٌ أخرى تفضح مضارَّ تقطيع أجزاءٍ من جسم الطفل الذكر أو الأنثى، تحت دعاوى دينيةٍ جاهلة أو تبريراتٍ طبية أكثر جهلًا، وقد تمَّ تحريم وتجريم عمليات الختان للبنات بعد موتِ بدور، إلا أن الأمواس والمشارط ما زالت تُقطِّع في أجساد الأطفال الذكور في القرى والمدن في ظل حماية القانون.

وقد ارتفعَت أصواتُ بعض الأطباء ورجال الدين تتهمني بالكفر، بعد أن نشرتُ مقالاتي، وطَلَبتُ منع ختان الذكور، بمثل ما اتُّهِمتُ بالكفر ومعاداة الإسلام منذ أكثر من نصف قرن، حين طالبتُ بمنع ختان البنات، مع أن ختان الذكور أو الإناث لم يَرِد في القرآن، ولم يَرِد في الإنجيل أيضًا. هناك فقط آيةٌ في التوراة تُوجِب ختان الذكور على بني إسرائيل، لماذا؟ مقابل الأرض الموعودة (أرض كنعان أو أرض فلسطين) التي منحها الله لهم، مقابل بتر غُرلة الذكر بالموسى؛ هذا هو العهد القديم بين بني إسرائيل وبين ربهم في السموات العليا. أيُّ عهدٍ دموي؟! أيُّ ربٍّ متعطش لإراقة الدماء البريئة؟!

واليوم لم يعُد أحدٌ عاقل في العالم يُقدِم على ختان أطفاله البنات أو الأولاد. حتى بنو إسرائيل كَفُّوا عن إجراء هذه الجراحات الضارة لأطفالهم. إنهم يخالفون النص في التوراة حرصًا على صحة أولادهم وبناتهم؛ لأن المصلحة تتغلَّب على النص. وعندنا مدرسةٌ عريقة في الإسلام تقول: «إذا تعارض النص مع المصلحة غُلِّبتِ المصلحة على النص لأن المصلحة متغيرة والنص ثابت.»

أخذ بنو إسرائيل هذه الفكرة اللامعة عن الطوفي الحنبلي، أحد أسلافنا المستنيرين، أما نحن فلا نأخذ إلا الأفكار المتخلفة من أسلافنا الرجعيين، في العصور المظلمة، وأحدهم توفَّاه الله منذ سنينَ غير كثيرة، هذا الشيخ الذي قال إن قطع بظور النساء واجبٌ ديني. لماذا يا فضيلة الشيخ؟ أجاب في الصحف والإعلام: لأن بظر المرأة إن لم يُقطَع يَحتكُّ بظهر الدابة حين تركبها المرأة فتُثار جنسيًّا.

من تُثار جنسيًّا يا سيادة الشيخ، الدابة المركوبة أم المرأة الراكبة؟ ردَّ الشيخ: المرأة طبعًا. أذكر أنني كتبتُ مقالًا بمجلة «المصور» أردُّ على هذا الكلام الخارج عن العقل، وقلت: يحتكُّ عضو الرجل أيضًا بظهر الدابة فهل نقطع أعضاء الذكور بمثل ما نقطع بظور النساء، منعًا للإثارة الجنسية؟ وقلتُ أيضًا إن ركوب الدواب قد انقرض بعد اكتشاف العجلة والسيارة والطيارة. وقلتُ أيضًا إن الإثارة الجنسية في الإنسان مصدرها العقل في الرأس أساسًا، وليس احتكاك العضو بين الفخذَين بظهر أي شيء. وقلتُ الكثير في ردِّي على فضيلة الشيخ الذي اتهمني بالكفر، وأنني أعمل مع الشيطان، أما هو فضيلته فيعمل

مع الله. وتساءل الكثيرون كيف يعمل مع الله، كيف يتصل بالله؟ بالتلفون أم الفاكس أم الإيميل؟

من هذه المسافة البعيدة يا بدور، من وراء البحار والمحيط الأطلنطي، أقول لك: أجل كان يمكنك، لو لم تتعرضي لعملية الختان، أن تصبحي كاتبةً عظيمة أو موسيقيةً مبدعة أو عالمة ذرة أو فضاء، أو باحثة عن علاج للأمراض المستعصية في بلادنا، أو أي عملٍ آخر تختارين، لكنهم يا بدور أمسكوكِ وكتَّفوك كالدجاجة، وذبحوكِ بالموسى أو المشرط، قدَّموكِ قربانًا لخزعبلاتهم، وجهلهم وخوفهم ورعبهم من ذلك العضو الصغير في جسدك، الذي يُهدِّد عروشهم الذكورية الواهية، وأفكارهم المريضة التي يُسربلونها تحت سحابات الدخان والمباخر، وقداسة التلاوات والتمتمات والبربشات.

وأطلب من أُسرة بدور أن يجعلوا من دم ابنتهم المراق شعلة تضيء العقول، ألا يركنوا إلى الصمت والنسيان، تحت إغراء أو تهديد، أن يرفعوا أصواتهم عاليةً إلى السماء، ألَّا يركنوا إلى النوم أو الراحة، حتى تكون قضية بدور هي القضية، ليست أقل من قضية تحرير الأرض والوطن؛ لأن وطنًا بلا عقل يندثر في التاريخ، وأي أرضٍ بلا إنسانية أو ضمير، تذهب وتضيع.

نصف رجل وأمي الأبية

الكرامة والإباء والشمَم، تعلَّمتُها كلها من أمي. كانت مرفوعة الرأس، عزيزة النفس، رافضة الظلم دون مساومات، دون تنازلات. رأت في منامها ذات ليلةٍ زوجها (أبي) في الفراش مع امرأةٍ أخرى. قبل شروق الصبح جمعت ملابسها في حقيبة وقالت لأبي: أشتغل غسالة في البيوت ولا أقبل الخيانة! أنا أعطيك كل نفسي ولا أقبل منك نصف نفسك، لا أقبل نصف رجل!

كنت طفلة في التاسعة، لأول مرة أسمع كلمة «نصف رجل». لم أُدرك معنى الكلمة تمامًا، لم أتخيل جسد أبي مشطورًا نصفَين بالطول أو بالعرض، سمعت أبي يقول لأمي: يا زينب أنا غير مسئول عن أحلامك، أقسم بالله العظيم أنكِ المرأة الوحيدة في حياتي، لا يمكن أن أكذب عليك، فكيف أخونك مع امرأةٍ أخرى؟

ورأيتُ أبي يبتسم في سعادة: الغيرة دليل الحب يا زينب. ردت أمي: ليست الغيرة يا سيد بل الكرامة وعدم قبول الخيانة.

كان ذلك في عام ١٩٤٠م، ولم يكن لأمي مأوى إلا بيت زوجها، إلا أن كرامتها والصدق والإخلاص كانت أكبر عندها من المأوى والخبز. لم تكن أمي تغطي رأسها بحجاب أو تمارس الطقوس الدينية، كان الله عندها هو الكرامة والعدل والحرية والمسئولية. كانت تؤمن أن الصدق والإخلاص الزوجي أهم من الصوم والصلاة. كان أبوها (جدي) يخون أمها (جدتي) ويكذب عليها كل يوم، ثم يصلي ويصوم رمضان ويسافر إلى مكة ليمسح ذنوبه.

في خلايا عقلي وجسدي رسخَت مبادئ أمي على مدى سبعين عامًا، لا يمكن اقتلاعها بأي قوة، فوق الأرض أو تحتها. أصبحتُ قادرة، من أجل الصدق وكرامتي، على التضحية بكل شيء في الدنيا والآخرة، بالحب والجنس والزواج والطب والأدب وجوائز الدولة والبوكر

ونوبل. أصبحتُ مثل أمي، لا يمكن أن أقبل نصف رجل (وخائن أيضًا) وإن كان بيل كلينتون أو باراك أوباما، أو العلامة أينشتاين، أو سيدنا يوسف عليه السلام الذي قطعَت النسوة، عند رؤيته، أيديهن بالسكاكين. هيلاري كلينتون رضِيَت بزوجها الخائن طمعًا في السلطة والمال. سيمون دو بوفوار رضِيَت بخيانات بول سارتر المتكررة لأنها كانت أسيرة شهرته الواسعة، داخل فرنسا وخارجها، وكانت تعالج غضبها منه بعلاقاتها المتعددة بالرجال؛ العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم، اكتشفَت بالصدفة ذات يوم أن زوجها يذهب إلى فراش امرأةٍ أخرى، يكذب عليها ويقول إنه ذاهب إلى اجتماعٍ سياسي في الحزب، لو كانت أمي هي زوجته، ماذا تقول له؟ أمي التي رفضَت نصف رجلٍ، في منامها، وليس على أرض الواضح والحقيقة، أمي التي لم تملك المأوى والخبز؟ فما بال ابنتها؟ طبيبة وكاتبة حرة مستقلة اقتصاديًّا ونفسيًّا، حفَرَت في الصخر وأدمت قدمَيها ويدَيها ونزفت الدم، لتحافظ على كرامتها وصدق كلمتها؟

قلتُ له بهدوء: هل تقبل نصف امرأة؟ أنا أيضًا مثلك لا أقبل نصف رجل!

قالت صديقة: تفارقين زوجك في نهاية العمر بعد خمس وأربعين سنة من زواجكما؟ قلت: كرامة الإنسان لا عمر لها.

وقالت صديقة: أهي الغيرة على زوجك؟ قلت: ليست الغيرة يا صديقتي، بل عدم قبول الكذب والخداع. كيف أنادي بالصدق في كتاباتي لأكثر من نصف قرن، ثم أقبل الكذب في حياتي الخاصة؟ هناك كاتبات وزعيمات يضربهن أزواجهن، لا يتردد زوج الواحدة منهن في خيانتها سرًّا أو علنًا، مع ذلك تبقى الواحدة منهن مع زوجها، خوفًا من الطلاق وكلام الناس؛ هذه الازدواجية سائدة في مجتمعنا. ما أسهلَ الكتابةَ عن الصدق في الصحف والكتب، ثم الكذب في الحياة والواقع! أنا يا صديقتي أكتب ما أعيش وأعيش ما أكتب. ثمن الصدق والحرية باهظٌ لكن ثمن العبودية والكذب أشد، فلماذا لا ندفع ونتحرر يا صديقتي؟

وقالت صديقة: لقد ناضلتِ طولَ حياتكِ من أجل الحرية، فلماذا تضنين على زوجك بالحرية؟ قلتُ: الحرية والمسئولية لا تنفصلان، الحرية لا تعني الكذب والخيانة والطعن في الظهر.

قالت صديقة: كل الرجال خائنون، هذه طبيعة الرجل، الخيانة، طبيعة المرأة الإخلاص لرجلٍ واحد.

قلتُ: الطبيعة البشرية (امرأة أو رجلًا) ليست درعًا حديدية ثابتة، تتغير الطبيعة بتغير الزمان والمكان، والتربية منذ الطفولة، إذا تربى الإنسان على الكرامة والصدق أصبح

صادقًا يعتز بكرامته. الإخلاص الزوجي أو الخيانة ليسا مسألة هرمونات، بل هما نظامٌ سياسي اجتماعي تعليمي ثقافي، يغرس في نفوس الأطفال الازدواجيات الأخلاقية. يتعلم الولد منذ الطفولة أن الرجولة تعني غزو النساء وخداعهن. تتعلم البنت أن الأنوثة طاعةٌ وخضوع واستسلام للظلم أو القدر أو أمر الله.

يفخر الرجل بأنه الدون جوان، أو زير النساء. لا يدين المجتمع أو القانون الفوضى الأخلاقية، بل يُشجِّعها تحت اسم الرجولة. يتباهى الرجال، خاصة الفنانين، بمغامراتهم النسائية. لنراجع ما كتبه أغلبهم في مذكِّراتهم داخل البلاد وخارجها، غزو السمراوات من أهل البلد عشقًا في الوطن، وغزو الشقراوات في أوروبا وأمريكا انتصارًا على الأعداء. في جريدة «المصري اليوم» قرأنا تحقيقًا كبيرًا عن حياة الفنان الراحل نجيب الريحاني، قالوا عنه: الأسطورة العظيمة، عملاق الكوميديا المصرية، عاش مخلصًا للفن وعاشقًا للنساء. وقالت ابنته جينا: والدي خُلق للحب، وكان يقع فيه كلما التقى امرأةً جميلة، فتركَته أمي، كان نجيب الريحاني متزوجًا من بديعة مصابني، يمارس غزواته خارج الزواج، جعل حياته مع ابنته جينا وأمها في الخفاء. حزنَت أمها وبكت كثيرًا، ثم تركَتْه وعادت إلى فرنسا. نُشر هذا الكلام في الإعلام، على سبيل الفخر وتكريم نجيب الريحاني. لو أن امرأةً فنانة مصرية فعلَت ما فعله الريحاني في حياتها الخاصة ونشرته على الناس، ماذا يقولون عنها؟ عاهرة، مومس؟ هل يُمجِّدونها مثل الريحاني ويمنحونها لقب عملاقة الفن والأسطورة العظيمة؟

أما المرأة في بلادنا فهي تُدان إن رفضَت الحياة مع زوجٍ خائن مخادع. عليها أن تقبل فساد الرجل بصبر وحب، فما بال نصف الرجل، أو ربعه (في حالة زواج الرجل بأربع نساء)؟ قد يتزوج رجلٌ عجوز في التسعين من طفلة أو فتاةٍ قاصر في الخامسة عشرة. انتشرت في السنين الأخيرة جرائم الزواج الموسمي من الأطفال والقاصرات، دون عقاب للرجال الكبار، فهل نُسمي هذا زواجًا أم بغاءً مُقنَّعًا؟ أصبح الفساد الأخلاقي يعم البلاد. لا يتردَّد الشاب العاطل عن اصطياد امرأةٍ ثرية في التسعين، يخدعها بالحب من أجل المال، والشابة الفقيرة تصطاد عجوزًا ثريًّا، تخدعه بالحب أيضًا من أجل المال. تفجَّرَت مشاكل الفقر والعنوسة والبطالة. أصبحَت الحاجة مُلحَّة لإصدار قانونٍ جديد يقضي على الازدواجية والتناقُضات الأخلاقية، داخل الأُسرة وخارجها.

حَيْرة امرأة بين الجنس والفقر

حين صدر كتابي الأول في مصر عن قضايا النساء، منذ نصف قرن تقريبًا، قلتُ: القهر الاقتصادي والقهر الجنسي متلازمان في حياة النساء، من مختلف الطبقات. واشتمل الكتاب على نقد النظام الطبقي الأبوي الرأسمالي والإقطاعي، وربْط مشاكل المرأة الجنسية (الختان، العذرية، المفهوم الخاطئ للشرف، البغاء المقنَّع في الزواج، إلخ) بمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية (الفقر، الأمية، حرمانها من العمل بأجر، تمييز الولد عن البنت، إلخ).

بالطبع تمَّت مصادرة الكتاب بقرارٍ حكومي، وتمَّ جمعه من المكتبات العامة بتهمة الشيوعية وإحداث بلبلةٍ وتحريض على الفتنة، وتهديد الاستقرار والسعي لقلب النظام.

في المجتمع والإعلام المصري تنوَّع الهجوم ضدي، حسب التيارات السياسية والدينية المتصارعة، في منتصف القرن الماضي العشرين. اتهمَني اليمين الإسلامي والقبطي معًا بـ «الخروج عن دائرة الدين والتقاليد والأخلاق». اتهمَني اليسار الشيوعي والاشتراكي بتقليد الغرب والاهتمام بالجنس وليس بهموم الطبقات الكادحة من الفلاحات والفقيرات المعدمات.

كنت شابَّةً في ربيع العمر، لا أعرف بحور السياسة العويصة. أتعرَّض كل يوم للخداع السياسي وغير السياسي، شابَّةً ساذجة تؤمن أن الإنسان بريء وصادق، حتى يثبُت العكس؛ لهذا كانت هذه الاتهامات تُؤرِّقُني. لم أكن أريد الانتماء إلى أي شلة من هذه الشِّلَل السياسية أو الأدبية. يمين أو يسار أو إخوان أو معارضة أو حكومة. كلهم كانوا يتشابهون في النزعة للسيطرة والخداع، يتشدَّقون بالحرية والعدالة والصدق والإخلاص، حتى أَشهدَهم في الحياة الواقعية فإذا بالقول يناقض الفعل، خاصة فيما يتعلق بعلاقة المرأة والرجل، أو علاقة

الزوج بزوجته. يتشدَّقون بالدفاع عن الطبقات الفقيرة أو النساء المقهورات. مجرد كلام لا يكلفهم شيئًا. يكتبون عن حق المرأة في الحرية والاستقلال. يتنافسون على إقامة علاقات مع المرأة المستقلة الحرة بشرط ألا تصبح زوجة لأحدهم.

بالطبع تعلَّمتُ من تجاربي في الحياة أكثر مما تعلَّمتُ من الكتب. لم أقتنع أبدًا بالازدواجية السائدة؛ أن يكون للإنسان وجهان متناقضان. أن تكون له حياةٌ علنية وأخرى خفيةٌ نقيضة لها. ربما كان ذلك بسبب تربية أمي وأبي. نشأت على الثقة بنفسي وعقلي، والصدق في القول والإخلاص في العمل، كلمتي شرف لا أخونها، وإن كانت شفهية لم تُدوَّن في عقدٍ مكتوب وشهود. هذه القيم التي تُغرس في الطفولة وتنمو وتنمو لتصبح شجرةً عملاقة من الصعب اقتلاعها.

منذ طفولتي رأيتُ القهر المزدوج الواقع على النساء الفقيرات الريفيات من أُسرتي، قهر الفقر وقهر الجنس، الزوج أو أحد رجال الأُسرة. أنا نفسي تعرضت لهذا القهر المزدوج في البيت والشارع والمدرسة، رغم ارتفاع وعي أبي وأمي عن الآخرين، إلا أنني تمرَّدتُ عليهما حين حاولا تقييد حريتي وانطلاقي إلى آفاقٍ أوسع. كان عقلي يكسر الحدود المفروضة والمقدسات الموروثة. بالطبع دفعتُ ثمنًا باهظًا، من حياتي العامة والخاصة، مقابل حرية عقلي، لكني لم أندم أبدًا على الطريق الذي اخترتُه في حياتي. ليس مفروشًا بالورود، فيه الكثير من الأشواك. الألم والمعاناة والحرمان من أساسيات الراحة والأمان، لكن سعادتي الفكرية والأدبية الإبداعية تغلَّبَت على مكاسبَ أخرى أقلَّ قيمةً في نظري، مثل الحصول على المال أو السلطة أو المناصب أو الجوائز، وغيرها مما يغري الكثيرين.

عشتُ العصر الملكي، والاستعمار البريطاني، في الطفولة والمراهقة، ثم عشتُ في شبابي عصر عبد الناصر، ثم عصر السادات، ثم عصر مبارك حتى اليوم من عام ٢٠١٠م، أربعة عهودٍ مختلفة عشتُها، وتمرَّدتُ عليها، دون أن أُدرك ما يُسمُّونها الكهولة أو الشيخوخة، وما هي الشيخوخة إلا فقدان الأمل في التغيير والتوقف عن التمرد أو الثورة في وجه الظلم والكذب والقيود!

لم تُقنِعني حكومةٌ مصرية واحدة بإخلاصها لما يُسمُّونه الشعب. لكل عهدٍ فضائحه ومفاسده التي تُكتشف بعد زواله، قد نكتشف بعضها قبل هذا الزوال. ليس إلا قمة جبل الثلج فوق الماء؛ لهذا عشتُ دائمًا في مشاكلَ عامة وخاصة، تعرَّضتُ لما يتعرض له الثائرون والثائرات في كل مكان وزمان، رغم اختلاف الحكومات، شرقًا وغربًا.

هناك لحظاتُ ضعفٍ تمر بنا، حين تشتد الأزمة والقهر من حولنا، حين يتخلى عنا الجميع، خوفًا من بطش السلطة، حتى أقرب الأقرباء، وأخلص الأصدقاء، قد يقفز بعيدًا في قارب نجاة. نواجه مصيرنا وحدنا، في منفًى أو سجن أو قَبْو، في هذا الوقت العصيب قد تمر بنا لحظة تردُّد. نسأل أنفسنا: هل نواصل الطريق أم نتراجع ونمشي مع القطيع؟

مررتُ بهذه اللحظات من حين إلى حين، لكنها لحظاتٌ مارقة، تمر بسرعة البرق، تعقبها بارقة أملٍ جديد، نجمة تبرق أمامي فجأة من حيث لا أدري، ربما هي الطفلة في أعماقي المتمردة أبدًا لا تموت، وإن قتلوها لحظة تصحو من جديد. كيف؟ يأتيني صوتها الطفولي العنيد من أعماقي العميقة يهتف: نوال يا نوال، انهضي انهضي، لكل جوادٍ كبوة. يُشبه صوت أبي أو أمي، ينتشلني الصوت من الغرق كقارب نجاة، يدان كبيرتان تنتشلان الطفلة من الغرق في البحر.

منذ أيامٍ قليلة جاءَتْني كاتبةٌ شابة، في التاسعة والعشرين من عمرها، تخرجَت في كلية الطب، ترتدي الحجاب، تعرَّضَت للهجوم العنيف بعد أن كتبَت مقالًا عن التحرير الجنسي للمرأة. قالت في مقالها إن تحرير الجسد يتبع تحرير العقل؛ لأن الفصل بين الجسد والعقل مستحيل. وشَرحَت مخاطر القيود الجسدية على صحة النساء الجنسية والنفسية، ربطَت بين الختان الجسدي والختان العقلي.

أصبحَتِ الفتاة مُؤرَّقة من شدة الهجوم عليها، اتهموها أنها من عملاء الصهيونية، أو جاسوسةٌ أمريكية. قالوا عنها فاجرةٌ داعرةٌ تُشجِّع النساء على الفساد الأخلاقي، لا تؤمن بالعذرية والفضيلة، خارجة عن دائرة الأخلاق والدين والوطنية. بعضهم كان أكثر تأدُّبًا قال لها: كيف تكتبين عن الحرية الجنسية للمرأة ونصف الشعب المصري يعيش تحت خط الفقر، وملايين النساء تسعى وراء لقمة العيش بالعَرَق والدم؟

بعد الأَرَق والمعاناة الطويلة، ارتدَت الفتاة الحجاب ثم نشرت مقالًا جديدًا عن مشكلة الفقر بين النساء المصريات. نالت المدح ممن هاجموها من قبلُ، خاصةً بعد ظهور صورتها بالحجاب مع المقال. أتبعَتْه بمقالٍ آخر عن مشكلة «تأنيث الفقر» في مصر والعالم، بمعنى أن الفقر أصبح يصيب النساء أكثر من الرجال. أصبح أغلب الفقراء نساءً، وأصبحت أغلبية النساء فقيرات. نالها مديحٌ كثير ممن كانوا يهاجمونها، واستمرت تكتب عن مشاكل الفقر، ونسِيَت مقالها الأول عن مشاكل الجنس.

سألتُها: هل أنت مستريحة الآن وراضية عن نفسك؟

قالت الفتاة: أنا غيرُ راضيةٍ عن نفسي، أشعر أنني تخليتُ عن نفسي الحقيقية، ارتديتُ الحجاب لأكون مثل أغلبية النساء، وأصبحتُ أكتب المقالات عن الفقر وليس الختان أو الجنس لأنال المدح وليس الذم، أصبحتُ مؤرقة وأشعر بالحَيْرة.

قلتُ لها: الحَيْرة ضرورية لنعيد التفكير في أنفسنا. تكلمي مع نفسك في هدوء واسأليها ماذا تريد؟ استمعي إلى الصوت البعيد في أعماقك، القادم من طفولتك ونفسك الحقيقية؟ استمعي جيدًا ثم اكتبي ما يقوله لك هذا الصوت.

الفصل الثاني

ديمقراطية الخداع

باراك أوباما في القاهرة؟

زيارةٌ خاطفة خطفت البصر والوعي؟

٤ يونيو ٢٠٠٩م

كنت جالسة أمام الشاشة أتابع باراك أوباما، من وراء المحيط والبحار، يُلقي كلمته في مدينتي، القاهرة لأهلها منذ الإله آمون رع حتى باراك مبارك أوباما.

عددهم ألفان وخمسمائة رجلٍ وامرأة، يتشابهون في الملامح، فيما عدا الطرحة أو الأساور والخواتم، النخبة المصرية من الرجال والنساء، تم حشدها داخل قاعة جامعة القاهرة بدعوةٍ من الحكومة المصرية والأمريكية. النخبة المختارة من الحكومتَين الحاكمتَين، الملابس الفاخرة والأحذية اللامعة، بُوزُها مُدبَّب، الوجوه المشدودة بمشرط التجميل، المصقولة بالكريم المستورد، المُتْخَمة بالأمن والغذاء.

صُوَرهم في الصفحات الأُولى والشاشة على حدٍّ سواء، حكومة أو معارضة يتشابهون، فيما عدا اليافطة المعلَّقة من فوقهم. اللون الأسود علامة الحداد على موتى الحرب أو المجاعات، الأحمر علامة اليسار ومن تبع الشيطان، الأبيض علامة اليمين ورجال الأعمال، الأخضر علامة التقوى والإيمان، الأصفر علامة الحقد والبغض، الأزرق إعلان عن نظاراتٍ أمريكية جديدة لحجب ضوء الشمس.

التهبَت أكفُّهم البَضَّة الناعمة بالتصفيق الحاد، صفَّقوا ثلاثين مرة خلال كلمة استغرقَت خمسين دقيقة، دفع الحماس بأحدهم فصاح بصوتٍ جهوري: أحبك (آي لاف يو). توقَّف أوباما لحظة ليرُد: أشكرك.

هذه النخبة المختارة من ٢٥٠٠ شخص، لا تمثل ٨٠ مليونًا، أو الشعب المصري. لم ينتخبها الشعب بحرية دون تدخُّل البوليس. كان يحوط القاعة عشرة آلاف رجلِ بوليسٍ مصري، وثلاثة آلاف رجلٍ أمريكي من البوليس والمخابرات سي آي إيه.

يختلف أوباما كشخصٍ عن سابقه جورج بوش، يبدو أوباما أكثر إنسانية، لكن السياسة والاقتصاد والمصالح لا تعرف الإنسانية. نحن نعيش في عالمٍ واحد نظامه رأسماليٌّ أبوي ديني، تحكمه القوة وليس العدل أو الحرية أو المبادئ العليا.

السياسة لعبة في ظل هذا النظام، يتدرب عليها الإنسان: تغطية أقبح الأعمال بأجمل الكلمات، استخدام اسم الله للسيطرة على قلوب الناس، اختيار ما يناسب من الكتب المقدَّسة لإخفاء التناقُضات وازدواجية المعايير، أن تقتل الناس وتنهب أرضهم ومواردهم ثم تعتذر لهم بالدموع في عينَيك «دموع التماسيح». لو كان أوباما امرأةً لارتدى الحجاب كما فعلَت وزيرة خارجيته؛ هيلاري كلينتون، صفَّقوا لها طويلًا بحماسٍ منقطع النظير، وصفَّقوا أكثر لأوباما حين قال إن من حق المرأة المسلمة أن ترتدي الحجاب إذا كان ذلك اختيارها، كأنما ارتداء الحجاب شيء تختاره المرأة. كأنما لا ضغوط هناك على النساء للتحجُّب (تحم اسم أمر الله) أو للتعري (تحت اسم السوق الحرة والاستهلاك). وما رأيك يا سيد أوباما في هؤلاء الفتيات اللائي يخترن تغطية رءوسهن (إرضاءً لله) وتعرية بطونهن في الجينز الأمريكي (إرضاء للديمقراطية والحرية)؟ وما رأيك في البنات والأولاد الذين يختارون الختان أو قطع البظور أو غُرلة الذكور (حتى لا يكون هناك اختلاف بينهم وبين الآخرين والأخريات)؟ كأنما القهر شيء يختاره الإنسان أو الفقر أو الموت. وكم قرأنا عن أن الفقراء يختارون الفقر (بسبب الكسل أو الجهل) وأن الفلسطينيين يقتلون أنفسهم وأطفالهم ليصبحوا ضحايا وينالوا عطف العالم! تحت اسم «حرية الاختيار» يتجاهل أوباما الضغوط الواضحة بشتى أنواعها السياسية والدينية، والقهر المفروض من قُوى الأرض والسماء على المقهورين من الرجال والنساء.

كنتُ أرقب أوباما فوق الشاشة وهو يُلقي خطابه، أتابع حركة شفتَيه ويدَيه، تبدو شفتاه ويداه أقل قسوة من جورج بوش، بشرته أكثر جاذبية، لا سوداء، لا بيضاء، لا صفراء، مزيج من الدماء وأجناسٌ متعددة امتزجَت وانصهرَت وتطورَت لتصنع إنسانًا أكثر ذكاءً.

أوباما ممثلٌ بارع، أبرع الممثلين هو من لا نظن أنه يمثل. يحفظ النص عن ظهر قلب حتى نظن أن لا نص لديه، تدرَّب أوباما طويلًا على التلقائية، حتى اكتسب ما تُسمى

الكاريزما، هذا السر وراء جاذبية الشخصية، هي تدريب وفنٌّ في آنٍ واحد، مثل عزف الموسيقى أو الرسم أو الكتابة أو أي إبداعٍ آخر.

هذه القدرة الإبداعية على مخاطبة الجماهير لا يدركها أغلب الجماهير في مصر أو أمريكا أو غيرهما من البلاد، خاصة هؤلاء الموظفين في الحكومات، وإن كانوا من نخبة الأدباء أو الصحافيين. لم يبلغوا من الذكاء ما يُؤهِّلهم لفهم هذا النوع الآخر الأذكى.

ألم تُصفِّق الجماهير في ألمانيا لهتلر؟ ألم يعشقِ الناس في روسيا ستالين؟ ألم ينتخبِ الأمريكيون جورج بوش أكثر من مرة، ألم ينجحِ السادات في جميع الانتخابات في مصر بما لا يقل عن ٩٥٪؟

أخطر القادة السياسيين هم أكثرهم كاريزما، يجعلكَ تغني: «اقتلني برفقٍ يا حبيبي.» تُضحِّي بحياتك من أجلهم دون تردُّد، هذه هي لعبة السياسة وسحرها الخلاب؟

أشاد أوباما في كلمته بملك السعودية، جعله مثلًا عظيمًا على حرية الحوار بين الأديان، تحولَت الدولة العنصرية الدينية التي تُفرِّخ التيارات المتطرفة سياسيًّا ودينيًّا إلى مثالٍ للديمقراطية، المشيئة العليا للإمبراطورية الأمريكية، تجعل الديكتاتور الموالي لها بطلًا ديمقراطيًّا. ألم يكن صدام حسين وبن لادن في يومٍ من الأيام من المكافحين الأبرار من أجل الحرية؟

أشاد أوباما بذكاء نتنياهو، لم يصف أوباما واحدًا من الحكام العرب بالذكاء، حتى مبارك الذي فتح له أبواب مصر وفرش شوارعها بالسجاجيد العجمي والورود، وعزف له النشيد الإمبراطوري، لم يذكر أوباما اسم مبارك مرةً واحدة في خطابه الطويل في قاهرة المعز.

هل أراد أوباما أن يبعد نفسه عن الحكم في مصر؟ أم أراد أن يبعد الحكم في أمريكا عن نفسه؟

أوباما ذكيٌّ مدرَّب على ركوب اللحظة الحاضرة، يعرف كيف يركب الموجة دون أن تركبه.

يُتقِن أوباما لغة الجسد، تبدو حركته طبيعية، يقفز سلالم الطائرة ويداه أمام صدره تقفزان معه. يشبه تلميذًا لم يبلغ العشرين من العمر يسرع إلى لقاء حبيبته، هذا ليس رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، هذا باراك حسين أوباما.

شهدتُ خطابه على الشاشة وقرأته مرتَين لعلني ألتقط تغييرًا ما إيجابيًّا في السياسة الأمريكية، وجدتُ الكلمات الجميلة العامة العائمة، وبعض آياتٍ مأخوذة من الكتب السماوية الثلاثة، يشبه البابا في كلمته بالأردن منذ شهورٍ قليلة.

يجيد أوباما استخدام اسمه الأوسط «حسين» حين يخاطب المسلمين، كما يعرف متى يخفيه عن الأعين كأنما هو عضوٌ مُشوَّه.

تكلم أوباما عن الهولوكوست ومحرقة اليهود في ألمانيا القرن الماضي، لم يتكلم عن الهولوكست الفلسطيني والمذابح في غزة التي حدثَت بالأمس، طالب أوباما الفلسطينيين بإيقاف العنف ضد أطفال إسرائيل، لم يطالب إسرائيل بإيقاف العنف ضد الأطفال الفلسطينيين. كل ما طلبه من إسرائيل هو إيقاف بناء مستوطناتٍ جديدة. وماذا عن المستوطنات القديمة التي سلبَت آلاف الفلسطينيين أراضيَهم وديارهم؟ وماذا عن المستوطنات التي تواصل إسرائيل بناءها تحت اسم «النمو الطبيعي للمستعمرات القديمة»؟

ذكر أوباما عدد اليهود الذي عُذِّبوا القرن الماضي في ألمانيا، لم يذكر عدد الفلسطينيين الذين قُتلوا وشُرِّدوا ولا يزالون يُقتلون ويُشرَّدون منذ نشوء دولة إسرائيل فوق أراضيهم منذ ٦٠ عامًا وحتى اليوم. طالب أوباما الشعب الفلسطيني أن ينسى آلام الماضي وينظر إلى المستقبل، كما طالب الشعب الأمريكي منذ فترةٍ قليلة أن ينسى جرائم التعذيب التي اقترفَتها حكومة جورج بوش ضد السجناء داخل أمريكا وخارجها.

تحت اسم التسامُح والإنسانية يتجاهل أوباما الجرائم البشعة ضد جميع القوانين والقيم الأخلاقية والدينية التي يتلوها على الناس. تحت اسم نسيان الماضي والتطلُّع إلى المستقبل يغُضُّ أوباما النظر عن تطبيق القوانين والقيم والشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومواثيق حقوق الإنسان وحقوق النساء وغيرها. ولماذا تُوضع هذه القوانين الدولية والمحلية إذا لم تُطبَّق وتُنفَّذ؟ ما جدوى القانون إذا لم يُستخدَم لمحاكمة مجرمي الحرب والتعذيب والاغتصاب وعقابهم، حتى لا تُكرَّر هذه الجرائم في المستقبل؟ المفروض تطبيق القانون على الجميع دون تفرقة بين الدول أو الأفراد، لكن القوة هي التي تحكم العالم وليس القانون.

أوباما يطبق القانون على إيران لا على إسرائيل. يُحذِّر إيران من العقاب القانوني لو امتلكَت أسلحةً نووية، ولا يعاقب إسرائيل أو يحذرها وهي تمتلك أكبر ترسانةٍ نووية في المنطقة كلها!

يُغطِّي أوباما تناقُضه بآيات الله، مثل كل رجال السياسة، خلط السياسة بالدين هي اللعبة التي يجيدها رجال الحكم ونساؤهم، أَلَمْ ترتدِ هيلاري كلينتون الحجاب فوق رأسها تأكيدًا لفكرة تحجيب النساء، كما ارتدى أوباما الحجاب فوق عقله تأكيدًا لفكرة تحجيب العقول؟ أخطر الساسة في التاريخ من مزجوا بين الإله فوق الأرض وإله السماء.

ألم يفعل ذلك كل الحكام من الفراعنة حتى اليوم؟

ينتقل أوباما ما بين الأرض والسماء في غمضة عين، بكلمةٍ واحدة، ينتقل برقة ولباقة ونعومة من المصالح الاقتصادية إلى القيم الإنسانية والأخلاقية، كأنما لا تناقُض ولا تعارُض.

دُهِشتُ حين سمعتُه يقول: ليس لأمريكا مصالح في العراق، ولا تطلب شيئًا من موارد العراق. نسي أوباما أن الحكومة الأمريكية مارسَتِ الضغوط على الحكومة العراقية تحت الاحتلال العسكري لتوقيع ما سُمي: قانون البترول الجديد الذي يُقرِّر احتكار الشركات الأمريكية لبترول العراق ثلاثين سنةً كاملة! كيف نسِي والعالم كله يتذكَّر؟ كيف يُصفِّقون له بحرارة في القاعة بالقاهرة؟ أليس ذلك بعض إبداع الكاريزما الخطابية؟ وكم يعشق الناس الخطابة في بلادنا والعالم أجمع! الإنسان حيوانٌ ناطق، أكثر من أي شيء. لا تزال الظاهرة الصوتية والحنجرية سمة العصر الذكوري السائد، في الشرق والغرب.

حين تكلَّم أوباما عن التنمية كشف عن أهدافه الأساسية من هذه الزيارة، ليس فقط حماية مصالح إسرائيل وأمريكا السياسية والأمنية، ليس فقط تعبئة مليار مسلم لإبادة التيارات المتطرفة الإسلامية، ليس فقط مد حبال الوهم للشعب الفلسطيني بعض سنواتٍ أخري، بل أيضًا المزيد من فتح الأسواق المسلمة للبضائع الأمريكية والإسرائيلية، تحت اسم التنمية والشراكة والصداقة والتعاون. أصبح الاستعمار الجديد يحقق أهداف الاستعمار القديم دون حاجة إلى السلاح العسكري، بكلمات المدح للقرآن وملك السعودية تضمن أمريكا بترول الخليج العربي؛ فالكلمات الجميلة لا تُكلِّف أمريكا إلا نفقاتِ زيارةٍ خاطفة لقلب العالم العربي والإسلامي «مصر العزيزة»، تتكفَّل الحكومة المصرية بنفقات الاستقبال والبوليس، ٥٠٠ مليون دولار دفعَتْها مصر العزيزة من خزانتها الصغيرة. عشرة آلاف عسكري وضابطٍ مصري لحماية أمن أوباما. عشرون مليون دولار خسرها المصريون بسبب الأوامر الصادرة بعدم الخروج إلى العمل والبقاء في البيوت دون فتح النوافذ حتى يغادر السيد أوباما مصر في أمان الله.

وإذا كان أمان الله أشد من أمان البشر، فلماذا كل هذه الجحافل من قوات البوليس والعربات المصفَّحة والهراواتُ تطرد الأطفال من الرؤية عن بُعد؟ فما بالُك بالاقتراب بالجسم!

وصدَرتِ الأوامر أيضًا بإغلاق المدارس والجامعات، حتى مدارس الأطفال في جميع المناطق التي يزورها أوباما، من جامعة القاهرة الكبرى والأهرامات العظمى وحديقة الحيوان في محافظة الجيزة، إلى جامعة الأزهر الشريف والقلعة المبجَّلة وجامع السلطان الأكبر، ومقابر الموتى على طول الطريق من المطار إلى قلب المدينة، والقصر الجمهوري بالقبة، وكل ما حوله من شوارع وأحياءٍ راقية للنخبة المختارة، أو عشوائيات القاهرة حيث الفقراء والعاطلون والباعة الجائلون والزبالون وسكان الضواحي البعيدة مثل حلوان وعين شمس والدرب الأحمر والأخضر والأسود وجبل المقطَّم وقاع المدينة.

تعطَّل آلاف التلاميذ والطلاب عن الدراسة والامتحانات التي تُؤدَّى في هذا الوقت من كل عام.

السيدة ميشيل أوباما لم ترافق زوجها إلى مصر، لتُلازم ابنتَيهما في واشنطن، فلا تتعطل الطفلتان العظيمتان عن أداء الامتحانات في المدرسة!

خلَت شوارع القاهرة من الناس، توقَّفَت الحياة في المدينة، إلا رجال الأمن والمخابرات، والبوليس المصري والأمريكي، انتشروا في كل مكان، حوَّطوا جامعة القاهرة، لم يسمحوا لأحدٍ بالاقتراب إلا ثلاثة عشر من الأمريكيين حصلوا على تصريحٍ خاص بعمل مظاهرةٍ أمام بوابة الجامعة، يهتفون بأصواتٍ رقيقة، يا أوباما اذهب إلى غزة في زيارة يا أوباما.

ظهَرت صورهم في أجهزة الإعلام الكبرى باعتبارهم المعارضة في مصر الديمقراطية.

أما المعارضة المصرية الحقيقية فكانت في المنفى خارج مصر، أو نزيلة السجون، أو حبيسة في البيوت ممنوعة من الخروج إلى المدرسة أو العمل، أو مجرد فتح النوافذ المطلة على المواكب الفرعونية.

بعد أن غادرَت طائرة أوباما أجواء القاهرة بثلاثين دقيقةً فقط انتشَر في شوارع القاهرة العمال المساكين بوجوههم الضامرة الحزينة، وأياديهم المحروقة بالشمس المشققة، انكَفئوا فوق الزهور والأشجار الصناعية يخلعونها من أماكنها على جانبَي الطرق والميادين، مع الصور والأعلام المرفوعة فوق أقواس النصر، بما فيها صُوَر الإله آمون رع وباراك مبارك أوباما.

تناقُض الرأسمالية في علاج الأزمة الاقتصادية

يقوم النظام الاقتصادي الرأسمالي الأمريكي على مبدأَين متعارضين:

(١) ضمان الأرباح، دون مراعاة القيم الأخلاقية الإنسانية الفردية أو الجماعية.
(٢) حرية السوق والتجارة والبيزنس القائمة على المسئولية الفردية.

يقوم النظام الأمريكي كله، سياسيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيًّا، على الفلسفة الفردية، احترام إرادة الفرد وحريته؛ بمعنى أن يعيش الناس أحرارًا يتحملون مسئولية قراراتهم، وهذا يُحتِّم عليهم الحرص والتروِّي في اتخاذ القرارات؛ هذا يعني أن الناس يحصلون على ما يريدون وما يستحقون، حسب اجتهادهم وما يملكونه من أموال أو عقارات أو شركات، أو خبرات وتدريبات وتكنولوجيا متطورة.

ربما يفهم الناس أن هذه هي العدالة في الحصول على الرزق، وهي نوع من العدالة يرضى بها الأمريكيون ويتفقون عليها، لكن الأزمة الاقتصادية الأخيرة كشفَت عن كثير من الخلل في هذه الفلسفة الفردية، أو ما تُسمى مسئولية الفرد وحريته في التجارة، والربح وكسب البلايين من الدولارات، وبناء ناطحات السحب، وإنتاج ما يريد من الأسلحة الكيماوية أو النووية.

خلال هذه الأزمة الاقتصادية، تشابهَت حكومة أوباما وحكومة جورج بوش السابقة عليها في طريقة علاج الأزمة. يقوم العلاج على تعويض أصحاب المصانع التي أفلسَت، والشركات والبنوك التي أوشكَت على الإفلاس. هؤلاء الذين تخلَّوا عن المسئولية الفردية

وكانوا السبب الرئيسي للأزمة، إعطاء مكافآتٍ لهم نظير اللامسئولية الفردية! تعويض هؤلاء الذين غامروا في السوق الحرة على نحوٍ مجنون!

هؤلاء الفاسدون يتم تعويضهم عن فسادهم!

بأموال مَن يتم تعويض المفلسين الفاسدين؟ بأموال الناس الذين لم يفلسوا ولم يغامروا ولم يفسدوا، وعملوا بأمانة ودفَعوا الضرائب كلها دون تهرُّبٍ أو زوَغان.

يكتُم الأمريكيون غضبهم على أوباما، لم تمضِ إلا شهورٌ قليلة على انتخابهم له، وها هو يفعل ما فعله سابقه جورج بوش! عبَّر بعضهم عن غضبه قائلًا: هذا ضد العدالة، هذا ظلم، حكومة أوباما تُشجِّع سوء السلوك. لم يسألنا أوباما إن كنا نريد تعويض الفاسدين! لم يسألنا إن كنا نغفر لهم ذنوبهم، يقول أطباء النفس إن في الغرفة المغلقة مع الزوجَين المريضَين نفسيًّا يكون ثالثهما «الزواج» نفسه.

نظام الزواج، منذ نشوئه في التاريخ العبودي، يقوم على عدم العدالة بين الزوجَين على أساس الجنس أو النوع، مثل النظام الرأسمالي، يقوم على عدم العدالة بين الناس على أساس الطبقة، رغم توافق الزوجَين، يظل قانون الزواج ماثلًا بينهما كالشبح القبيح، يفرض عليهما القيم الذكورية الطبقية القديمة، تحت اسم الأخلاق أو الفضيلة أو الدين، أو الطبيعة، كذلك تفرض الرأسمالية على الناس قبول التفرقة الطبقية والظلم تحت اسم حرية السوق أو الحرية الفردية والديمقراطية.

في ظل النظام الرأسمالي الأبوي أو الذكوري، يدفع الفقراء دائمًا، وفي كل الظروف، أكثر مما يدفع الأغنياء. يُعوِّض الفقراء عن فساد الأغنياء الاقتصادي، يُعاقب النساء والأطفال عن فساد الرجال الأخلاقي.

في مصر مليونا طفلٍ غير شرعي في الشوارع، ضحايا آبائهم الفاسدين. يغتصب الواحد منهم فتاةً صغيرة في الطريق ثم يهرب منها، يُبرئه المجتمع والقانون الديني والمدني من الإثم، وتُعاقَب الأم الصغيرة وحدها ومولودها. حين طالبَتِ الشاعرة والكاتبة المصرية الدكتورة منى حلمي في عيد الأم باحترام اسم الأم، ووقَّعَت باسمها الثلاثي الجديد (اسمها واسم أمها وأبيها) أخذوها إلى المحكمة لتُعاقَب باعتبارها تنتهك الدين والأخلاق والقانون!

لا يختلف الظلم الواقع على الفقراء عن الظلم الواقع على النساء وأطفالهن، في ظل النظام الرأسمالي الذكوري، إلا بأن الظلم الواقع على النساء يشمل الجنس والنوع والدين أيضًا.

وهل يمكن لحكومة أوباما أن تعالج أزمة الرأسمالية الناتجة عن فساد النظام ذاته؟

رغم الظلم المتزايد على الفقراء وتضاعُف أعداد العاطلين، خاصة في ولاية جورجيا حيث أكون، رأيتُ مظاهرة بالأمس تسير في شوارع أطلانطا. رجالٌ ونساء وشباب من الفقراء والعاطلين، يحملون اللافتات المكتوب عليها: لا للاشتراكية، لا لتأميم البنوك والشركات، نعم للرأسمالية والحرية الفردية، والديمقراطية. لا للإلحاد والشيوعية، الله معنا ضد الملاحدة والمتآمرين ضد القيم الأخلاقية والحضارة الأمريكية. رأيتُ بعض النساء المحجَّبات والمنقَّبات يَسِرن داخل صفوف المظاهرة، يحملن لافتةً تقول: الإسلام ضد الشيوعية، الإسلام مع حرية الإنسان. وكان هناك قُسس في المظاهرة يحملون شعار الكنيسة، ورجال دين من اليهود يسيرون ببرانيطهم المميزة أو الطاقية اليهودية المقدسة، كيف اتحدت جميع الأديان في هذه المظاهرة؟

هكذا تُنظِّم قوى الرأسمالية والسوق الحرة صفوفها. هكذا يصبح الله حليفًا للقوى الطبقية الأبوية. وهكذا يتم تجهيل الفقراء والنساء للإيمان بأفكار ضد مصالحهم.

وخطر لي سؤال: لماذا لا تُنظِّم قوى التقدُّم والعلم من النساء والرجال صفوفها في أمريكا (وغيرها من البلاد، بما فيها بلادنا) كما تفعل قوى التخلُّف والظلام؟

حوار حول مذابح غزة في راديو أطلانطا

٢٦ يناير ٢٠٠٩م

مدينة أطلانطا هي عاصمة ولاية جورجيا في الجنوب الشرقي للولايات الأمريكية المتحدة. هي أكثر الولايات تخلفًا من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية. لم تنتخب ولاية جورجيا باراك أوباما في الانتخابات الرئاسية ٢٠٠٨م، انتَخَبَتْ جون ماكين عن الحزب الجمهوري، الأكثر رجعية من أوباما وحزبه الديمقراطي، رغم أن أكثر سكانها سود البشرة. تتحيز ولاية جورجيا إلى الأسياد البيض، ربما هي سيكولوجية العبيد، حين يحتقر أخاه العبد، عقدة النقص النفسية، تعاني منها كل الفئات المُستعبَدة بما فيها النساء، والأُجراء المقهورون، بصرف النظر عن الجنس أو الجنسية. حتى في الجامعات تظل رواسب العنصرية قابعة في قاع النفوس، ويحظى الأستاذ الأبيض باحترام أكثر من أستاذةٍ سوداء، وراتبٍ أكبر أيضًا. تطغى الفروق الدينية والعرقية، وترتفع الكنيسة الكاثوليكية فوق الدستور والسياسة، رغم الكلمات الرنانة عن الديمقراطية والحرية والمساواة، يعيش أغلب سكان جورجيا أَسْرى التعليم الديني، والإعلام الديني المتعصب لنوعٍ معين من المسيحية.

هنا يعيش مليونا عربي، أغلبهم من رجال الأعمال، البيزنس، خمسة جوامع في أطلانطا، وكنيسةٌ مصرية قبطية، كنيسةٌ مارونية لبنانية، وكنيسةٌ كاثوليكية رومانية لبنانية أيضًا. يزداد الناس تدينًا في الغربة، يتشبثون بما تُسمى الهوية القومية أو الدينية، خوفًا من الذوبان في الآخرين الأغراب الأجانب. بعض الناس يفرضون الحجاب على نسائهم، أو يُجرون عمليات الختان لأطفالهم الإناث والذكور، كمحاولة للحفاظ على الهوية القومية أو الدينية. بعضهم يقتل البنت دفاعًا عن الشرف أو يُطلِّق الزوجة دون

سبب، أو ليتزوج عليها امرأةً ثانية أو ثالثة أو رابعة حسب العقيدة. بعضهم يعادي البعض الآخر لمجرد اختلاف الدين أو المذهب. هكذا لا تُغيِّر المسافات البعيدة أو الأماكن الجديدة كثيرًا من الموروثات القديمة، بل يزداد العقل انغلاقًا رغم الانفتاح على عوالمَ أوسع.

لكن اليوم أذاع الراديو في أطلانطا برنامجًا يستحق التفاؤل، لمدة ثماني ساعاتٍ كاملة، طلب مني المذيع، واسمه مارك جلاسبي، أن أشارك في حوار عن أحداث غزة الأخيرة، مع أستاذٍ أمريكي اسمه موري سالاكان. سبق لهذا الراديو أن أذاع حوارًا معي، وهو راديو متقدِّم يتبنى قضايا العدالة في العالم خاصة في مناطق الصراع، ومنها الصراع العربي-الإسرائيلي، دار الحوار بيننا نحن الثلاثة، رجلان أمريكيان وأنا المصرية، أعطاني المذيع الكلمة في البداية بصفتي من المنطقة التي تدور فيها المذابح.

بدأتُ كلامي من جذور المشكلة وقلتُ: دولة إسرائيل هي مشروعٌ صهيوني استعماري أوروبي أمريكي، منذ أكثر من ستين عامًا. لا يمكن أن تُحَل المشكلة أو يحدث السلام في المنطقة دون تحقيق العدل، وهو إنهاء الاحتلال الإسرائيلي الأجنبي لفلسطين، إنهاء المشروع الاستعماري الأمريكي الصهيوني الأوروبي في المنطقة العربية، وهذا لن يتحقق إلا بنا نحن شعوب المنطقة، بمزيد من الوعي والتنظيم، مع شعوب العالم التي خرجت في مظاهرات ضد وحشية إسرائيل وقَتلِها الأطفال والأمهات، ومقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية. لن تحُل المشكلةَ الأممُ المتحدة أو مجلس الأمن أو محكمة العدل الدولية، أو توني بلير أو ساركوزي، أو مبعوث أوباما للمنطقة. هؤلاء جميعًا يخدمون المشروع الاستعماري الأمريكي الأوروبي الصهيوني. لا يمكن لأحدٍ منهم أن يتحرر من هذا المشروع الاستعماري القديم الجديد. لا يمكن لهيئةٍ ما أو لفردٍ ما، وإن كان رئيس أيِّ دولة، كبرى أو صغرى، أن يحُل المشكلة. إنها مشكلةٌ استعمارية يقوم عليها النظام العالمي القديم والجديد، والأنظمة المحلية في كل بلاد العالم، بما فيها الأنظمة العربية، حيث تحكم القوة والمال والحرب والخداع من أجل الاستغلال، وليس من أجل العدل والصدق والحرية والسلام. وكم حاولنا كشعوبٍ عربية أن نتحرر من الاستعمار الخارجي الأجنبي والاستعمار الداخلي الحكومي، دون جدوى، بسبب تعاوُن القوة الداخلية مع الخارجية في البطش بنا، في وضعنا في السجون، في طردنا إلى المنافي، في تشويه سمعتنا وخلق الإشاعات الكاذبة حولنا، في تزييف الوعي لدى الناس ونشر الأكاذيب. إن المشروع الاستعماري في المنطقة العربية ينشُد البترول أساسًا بأي شكل، بأي وسيلة، وإن قتلَنا جميعًا، وليس

أهل غزة أو فلسطين فقط. مع المنافع الأخرى وفتح الأسواق الجديدة للشركات الرأسمالية القائمة على الربح فقط وإن قتلَت ملايين البشر بالسموم. لقد غُرست دولة إسرائيل وسط المنطقة بالقوة المسلحة، لتكون الحَجَر الاستعماري الأساسي الذي تقف عليه القوى الحاكمة في أوروبا وأمريكا. كان حفر قناة السويس واكتشاف البترول في المنطقة كارثة علينا نحن شعوب المنطقة. كل محاولة للتحرر من الاستعمار أو الفقر الذي يجلبه الاستعمار تُجهض بالحرب أو المؤامرة. كيف تآمر الاستعمار ضد جمال عبد الناصر في مصر حين أمَّم قناة السويس، وحاول تحريرها من قبضة الاستعمار؟ كيف أسقط الاستعمار «مصدق» حين أمم البترول في إيران؟ كيف تعاون الاستعمار مع صدام حسين لضرب إيران ثم ضرب صدام حسين حين حاول تحرير بترول العراق من الاستعمار؟ كيف تعاون أنور السادات في مصر مع الاستعمار وضرب الشعب المصري وسجن قياداته داخل الزنازين؟ كيف أجهض السادات الحركة الشعبية المصرية وعقد مع أمريكا وإسرائيل معاهدةَ سلام زائفةً خادعة، أنتجَت المزيد من الحروب والتصفية للشعب الفلسطيني، والمزيد من المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل، إلى أن أصبحت إسرائيل تملك أكبر سلاحٍ في المنطقة بما فيه الأسلحة النووية؟ لماذا لا تفتش الأمم المتحدة البرنامج العسكري النووي الإسرائيلي؟ لماذا يصمت العالم الاستعماري عن الترسانة النووية الإسرائيلية، ويصرخون لأن إيران أو غيرها تُطوِّر برنامجًا نوويًّا في مجالات سلمية؟ لقد ضغطَت أمريكا على مصر وغيرها من البلاد العربية والأفريقية لتُوقف أبحاثها النووية السلمية، حتى في مجال الطب. يستخدم الاستعمار أي وسيلةٍ مشروعة أو غير مشروعة لضرب الوحدة الشعبية في المستعمرات. فَرِّق تسد، لهذا تم تقسيم البلاد العربية وتمزيق الوحدة بين الشعوب. يلعب الدين ورقةً رابحة في تقسيم الناس. ألم تكن إسرائيل هي التي شجَّعَت حماس الإسلامية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية فتح؟ والآن تضرب إسرائيل حماس لتقوية فتح. ألم تُشجِّع أمريكا بن لادن والقاعدة لضرب الاتحاد السوفييتي؟ والآن تضرب أمريكا القاعدة وبن لادن بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. لعبة الاستعمار غير النظيفة القائمة على التناقض والخديعة.

وتكلم الأستاذ موري سالاكان المشارك معي في البرنامج وقال: أتفق مع الزميلة فيما قالته.

عن أحلامي

صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠٨م

من نومي العميق صحوتُ على صوتٍ مفزع، يشبه الانفجار، يأتي من تحت وسادتي، تصورت أن شريانًا انفجر في رأسي، أو قنبلةً إرهابية خرقَت السقف، ثم اكتشفتُ أنه التلفزيون في غرفة نوم جارتي، التي تنام والجهاز في حضنها، كأنما هو الزوج، أو الأصح العشيق؛ فالنساء هنا في أمريكا، خاصة الأستاذات في الجامعات، يعشن في غرفِ نومٍ بعيدةٍ ما أمكن عن عُش الزوجية السعيد.

تعودتُ، منذ طفولتي، أن أنام محتضنة وسادتي. حتى بعد الزواج لم أكُفَّ عن هذه العادة، التي أخذتُها عن أمي، أو ربما هو أحد الجينات الموروثة عن جدتي، ربما تطوَّر هذا الجين عَبْر الثورات البيولوجية المتعاقبة على مدى القرون، المضادة لقيم العبودية والقوانين الذكورية، على رأسها بالطبع قانون الزوجات الأربع للرجل الواحد، ونصف أو ربع زوج للمرأة الواحدة.

رأيتُ عقارب الساعة تشير إلى السابعة، صباح الخميس ١١ سبتمبر ٢٠٠٨م. مضت سبعة أعوام منذ ما يُسمُّونه هنا حادث ٩ / ١١.

منذ جئتُ إلى أمريكا والقلقُ ينتابني على صحتي أو حياتي أو موتي. لم أشعر بمثل هذا القلق في بلدي مصر تحت الأنظمة الاستبدادية. ربما عانيتُ القهر السياسي والديني لكني لم أقلَق على صحتي، بل كنتُ أشعر دائمًا بقوةٍ جسمية ونفسية للمقاومة والتحدي. لكن، هنا في أمريكا، تُطارِدني كلمة الإرهاب ليلَ نهارَ، بصوت جورج دابليو بوش الأجش، أو غيره من الخناشير الرجال والنساء، مع الصور المتحركة فوق الشاشة عن سرطان الثدي، وجلطة المخ، والألزهايمر والعَتَه والعُصاب والجنون.

وأنا أكره الأمراض والأطباء سواء بسواء، وأكره رائحة المستشفيات والدم. لم أدخل كلية الطب إلا إرضاءً لأبي الذي مات منذ خمسين عامًا.

عرفتُ من دراسة الطب أن العمل المنتج المبدع يجلب الصحة والسعادة. وعرفتُ ذلك أيضًا من تجربتي في الحياة منذ طفولتي. عاشت جدتي الفلاحة مائة عامٍ تعمل وتنتج وتبدع من الزرع في حقلها، ثم ماتت سليمة الجسد والعقل. لم تذهب في حياتها إلى طبيب، ولم تشرب ملعقة دواء. كانت امرأةً شديدة الحيوية والنشاط، شديدة المرح.

صدى ضحكتها المجلجلة في أذني لا يزال رغم موتها منذ أكثر من ستين عامًا. كانت أيضًا متمردةً ثائرة تقود أهل قريتها ضد العمدة والملك والإنجليز، تُغنِّي منذ طفولتها مع الفلاحات: يا عزيز يا عزيز كبة تاخُد الإنجليز.

مكان فوق الأرض للإبداع والتمرد

مددتُ يدي وضغطتُ على مفتاح النور. اكتشفتُ أنْ لا شيء في جسدي ينزف الدم. استطعتُ أن أنهض من السرير وأمشي إلى المطبخ، أفتح الثلاجة وأشرب كوب ماء.

خفَق قلبي بالسعادة؛ فأنا أعود إلى الحياة بعد الموت الموقَّت، وبدأت على الفور في وضع مشاريع المستقبل. ماذا أعمل من اليوم حتى أموت بقنبلةٍ إرهابية أو بسرطان الثدي؟

تذكرتُ شيئًا سعيدًا بالأمس أثناء رياضة المشي اليومية في الصباح الباكر. التقيتُ بامرأة تجاوزتِ التسعين عامًا تمشي بخطوةٍ نشيطة سعيدة. تبادلنا الحديث وأدركتُ أنني سوف أعيش مثلها عشرين عامًا أخرى بصحةٍ جيدة.

أحلامي الطفولية لا تفارقني. أريد أن أكتب ما لم يُكتب، أن أصنع فيلمًا سينمائيًّا لم يُصنع. أن أقود ثورةً في العالم لم تحدث. وأخيرًا أن أخلُق مكانًا فوق الأرض للمبدعين المتمردين من النساء والرجال، الذين يبحثون عن وطنٍ آخر آمن وحر يبدعون فيه ويتمردون.

لماذا العودة إلى الدين في القرن الواحد والعشرين؟

يواكب التزايدَ في قوة المال والسلاح والإعلام وغياب العدل تزايدٌ في قوة الدين، ومحاولات تزييف الوعي وتحجيب العقول. تحتاج النظم الحاكمة الظالمة دائمًا إلى قوةٍ بعيدة غامضة

غير مرئية لتبرير الظلم، لنشر الأوهام، وأهمُّها الوهم بأن الظلم والتفرقة بين البشر قانونٌ إلهي من السماء وليس قانونًا وضعه البشر للطغيان والنهب والاغتصاب.

لِنشْرِ الوهم أن الذكورة أعلى درجة عن الأنوثة، أن المرأة مكانها في البيت، داخل المطبخ، وفي السرير تحت زوجها، وإنْ أصبحَت رئيسة دولة. لِنشرِ الوهم أن الفقر والغنى من عند الرب، وأن للفقراء قصورًا في السماء بعد الموت.

في جميع الأنظمة الحاكمة غربًا وشرقًا، منذ نشوء العبودية، يلعب التعليم والإعلام والدين والثقافة دورًا سياسيًّا رئيسيًّا لتثبيت هذه الأوهام في نفوس الناس وعقولهم، منذ الولادة حتى الموت. يرضع الطفل والطفلة هذه الأوهام، تجري في عروقهما مع الدم، ترسخ في خلايا المخ والنخاع العظم. لا يستطيع الإنسان أن يتحرر منها وإن اكتشف عقله الخديعة وخرج من الأَسْر، يظل وجدانه أو نفسه أسيرَي الوهم، عاجزَين عن التحرُّر إلا بالجهد والمثابرة والإصرار على الفهم والمعرفة.

هنا في الولايات المتحدة الأمريكية، لا يزال التعليم العام يحقن الأطفال بتعاليمَ دينية قائمة على إرهابهم من نار الجحيم، إن عصَوا الأوامر، أو إغرائهم بالجنة إن أطاعوا.

تدخُل التناقضات والمعجزات إلى العقول، لتعجزها عن التفكير العاقل المبني على التجربة والملاحظة والاستنتاج. تتلاشى البديهيات العقلية وتحل مكانها أوهامٌ يؤمن بها الأطفال باعتبارها حقائق لا تقبل الشك أو الجدل.

هنا في أمريكا يؤمن أغلب الناس بالسوق الحرة، وأنها حرة فعلًا، كما يؤمنون بالانتخابات الحرة والديمقراطية والرأسمالية، وأخيرًا العولمة، بل والحروب أيضًا. يتصورون أنها كلها أشياء موجودة مثل وجود الله والكنيسة والكتاب المقدس والفقر والموت والظواهر الطبيعية، وعلى رأسها الهوريكين والتورنيدو والعواصف القادمة من المحيط.

لا يساعد التعليم في الجامعات على تغيير الطريقة التي يفكر بها أغلب الناس، حتى المعلومات العلمية عن تطوُّر الكون وحقائق العلوم الجديدة لم تنجح في تغيير منهج التفكير القائم على الإيمان الأعمى منذ الطفولة بأشياء لا تدخل العقل.

الخوف الخوف، منذ الولادة حتى الموت

يرتكز التعليم والتربية والإعلام على الخوف، يقتل الخوف منابع الفكر المبدع الخلاق، لا يتخلص الإنسان من الخوف وإن حاول، تساعد اللغة على ترسيخ الخوف واعتباره

فضيلة، مثلًا حين يمدحون شخصًا هنا يقولون إنه يخاف عقاب الله. الخوف والعقاب هما أساس التعليم وليس حب العلم أو حب المعرفة أو حب الله؛ فالخوف والحب لا يجتمعان في قلبٍ واحد.

يفلت من هذا السجن المحيط بالعقل قلةٌ من المبدعين، النساء والرجال، أصحاب الشجاعة في البحث، والتنقيب عن الحقيقة. بعضهم ينال عقابًا يصل إلى السجن أو النفي أو الموت، يُذكِّرنا التاريخ بهذه الشخصيات العظيمة أمثال سقراط وجاليليو وابن رشد وغيرهم من مبدعي الشرق والغرب، والذين دفعوا من أمنهم وحياتهم الثمن، لننعم نحن باكتشافاتهم الفكرية اليوم.

يؤمن أغلب الناس هنا بالكتاب المقدس دون أن يقرءوه، يُردِّدون آياته في الكنيسة أيام الأحد دون أن يفهموه، فإن قرءوه وفهموه توقفوا فورًا عن اعتباره كتابًا إلهيًّا، وقد يرفضون الدين كله، إلا أنهم لا يتخلصون من وجدانهم الطفولي، من الحاجة إلى الإيمان بشيءٍ يعلو على قدرة العقل، شيءٍ غامض وغير مرئي.

العودة إلى الروحانيات

من هنا انتشار هذه الموجة الجديدة التي تُسمى العودة على الروحانيات. أغلب زملائي وزميلاتي هنا من أساتذة الجامعة ينتمون إلى هذه الحركة الروحانية الجديدة. حتى النساء اللائي ينتمين إلى الفكر النسائي المتحرر (الفيمينيست) يتفاخرن بالعودة إلى الروحانيات، غير مدركاتٍ أن الفصل بين المادة والروح، أو الجسد والعقل، هو فكرةٌ وهمية عبودية، وهو الأساس الذي يفصل بين المرأة باعتبارها الجسد، والرجل باعتباره الروح أو العقل. وهي الفكرة التي يرفضها الفكر النسائي (الفيمينيست) المتحرر الذي ينتمون إليه.

تديُّن باراك أوباما وسارة بالين في المعركة الانتخابية

وتلعب المصالح السياسية والاقتصادية دورًا في التعصب الديني والقومي، هنا في أمريكا. وقد تملَّق باراك أوباما الكنيسة والتيارات الأصولية المسيحية واليهودية، حتى يكسب مزيدًا من الأصوات في حملته الانتخابية الرئاسية. في خطبةٍ له، بمناسبة الذكرى الستين لدولة إسرائيل (ذكرى النكبة) أعلن أن إسرائيل وأمريكا دولةٌ واحدة، وأي اعتداء على أمن

إسرائيل هو اعتداء على أمن أمريكا. وارتدى أوباما الطاقية اليهودية في زيارته لإسرائيل مثلما فعل كل رؤساء أمريكا قبله. لم يذكر أوباما أن دولة إسرائيل قامت على القوة العسكرية والعنف والبطش، واغتصاب أرض الشعب الفلسطيني وقتله وتشريده.

أما سارة بالين، المرشحة عن الحزب الجمهوري لتكون نائبة الرئيس الأمريكي، فهي في تديُّنها أشد خطورة من باراك أوباما. إنها تعتبر الحرب ضد العراق مهمةً إلهية أمر بها المسيح، ومشروع الغاز في ولايتها ألاسكا هو مشروع من عند الله، وأن الله أرسلها إلى ألاسكا لتنفذ المشروع، وإن لم يؤمن الناس في ألاسكا بمشروع الله فلن يُحقِّقه الله مهما بذلت هي من جهود. وتخطب سارة بالين في الناس مثل القسس، ويشتعل الحماس الديني المسيحي ضد الأديان الأخرى.

يقاوم قليلٌ من ذوي الشجاعة الأدبية هذا الهذيان الديني، مُحذِّرين من خطورة التفرقة بين الناس على أساس الدين، إلا أن وسائل الإعلام الكبرى تتجاهل هذه الأصوات تحت تأثير المصالح الاقتصادية والسياسية للحزب الجمهوري، وحكومة جورج دابليو بوش.

غياب الحركة النسائية وحركات التحرير المتقدمة في أمريكا

تحت وطأة الضربات السياسية المتعاقبة خلال العقود الماضية، تبدَّدت قوى حركات التحرير في أمريكا، مثل غيرها من بلاد العالم. زادت شراسة المال والسلاح والإعلام والتديُّن الخادع. زادت الحروب العسكرية والاقتصادية والإعلامية والدينية والطائفية. لم نعُد نسمع صوت حركات المرأة التحررية التي ارتفعَت خلال الستينيات من القرن الماضي، داخل أمريكا وخارجها. حتى حركات التحرر اليسارية والتقدمية تَبعثرَت وخفَت صوتها، على رأسها حركة المنتدى الاجتماعي العالمي التي نَجحَت في تنظيم مؤتمراتها في بورتو أليجري ومومباي، وانتشر شعارها: عالمٌ جديد ممكن بل ضروري.

لم أشعر بوجود هذه الحركات خلال وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية، منذ بداية العام ٢٠٠٧م.

حين سمعتُ صوت سارة بالين يُدوِّي في أجهزة الإعلام الكبرى الأمريكية، بذلك الهوس الديني ضد حقوق الفقراء والنساء، تصورتُ أن الحركة النسائية ستصحو من نومها، سوف تشعُر بالخطر على منجزاتها؛ سوف تعيد تنظيم نفسها وتتأهب للمعركة والدفاع عن حقوقها، إلا أنني لم أسمع شيئًا حتى كتابة هذا المقال.

صوتُ سارة بالين لا يزال يُدوِّي عَبْر الأثير، تُغطِّي الحروب الدموية بكلامٍ من عند الله، تعلن أن عملية الإجهاض الطبية ضد إرادة الله، أن الله هو الذي يصنع الأجنة في أرحام النساء، مثلما صنع اليسوع في رحم السيدة مريم العذراء.

جارتي الفلاحة في كفر طحلة عام ١٩٣٧م

حين تتحدث سارة بالين عن الأمومة والحمل وإرادة الله، تُذكِّرني بجارتنا الفلاحة الأمية في قريتي كفر طحلة عام ١٩٣٧م، حين كنتُ طفلة في السادسة من عمري.

كان لجارتنا خمسةٌ من الأطفال مثل سارة بالين، أحدهم طفل معوَّق، متخلف عقليًّا، مثل طفل سارة بالين، كانت الجارة تؤمن مثل سارة أن إرادة الله تعلو على علم الأطباء وأدويتهم. وقد ماتت جارتنا وهي تلد طفلها السادس. إلا أن سارة بالين أشد خطورةً من جارتي الفلاحة في القرية؛ لأن سارة بالين إن أصبحت رئيسة أمريكا، أو نائبة الرئيس، فسوف يتضاعف أعداد القتلى في العالم؛ سوف يزيد عدد الشعوب المغتصبة المطرودة من أرضها، المسلوبة مواردها.

إن النساء من مثيلات سارة بالين أشد خطورة من زملائهن الرجال، أو رؤسائهن أو أزواجهن، أو الرجال الجلادين الطغاة. في أذني لا يزال صوتها يُدوِّي مرتعشًا بلذةٍ شبه أورجازمية وهي تتحدث عن الحرب في العراق، وزيادة التسليح والقمع. إنها تحلم بإراقة الدماء في العراق أكثر من إراقة البترول. إنها تفخر باحتضانها سلاحها العسكري في سريرها أثناء النوم. إنها تُطلِق الرصاص في أحلامها على البشر وحيوانات الغابة سواء بسواء.

أحد دروس ١١ سبتمبر ٢٠٠١م

لا شك أن سقوط بُرجَي التجارة في نيويورك يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وموت الآلاف من الأبرياء، كان درسًا قاسيًا للشعب الأمريكي، لكن الاستفادة من الدرس تزداد بازدياد قسوته. وقد أدرك الناس هنا أن جميع الأديان، وليس الإسلام فقط، تلعب دورًا رئيسيًّا في إشعال الحروب العسكرية والطائفية، وتُقسِّم الناس إلى فِرقٍ متناحرة دموية، تُكفِّر بعضها بعضًا.

وأَدركَ الناس أيضًا أن خطر الإرهاب، حين يأتي من داخل أمريكا، أشد منه حين يأتي من الخارج. إلا أن هذا الإدراك سرعان ما تطمسه الدعاية السياسية الإعلامية القائمة

على التخويف، من أجل السيطرة وتعمية العقول. لا يمر يوم دون أن تبُثَّ أجهزة الإعلام خُطب جورج بوش عن بث الخوف في قلوب الناس، الخوف من ضربةٍ إرهابية قادمة قريبًا جدًّا، قنبلةٍ إسلامية صنعَتْها التيارات الأصولية الإسلامية، مع أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة. هكذا يضيع الدرس الثمين ويتخبط الناس؛ لا يعرفون الحقائق من الأوهام، ويصبح الدين أو الروح أو الله أو الكنيسة ملجأهم الوحيد للشعور بالأمن والسلام. وهناك أملٌ وحيد لإنقاذ هذا الشعب الأمريكي من وطأة الخوف.

أن تعود حركاتُ التحرير التقدُّمية إلى النشاط، ومنها الحركة النسائية، وحركات الشباب، والسود الأفارقة الأمريكيين، وأيضًا حركات التحرير في العالم، ومنها حركة المنتدى الاجتماعي العالمية. هذه الحركات يمكن، إن اتحدَت عالميًّا ومحليًّا في كل بلد، أن تقضي على هذه الردَّة الخطيرة داخل أمريكا وفي العالم كله. لابد من رفع شعار فصل الدين عن الدولة، ألَّا يكون الدين مصدرًا للقوانين أو الدستور أو مناهج التعليم أو لوائح العمل السياسي أو الاجتماعي أو غيرها. ألَّا يُقسَّم الناسُ على أساس الدين أو الجنس أو الجنسية أو الطبقة أو اللغة أو الثقافة أو الهوية، أو ما تُسمَّى الخصوصية الثقافية.

أصبحت كلمة الهوية سلاحًا يُقسِّم الناس مثل سلاح الدين والخصوصية الثقافية. إن الحرية، أو الديمقراطية الحقيقية، تتعارض مع تقسيم الناس حسب اختلافاتهم الدينية أو الثقافية أو الجنسية، أو غيرها. لكن كلمة الديمقراطية أصبحت سلاحًا لتبرير الحرب والاغتصاب، مثل كلمة الدين أو حقوق الإنسان أو حتى حقوق المرأة. تتحدث سارة بالين عن حقوق المرأة لكنَّ أفكارها كلَّها ضد حقوق المرأة. كيف يمكن لملايين المشاهدين للسي إن إن، وفوكس نيوز، أن يُفرِّقوا بين الحقيقة والوهم؟ هذا هو التحدي الأكبر في هذا القرن الواحد والعشرين وعصر ما بعد الحداثة.

أطلانطا، جورجيا

ماكين وأوباما

أطلانطا، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٨م

جاءت صديقتي الأمريكية «جانيت» هذا الصباح لنذهب معًا إلى مطار أطلانطا، مسافة نصف الساعة بالسيارة من بيتي. أصبحتُ أكره السفر وركوب الطائرات والانتظار في المطارات، وأكثر ما أكره هو الخضوع لإجراءات التفتيش، يقوم بها رجال ونساء البوليس الأمريكي. لا تختلف وجوه البوليس وإن اختلف الجنس؛ البوليس هو البوليس في كل مكان وزمان منذ نشوء العبودية، أو ما عُرف في التاريخ باسم النظام الطبقي الأبوي. لم تتغير فلسفة هذا النظام حتى اليوم، فقط تغيرت أثوابه وأشكاله وأسماؤه. أصبح يحمل اسم النظام الديمقراطي الحديث، أو ما بعد الحديث. إجراءات التفتيش البوليسية في أمريكا أشد مما هي عليه في أوروبا، خاصة إذا كانت سحنتك عربية أو جواز سفرك يكشف عن أصولٍ عربية. العدو اليوم هم العرب، نعم العرب هم العدو وليس الإسلام، إنهم أصدقاء المملكة السعودية الإسلامية، يؤمن بها جورج بوش والكتلة المسيحية الإسرائيلية المدعِّمة له ولحزبه الجمهوري، بمن فيهم جون ماكين ونائبته سارة بالين.

إن تشكَّك البوليس في تركيب دمائك و«دي. إن. إيه» يخلعوا عنك الأحذية، ويفتحوا فمك يفحصون أسنانك وحلقك وبلعومك، كما فعلوا مع صدام حسين قبل قطع رأسه أو وضع عنقه في المشنقة. لم أساند صدام حسين ولا أي رئيس دولة في أي بلد. بيني وبين السلطة الحاكمة عداء منذ آلاف السنين، منذ تأثيم حواء (قائدة المعرفة في التاريخ) وربطها بالشيطان، ورفع الجنس الذكوري الآثم إلى مصافِّ الآلهة.

أقرب الصديقات إليَّ هي جانيت، شابة في الرابعة والعشرين، طالبة في فصلي عن «الإبداع والتمرد»، تُجهِّز رسالتها لدرجة الدكتوراه في الأدب. يُذكِّرني حماسها للإبداع

والتمرد بابنتي الشاعرة الدكتورة منى حلمي. لم يعُد الشعر منفصلًا عن السياسة، تكتب جانيت شعرًا سياسيًّا يتمرد على الظلم والتفرقة بين الناس، على أساس الجنس أو الجنسية أو الدين أو اللون أو الطبقة، أو غيرها مما يُسمُّونه «الهوية». وقالت جانيت ونحن في السيارة في طريقنا إلى المطار: هل شهدتِ الحوار بالأمس؟

طبعًا شهدتُ الحوار، بل شهدتُ المعركة الانتخابية كلَّها من بدايتها العام الماضي. وقالت جانيت، معركةٌ مملة زائفة، كأنما هناك ديمقراطية!

ودار الحوار بيننا، حتى بلغنا المطار.

بالأمس كان الحوار الأخير بين باراك أوباما، المرشَّح الديمقراطي للرئاسة الأمريكية، ومنافسه الجمهوري جون ماكين.

لم يبقَ على موعد الانتخابات في ٤ نوفمبر إلا أيامٌ معدودة. تابع الشعب الأمريكي حتى الثمالة والملل هذه المعركة منذ العام الماضي. مضت الأيام والشهور ولا شيء في الإعلام إلا العراك بين مرشَّحي الحزبَين المتنافسَين، الجمهوري والديمقراطي، كأنما هناك اختلافٌ خطير بين الحزبَين، ويعلم الجميع أنها اختلافاتٌ سطحية لا تمس الجذور، أو الأعمدة التي يقوم عليها النظام العسكري النووي الرأسمالي الاستعماري.

يشتد وطيس المعركة الانتخابية، مع الأيام. وما إن قرب موعد الامتحان، حتى دخلَتِ المعركة كما يحدث دائمًا في مرحلة المهاترات وتبادُل الاتهامات غير النظيفة، وخَلْق الإشاعات غير الصحيحة لضرب الخصم المنافس، معركةٌ بعيدة كل البعد عن المبادئ الأخلاقية أو حقوق الإنسان، أو حق الاحترام، وعدم التعرُّض للسب أو القذف أو تشويه السمعة لدى الرأي العام.

لكنَّ كل شيء مشروع في ظلِّ ما يُسمى حرية السوق، لترويج السلعة وبيعها بأية وسيلة. كل شيء يصبح سلعةً تبُاع، حتى الإنسان والانتخابات. ليس جسد المرأة فقط يُباع في سوق الجنس، بل العقل داخل الرأس، أو القلم الذي يكتب به الإنسان، يُباع العقل والقلم لمن يدفع أكثر.

البغاء العقلي أشد خطورة من البغاء الجسدي؛ لأنه يُدمِّر عقول الملايين ونفوسهم، وماذا يبقى للإنسان بعد تدمير عقله ونفسه؟

الهدف الأساسي من هذه الحرية الزائفة هو المكسب أو الربح، على حساب أي شيء، وإن مات البشر جسديًّا بالسموم في الهواء والماء وعُلب الطعام والأدوية، وإن ماتت عقول الناس بالوعي الزائف، والإعلام الكاذب المموَّل بالمال. تدفع الشركات الرأسمالية الكبرى،

سرًّا وعلنًا، للمرشَّحين ولأصحاب الأعمدة في الصحف الكبرى. يبيعون أقلامهم وضمائرهم لأصحاب النفوذ، كما يفعل أصحاب الأعمدة الصحفية في كل البلاد، بما فيها بلادنا. الصحافة هي السلطة الأُولى وليست الرابعة، وكم يرتفع سِعر المقال بالقرب أو البعد من الرئيس؟!

لكنَّ أشد أنواع القتل هو «اغتيال الشخصية» بالإشاعات المدمرة لسمعة الإنسان في مجتمعه وكرامته، لدى الأهل والأُسرة. هذا هو ما يُسمُّونه حرية الانتخابات؛ شيء يبعث على الغثيان. كيف تتلوث سمعة المرشح، سياسيًّا وجنسيًّا وماليًّا؟ تَمَّ اتهام جون ماكين بالرشوة، ويجري البحث في حياة باراك أوباما السرية للعثور على خيانةٍ زوجية، مع واحدة من بنات الهوى، أو حبذا زوجة رجلٍ آخر، إلا أن باراك أوباما شديد الإخلاص لزوجته الرشيقة الذكية، كما أنه يبدو زاهدًا في أمور الجنس. ينافس الرجال الآخرين في الحكم وليس في الفراش، وكم تقع في حبه النساء رغم أذنَيه الكبيرتَين البارزتَين خارج رأسه! إلا امرأةً واحدة هي سارة بالين تراه أسود البشرة، زنجيًّا عبدًا أو أسوأ من ذلك عربيًّا، مسلمًا. الإشاعات تُغذِّي هذه الانتخابات.

مستنقع من الإشاعات يُسمُّونها انتخاباتٍ حرة، بمعنى حرية الكذب وديمقراطية الخداع.

حرية قتل الشخصية المنافسة بأية وسيلة، مشروعة وغير مشروعة.

لقد شهدتُ مرارًا مثل هذه الانتخابات في أمريكا وغيرها من بلاد العالم بما فيها بلادنا، وأدركتُ كيف يتخفى الاستبداد والأحادية تحت التعدُّدية والحرية، كيف تذوب الديمقراطية في الديكتاتورية. ربما يكون الفرق الأساسي بين بلادنا وبلادهم أن الناس في بلادنا أكثر سخرية وتهكما بإطلاق النكات والقفشات والفكاهات. لا يأخذ الناس في بلادنا الانتخابات الرئاسية أو غيرها مأخذ الجد؛ لأن اللعبة بدائية ومكشوفة أكثر في بلادنا. لكن هنا، في أمريكا، تلعب التكنولوجيا المتقدمة دورًا ذكيًّا مبدعًا في إخفاء الحقيقة، حتى جرائم التعذيب في السجون ترتدي ثوبًا إنسانيًّا، والحروب الاستعمارية الدموية تتحول إلى أعمالٍ حضارية راقية. أقبح الأشياء يتم تغليفها بأجمل غطاء، أرخص السلع تبدو ثمينة تحت الأضواء.

إنه النظام القائم على الاستهلاك، تسويق السم داخل العسل، تحويل الفسيخ إلى شربات. يحمل هذا النظام في بطنه بذور فنائه، يأكل نفسه من داخله، ويسقط، كما يحدث له الآن.

الجمعة الماضية فتحتُ التلفزيون ومددتُ ساقي فوق الأريكة الوثيرة، تركتُ النافذة مفتوحة. الجو دافئ والليل في الخارج ساحر في الصمت الكامل، إلا الهمس الناعم لحفيف الهواء يداعب أوراق الشجر. رائحة الزهور المبللة بقطرات المطر معبأة بشيء يشبه الحب في ربيع العمر، أغمض عيني وأشرد بعيدًا، في الزمان والمكان، منذ كنت فتاةً تحلم بالحب، بالسعادة، مثل كل فتاة في كل زمان ومكان. لا تدرك الفتاة كم يتخفَّى القبح تحت الجمال! كم ترتدي القسوة حجابًا ملائكيًّا من السماء! كم يصنع الخيال من القرد غزالًا!

فتحتُ عيني على وجه جون ماكين فوق الشاشة، وجه عجوز رغم عمليات التجميل. استأصل الأطباء ورمًا سرطانيًّا في فكِّه الأسفل، نشروا في الصحف بيانًا كبيرًا وقَّعه بأسمائهم ثمانية آلاف طبيب، يطالبون جون ماكين عدم إخفاء مرضه (الميلانوما) عن الناخبين. يظهر الورم أو بقايا الورم تحت فكِّه الأيسر رغم جراحة التجميل. ترتفع يده دون وعي منه كأنما يُخفيه دون جدوى. يحاول أن يبدو شابًّا خفيف الحركة مثل غريمه باراك أوباما، دون جدوى. جسده المنهك الهرم يتأرجح فوق ساقَين مصابتَين بالتهاب المفاصل.

يرتعش الورم في فكِّه مع ارتعاشة عضلات وجهه المرتخية مع الزمن. ليست الشيخوخة عيبًا في نظري، بل هي قمة النضوج واكتمال السحر، وكم يتمتع بعض كبار السن بجاذبية أكثر من الشباب! توفيق الحكيم كان، بالبريق في عينَيه، أكثر جاذبة من الشباب المحيطين به. سهير القلماوي كانت، بشعرها الأبيض وصوتها العميق أكثر جاذبية من الشابات المحيطات بها.

شيخوخة العقل لا الجسد هي التي تصنع القبح.

الكذب أيضًا يُشوِّه ملامح الوجه، ما إن يفتح جون ماكين فمه حتى تلتقط الآذان رائحة المراوغة والتناقُض. هو واحد من أصحاب البلايين، يشارك في حماية القطط السمان في وول ستريت، والمضاربين في البورصة والشركات الكبرى، مثل غيره من أقطاب الحزب الجمهوري.

تعتمد خطة جون ماكين الاقتصادية على إطلاق الحرية للأثرياء دون التقيُّد باللوائح، وتخفيف الضرائب عليهم، بحجة أن أصحاب الأموال، إن اتسعَت أعمالهم زادت أرباحهم، وإن زادت أرباحهم زادت مساعداتهم للفقراء، وزادت قدرتهم على توفير فرص العمل للعاطلين في شركاتهم الرابحة، كما يمكن للدولة أن تمنحهم مزيدًا من التأمينات.

تعمل الدولة لدى أصحاب الأموال وأصحاب الأعمال والشركات الخاصة. هذه هي دولة رجال الأعمال، وقد تم تصديرها إلى بلاد العالم، إلى بلادنا العربية والأفريقية، وإلى الصين والهند وروسيا بعد سقوط حائط برلين.

وهذه هي حرية الرأسمالية، حرية أن تعيش عاطلًا أو عالةً على الدولة تأخذ معاشًا وأنت شاب، أو ما يُسمَّى «بدل الفقر». تعطيك الدولة الملاليم لتأخذ منك حقوقك الإنسانية، أولها حق التمتع بعملٍ منتج يحفظ كرامة الإنسان، فلا يقبل منحة أو مساعدة أو حسنة من الأغنياء. كم من شباب يحملون المؤهلات العليا للعمل المنتج المبدع، لكن معدلات البطالة تتزايد يومًا وراء يوم مع تفاقم الأزمة الاقتصادية. يفشل النظام في توفير فرص العمل، فكيف بتحقيق العدالة الاجتماعية، أو تكافؤ الفرص بين الناس، أو تقليل الهوة المتزايدة بين الطبقة الثرية والطبقات الكادحة، بما فيها الطبقة الوسطى: المثقفون وأساتذة الجامعات والمبدعون في جميع المجالات؟ أصبح هؤلاء ضمن الفقراء الكادحين، كما يحدث في بلادنا وغيرها من البلاد الدائرة في الفلك الأمريكي.

خلف جون ماكين، من ناحية اليمين، تقف زوجته مثل تمثال من الشمع، وجهها طويلٌ ممتقع، شفتاها رفيعتان، كالأسلاك الكهربائية. مشدودتان، تشبهان شفتَي جورج دابليو بوش بالضبط، كيف تُقبِّل زوجها بهاتَين الشفتَين؟ بهذين السلكَين القاطعَين إلى حد البتر؟ رغم الألوان والماكياج وعمليات التجميل، تبدو عاطلة من الجمال. عيناها خاليتان من التعبير، مليئتان بالخواء، ترمق بطرف عينها نائبة زوجها (سارة بالين) الواقفة خلفه ناحية اليسار. تتخفى الغيرة بلونٍ باهت صامت بين امرأتَين تقفان وراء رجلٍ واحد. تكون الزوجة دائمًا في مكانةٍ أقل من المرأة الأخرى: النائبة أو المساعدة أو السكرتيرة أو الصديقة أو العشيقة. أيًّا كانت المرأة الأخرى تظل الزوجة في الدرجة الأدنى. ثمن الزوجة في ظل النظام الطبقي الأبوي هو أبخس الأثمان، ومع ارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة الإنسان يصبح ثمن المومسات والخادمات في البيوت أعلى من ثمن الزوجات.

أتابع باستمتاعٍ أدبي حركة العضلات في وجه السيدة زوجة جون ماكين.

كيف تقف هذه المرأة، بأنفها الحاد الرفيع، كالصنم وراء زوجها؟ ليس لها عمل إلا أن تمطَّ بوزها في اشمئناطٍ حين تسمع اسم باراك أوباما، كأنما تهمُّ بالبصق عليه، مع تحريك عضلات وجهها وإصبعها الأوسط إلى أسفل، بظفرها الطويل المدبَّب علامة سقوط أوباما إلى أسفلِ سافلين. هل هي مؤجَّرة من حزب زوجها فقط لتلعب بعضلات وجهها وإصبعها في لعبة الانتخابات؟

إن غريمتها الأخرى، سارة بالين «النائبة»، لها دَورٌ في الكلام على الأقل؛ فهي تُلقي خطبًا على الناخبين، وإن كانت خطبًا من الدرجة العاشرة، أو كلماتٍ سوقية بصوتها المسرسع، شتائم مستترة ضد باراك أوباما المنافس القوي لرئيسها جون ماكين.

حركات يدَيها وأصابعها، وهي تهاجم أوباما، تُذكِّرني بشرشحة النسوة في باب الشعرية. تكيل سارة بالين التهم لباراك أوباما، تُلصق به تهمة الإسلام، دين أبيه الأفريقي الكيني، مع أنه مسيحي على دين أمه الأمريكية. تدَّعي السيدة سارة أنه عربي ضد السامية، مع أنه مع إسرائيل مائة في المائة. تُلصِق به تهمة الإرهاب، لماذا؟ تقول إنه كان على علاقة بمجموعةٍ سرية حين كان في الثامنة من عمره! يُصفِّق لها أعضاء الحزب الجمهوري ويهتف بعضهم: الخائن! الإرهابي! اقتلوه!

تحريضٌ سافر علني على اغتياله. الاغتيال السياسي الجسدي وارد، وكم يهرب القاتل دون أن يقبض عليه البوليس، دون أن يعرفه أحد! حتى اليوم لم يعرف أحدٌ مَن قتل جون كينيدي ومن قتل مارتن لوثر كينج. وبالأمس صوَّب رجل في الشارع مسدسه على صورة باراك أوباما فوق صدر شابٍّ صغير.

وتبتسم سارة بالين في زهو، كأنما أطلقت عليه النار وسقط ميتًا. تنام السيدة سارة محتضنة بندقيتها، تستشعر لذة القتل كالأورجازم. تطلق على نفسها شعار حزبها «مع الحياة» ويعني «مع حياة الجنين في بطن الأم»؛ أي «ضد الإجهاض»، وإن كان لإنقاذ طفلة في الرابعة عشرة اغتصبها رجلٌ كبير، وقد حملَت ابنتها (سارة بالين) دون زواج وعمرها تسعة عشر عامًا، وتفاخرت أمها (سارة بالين) أمام الناخبين أنها ضد الإجهاض؛ ولهذا لم تجهض الجنين في بطن ابنتها؛ لأنها (سارة بالين) مع الحياة وليست مع الموت.

إنها مع حياة الخلايا التي لم تتشكل بعدُ، مع حياة النطفة التي لم تصبح كائنًا حيًّا، لكنها مع قتل الآلاف من الأحياء الرجال والنساء والأطفال، في البلاد الأخرى التي لا تتمتع بجنسيتها الأمريكية ودينها المسيحي.

سمِعتُها (سارة بالين) تصرخ فوق المنصة مع جون ماكين، يُعبِّآن مشاعر الشعب الأمريكي ضد الشعوب الأخرى، للحرب العسكرية حتى الإبادة الكاملة للبشر في فلسطين والعراق وإيران وأفغانستان وباكستان، وكل من يُهدِّد مصالح أمريكا وإسرائيل.

رد جون ماكين على السؤال: لو أن إسرائيل تعرضَت لأي هجوم ماذا تفعل إذا كنت الرئيس الأمريكي؟ هل تنتظر موافقة مجلس الأمن؟ تشنَّج جون ماكين وصرخ: لا، لا أنتظر مجلس الأمن. لا أنتظر أحدًا وإنما أعطي الأمر للجيش للتحرك فورًا.

سألَتْه فتاة: وماذا تفعل لو اعتدت إسرائيل على الفلسطينيين؟ فقال وهو يرسم على وجهه ابتسامة الملائكة: إسرائيل دولةٌ مسالمة يا ابنتي، لا تعتدي على أحد. بعد الحوار الأخير ربح باراك أوباما أصواتًا أكثر من جون ماكين، لا ينخدع الشعب الأمريكي إلى هذه الدرجة، لا تنجح دائمًا الأكاذيب. لم تنجح سارة بالين في دورها المزدوج، تلعب بأنوثتها تارة، وبذكورتها تارة أخرى، تهتز فوق كعبها العالي وتغمز بعينها في إغراء. قالت جانيت إن أنوثة سارة بالين أنعشَت جون ماكين أكثر من حبوب الفياجرا.

تمضي اللعبة الانتخابية بالناس، حتى الشعور بالملل والزهق، الحوارات المتكررة والأكاذيب المكشوفة والمستترة، الفضائح الجنسية والخيانات الزوجية والاختلاسات المالية. لا يعيب الرجل منهم أن يخون زوجته، في ظل هذا النظام الطبقي الأبوي. يقف أمام عدسات التلفزيون، مرتفع الرأس دون حياء أو خجل، زوجته تقف خلفه منكَّسة الرأس مكسورة العين، كأنما هي التي اقترفت الخيانة وليس هو.

لكن أغرب ما شهدتُ على الشاشة هو المحاكمة للمسئولين عن تسجيل الأسماء في كشوف الانتخابات. لقد تم اكتشاف عملياتِ تزويرٍ خطيرة لهذه الكشوف في عدد من الولايات، منها ولاية أوهايو وميشيجان وميزوري. هذه الولاية الأخيرة يسمونها «سرة الكتاب المقدس» Buckle of the Bible BELT تتركز فيها الكتلة المسيحية الأصولية المساندة لحزب جورج بوش وجون ماكين وسارة بالين، وقد قام رئيس جامعة ميزوري في يونيو الماضي ٢٠٠٧م بإلغاء العقد الذي وقَّعَته معي عميدة كلية الآداب (الدكتورة أديل نيوسان هيرست) لأكون أستاذةً زائرة بالجامعة. لماذا؟ لأن رئيس الجامعة سمع المحاضرة التي ألقيتُها ونقدتُ فيها سياسة جورج بوش، والكتلة المسيحية الأصولية المساندة له. لم أشعر بالغربة وأنا أتابع التحقيقات عن التزوير في تسجيلات أسماء الناخبين والناخبات. وكما يخرج الموتى من قبورهم في بلادنا لتسجيل أسمائهم في كشوف الانتخابات، حدث هذا أيضًا في أمريكا الديمقراطية. كُشفت الفضيحة في وسائل الإعلام هذا الشهر (أكتوبر ٢٠٠٨م)، آلاف الأسماء تم تسجيلها للانتخاب رغم أن أصحابها غادروا عالمنا إلى العالم الآخر، وانطلقَت النكت كما يحدث في بلادنا، ورأيت رسمًا كاريكاتيريًّا في صحيفة الجامعة يُصوِّر هيكلًا عظميًّا يخرج من القبر ومعه قلمٌ يُوقِّع به في السجل. تحت الصورة كتب الرسام: ولماذا لا يُبعث الإنسان من الموت وقد بُعث يسوع المسيح بعد أن مات فوق الصليب، وخرج من القبر يمشي؟

يمكن القول إن فن الكاريكاتير يتمتع بحريةٍ كبيرة، مثل الفنون الأخرى هنا في أمريكا، بشرط أن يكون عملًا فرديًّا. وقد رأيتُ كاريكاتيرًا ساخرًا من جورج بوش، بعد

تصريحه أن أزمة الطعام الأخيرة نتجت بسبب التحسُّن في مستوى المعيشة في الهند، وزيادة استهلاك الهنود للطعام. رسم الفنان مجموعة من السياح الأمريكيين في الهند، كل منهم سمين الجسد، بطنه منتفخ، يشيرون إلى بعض الأطفال الهنود، هياكل عظمية من شدة الجوع، ينبشون في صفيحة قمامة بحثًا عن الفضلات. يقول السياح لأنفسهم في ضيق: هؤلاء هم سبب أزمة الطعام، أصبحوا يأكلون أكثر مما ينبغي!

يلعب الإبداع الفني والأدبي دورًا بارزًا في النقد السياسي في جميع البلاد، في رفع الوعي لدى الرأي العام. هناك علاقة بين الإبداع والتمرد في كل زمان ومكان، منذ نشوء العبودية حتى اليوم، يلعب الإبداع والفن دورًا بارزًا في النقد وإثارة الجدل في كل الأمور، بما فيها المحرمات السياسية والمقدسات الدينية.

ولهذا حديثٌ آخر.

بين الدين والسياسة

٢٧ نوفمبر ٢٠٠٨م

أشرقَت شمس الخريف كالمعتاد في مدن الجنوب الشرقي للمحيط الأطلنطي، ومنها مدينة أطلانطا عاصمة ولاية جورجيا حيث أعيش منذ عامَين وأكثر.

يشتد الدفء وتشرق الشمس كما قالت «أندرونيكا»؛ لأن يوم الخميس الأخير من نوفمبر كلَّ عامٍ هو عيد الشكر لله والمسيح، يرسل الله والمسيح الشمس إلينا لأننا نقدم لهما الشكر في عيد الشكر. هكذا تقول أندرونيكا وهي تبربش بعينيها. تُذكِّرني البربشة بحركة العينَين لكثير من رجال ونساء الأديان في كل البلاد، وهذه التمتمة وتلاوة بعض الآيات المقدسات من الكتب الدينية السائدة. أندرونيكا عضوةٌ متحمسة للكتلة المسيحية السائدة تحت حزام الكتاب المقدس في الجنوب.

أحب أن أُشاكسها:

لماذا يا أندرونيكا يشكر الأمريكيون الله والمسيح الخميس الأخير كل نوفمبر؟

سألتُها قبل أن تسافر إلى أُسرتها في نيويورك بالأمس؛ فعيد الشكر هو عيدٌ أمريكي بحت، لا يشاركهم الأوروبيون أو المسيحيون في العالم هذا الشكر (كما يحدث في عيد الكريسماس أو عيد ميلاد المسيح)، هو عيدٌ عائلي بحت، يحتفل به أفراد العائلة وحدهم دون ضيوفٍ أجانب أو من خارج العائلة.

سافر الجميع منذ الأمس إلى عائلاتهم في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، أصبح الحي الجامعي (يُسمُّونه الكامباس) لي وحدي. تبدو الوحدة نعمةً لا يحظى بها إلا من ينشدها، وكنت أنشد الوحدة منذ طفولتي. كرهتُ الضجيج الناتج عن الزحام، في البيت كان العدد كبيرًا والزحام شديدًا، أشد منه الزحام في المدرسة والشارع ومكان العمل

وأي مكانٍ آخر يذهب إليه الإنسان: النادي، السينما، المسرح، القطارات، الأوتوبيسات، المراحيض العامة، حتى المدافن والقبور مزدحمة بالموتى، وكم شقيتُ في العمل سنوات الشباب والكهولة لأشتري مقبرتي دون شريك. نعم، كرهت الشريك منذ طفولتي، مثل الآلهة العظام في التاريخ لا يقبلون الشركة أو المشاركة أو الشراكة حسب لغة خبراء التنمية الرأسمالية الحديثة وما بعد الحديثة.

كانت القرية في طفولتي هادئة لكنها أصبحت أكثر ضجيجًا من المدينة، فوق كل بيت من الطين النيِّئ أو كوخ من التبن المعجون بالروث مكبر صوت (ميكروفون) يصرخ ليلَ نهارَ بأصواتٍ لا يمكن التقاطها من شدة ارتفاعها، منها التواشيح والدعوات، والابتهالات في المآتم أو الكوارث، ومنها الطبول والرقص والغناء في حفلات الزواج أو الطلاق. نعم شهدتُ في قريتي حفلًا أقامته زوجةٌ حصلَت على الطلاق، بعد خمسة عشر عامًا من الدوَخان على المحاكم. قالت لي هذه الزوجة التي تربطني بها صلة الرحم: الطلاق نعمةٌ يا دكتورة. الوحدة خيرٌ من جليس السوء.

كم من أزواجٍ وزوجات يعيشون معًا في تعاسة خوفًا من الوحدة، مع أن الوحدة نعمة، لا يعرف قيمة الوحدة إلا من يعيشها، نحن نخاف الوحدة مثل الموت لأننا لا نعرفهما؛ لأننا لا نعيشهما. تمهلتُ وأنا أمشي أستمتع برحيق الخريف، رائحة أوراق الشجر الساقطة تفرش الأرض بألوان الطيف، أدوس عليها برفق أخشى أن تموت تحت قدمي، أُحس بها تتحرك مثل كائناتٍ حية، مثل الأسماك الصغيرة الفضية الذهبية في بحيرةٍ صافية يلمع قاعها تحت الشمس.

تنتفض ورقة الشجر الحمراء بلون دم الغزال، الانتفاضة النهائية، هذا الرحيق الأخير قبل الرحيل، تتركز خلاصة الحياة في هذا الشذا لحظة الموت!

الذين لم يعرفوا الوحدة لم يعرفوا قمَّة الوداع المُبدِع للأشياء الساقطة في الطريق، وإن كان ورقةَ شجرٍ صغيرة تلفظ نفسها الأخير، أو سِحلية تبرق عيناها متألقة تحت الضوء قبل الذوبان في الأرض. لا يعشق الوحدة إلا من يعيشها مثل الحب، وقد سألتني أندرونيكا ذات يوم: ألا تشعرين بالوحدة وأنت هنا في الغربة بعيدًا عن الوطن والأهل؟ وقلتُ لها: الوحدة أحد الأوهام مثل الموت، لولا جمال الموت ما كانت الحياة جميلة، لولا روعةُ الوحدة ما كان عمق التأمل والإبداع والخلق والتقدم. لكنكِ يا أندرونيكا لم تردِّي على سؤالي: لماذا الشكر في عيد الشكر؟ وقالت أندرونيكا: أعترف لك يا دكتورة أنني أشعر بالغربة وسط عائلتي في نيويورك أكثر من هنا في أطلانطا؛ هنا أشعر أنني قريبة من الله

والمسيح، أبي وأمي وأخواتي في نيويورك لا يؤمنون ولا يذهبون إلى الكنيسة، ولا يشكرون الله والمسيح في عيد الشكر! الشكر لهما واجب!

– لماذا يا أندرونيكا؟

– لأن الله والمسيح نصرا المهاجرين الأوائل الذين جاءوا إلى أمريكا!

– على مَن انتصر المهاجرون الأوائل؟

وتسكت الفتاة التي تحمل شهادةً عالية في التاريخ الأمريكي، ثم تقول: انتصروا على السكان الأصليين!

– وهل إبادة السكان الأصليين بواسطة المهاجرين عملٌ إنساني يستحق الشكر يا أندرونيكا؟

تسكت أندرونيكا طويلًا ثم تقول: بالطبع لا لكن الله والمسيح لا يساندان إلا القضايا الإنسانية العادلة.

– ألا ترين في كلامكِ يا أندرونيكا بعض التناقُض؟

– نعم، هناك تناقُضٌ يا دكتورة لكن التاريخ متناقض والحياة أساسها التناقُض، ثم إن النصر يكون دائمًا للأرقى من الأجناس البشرية، تصوري لو أن الهمج والبرابرة انتصروا على الأوروبيين؟ لولا انتصار أوروبا على غيرها من البشر لما حدثت النهضة الفكرية والعلمية التي نعيشها اليوم، لماذا نتكلم في أمريكا اللغة الإنجليزية؟ لأن الإنجليز الذين هاجروا إلى أمريكا تغلبوا على غيرهم من المهاجرين الآخرين.

– تغلبوا بماذا يا أندرونيكا؟

– تغلبوا بالعلم والذكاء والتقدم.

– سألتُها: هل هذه هي دراستُكِ للتاريخ؟

قالت: نعم. كان الإنجليز أول من جاءوا إلى أمريكا وتمكَّنوا من السيطرة على الآخرين وأصبحَت اللغة الإنجليزية هي السائدة.

رغم دراستها للتاريخ لم تعرف أندرونيكا أن التاريخ يكتبه المنتصرون دائمًا، وأن الإنجليز لم يكونوا أول المهاجرين إلى أمريكا. جاء أوائل المهاجرين إلى أمريكا من فرنسا عام ١٥٦٤م، سبقوا الإنجليز بخمسين عامًا إلى شاطئ النخيل في فلوريدا، هربوا من الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت التي أغرقت أوروبا بالدماء منذ عام ١٥٦٠م. كان الفرنسيون أول من أقاموا عيد الشكر لله والمسيح في أمريكا لنجاتهم من الحرب في فرنسا، وأَنشئوا مستعمرةً كاثوليكية باسم كارولين، لكن الله والمسيح نصرا البروتستانت على الكاثوليك، تم ذبح الفرنسيين في كارولين بتهمة الإلحاد، وسقط من التاريخ الأمريكي

تحت زحف الإنجليز دورهم: المهاجرون الفرنسيون الذين بدءوا عيد الشكر، لكن لسوء حظهم ما إن شكروا الله والمسيح على إنقاذهم من الموت في فرنسا حتى تم ذبحهم في أمريكا مع مئات الفرنسيين الذين نجَوا من السفن الغارقة. يغرق تاريخ المسيحية في أوروبا وأمريكا بالدم المراق خلال الصراع على الحكم والثروة بين الكاثوليك والبروتستانت، لأكثر من قرنَين من الزمان.

وقالت أندرونيكا: هذه صراعاتٌ سياسية ليس لها علاقة بالدين المسيحي الذي يدعو إلى المحبة والتسامح وإعطاء خدك الأيسر لمن يضربك على خدك الأيمن. أنا أشعر بالراحة والسلام حين أذهب إلى الكنيسة وأستمع إلى تلاوة الإنجيل وأحاديث القسيسة ماريون. أصبحتِ المرأة تحتل مثل الرجل منصب القس المقدس في الكنيسة؛ لأن المسيح لم يفرق بين الرجال والنساء، وهذا هو السبب أن المرأة الأمريكية تساوت مع الرجل في جميع القوانين. أنا أشعر أنني يمكن أن أصبح رئيسة أمريكا مثل باراك أوباما، لكني أُفضِّل أن أصبح قسيسة في الكنيسة هنا في أطلانطا مثل سيستر ماريون. هذه المرأة قديسة أتعرفينها يا دكتورة؟ أَلَمْ تسمعي عنها؟ إنها على صلة بالله والمسيح. يتقبل الله والمسيح دعاءها لإنقاذ المحرومين من الأب والأم، وقد تقبل الله دعاءها العام الماضي أيام الجفاف وأنزل المطر على أطلانطا وجورجيا! أصبح صوت أندرونيكا يشبه صوت مجذوب قريتي الأبله المليء بالقمل، حين كنتُ طفلة في الأربعينيات من القرن الماضي، وكانت جدتي الفلاحة تضربه بالعصا وتضحك عليه قائلة إنه بلا عقل لأنه يؤمن بالخزعبلات، كما أنه حرامي أيضًا يسرق أكفان الموتى ويبيعها في السوق مدعيًا أنه أحد أولياء الله.

لا أنسى صورة كبيرة للقسيسة «باستور ماريون كروم» رأيتها في جريدة النيويورك تايمز (١٤ نوفمبر ٢٠٠٧م) تتقدم مئات الرجال والنساء في قلب مدينة أطلانطا عاصمة ولاية جورجيا، في صلاة لله والمسيح طلبًا لإنزال المطر، هذا حدث في أمريكا في القرن الواحد والعشرين.

وقالت أندرونيكا: تقبل الله والمسيح صلاتها ونزل المطر بعد أيامٍ قليلة، بالضبط يوم عيد الشكر الماضي الخميس ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٧م. هذا يومٌ تاريخيٌ هنا في أطلانطا يا دكتورة؛ لأن الأمطار هطلت من السماء بأمر الله والمسيح، بعد شهورٍ عسيرة طويلة من الجفاف وانحباس الماء، ليس للزرع فقط بل مياه الشرب لنا نحن البشر، في أطلانطا على الأقل خمسة ملايين من السكان يشربون الماء القادم من بحيرة لانيز، وهي منخفضٌ تتبخر منه المياه عامًا وراء العام، إن غاب المطر عدة شهور قد يعم الجفاف، وقد تلجأ

حكومة ولاية جورجيا المحلية إلى عمل بطاقات لتوزيع الماء على الناس، إذا غضب الله والمسيح على سكان جورجيا ولم ينزل المطر.

تذكرتُ بطاقات التموين لتوزيع السكر والزيت في بلادنا على الفقراء والطبقات العاملة، ما زلت أحتفظ في سجل تاريخ مراهقتي ببطاقتي التموينية للحصول على حصتي المقررة كل شهر من الصابون والزيت والسكر والأرز. كنتُ أمشي من شقتي الصغيرة بالدور الخامس في شارع مراد بالجيزة إلى بقالة «اليماني» على ناصية الشارع حاملةً حقيبةً كبيرة من القماش الدمُّور، داخلها أكياس وزجاجات بلاستيك فارغة، أعود بها ثقيلةً على ذراعي خفيفة على قلبي. كانت سعادتي للحصول على حصتي المشروعة من التموين أكثر من سعادة الحب أو الجنس غير المشروع.

أما القس «الباستور أوك سوو بارك» فكنتُ أرى صورته طوال العام ٢٠٠٧م في جريدة النيويورك تايمز، على رأس مقاله الكبير شبه الأسبوعي، يحتل صفحةً كاملة، يتحدث فيها عن المعجزات السماوية الناتجة عن صلاته المنتظمة. كنتُ أتابع هذه المقالات باندهاش، كيف تُنشر هذه الأوهام على الناس في أمريكا في القرن الواحد والعشرين؟ أحد هذه الأوهام المنشورة في النيويورك تايمز (١٠ سبتمبر ٢٠٠٧م) أن القس أوك سوو بارك كان يقيم مركزًا يلجأ إليه بعض المحتاجين، فوق جبل ديدوك، وأنه مع المئات مِن الناس بذلوا الجهود وآلاف الدولارات والعمال والمهندسين وأدوات العلم لحفر الأرض بحثًا عن ينبوع ماء، دون جدوى؛ لم تكن هناك قطرة ماء رغم أن الحفر توغل في بطن الأرض عميقًا جدًّا. وأخيرًا لجأ القس أوك سوو بارك للصلاة والدعاء لله أن يرسل الماء، وفجأة بعد الصلاة! هوب! انبثق الماء من بطن الأرض كالنافورة! ويختم القس مقاله الطويل مؤكدًا على أن الإيمان والصلاة أكثر فاعلية من أدوات العلم.

وقد أردتُ أن أسأل هذا القس سؤالًا ملحًّا: لماذا يا سيدي لم تلجأ للصلاة منذ البداية قبل إنفاق الجهود العلمية والأموال على عمليات الحفر في الأرض؟

أصحاب العقول وأصحاب الذقون

منذ أيام قليلة، خلال الشهر الماضي (أكتوبر ٢٠٠٨م) صدر قرار من الفاتيكان بطرد قسيسٍ أمريكي أفنى من عمره ستة وثلاثين عامًا في خدمة الدين (اسمه روي بورجيوس) أقسى عقاب يمكن أن يناله قسيس. حتى القساوسة من الرجال الكبار، الذين اغتصبوا أطفالًا لم يتعرضوا لهذا العقاب! فماذا كانت جريمة هذا القس؟

كانت جريمته أنه وافق على صعود المرأة في الكنيسة إلى منصب القسيس! أعطاه رجال الفاتيكان فرصة للندم أو الاعتراف بالخطأ والتراجع عنه لينجو من العقاب، إلا أن هذا القس الذي قارب السبعين عامًا رفض التراجع ورفض الندم، وردَّ على الفاتيكان قائلًا بصوتٍ عالٍ غير هيَّاب:

من أنتم يا رجال حتى تدَّعوا أن الله منحكم منصب القسيس ولم يمنحه للنساء؟

لقد خدم هذا القسِّيس «روي» الدين المسيحي في بلادٍ متعددة، وسافر في حملات تبشيرية إلى بوليفيا والسلفادور، عاد منهما إلى بلده أمريكا ليناضل ضد التفرقة، من أجل السلام والعدالة الاجتماعية. جمع من حوله آلاف النساء والرجال، يعارضون التسليح والحروب، ينادون بإلغاء الفروق بين البشر، وقال القس روي للصحف:

حين جاءني الخطاب في ٢١ أكتوبر من الفاتيكان شعرت بالغثيان. ثم أفاق القس من غُمَّته وردَّ على الخطاب قائلًا: لن أندم! يشعر رُوي بالقوة في مواجهة الفاتيكان، فهو ليس وحده في هذه المعركة، معه أعدادٌ كبيرة من النساء والرجال في أوروبا وأمريكا منذ عام ٢٠٠٢م، بعد أن بدأت النساء داخل الكنائس يُنظِّمن أنفسهن في قوةٍ سياسية مناهضة للتدين التقليدي الذكوري، وحصلَت بعض النساء على منصب القسيس في بعض الكنائس في أوروبا، وقد اتهم البابا حينئذ تلك الكنائس بالردة والخروج على المعلوم من الدين، وأعلن البابا يوحنا الثاني قائلًا:

لقد اختار المسيح الرجال فقط ليكونوا قساوسة؛ لهذا لا يحق لأي كنيسةٍ إعطاء هذا المنصب المقدس للنساء!

فَقدَ رُوي الكثير من المَيْزات المالية والدينية التي يحظى بها القُسس، لكنه لم يتراجع، وبكى أبوه البالغ خمسة وتسعين عامًا لضياع مستقبل ابنه، لكنه أعلن برباطة جأش:

أعاد الله ابني «رُوي» سالمًا من حرب فيتنام، ومن أحراش بوليفيا والسلفادور، وسوف يحمي الله ابني في معركته الأخيرة ضد الفاتيكان، من أجل المساواة بين الرجال والنساء وإلغاء الفروق كلها بين البشر!

لماذا لا يتحلَّى كل رجال الدين والسياسة بهذه الصفات الإنسانية التي تحلَّى بها رُوي وأبوه؟ لماذا لا يكون الله هو رمز العدل والمساواة لدى كل رجال الأديان؟ لماذا يتحول الله لدى بعض الرجال (وبعض النساء) إلى وسيلة للتفرقة بين البشر، على الأخص بين النساء والرجال؟ لماذا في هذا القرن الواحد والعشرين أصبح الدين أداة للبطش والتكفير والقتل والتفرقة بين الناس؟

في بداية القرن الماضي أدركت جدتي الفلاحة التي لم تدخل المدارس أن ربنا هو العدل عرفوه بالعقل! هل المشكلة في المدارس الرديئة؟ هل تفقد مناهج التعليم الذكاء الفطري لدى التلاميذ والتلميذات؟ هل هي مناهج السياسة؟ أم مناهج التعليم الديني؟ أم إنها الدولة منذ نشوئها تحمي مصالحها وحكامها بالبوليس والدين ونظام التعليم؟ هذا الثالوث المقدَّس الذي قامت عليه الدولة والعائلة الأبوية منذ نشوئهما في العصور العبودية حتى اليوم، في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

لم يدرك أوباما أهمية النهوض بالتعليم في أمريكا، لم يحظَ النهوض بالتعليم إلا بالبند الخامس من برنامجه الرئاسي؟ رغم أن التعليم الجيد بالمدارس الجيدة هو الذي رفع أوباما إلى ما هو عليه من قدرةٍ فكرية وثقافية، هذه القدرة التي أقنع بها الجماهير من النساء والشباب، أن الأصوات التي حملَت أوباما إلى كرسي الحكم لم تكن لرجال الدين، بل أصحاب وصاحبات العقول الشابة المتحررة من رواسب الفكر المتخلف والتقاليد البالية. هل يتخلى أوباما عمن حملوه إلى البيت الأبيض ليخدم القوى السائدة في أمريكا من أصحاب الأموال وأعوانهم من أصحاب الذقون في الكنائس؟ هل يخدم أوباما هذه القوى ويُضحِّي بالعدل كما يفعل أغلب الحكام في أغلب الدول منذ نشوء ما عُرف باسم الدولة؟

يُؤكِّد أساتذة التاريخ القديم والحديث أن تفوُّق أوروبا وأمريكا على البلاد الأخرى لم يحدث إلا بسبب النهضة العلمية، وتغلُّب أصحاب العقول على أصحاب الذقون. هنا أتذكر قولة أبي العلاء المعري: سكان العالم قسمان، قسم لهم عقول وليس لهم ذقون، وقسم لهم ذقون وليس لهم عقول! سمعتُ أبي يُردِّد هذه المقولة منذ طفولتي، وكان لا بد لمؤلفات أبي العلاء المعري وابن رشد أن تُدرَّس للتلاميذ والتلميذات في بلادنا، إلا أن هذه المؤلفات مُنعت في مدارسنا، وأخذها الآخرون في أوروبا، ساعدَت مع أمثالها من الكتب المتقدمة أن تحدث النهضة الفكرية في أوروبا ومنها إلى أمريكا. أما نحن فقد أصبحتِ العصا لمن عصى، والحرق في نار الجحيم هو عقاب المفكرين والمفكرات، وأصبح أبو العلاء وابن رشد من الكفار الملحدين، وللحديث بقية.

هل يحدث تغييرٌ جَذْري
في عصر باراك أوباما؟

من النرويج إلى أطلانطا

أطلانطا الجمعة ٢٧ فبراير ٢٠٠٩

عدتُ إلى أطلانطا بالأمس، من رحلةٍ قصيرة إلى مدينة نوردهايم في الجزء الشمالي من النرويج، لقد دُعيتُ لإلقاء كلمةٍ رئيسية في مؤتمر الطلاب الدولي، الذي يُعتبر من أكبر المؤتمرات الدولية الشبابية، كانت القاعة الواسعة مكتظة بآلاف من الطلبة والطالبات من جميع بلاد العالم. أستعيد شبابي بين الشباب وأمشي معهم فوق الثلوج، أنسى سِنِي عمري المديد، وأحمل مثلهم شُعلةً من النار. آلاف الشعل النارية رأيتها تتحرك في الليل فوق آلاف الرءوس منها رأسي، يُسمُّونها مسيرة الشباب الصامتة ليلة ٢٢ فبراير ٢٠٠٩م من أجل السلام في العالم.

قدماي تغوصان في الثلج، وأمشي وأمشي كأنما إلى نهاية العمر، لا أشعر بالبرد، أستمد الدفء من حرارة الشباب وحماسهم من أجل السلام.

في الصباح، قلتُ لهم في كلمتي إن السلام لا يمكن أن يتحقق دون تحقيق العدل بين الدول في العالم الكبير وبين أفراد الأُسرة الصغيرة. إن السلام دون عدلٍ هو فلسفة العبودية التي تحكم نظام العالم حتى اليوم. السلام دون عدل هو أكذوبةٌ كبيرة شائعة في المؤتمرات وفي قاعات الأمم المتحدة، وفي المفاوضات الرسمية بين الدول، وفي الخطب

السياسية والإعلام والتعليم الزائف، وإلا فلماذا فشلت كل عمليات السلام بين إسرائيل وفلسطين؟ ما معنى عمليةِ سلامٍ قائمة على اغتصاب الأرض بالقوة المسلحة، ما معنى أن تدوس على عنقي بكعب البندقية ثم تتفاوض معي على السلام، قبل أن تتفاوض معي على السلام عليك أن ترد إليَّ الأرض المغتصبة، عليك أن ترفع عن عنقي البندقية، لا بد أن يتحقق العدل قبل أن يتحقق السلام، أليست هذه بديهية من بديهيات المنطق البسيط؟

إلا أن البديهيات ضاعت في عالمنا القائم على القوة وليس العدل، وضاعت البديهيات أيضًا في الأُسرة الصغيرة حيث يحكمها منطق القوة ذاته. ألا يقوم قانون الأُسرة في أغلب بلاد العالم على سيطرة الجنس الذكوري دون منطق ودون عدل؟ حتى في النرويج، رغم الحقوق الكثيرة التي نالتها المرأة فإن الأُسرة محكومة بالنظام الأبوي الطبقي، تترابط السلطة الأبوية مع سلطة الكنيسة مع سلطة الدولة مع سلطة المال والشركات والبنوك. تتزايد سلطة الدين في العالم الرأسمالي مع تزايُد الهوة بين الفقراء والأغنياء وتزايد الهُوة بين النساء والرجال، كلما زادت سيطرة رجال ونساء الأديان تزايد الخداع وضاعت البديهيات تحت دخان المباخر وضباب المقدسات.

دعتني حاكمة نوردهايم إلى العشاء ليلة الإثنين ٢٣ فبراير مع عددٍ قليل من الرجال والنساء، اسمها ريتا أوترفيك، امرأةٌ قوية الحضور ألقت كلمةً قصيرة قبل العشاء ثم شربنا النبيذ نخب الصداقة بين الدول والمساواة بين البشر، أدهشَني حماسُها وحماس المدعوين جميعًا للقضية الفلسطينية، بعضهم كان في غزة أثناء المذابح الأخيرة، تكلَّم أحدهم وهو موسيقي اسمه جيرهالد دالين عن دولة إسرائيل، قال إنها دولةٌ نازية تتستر وراء الدين لاغتصاب أرض فلسطين. زار هذا الموسيقي الفنان فلسطين وعاش مع أهلها ثم عاد إلى النرويج يدافع عن حقوق الشعب الفلسطيني ويكشف جرائم إسرائيل، سألَتْه إحدى المدعواتِ ما علاقة الموسيقى بالسياسة والحروب؟ رد عليها قائلًا: الموسيقى أو الفن الحقيقي يناضل ضد الظلم والحرب ومن أجل العدل والسلام، في أيِّ بلد في العالم، والعلم والطب أيضًا، ألم يذهب أطباءُ من النرويج إلى مستشفى الشفاء في غزة لعلاج الجرحى خلال المذابح الأخيرة؟

تردَّد اسم الطبيبَين النرويجيَّين مادز جيلبيرت وإريك فوسي اللذَين عادا من مستشفى غزة يفضحان بشاعة الجُرم الإسرائيلي ضد الأطفال الفلسطينيين، كيف استخدمَت إسرائيل أسلحةً خطيرة غير معروفة وغير مشروعة؟ كيف تغاضت ما تُسمى الشرعية الدولية عن جرائمِ إسرائيل لمجرد أنها مدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الأخرى في العالم؟

وتحدثتِ النائبة الحاكمة التي تكتب لها كلماتها السياسية، واسمها آن صوفي هانستاد وقالت: نحن هنا في نوردهايم نساند الشعب الفلسطيني بكل قوتنا، إنها قضيةٌ عادلة، قضية يتحمس لها أصحاب الضمائر الحية، الضمير الحي لا علاقة له بالقومية أو الهوية أو الدين، لا علاقة له بالكتب المقدسة أو الكنيسة أو الصلاة والصيام، الضمير الحي يتكون منذ الطفولة، حين يتربى الطفل أو الطفلة على العدل والحرية وشجاعة التعبير عن الرأي، لكن التربية الدينية والسياسية في أغلب بلاد العالم لا تُكوِّن الضمير الحي، بل إنها تقتل الضمير بالخوف والتخويف من نار الجحيم أو العقاب من أصحاب السلطة في الأُسرة أو المدرسة أو الدولة.

وسألني الموسيقي الفنان: هل تظنين أن عصر أوباما سيكون أفضل من سابقيه؟ قلت: ربما يكون أفضل بالنسبة للشعب الأمريكي، من حيث علاج الهوة الكبيرة بين الفقراء والأغنياء، والنهوض بالتعليم، وتوسيع مظلة التأمين الصحي لتشمل قطاعاتٍ أكبر من المحرومين، وتأمين العمل للعاطلين، وكلها إجراءاتٌ اقتصادية لا بد منها لإنقاذ الوضع الأمريكي المتدهور، لكن أوباما سيظل عاجزًا عن تغيير السياسة الخارجية الأمريكية، خاصة فيما يخص الشعب الفلسطيني. إنه مضطر للدفاع عن مصالح أمريكا القومية والاقتصادية في العالم العربي أو ما يُسمى الشرق الأوسط؛ وبالتالي هو مضطر لتأييد إسرائيل طول الوقت وإن خالف ضميره والمُثُل العليا التي يرددها في كل خطبه.

هزَّ الجميع رءوسهم علامةَ الموافقة على ما أقول، وساد صمتٌ طويل حزين، كأنما كان أوباما يمثل لهم أملًا جديدًا للقضاء على الحروب والمظالم في العالم، وقطعتُ الصمت الحزين بضحكةٍ مرحة قصيرة وقلت: وهل يمكن لفردٍ أن يغير العالم؟ هل يمكن لأي رئيسٍ أمريكي أن يحرر الشعب الفلسطيني أو أي شعبٍ آخر؟ التاريخ يؤكد لنا أن الشعب هو الذي يحرر نفسه بنفسه وبأفراده رجالًا ونساءً وأطفالًا، من الذي حرر الشعب النرويجي؟ وضحك الجميع وقالوا: نحن، نحن جميعًا.

وشربنا من جديدٍ النبيذَ نَخبَ الشعوب التي تُحرِّر نفسها بنفسها برجالها ونسائها دون تفرقة على أساس الجنس أو العِرْق أو الدين أو غيرها، وقالت آن صوفي هانستاد: عندنا مساواةٌ كاملة بين النساء والرجال في كل المناصب العليا في الدولة، عندنا حاكمات مثل ريتا حاكمة نوردهايم، وعندنا وزيراتٌ في كل مجال حتى الدفاع والجيش، وابتسمتُ وقلتُ: لكن هل تختلف سياسة وزيرة الدفاع والجيش عن نظيرها الرجل في ظل النظام الأبوي الطبقي؟ وساد صمتٌ طويل حزين.

عُدتُ من النرويج إلى أطلانطا، ركبتُ الطائرة من نوردهايم إلى كوبنهاجن، حوالي ساعتَين في الجو فوق الثلوج، تأخرتِ الطائرة في الإقلاع ساعة ونصف الساعة حتى أزاحوا الثلج عن جناحَي الطائرة، كل شيء يبدو لي كأنما أطير في حُلم أو أشهد فيلمًا سينمائيًّا في عالم آخر، ثم ركبتُ الطائرة إلى أطلانطا. اجتَزْتُ المحيط الأطلنطي في عشر ساعات. أخيرًا وصلتُ بيتي لأجد رسالة في الإيميل من القاهرة من ابنتي منى تقول: حمدًا لله ع السلامة يا أمي. أجمل رسالة من أجمل إنسانة تُبدِّد تعب السفر ومشاقَّ الطريق.

الموت المبكِّر للشباب في الوطن

في ذكرى الدكتور محمد فتوح

أطلانطا، السبت ٦ ديسمبر ٢٠٠٨م

تخلَّفتُ عن حضور حفل تأبين الدكتور محمد فتوح (الذي أُقيم خلال الشهر الماضي نوفمبر ٢٠٠٨م بمكتبة القاهرة بالزمالك) لأني هنا في أطلانطا، فيما وراء المحيط الأطلنطي. لولا هذا البعد الجغرافي الكبير، عشرات آلاف الأميال من الأرض والماء، لكنتُ ضمن الحاضرين، من الشباب والشابَّات، من جيل ابني وابنتي، الذين زاملوا الدكتور محمد فتوح، أو عرفوه، عن قُرب أو عن بُعد. لا يمكن أن تَعبُره في حياتكَ كما تعبُر الشارع، كما تعبُر الآلاف أو الملايين العابرة في طريق حياتك. هناك وجوه أو شخصيات تلقاها لأول مرة فتصبح جزءًا منك، لا تفارقك وإن غاب الشخص في المنفى أو السجن أو الموت. عاش محمد فتوح هذه المصائر الثلاثة؛ المنفى داخل الوطن مثل غيره من شباب الكتاب والمفكرين، السجن دون قضبان مثل العاشقين للحرية والعدل. لم يحظَ أبدًا بالشهرة أو المال أو المنصب. مات فقيرًا مريضًا لا يملك ثمن العلاج. كان يكتب المقالات والكتب دون أن يحصل على مليمٍ واحد، مثل أغلب الشباب والشابات. كان يكتب في الفلسفة والسياسة، يؤلف الموسيقى والألحان، كله ببلاش، كان سعيدًا في حياته أكثر من أصحاب المال والنفوذ، يستمد سعادته من الإبداع والخلق. هل هناك سعادة أكبر منهما؟

اليوم السبت ٦ ديسمبر ٢٠٠٨م، الشمس غائبة في سماء أطلانطا على غير العادة، ودَّعتُ الطلاب والطالبات في الجامعة بالأمس، أعطيتُهم جميعًا الدرجة النهائية «عشرة على عشرة»، أو حرف «أ» باللاتينية، أول حصة قلتُ لهم: لا تُفكِّروا في الدرجة النهائية، لا تهتموا بالشهادة العليا، لا يحفظ التاريخُ أسماءَ حَمَلة الدكتوراه ولا أصحاب البلايين والبنوك، ولا أسماء رؤساء الدول والملوك. هل تذكرون اسم الملك أو رئيس الدولة في عصر شكسبير أو فرجينيا وولف أو أنشتاين؟ لم يحمل محمد فتوح درجة الدكتوراه إلا قبل أن يموت بعامٍ واحد، ربما أراد أن يُهديَها لأبيه، كما فعلتُ مع أبي، أردت لأبي أن يفرح بابنته الدكتورة، ثم ألقيتُ بالشهادة في صفيحة القمامة بعد موته، لكن والد الدكتور محمد فتوح مات قبل أن يفرح به، قبل أن يرى أول كتاب يحمل اسمه. نشره الحاج مدبولي. يتميز مدبولي وسط الناشرين بشجاعةٍ نادرة (رغم أنه يحرق بعض الكتب بعد أن ينشرها ومنها كتابان لي العام الماضي). لماذا يفعل مدبولي ذلك مُعرِّضًا نفسه لخسارة الآلاف من الجنيهات؟ ربما لأنه عاشق لنشر الممنوعات وإن أعدمَها فيما بعدُ، ربما من شدة العشق (ومن الحُب ما قتل). تجاوز الحاج مدبولي السبعين من العمر مثلي. يحتفظ بمرح الشباب وجرأته، لهذا ينشر للشباب غير المعروفين مثل محمد فتوح. لا يسعى إلى الربح من كل كتاب، قال لي مدبولي قبل أن أغادر الوطن في أوائل فبراير ٢٠٠٧م: كتاب يعوض كتاب، أكسب في كتاب وأخسر في كتاب، يومٌ لك ويومٌ عليك، هي دي الدنيا يا دكتورة!

يا مدبولي لك وحشةٌ أكثر من أقربائي من عائلة أمي وأبي! لم تعُد علاقات الدم أو صلات الرحم أو ما تُسمى العائلة البيولوجية هي التي تُحدِّد لنا الأصدقاء والصديقات. أصبحتِ الصداقة، مثل الحب، تموت أو تنمو بين الناس مع نمو العقل والإنسانية والصدق والأمانة في القول والعمل.

بدأَت صداقتي للدكتور محمد فتوح منذ عام ١٩٨٢م، حين بدأنا نُكوِّن الفرع المصري لجمعية تضامُن المرأة العربية. وفَد إلينا الكثيرون من الشابات والشباب، منهم محمد فتوح، انضم إلى اللجنة الثقافية للشباب، وإلى فريق الموسيقى والشعر، كان عزفه على العود مثل صوته في الغناء، يجمع بين القوة والرقة، مثل شخصيته وإدراكه لمعنى الرجولة. لم يكن له شارب ولا لحية أو غيرهما (مما يُسمى في علم البيولوجيا أو الطب «المظاهر الثانوية للذكورة»). كان واثقًا بنفسه الأصلية، لم يكن في حاجة إلى المظاهر الثانوية البيولوجية ليقول أنا راجل. كذلك أيضًا لا تحتاج المرأة الواثقة بأنوثتها إلى إبراز نهدَيها وردفَيها، أو تلوين شفتَيها وتكحيل عينَيها. لكن كيف مات وهو شاب قبل أن

ينتهي من كتابه الثاني؟ ليس هو وحده الذي يموت شابًّا في بلادنا، أمي ماتت وهي شابة، وأبي مات شابًّا، وأخي مات شابًّا، وكثير من أصدقائي وصديقاتي ماتوا شبابًا. أنا وحيدة زميلاتي في المدرسة والجامعة التي بقيت حية. أغلبهن غادرن هذا العالم في الأربعين من العمر أو الخمسين لمن يطول بها العمر. تنشد الموت كثير من النساء غير السعيدات في حياتهن. من النادر أن تسعد المرأة في ظل قانون يجعلها نصف رجل، أو يمنح زوجها حق خيانتها علنًا وسرًّا. من النادر أن تسعد امرأة أو رجل لا يستطيع أيٌّ منهما التعبير عما يجول في عقله، أو لا يستطيع نشر أفكاره في كتاب، أو السير في مظاهرةٍ سلمية شعبية تنشد العدل أو الحرية. أحيانًا أشعر بالخجل أو تأنيب الضمير لأني تجاوزتُ السبعين عامًا من العمر؛ لأن الشباب يموتون، وأنا لا زلت أستمتع بالحياة. لا أعرف ما السر في طول عمري، رغم عشرات المآسي في حياتي. ربما هو الحُب المستحيل أنتظره قبل أن أموت؟ ربما هي سعادة الإبداع أو الكتابة تمسح من الذاكرة كل التعاسات، لا أدري لماذا أعيش وقد نشرتُ سبعة وأربعين كتابًا. وشبابٌ يموتون دون نشر كتابهم الأول، أو الثاني مثل محمد فتوح؟ ألهذا أدرك غياب العدل وغياب المعنى من هذا الكون؟ ألهذا أكتب ولا أملُّ الكتابة بحثًا عن المعنى والهدف من الحياة؟ وكم من فلاسفة في الشرق والغرب ماتوا قبل أن يكتشفوا هذا اللغز!

وكم من فلاسفة أعلنوا قبل موتهم أن معنى الحياة ليس له معنى؛ أن نعيشها كما هي الحياة بالمعنى أو اللامعنى! أن نستمتع ونسعد بها دون أن نعرف لماذا، وإن عرفنا لماذا فالأمر سيان، في النهاية نموت كما تموت كل الكائنات الحية. أما الكائنات الميتة فهي لا تموت؛ لأن الموت لا يموت. ومن هي الكائنات الميتة؟ هي التي تعيش وتموت دون أن يدرك العالم أنها عاشت وماتت، دون أن تفعل شيئًا يغير العالم، دون أن تترك أثرًا يُشجِّع الناس على العدل أو الحرية أو الصدق. هذه هي كلمات محمد فتوح منذ عامَين وأكثر، بعد أن نشر مقالًا في إحدى المجلات فأصبح متهمًا بالإلحاد والكفر؛ لأنه قال إن الله هو العدل وليس الدروشة والفتاوى الذكورية. نصحه بعض أصدقائه بعدم إثارة غضب التيارات الدينية والسياسية المتعصبة، وإلا تعرضت حياته للخطر، سمعته يرد عليهم قائلًا: الناس من خوف الموت في موت، والناس من خوف السجن في سجن، والناس من خوف الذل في ذل!

لم يمت محمد فتوح من الخوف، بل مات بالفيروس الشائع الذي يأكل أكباد الشباب في بلادنا فيروس «سي» هذا المجهول الذي ينهش في الظلام كبد الإنسان، والذي يزيد ثمن

العلاج في شهرٍ واحد على ضعف الأجر الشهري للفرد العادي، أعني الفرد الذي له عمل بأجر، فما حال الذي ليس له عمل، أو يعمل دون أجر، مثل أغلب الشباب الذين يكتبون المقالات أو الكتب دون مليمٍ واحد، مثل الدكتور محمد فتوح؟ كيف يقضي الشاب على فيروس «سي» قبل أن يقضي الفيروس عليه؟

أعترف أنني كرهتُ الأطباء ومهنة الطب. في ربيع عمري كنتُ طبيبة أعالج مرضى السل الرئوي، بالمشرط أو بالأقراص. كلاهما، المشرط أو الأقراص، لم يكونا يقضيان على جرثومة الدرن؛ فهي لا تنهش إلا رئة الإنسان المحروم من الطعام، أو المرهق بالعمل الجسدي والنفسي. الطعام الجيد والراحة الجسمية والنفسية يحميان الإنسان من مرض الدرن. كلاهما يصنعان (مع السعادة) المناعة الحامية لنا من جرثومة الدرن؛ فهي جرثومةٌ عديمة الإنسانية، مثل العالم الرأسمالي الأبوي الذي نعيش فيه، تحكمها القوة وليس العدل. تنقَضُّ الجرثومة على الضعفاء فقط، تخشى الأقوياء، لا تختلف عن غيرها من الكائنات التي تتربى على نهش الضعفاء، خاصة فصيلة البشر، الرجال والنساء. أقسى الوحوش تتربى على الخوف والجشع. أكثر الحيوانات إنسانية هو الأسد، لا يأكل الأسد فريسته إلا إذا جاع، لكن الرأسمالي البليونير، المشبع بالجشع والخوف، لا يتردد في نهش الأضعف وإن كان مصابًا بالتخمة!

هنا في أطلانطا أدفع من راتبي مبلغًا كبيرًا كل شهر لشركة التأمين الصحي، وهي شركةٌ رأسمالية قائمة على الربح، تستغل المرضى والأصحاء الخائفين من الأمراض. قلتُ لإدارة الجامعة إنني سليمة الجسم والعقل، ولا أريد أن أدفع شيئًا لشركة التأمين، لكن القانون الرأسمالي يحتم علينا أن نُؤمِّن على صحتنا رغم إرادتنا، لصالح الشركة بالطبع؛ لأن الحكومة تعمل لحساب الشركات وليس لحساب الأغلبية من العاملين المكافحين والمكافحات. لم ينجح باراك أوباما في انتخابات الرئاسة هذا العام ٢٠٠٨م إلا لأنه رفع شعار «التغيير». أغرق الناس بالوعود، بأنه سيحكم بالعدل وليس بالقوة، أن يراعي مصالح الأغلبية الفقيرة وليس الأقلية الثرية، أن يقلب هرم الحكم ليكون من أسفل، من القاعدة العريضة، إلى أعلى، وليس العكس. سوف نرى بعد ٢٠ يناير ٢٠٠٩م ماذا يفعل أوباما حين يعتلي العرش رسميًّا، بعد حفل التتويج الذي دفعت فيه الشركات الرأسمالية ملايين الدولارات.

قرأتُ بالأمس في الصحف أن عشرات الملايين من الدولارات دفعَتها الشركات لتأجير غرف في الفنادق للمدعوين إلى حفل تتويج أوباما في يناير، ويقولون إن البلد في أزمةٍ

اقتصادية. لكن من يعاني هذه الأزمة؟ في نوفمبر، الشهر الماضي فقط، فقد نصف مليون شخص أعمالهم وأصبحوا في الشارع، في طابور العاطلين، لماذا لا يلغي أوباما حفل تتويجه ويدفع هذه الملايين للعاطلين أو المرضى بدون تأمينٍ صحي؟ أو بتأمينٍ صحي وجوده مثل عدمه! وكم دفعت لشركة التأمين الصحي دون أن أحصل على شيء، ثم قررتُ عدم الذهاب إلى أي طبيب للكشف أو ما يُسمى الوقاية من المرض. أدفع في زيارة للطبيب خمسة وعشرين دولارًا؛ أي ما يعادل مائة وأربعين جنيهًا، لماذا؟ كي يرمقني الطبيب من طرف أنفه باستعلاء، ويُحوِّلني لعمل صورة أشعة للثدي أو جزءٍ آخر من جسمي. يتصور في خياله الطبي المريض أنني لا بد مريضة بالسرطان، لماذا؟ لأنني تجاوزت السبعين عامًا! أول الأمر أطعتُ الطبيب، مثل كل البلهاء، ودفعتُ ألف دولار في صورة الأشعة، ثم اكتسبتُ الوعي ولم أُطعِ الأطباء ولم أعد أفكر في صحتي. وما إن كففتُ عن التفكير في صحتي حتى عادت إليَّ الصحة والسعادة، وأصبحتُ كما كنتُ قبل أن يقع بصري على الطبيب.

سألتُ الدكتور محمد فتوح قبل أن أغادر الوطن عن حالته الصحية، قال إن حالته تتحسن، وابتسم تلك الابتسامة التلقائية التي يتميز بها أهل مصر من الريف، ابتسامة الإنسان البسيط السعيد رغم قسوة الحياة، الإنسان الأبيُّ، عزيز النفس الذي لا يشكو، ولا يطلب شيئًا وإن شارف على الموت. وأنا أُودِّعه رأيت الدموع الحبيسة تحت الجفون، قال لي: خلي بالك من نفسك يا دكتورة، إحنا في انتظارك، عودي إلينا. في صوته، لأول مرة، رنة حزنٍ عميق دفين. هل دار في خياله أنه اللقاء الأخير، أنني سأموت في الغربة قبل أن يراني مرةً أخرى، أم إنه هو الذي يموت في الوطن قبل أن أعود؟

سألتُ نفسي بعد أن قضى فيروس «سي» على حياة الدكتور محمد فتوح قبل الأوان، أكان يمكن لو حصل على العلاج أن يعيش ثلاثين سنةً أخرى أو أربعين؟ يكتب فيها كتابه الثاني والثالث والرابع، حتى الأربعين؟ لو أن الدولة منحَتْه ثمن العلاج كما تفعل مع القلة المحظوظة؟ القلة من النخبة الحاكمة أو ما حولها من كُتَّاب وصحافيين. يسافر الواحد منهم إن عطس إلى لندن أو باريس، فما بالُك إذا احتاج إلى زرع كبد أو كلية تنقذه من الموت؟ في ولاية ميزوري العام الماضي أفتى أحد القسس، من الكتلة المسيحية الرأسمالية، أن عملية زرع المخ تتعارض مع إرادة الله. تذكرتُ قولة الشيخ شعراوي في مصر منذ أعوام: «زرع الكلية حرام لأنها تؤجل لقاء الإنسان بربه.» وكم من نقاش دار حينئذٍ في الصحف حول مقولة الشيخ الشعراوي، لكن الأغنياء لم يستمعوا إلى فتاوى الشيخ، ونجحوا في تأجيل لقائهم بربهم عشرات السنين، بعد أن دفعوا ثمن الكلية الجديدة!

منذ أعوامٍ كثيرة مات أخي في شبابه بالفشل الكلوي. ومنذ أيامٍ قليلة مات الدكتور محمد فتوح في شبابه بالفشل الكبدي. وكم من شباب يموتون في بلادنا دون أن تهتز شعرة في جسد الدولة أو يطرف لها جفن! مما يجعلنا نسأل: كم تساوي حياة الإنسان؟ ليس في بلادنا فقط بل في العالم كله، المحكوم بالمال والسلاح والإعلام والتعليم. هنا في أطلانطا انتحر شاب بعد طرده من عمله، منذ أسبوع، بسبب الأزمة الراهنة. وفي لندن، منذ أيام، مات رجل بالسرطان لأن التأمين الصحي لم يدفع له ثمن العلاج. في نظم التأمين الصحي الرأسمالي يحظى الرجل العجوز في التسعين من عمره بحبوب الفياجرا لتنشيط ذكورته المتهالكة مع البنات الصغيرات، ولا يحظى الشباب المرضى أو الأصحاء بضرورات الصحة أو الحياة.

دفع محمد فتوح حياته من أجل أن يغير هذا العالم القبيح، ومن يدفع حياته لتغيير العالم لا يموت.

الصورة المُفبرَكة بدل الحقيقة المؤلمة

لماذا فبركَت جريدة الأهرام المصرية صورةً مغايرة للحقيقة، لتجعل الرئيس المصري يتقدم الرئيس الأمريكي والإسرائيلي الفلسطيني والأردني، في الموكب السائر إلى المفاوضات المباشرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين في واشنطن، في سبتمبر ٢٠١٠م؟ لولا اكتشاف هذه الخدعة بواسطة خبراء التزييف لَمَا أدرك الشعب المصري الحقيقة المؤلمة.

لماذا أصبح تزييف الوعي ظاهرة القرن الواحد والعشرين، قرن الإعلام التكنولوجي الحديث وما بعد الحديث؟

الحداثة أو ما بعد الحداثة كلماتٌ مزيفة، فَشِلَت في تهذيب العالم البشري ليصبح إنسانيًّا، لا غابةً قائمة على الحرب والاستغلال والخداع؟

نحن نعيش حضارةً طبقية أبوية واحدة، لا عدة حضارات، تُغيِّر من صورتها على الدوام، لتُخفي حقيقتها غير الإنسانية، لا يمكن استمرارها على مدى القرون دون تزييف، في الغرب الاستعماري العسكري، أو في الشرق المقهور داخليًّا وخارجيًّا، حضارة قائمة على الظلم، والتفرقة العنصرية والدينية والعِرْقية والطائفية والجنسية. لا تكُفُّ الحروب الدولية والمحلية الاقتصادية المادية التي تتغطى بشعاراتٍ دينية روحية مزيفة. أصبحَت كلمة الديمقراطية، أو السلام أو الشراكة أو الصداقة أو الحب أو الإيمان، ضمن أسلحة تغييب الوعي والتزييف.

ربما كانت صورة جريدة الأهرام المُفبرَكة ساذجةً مكشوفة، بسبب التخلُّف التكنولوجي في بلادنا، لكن في الغرب تصبح عمليات التزييف السياسي أو الاقتصادي أو الأخلاقي (ومنها الخيانات الزوجية) أكثر حصافة، وليصعب اكتشافها. تسافر النساء والرجال من الطبقات العليا في بلادنا إلى الغرب لإجراء عملياتِ تجميلٍ ناجحة للوجه والجسم، تصبح العجوزة المرأة أو العجوز الرجل في الثمانين كأنما في الخمسين أو

الأربعين، مع صبغة الشعر المتقَنة، أو الباروكة التي تشبه الشعر الطبيعي وتُخفي الصلعة تمامًا، وازدواجية الوجه. تزييف الوجه وحركة الجسم جزء من تزييف الأهداف والشعارات، تصاحب موسم الانتخابات في الغرب (وفي بلادنا) حُمى أكثر سخونة من حُمى الملاريا.

يكتظُّ الإعلام بصور المرشَّحين والمرشَّحات، وقد عادوا جميعًا إلى سن الشباب، بالبشرة المتورِّدة المشدودة، والكلام الناعم المعسول عن خدمة الفقراء والمقهورين. من أجل ماذا كل هذا التنافس؟ من أجل الله والوطن؟ لا أحد فيهم يعمل لنفسه ومكاسبه، الكل ينكر ذاته، يتنافس على خدمة الفقراء والله والوطن. يتقاتلون، يتراشقون بالاتهامات وأفظع الشتائم (من الفساد الاقتصادي إلى الفساد الجنسي)؛ كل هذا الصراع الدموي بين المتنافسين في الانتخابات (يمين يسار، حكومة معارضة، إخوان أخوات) من أجل خدمة الله والوطن والفقراء؟ المرشَّحون الأثرياء يدفعون مئات الآلاف من الجنيهات للناخبين. الأقل ثَراءً يُوزِّعون ثلاجاتٍ أمريكية، أو سجاجيد من إيران، أو مسابح من مكة، أو علب طعامٍ محشوة، كفتة أو كبابًا. قد يستخدم بعض المرشَّحين عصاباتٍ من البلطجية لضرب خصومهم أو تمزيق لافتاتهم، حتى المرشَّحات النساء يُقلِّدن المرشَّحين الرجال، في صراعهن الدموي حول الكراسي. قد لا تملك المرشَّحة الفقيرة إلا «الأنوثة» في لعبة الانتخابات، يفضحن مُنافِساتهن، يُروِّجن أنهن يعرضن «رشاوي جنسية» أو «يأكلن بأثدائهنَّ» للحصول على الحصانة البرلمانية. شائعات النيولوك وشد الوجه واللعب في صور المرشَّحات والمرشَّحين بالفوتوشوب، الرجال أيضًا قد «يأكلون بأثدائهم» أو بالرشاوي الجنسية، كلٌّ حسب قدرته، ولكل حسب حاجته.

كل هذا التقاتُل الانتخابي الرهيب، من أجل الله والفقراء وخدمة مصر الحبيبة، في أحلامهم فقط في ظلام الليل تَلوحُ لهم الحقيقة، تحت الصورة المزيفة: الملايين أو البلايين التي يكسبها نُوَّاب بيع الأراضي، أو نواب العلاج على نفقة الدولة، أو نواب القروض أو غيرها، وسائل الثراء الحديثة تحت قبة البرلمان. في الانتخابات الأمريكية أو الأوروبية تبدو الصورة الديمقراطية أكثر إتقانًا، تتخفَّى أموال الشركات الرأسمالية الكبيرة التي تُموِّل المرشَّحين والمرشَّحات. تتخفَّى المصالح والتحالُفات المسيحية اليهودية وراء الشعارات الروحية وكلمة الرب. تبدو النيولوك حقيقةً طبيعية لوجه العجوز من الحزب الديمقراطي المنافس للمرأة الحسناء من الحزب الجمهوري، وقفزاته الخفيفة على السلالم ينافس بها قفَزات باراك أوباما الشاب وهيلاري كلينتون الأقل شبابًا.

يمتد التظاهر وتغليب الشكل على الجوهر، والصورة على الحقيقة، من الانتخابات والسياسة إلى الدين والأخلاق والحب والحياة الخاصة. في نيويورك يُخفي حرقُ المصحف الأهداف السياسية للاستعمار الإسرائيلي الأمريكي، وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، والبنك الدولي وصندوق النقد، ومنظمة التجارة العالمية. تتحول الحرب الاقتصادية العالمية إلى حربٍ دينية طائفية. تم تحويل الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي على الأرض والثروات إلى صراعٍ ديني بين اليهود والمسلمين على الروحانيات وتحجيب النساء. تم احتلال العراق بالحرب العسكرية تحت اسم الديمقراطية وحقوق النساء والأكراد والشيعة والصوفيين. ينسحب الجيش الأمريكي صوريًّا من العراق (تاركًا قواعده هناك) بعد تحقيق أهدافه الثلاثة: احتكار البترول، تمزيق العراق طائفيًّا، سيطرة إسرائيل على المنطقة.

ترتدي هيلاري كلينتون، في مفاوضات السلام الأخيرة، وجهًا مشدودًا جديدًا. تتألَّق صورتها وهي تلفُّ ذراعَيها حول نتنياهو في ودٍّ حميم. يبدو هو الآخر أكثر شبابًا وسعادة. تترك هيلاري مسافةً بينها وبين الرئيس الفلسطيني، يجلس إلى جوارها عجوزًا حزينًا يائسًا، لكن التمثيلية تمضي في الإعلام، تنجح الصورة المزيفة في إخفاء الحقيقة. تستمر الإبادة للشعب الفلسطيني، عامًا وراء عام، تحت اسم عمليات السلام. تعلن هيلاري أخيرًا أن نجاح عملية السلام الأخيرة مرهونة بالتطبيع الكامل مع إسرائيل، والموافقة على البرنامج النووي العسكري في إسرائيل، والإدانة للمشروع النووي الإيراني.

أصحاب الضمير في العالم يُدينون الحكم الديني ورجم النساء في إيران، لكنهم يُدينون البرنامج النووي العسكري الإسرائيلي أكثر من إدانة المشروع الإيراني النووي غير العسكري. إنهم يحاربون الظلم والازدواجية وغطرسة إسرائيل وأمريكا، كما يحاربون الازدواجية الأخلاقية والاستبداد وقهر المرأة الإيرانية تحت اسم الدين، ثم إشاعة صورةٍ كاذبة في إيران عن سكينة. قالوا اقترفَتِ الزنى وتستحق الموت رجمًا. الحقيقة أن زوجها هو الذي اقترف الزنى بخيانتها، فأرادت الانفصال عنه فاتهمها بالخيانة انتقامًا منها. الحكم الديني السلفي في إيران يتحيز للرجل وإن كان خائنًا لزوجته، كما يحدث في بلادنا. ليس في القانون المصري مادةٌ تُعاقِب الرجل إن خان زوجته مع امرأةٍ أخرى. إن ضُبط متلبسًا بالخيانة فهو يُطلِّق زوجته بإرادته المنفردة ثم يعلن زواجه من العشيقة، وبهذا ينجو من أي إدانة، مثل الرجل الذي يغتصب فتاةً بالقوة يمكن أن ينجو من العقاب إن تزوجها؛ هذه الازدواجية الأخلاقية وعقاب المرأة وحدها، وإن كانت بريئة، أمرٌ شائع في جميع الأنظمة، إلا البلاد التي فصلَت بين الدين وقوانين الدولة، بما فيها قانون الزواج والطلاق والنسب والإرث والحضانة.

نحن نعيش في ظل حضارةٍ واحدة غير متحضرة، تُطلِق سراح الجاني لأنه الأقوى طبقيًّا وجنسيًّا، وتعاقُب المجنيَّ عليهم لأنهم الأدنى طبقيًّا وجنسيًّا، لكن الغرب يبدو متحضرًا أكثر بسبب التقدُّم التكنولوجي وإتقان الكذب والفبركة، والتحرير النسبي للنساء والفقراء. وقد تتحلَّى الدولة بصورةٍ دينية ظاهرية كما يحدث في بلادنا (الحجاب واللحية) لإخفاء الفساد في كافة المجالات.

عن التواطؤ ضد صحة الملايين في بلادنا

٢٢ أبريل ٢٠١٠م

ضحك بسخريةٍ كثير من زملائي الأطباء، حين قلتُ لهم (في قمة الحُمَّى الإعلامية عن مخاطر إنفلونزا الطيور والخنازير) إن شركات الأدوية الدولية تُغذِّي هذه الحملات الدعائية المغرضة، لتجني الملايين أو البلايين، من بيع الفاكسينات في بلاد العالم غير المتقدم، كما فعلت لبيع فاكسينات مرض الإيدز في قارة أفريقيا. اتهمَني الزملاء الأطباء بالإيمان بنظرية المؤامرة، وعدم الإيمان بالطب والدين، كما فعلوا معي، منذ نصف قرن من الزمان، حين أعلنَت في نقابة الأطباء أن عمليات الختان ضارةٌ صحيًّا واجتماعيًّا، وليس لها فوائدُ أخلاقية أو دينية. قبل ربع قرن من يومنا هذا، وبالتحديد يوم ٨ نوفمبر ١٩٨٥م، نشرتُ في مجلة «المصور» مقالًا بعنوان: «الخطر الغامض، حقائقُ جديدة حول حقن منع الحمل»، قلتُ فيه إن ملايين النساء في العالم «الثالث» ومنهن «المصريات» يتعرَّضن لخطورة حقن منع الحمل «الديبوبروفيرا» التي تنتجها شركة «إيجون» في أمريكا، والممنوعة داخل أمريكا قانونًا، وقد ثبت لهم أنها تتسبب بأمراضٍ سرطانية، وأمراضٍ في القلب والأوردة وتشوُّهاتٍ خِلقيَّة للأجنَّة.

في عام ١٩٦٥م، كانت شركة «إيجون» قد بدأَت في استخدام النساء في ٧٠ دولة منها بلادنا، كفئرانِ تجاربَ لهذه الحقن؛ أيْ ثلاث سنوات قبل استخدامها الحيوانات لهذه التجارب. لم تبدأ الشركة في استخدام إناث الكلاب والقرود الأمريكية لتجاربها إلا في عام ١٩٦٨م، ثم توقَّفَت الشركة تمامًا عن استخدام الحيوانات عام ١٩٧٣م، بعد ثبوت إصابة إناث الكلاب والقرود بسرطان الثدي أو الرحم. لكن الشركة ظلَّت ترسل هذه الحقن الخطيرة، بأمر الحكومات أو وزراء الصحة، إلى حوالي ٨٠ دولة، منها مصر

والعراق والبحرين والمغرب وعمان والكويت ولبنان وليبيا وقطر والسعودية والسودان وسوريا والإمارات العربية المتحدة وبلاد أخرى في أفريقيا وآسيا.

بعض هذه البلاد ليس فيها إداراتٌ للرقابة على الأدوية المستوردة، وقد ينكمش ضمير وزير الصحة ليقبل عمولة بآلاف المئات، أو ملايين الدولارات، لإصدار أمره بقبول أدويةٍ ممنوعة في البلاد التي تنتجها. وقد تنبهَت بعض حكومات لخطورة هذه الحقن؛ مما جعل شركة «إيجون» ترسلها مباشرة إلى الصيدليات كقطاعٍ خاص، يتمتع بحرية الاستيراد والتصدير، تحت اسم الليبرالية أو الديمقراطية أو الخصخصة.

وضع البنك الدولي أيضًا ضغوطًا على بعض الحكومات، لتعقيم النساء بهذه الحقن، تحت اسم تنظيم الأسرة أو تحديد النسل. وتم ربط الفقر في العالم «الثالث» بكثرة المواليد أو خصوبة النساء، وليس بالفقر والبطالة، بعض نتائج الاستعمار الجديد، وجشع الرأسمالية والسوق الحرة، وغياب التنمية الحقيقية الشاملة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية في هذه البلاد. كما شاركَت الهيئات الأمريكية والدولية لتنظيم الأسرة مع منظمات الأمم المتحدة في هذه الدعاية المُغرِضة، لتوزيع حقن منع الحمل، التي دمَّرَت صحة أجيالٍ متعاقبة من ملايين النساء، والأجنة داخل الأرحام. المواليد يرثون الأمراض والعاهات الخلقية من الأم المحقونة بـ «الديبوبريفيرا» وبـ «النوبلانت». ومن تقرير نشر في مجلة «مالتيناشونال مونيتور» عدد «مارس ١٩٨٥م، الصفحة ٢٧»، عن حجم الأموال التي دفعَتْها شركة «إيجون» لوزراء الصحة والمسئولين الكبار في الحكومة: «دَفعَت الشركة أكثر من أربعة ملايين دولار (بالتحديد حسب التقرير ٤٥٤٢٩٤٩ دولارًا) لمسئولين في ٢٩ دولة، في عامَي ١٩٧١م و١٩٧٦م، بالإضافة إلى مبلغ نصف مليون دولار (بالتحديد ٤٧٤٠٠٠ دولار) لمسئولين غيرِ حكوميين يعملون في مجال الصحة.»

وَرَدَ كلٌّ هذا وأكثر في مقالي المنشور بمجلة «المصور». وزير الصحة يومها (الدكتور حلمي الحديدي) طلب مني أن أضع تحت يده كل ما عندي من وثائقَ وتقاريرَ طبية وعلمية. تصورتُ بعد ذلك أن تحقيقًا سوف يجري على الفور، أو قرارًا عاجلًا بإيقاف حقن النساء بالعقار الضار، إلا أن شيئًا لم يحدث، ثم تَغيَّر حلمي الحديدي بوزيرٍ آخر. هل أصر على عمل تحقيق رفضته قوى أكبر دوليًّا ومحليًّا؟ يمكن أن تسألوه شخصيًّا عن هذا الأمر، الذي لم أعرفه حتى اليوم.

في يوم ١١ أكتوبر ٢٠٠٢م، كتبتُ مقالًا بعنوان: «نشوء الفيروسات والحرب البيولوجية الخفية»، لم تتحمس لنشره أي صحيفة، ونُشر ضمن كتابي «كسر الحدود»

من صفحة ٣١٨ إلى الصفحة ٣٢٢، الصادر بالقاهرة عن دار مدبولي عام ٢٠٠٤م، لخصتُ فيه كتاب الدكتور ليونارد هورويتز الصادر بالإنجليزية عام ١٩٩٧م، بعنوان «الفيروسات الناشئة» (Emerging Viruses, by Dr Leonard Horowitz, 1997 in English). أثبَتَ فيه الطبيب المؤلف أن منظمة الصحة العالمية، ووزارة الصحة الأمريكية، وشركات الأدوية، ووزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، تعاونَت جميعًا في إجراء أبحاث هدفها تخفيض المناعة عند الإنسان، كجزء من الأبحاث الخاصة بالحرب البيولوجية، تحت اسم حماية الجنود الأمريكيين ضد أي حربٍ بيولوجية قد يتعرضون لها. ومن المعروف طبيًّا أنه يكفي تخفيض المناعة في جسم الإنسان حتى تشتعل أوبئةٌ ناتجة عن الفيروسات والميكروبات الموجودة بشكلٍ طبيعي في البيئة الإنسانية.

ويؤكِّد الدكتور ليونارد هورويتز، بالبراهين والأدلة العلمية الدقيقة، أن فيروس الإيدز وصل إل سكان القارة الأفريقية بسبب هذه الأبحاث، وعن طريق الفاكسينات التي وزَّعَتها شركات الأدوية على الأفارقة لاختبارها. تم استخدامهم خنازيرَ وفئرانَ تجارب، تحت اسم «مشروعات التطعيم» للحماية من المرض، رغم إدراك هذه الشركات لخطورة التطعيمات بهذه الفاكسينات.

هكذا شاركَت منظمة الصحة العالمية في قتل الملايين الأفارقة، عن طريق المشاركة في توزيع هذه الفاكسينات. انتشر وباء «الإيدز» في أفريقيا، وأيضًا أوبئةٌ أخرى منها شلل الأطفال، وتحمَّسَت زوجات الملوك والرؤساء، في بلادنا الأفريقية والعربية، ورئيسات جمعيات النساء والأمومة والطفولة (عن علم أو جهل) لتطعيم الأطفال بهذه الفاكسينات الخطيرة.

عن طريق التمويه الإعلامي، والرشاوي للمسئولين والمسئولات، استطاعت هذه الشركات، وبما لها من قوةٍ سياسية وعسكرية واقتصادية وإعلامية، أن تُجهِض أي حركةٍ شعبية واعية لمنع هذه الفاكسينات، حتى جهود الأفراد من الأطباء تم حصارها، ومنع نشر مقالاتهم أو كتبهم، أو تسليط حكوماتهم لمطاردتهم، كما حدث لمؤلف الكتاب الدكتور هورويتز.

في شهر أكتوبر ٢٠٠٢م، بعد سبعة عشر عامًا، من نشر مقالي في «المصور» (٨ نوفمبر ١٩٨٥م) عن خطورة حقن منع الحمل، الديبوبريفيرا، التي توزعها شركة «إيجون» في مصر وبلادٍ أخرى، زرتُ قريتي «كفر طحلة» مركز بنها، محافظة القليوبية، فرأيتُ طوابير النساء الفلاحات واقفات أمام بابِ ما سُمي «مركز صحة الأم والطفل» يتنافسن

على الفوز بحقنة الديبوبريفيرا في أجسادهن الضامرة الممصوصة بسبب الفقر والجهل والمرض، مع التعب والشقاء في الحقل والدار، مع شتائم الزوج ولسعات عصاه كالنار، ليلَ نهارَ.

بعضهن كن قريباتٍ لي، من عائلة جدتي الفلاحة، التي ثارت مع أهل القرية ضد الحماية البريطانية (كلمة الحماية تعني الاستعمار) والملك فاروق. في طفولتي كنتُ أسمعها تغني مع الفلاحات: يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الإنجليز.

اليوم تُغنِّي زينب، ابنة عمتي والفلاحات: يا عزيز كبة تاخد الأمريكان.

اليوم ٢٢ أبريل ٢٠١٠م، بعد مرور عامٍ كامل من الدعاية المكثَّفة لمخاطر إنفلونزا الخنازير، قرأتُ في الصفحة الأُولى لجريدة «الأهرام» تحت عنوان: إنفلونزا الخنازير هلعٌ أحدثه تواطؤ الصحة العالمية مع شركات الأدوية العالمية الكبرى، التي حققَت أرباحًا خيالية من وراء بيع اللقاحات المضادة للفيروس، يا تُرى من يتولى التحقيق في هذه الجرائم نيابةً عن شعوبنا المقهورة؟

من وحي النخبة في مصر والبرتغال

كنتُ في مدينة لشبونة عاصمة البرتغال، من ١٦ إلى ١٩ مايو ٢٠١٠م، بدعوة من المجلس الأوروبي، بمناسبة مرور عشرين عامًا على إنشاء مركز الشمال والجنوب، تحت شعار «عالم واحد» من أجل التضامن العالمي، التعاون والتنمية والتبادل المشترك بين البلاد، أو ما تُسمَّى بالعربية «الشراكة»، منذ عام ١٩٩٥م. بدأ مركز الشمال والجنوب يمنح جائزةً سنوية لشخصيات تبرز عالميًّا، بسبب أعمالها الهامة، في مجال الفكر أو الفلسفة أو الفن أو العلم أو السياسة والاجتماع. من أوائل من حصلوا عليها «بيتر جابرييل» الموسيقار البريطاني، مؤسس «موسيقى العالم». عُرفت باسم «ويرلد ميوزيك». وحصلَت عليها «ماري روبنسون» رئيسة أيسلندا عام ١٩٩٧م. اختاروني عام ٢٠٠٤م لهذه الجائزة، تقديرًا لأعمالي الأدبية والفكرية، قدَّمها لي رئيس البرتغال في اجتماعٍ كبير في مدينة لشبونة، حضره رئيس البرلمان وأعضاؤه والوزراء والسفراء (منهم سفير مصر في البرتغال) والأدباء والمفكرون والفنانون والموسيقيون. طلبوا مني إلقاء كلمة كما هو متبع بعد استلام الجائزة. قلتُ فيها إن الأهداف والكلمات التي سمعتُها جميلة، لكن كلمة «الشراكة» تصيبني بالشك فأتساءل: هل يمكن أن تحدث الشراكة الحقيقية بين شركاءَ غير متساوين؟ هل يحدث تضامُن أو تعاوُن أو سلام بين بلادٍ تملك السلطة والثروة والسلاح النووي، وبلادٍ سُلبت مواردها بالحرب العسكرية أو الحرب الاقتصادية؟ ألا يتخفَّى الاستعمار دائمًا بالكلمات الجميلة؟ ألم تحتلَّ بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م تحت اسم الحماية والرعاية؟ ألم يحتلَّ الجيش الأمريكي (وبعض الجيوش الأوروبية) العراق عام ٢٠٠٣م تحت اسم الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق النساء؟ ألا تحتلُّ إسرائيل كلَّ عامٍ المزيدَ من أرض فلسطين تحت اسم عملية السلام؟ ألم تُؤدِّ مشاريع

التنمية والشراكة في السنين الأخيرة إلى مزيد من الفقر، في أغلب البلاد والبطالة، والهجرة، والإرهاب العسكري والاقتصادي والثقافي، وصعود اليمين السياسي الديني؟

عام ٢٠٠٨م حصل على الجائزة «جورج فيرناندو سامبايو». منذ كان طالبًا بكلية الحقوق في جامعة لشبونة، انخرط في الحركة الثورية ضد النظام الفاشستي في البرتغال، ورأس اتحاد الطلبة في ١٩٦١م. تخرج محاميًا ثوريًّا يدافع عن المسجونين السياسيين، ثم أصبح أحد مؤسسي حركة اليسار، والحزب الاشتراكي البرتغالي، أصبح عضوًا في البرلمان حتى انتخابه رئيسًا للجمهورية عام ١٩٩٦م. أُعيد انتخابه وظل رئيسًا للبرتغال من ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٦م، في عام ٢٠٠٧م أصبح ممثل الأمم المتحدة لتحالف الحضارات.

كنتُ من المشاركين في المائدة المستديرة يوم ١٨ مايو ٢٠١٠م، في حوار حول تحالُف الشمال والجنوب، التضامن العالمي، التنمية، الديمقراطية، تحالف الحضارات. ضمن المشاركين: جورج سامبايو، وأولافور جريمسون (الرئيس الحالي لدولة أيسلندا، يقود فكرة استبدال الفحم والبترول بالطاقة الخضراء النظيفة، الكهرباء، كما تفعل أيسلندا والهند والصين)، وماريو سوياريس (زعيم المعارضة في البرتغال ضد حكم أنطونيو سالازار الفاشستي، دخل السجن ثلاث عشرة مرة ونُفي عدة سنوات، قبل أن يصبح رئيس الوزراء عن الحزب الاشتراكي، تم انتخابه رئيس دولة البرتغال عام ١٩٨٥م، وأُعيد انتخابه عام ١٩٩١م). ضمن المشاركين أيضًا شخصيات من الشمال والجنوب منهم: عبد الرحمن يوسفي (رئيس الوزراء السابق في المغرب، دخل السجن مرتَين ونُفي عدة سنوات، برز في اتحاد المحامين العرب مدافعًا عن العدالة وحقوق الإنسان، أصبح رئيسًا للوزراء عام ١٩٩٨م، حصل على جائزة الشمال والجنوب عام ١٩٩٩م). جلستُ إلى المائدة المستديرة وسط هذه النخبة من الطبقات العليا، شعرتُ بالغربة رغم تاريخهم النضالي ضد النظام الرأسمالي الاستعماري، ربما لانضمامهم إلى الطبقات الحاكمة، أو ثرائهم الواضح وملابسهم الفاخرة. نساءٌ بالكعب العالي والمكياج المتقن. تسريحة الكوافير الألترا مودرن والعطر. أنا أرتدي صندلًا من الجلد، مفتوحًا بسبب الحر، وبنطلونًا وقميصًا من القطن، وجهي مغسول بالماء والصابون.

دار النقاش حول كيفية علاج مشاكل العصر الكبرى، الأزمة الاقتصادية، أزمة المناخ، أزمة التنمية، تفاقم الفقر، الحروب، الصراعات الدينية المتصاعدة، تحالُف الحضارات. أكثرهم حماسًا لتحالُف الحضارات هو جورج سامبايو. كان فخورًا بدوره في تحالُف الحضارات. جاءتنا الأخبار الجديدة في الصحف، أعلنت الولايات المتحدة انضمامها لتحالُف

الحضارات، الذي أصبح يضم ٩٩ دولة منها مصر والبلاد العربية وبلادٌ أوروبية وأفريقية وآسيوية. كان رئيس وزراء إسبانيا «خوسيه ثاباتيرو»، ومعه رئيس وزراء تركيا «طيب أردوغان»، هما أول المبادرين في إنشاء هذا التحالف خلال انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها التاسعة والخمسين عام ٢٠٠٥م.

حصل كوفي عنان (السكرتير العام السابق للأمم المتحدة) على جائزة الشمال والجنوب عام ٢٠٠٧م، لدوره في تدعيم تحالف الحضارات، وقد شكَّل لجنة من الشخصيات العالمية، ضمت محمد خاتمي (رئيس إيران السابق) لوضع أسس التحالف بين الحضارات. بين عام ٢٠٠٥م وعام ٢٠٠٦م عَقدَت هذه اللجنة أربعة اجتماعات، أولها في إسبانيا، ثم قطر، ثم السنغال، ثم تركيا، نتجت عنها الوثيقة الدولية لحوار الحضارات. يفخر بها جورج سامبايو ويقول: «هذه الوثيقة حدثٌ هام جدًّا لأنها تدل على تغير الفكر العالمي خلال السنين الأخيرة، انهزمَت فكرة صراع الحضارات وحلَّت مكانها فكرة التحالف بين الحضارات.» حين جاء دوري للكلام في اجتماع المائدة المستديرة قلتُ: «نحن في حاجة إلى نزع الحجاب عن هذه الكلمات الجميلة، مثل التحالف والتعاون والشراكة والتسامح والحماية والسلام، التي لا تتحول إلى فعلٍ في الواقع والحقيقة؛ لأننا نعيش في ظل نظامٍ عالمي رأسمالي أبوي، غير عادل، قائم على القوة والظلم والحرب والاستعمار، وليس العدل والمساواة بين البلاد أو بين الأفراد أو بين النساء والرجال. كلمة التسامُح لا تعني المساواة بل مسامحة الآلهة الأقوياء للعبيد الضعفاء، مثل كلمة الحماية، وكم تُقهَر النساء وتُستعمَر البلاد تحت اسم الحماية؟ بالطبع يلعب تحالُف الحضارات دورًا لتخفيف حدَّة الصراعات الحضارية والثقافية والدينية في العالم، لكن هل الصراعات الأساسية بين الدول حضاريةٌ ثقافية دينية؟ أم هي صراعاتٌ مادية على الأرض ومياه الأنهار والزرع والطعام والصحة والعلاج؟ هل احتلَّ جورج بوش العراق بسبب الدين أو الثقافة، أم للاستيلاء على البترول والثروة والسلطة؟ هل الصراع بين إسرائيل وفلسطين ثقافيٌّ ديني أم صراعٌ على الأرض ولقمة العيش وشربة الماء؟ هذا الكلام لا ينتمي للشيوعية والإلحاد أيها السادة، بل إلى منطق العدل وسلامة العقل؟»

رأيتُ بريق الإعجاب في بعض العيون البعيدة عن مراكز الحكم، وبريق الغضب في عيون الحكماء والحكام. تصوَّرتُ أنهم سيسحبون الجائزة التي منحوها لي عام ٢٠٠٤م، لكني سمعتُ التصفيق وكلمات التأييد من الجميع، قلت: ربما يتغير العالم في المستقبل، القريب أو البعيد.

أقبل نحوي سفير مصر في البرتغال، قال: اسمي أمجد عبد الغفار، نحن فخورون بك يا دكتورة. أنا متزوج من ابنة صديقك الأستاذ المرحوم أحمد بهاء الدين. ضحِكتُ وقلتُ: يعني بهاء كان حماك وما أدراك ما الحما؟ ضحك وقال: كان حماي أستاذًا ومفكرًا كبيرًا. قلتُ له: فعلًا. ثم سألني: هل نشَرتِ الصحف المصرية خبر حصولك على هذه الجائزة عام ٢٠٠٤م؟ ضحِكْتُ: لا حس ولا خبر، قال: غير معقول، سوف أرسل الخبر اليوم ومعه تحقيقٌ صحفي كامل عن كلمتك اليوم. عُدتُ إلى الوطن يوم ٢٠ مايو، مَرَّت أيامٌ دون أن يُنشر شيءٌ في أي جريدة، حكومية أو معارضة. رأيتُ الصفحات الضخمة عن المعركة الحامية بين فصائل النخبة السياسية والأدبية، وتبادُل الاتهامات بالخيانة الوطنية والعمالة لأمريكا وللحزب الوطني الحاكم، و... و... و... و... و... و... و... همس في أذني شيطان الشعر:

شِلَل الانتخابات الموسمية،
والمهرجانات الأدبية،
رأسمالية شيوعية ليبرالية نيوليبرالية،
حكومة معارضة يتشابهون،
الحركة والمشية والكلام،
إلى الداخل والخارج يسافرون،
ظهورهم نحو شعبهم المقدَّس وجوههم نحو الحكام.
ثمانون مليون مصري ومصرية،
داخل العبودية الأبدية،
قانون الطاعة، وسجن الزوجية،
لا يعرفون الطريق إلى الملعب الكبير،
حيث الجماعة إياها وجمعية التغيير،
سرقوا منهم شرف المقاومة والأرض والطين،
وأحجبة النساء وأغشية البكارة من الصين.

هل تكفي الكتابة لرفع الحجاب عن العقل؟

القاهرة ١٨ فبراير ٢٠١٠م

لم ينقطع انبهار النخبة في بلادنا بما يُسمُّونها أعرق الديمقراطيات في العالم، البرلمان الإنجليزي، رغم الفساد الذي انكشف بداية فبراير ٢٠١٠م. أكثر من نصف أعضاء هذا البرلمان (٣٦٦ عضوًا من ٦٤٦) انكشف فسادهم باختلاس الأموال. ليست هذه هي أول فضيحةٍ مالية (أو جنسية) يتورط فيها أعضاء البرلمان في بلاد أوروبا أو أمريكا، أو ما تُسمى النظم الديمقراطية في الغرب، لا تقل فسادًا عن النظم الدكتاتورية فيما يُسمُّونه الشرق، أو الشرق الأوسط، أو أي منطقةٍ أخرى في هذا العالم الرأسمالي الأبوي، الذي يحمل في جوفه بَذْرة فساده وفنائه، طالما أنه يُفرِّق بين البشر على أساس الدين والجنس والطبقة والقومية والجنسية والهويات الأخرى الأصغر، المنبثقة من هذه الهويات الأكبر. أحد مظاهر الانهيار لهذا النظام العالمي غير العادل هو الأزمة الاقتصادية الطاحنة الأخيرة (ليست الأُولى أو الأخيرة. سبقتها أزماتٌ مماثلة وستتبعها أزماتٌ مماثلة) التي عصفَت بالبنوك الكبرى والشركات الرأسمالية التجارية والعقارية، وتم الخروج منها على حساب الفُقراء لصالح البنوك والأغنياء سبب الأزمة.

السؤال الوارد هو: هل يمكن أن تتحقق الديمقراطية في ظل نُظمٍ رأسمالية استعمارية عسكرية أبوية مسيحية؟ سيقول بعض الناس إن بلاد أوروبا وأمريكا ليست بلادًا مسيحية، يحكمها القانون المدني وليس القانون الديني؛ يعني هي دولٌ علمانية.

بالطبع تمَّ فصلُ الكنيسة عن الدولة، في معظم هذه البلاد مع النهضة العلمية، واتساع المدارك، واستمرار النقد للثوابت الدينية والسياسية. لكن النظام الطبقي الرأسمالي القائم على الفكر الأبوي المسيحي يستمر حتى يومنا هذا، بأشكالٍ مختلفة، تحت أسماءٍ أكثرَ بريقًا، أكثر خداعًا لملايين الناس في الغرب والشرق.

يكفي أن تَسمعَ أجراسَ الكنائس أيامَ الأحد، أو تشهدَ احتفالاتِ ميلاد المسيح «الكريسماس» أو تتطلعَ إلى قباب الكاتدرائيات، ناطحات السحب، في كل مدينةٍ كبيرة وصغيرة في الغرب، أو تتطلعَ على مناهج التعليم في المدارس الأوروبية والأمريكية، لتدرس أن الكتاب المقدَّس (الإنجيل والتوراة) لا يزال يشكل الوجدان العام والقيم السياسية الأخلاقية الأبوية المزدوجة لهذه البلاد، في الغرب الديمقراطي.

تتغنَّى بعض النخب المصرية والعربية بالديمقراطية البريطانية والأمريكية، دون إدراك لأهم الأُسس التي تقوم عليها الديمقراطية الحقيقية، وهي العدالة الاجتماعية الاقتصادية داخل البلد وخارجه، حين يكذب توني بلير أو جورج بوش على العالم ويغزو العراق بوحشية، أو فلسطين أو غيرها من الشعوب، فهل هذه هي الديمقراطية البريطانية أو الأمريكية؟ إن دافعتَ عن مصالح دولتك وقتلتَ الشعوب الأخرى جشعًا واستعمارًا، فهل أنت ديمقراطي؟ هل أنت إنسانٌ أم حيوان في غابة؟

إنْ أرسل الرئيس الأمريكي وزيرة خارجيته هيلاري كلينتون أو مبعوثًا سياسيًّا آخر إلى بلادنا، لِمَا يُسمُّونه تحريك عملية السلام، فهل نثق به؟ كم من السنينَ مرت تحت اسم تحريك عملية السلام؟ والنتيجة ليست إلا المزيد من إبادة الشعب الفلسطيني والشعوب الأخرى، فيما يسمونه الشرق الأوسط؟ ألا نتعلَّم من تجاربنا مع مرور الزمن؟ إنْ أعلن الرئيس الأمريكي باراك أوباما أنه حريص على تحقيق الديمقراطية في بلادنا، فهل نثق في كلامه؟ هل يهتم الرئيس الأمريكي بالديمقراطية أو الحريات الدينية في مصر؟ أو بالنهضة التعليمية والعلمية؟ هل يمكن فصل الأهداف السياسية للاستعمار البريطاني أو الأمريكي عن الأهداف الاجتماعية؟ أو الدينية أو التعليمية أو العلمية؟ أو الفكرية والأدبية والفنية؟

أهو الانفصام في عقل النُّخَب في بلادنا، يسارًا ويمينًا، معارضة وحكومة؟ هذه الطنطنة الإعلامية المصرية، والمديح المنقطع النظير لمبعوث الرئيس الأمريكي (أوباما) إلى مصر للنهوض بالعلم والتعليم في بلادنا؟ أَلِأن هذا المبعوث يحمل جنسيةً مصرية، أو حاصل على جائزة دولية (نوبل أو غيرها) يصبح هذا المبعوث الأمريكي بطلًا مصريًّا أو بطلًا قوميًّا ينتشل بلادنا من الجهل؟ أو ينهض بها علميًّا وتعليميًّا؟

أيقبل عالمٌ مصري وظيفة مندوب الرئيس الأمريكي لإصلاح التعليم والعلم في مصر؟ المفروض أن يكون مندوب الشعب المصري ليكون مرجعه الشعب المصري، وليس الرئيس الأمريكي. هل يمكن أن يرسل رئيس أي دولة مندوبًا عنه لإصلاح التعليم والعلم في دولةٍ أخرى؟ ماذا نُسمِّي ذلك؟

استعمارًا تعليميًّا؟ استعمارًا علميًّا؟ أدهشني هذا الانفصام في عقولنا. هذه المقالات المنشورة في صحف الحكومة والمعارضة على حدٍّ سواء، خلال الأيام الماضية، التمجيد والانبهار بالمبعوث الأمريكي إلى مصر للنهوض بالعلم والتعليم، وتحقيق الديمقراطية، والحريات!

قليلٌ من المفكرين في بلادنا هم الذين كشَفوا النقاب عن الأهداف الأمريكية الاستعمارية، وراء تلك الكلمات الجديدة الجميلة، منها الحريات الدينية، الديمقراطية، النهوض بالتعليم والعلم، تحريك عملية السلام، حقوق الإنسان، حقوق النساء وغيرها، (من ضمن التبريرات الأمريكية الكاذبة في عصر توني بلير وجورج بوش لغزو العراق، تحرير النساء العراقيات، وإنقاذ الشعب العراقي من أسلحة الدمار الشامل والحكم الشمولي الصدَّامي الحسيني).

لفت نظري مقال (من جزأَيْن) للأستاذ سمير مرقس، نُشر في «المصري اليوم» (٩ و١٦ فبراير ٢٠١٠م) تحت عنوان: «على هامش زيارة لجنة الحريات الدينية»، ينزع النقاب عن هذه الخدعة الاستعمارية الجديدة. يكشف المقال عن أسباب تكوين هذه اللجنة التي تتخفَّى تحت اسم الحريات الدينية، القانون الأمريكي للحرية الدينية أطلقَته جماعةٌ دينية متشددة أمريكية عام ١٩٩٦م، ومع تزايُد ضغط اليمين الأمريكي الديني والسياسي على الكونجرس بمجلسَيه، تمَّت الموافقة على القانون في صورته الدينية، وألْزَم القانونُ في ١٩٩٨م الرئيسَ الأمريكي، مشتركًا مع الكونجرس، بتشكيل لجنةٍ مستقلة للحرية الدينية، تُصدِر تقريرَين حول العالم سنويًّا.

هذه اللجنة التي تزور مصر، تحت اسم الحريات الدينية، لا نعرف هُويَّتها، هل هي برلمانية أو حكومية؟ هل تتبع المجتمع المدني؟ ويقول الأستاذ سمير مرقس في مقاله: في عام ٢٠٠٤م بدأ تقرير هذه اللجنة للحريات يستخدم تعبير «المجموعات الدينية في مصر»، مصر التي يتحدثون عنها هي مصر المجموعات الدينية لا مصر الجماعة الوطنية القادرة على استيعاب الاختلافات بين مواطنيها. هناك فرقٌ جوهري بين أن تصل الحقوق إلى الجميع كمواطنين، وأن نمنح أو لا نمنح الحقوق لأفراد ينتمون لمجموعاتٍ دينية

ومذهبية. منذ مائة سنة روَّج اللورد كرومر أن مصر «جماعةٌ دولية تتكون من مجموعاتٍ شتى من السكان لا تضمهم وحدة»، ويُكرِّس هذه الفكرة عدم تجانُس المجتمع المصري، وهو تصوُّر يخدم الأهداف الاستعمارية آنذاك. وقفَت الحركة الوطنية المصرية ضد هذا التصور الذي يُفتِّت مصر إلى مجموعاتٍ دينية ومذهبية وعرقية ولغوية. وفي ٢٠١٠م يتكرر الحديث مرةً أخرى حول مصر الدينية والمذهبية واللغوية والعرقية، في البدء تحدَّث التقرير عن الأقباط، ثم بات يتحدث عن «شهود يهوه» و«المورمون»، كما اقترب من السُّنة ومن الإخوان والجماعات، ومع الوقت تطرقَت التقارير للشيعة ثم للأقليات الدينية مثل اليهود والبهائية؛ هذا المنطق يُجدِّد منطق كرومر. هناك فرق بين أن نعمل معًا جميعًا كمصريين لاكتساب الحقوق بما يُحقِّق الاندماج الوطني، وبين أن نُكرِّس عزلة كل فئة عن الأخرى، أن نحقق الحرية الدينية حسب المادة ٤٦ من الدستور، في إطار الطابع المدني للدولة وليس إعادة تقسيم مصر على أساسٍ ديني ومذهبي. الخلاصة أن تقارير الحرية الدينية تنظر إلى مصر باعتبارها «مجموعاتٍ دينية» لا دولة لكل المواطنين، بغض النظر عن انتماءاتهم، وأن المشاكل التي تواجه كل فئة يتم حلها على أساس المواطنة، من خلال الاندماج الوطني. تحاول لجنة الحريات الدينية الأمريكية تكريس النظام الطائفي في مصر لتقسيم البلد.

يوم الأحد ٢٤ يناير ٢٠١٠م رفضتُ الاجتماع المغلق مع لجنة الحريات الدينية الأمريكية. صممتُ أن يكون الاجتماع علنيًّا في حضور الصحافة المصرية والإعلام. كنتُ أعرف أن هذه اللجنة تعمل بالضرورة لخدمة المصالح الاستعمارية الأمريكية، وتهدف إلى تقسيم مصر دينيًّا وطائفيًّا، حسب مبدأ فرِّق تسد، أعددتُ لأعضائها عدة أسئلة تكشف أهدافها، لم يقبل أعضاء اللجنة العلانية ووجود الصحافة؛ وبالتالي لم يتم الاجتماع.

تلعب ورقة الدين دورًا خطيرًا لتقسيم الشعوب لخدمة الاستغلال الخارجي والداخلي. لم يصلِ الوعي العام في بلادنا لإدراك هذه الخطورة بعدُ؛ فالشعور الديني الزائد عن الحد يُغذِّي التعصب، يضع حجابًا على العقول، يلعب الإعلام والتعليم دورًا في زيادة الجرعات الدينية المتشددة، العاجزة عن قبول العقائد الأخرى، أو إدراك معنى المواطنة الحقيقي؛ أي بحيث يكون المواطنون جميعًا سواء، متساوين أمام القانون المدني والدستور، دون تفرقة على أساس الدين أو الجنس أو العرق أو المذهب أو غيره، بمعنًى آخر، إقامة المجتمع المدني والدولة المدنية، تعديل الدستور المصري وحذف المواد التي تُفرِّق بين المواطنين والمواطنات من مختلف الفئات.

لكن بعض النخب المتعلمة تقع في هذا المأزق دون وعي، أو من أجل المصالح، والتجارة بالدين في حلبة السياسة، نراهم يُقسِّمون الشعب إلى قسمَين: (١) الدينيون أو الأخرويون، الشرفاء الوطنيون المؤمنون، أصحاب الجنة الذين يعملون للآخرة وليس للدنيا. (٢) اللادينيون، الخائنون الملحدون الكافرون أصحاب الجحيم، الذين يعملون للدنيا وليس للآخرة.

أصبحَت هذه اللغة الدينية الإرهابية سائدة في الإعلام المصري والعربي، وأصبح الكثيرون يصمتون خوفًا من الألسنة اللاذعة التي يتمتع بها المتاجرون بالدين.

وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية لعبتها الاستعمارية الدينية، ومعها إسرائيل بالطبع، ودول داخل الاتحاد الأوروبي، من هذه اللعب الأخيرة التدعيم الأمريكي للجماعات الصوفية الإسلامية، وقد أقدمَت لجنة الحريات الدينية الأمريكية على دفع مصر وبعض الدول العربية على تقوية الطرق الصوفية.

يدلُّنا التاريخ المصري على سلبية الجماعات الصوفية الإسلامية تجاه المشاريع الوطنية، للتحرُّر من الاستعمار الخارجي، أو الحكم المحلي المتعاون معه؛ لهذا يسعى الاستعمار الأمريكي الجديد لاستخدام بعض الصوفية لتحقيق تقسيم الشعب دينيًّا ومذهبيًّا.

ما العمل إذن في مواجهة هذا الخطر الخارجي والداخلي الذي يرتدي عباءة الدين؟ كيف نرفع الحجاب عن عقل النخبة المتعلمة وجماهير الشعب غير الواعية؟ وهل تكفي كتابة المقالات؟

في البدء كان الطعام والأرض

لم يكن كارل ماركس أوَّل من اكتشف التحليل المادي الاقتصادي للتاريخ البشري. سبقه الكثيرون من النساء والرجال المفكرين، شرقًا وغربًا. لم تبدأ الفلسفة في اليونان (أفلاطون وأرسطو وسقراط) كما علَّمونا في مدارس المستعمرات والفكر الأوروبي الغازي. بدأَت الفلسفة في الحضارات الإنسانية القديمة حول أودية الأنهار، في مصر والعراق وفلسطين وسوريا والأردن والهند والصين وغيرها من البلاد، بسبب وفرة الماء والطعام وخصوبة الأرض وناتج الزراعة، واكتشاف أدواتها من محراث ومجذاف، وآلاتٍ زراعية بدائية. تَفوَّقَت النساء في الحضارات الزراعية القديمة بسبب انشغالهن بإطعام أطفالهن. كانت الحاجة إلى الطعام هي الطريق إلى المعرفة والتقدم؛ لهذا سبقَت المرأة الرجل إلى العلم والفلسفة والمعرفة والعدل. كانت إزيس في مصر القديمة إلهة المعرفة والحكمة، معات إلهة العدل، حوَّاء إلهة المعرفة سبقَت آدم إلى شجرة المعرفة.

كان الأطفال يعرفون أمهم لأنها تلدهم من جسمها. بدأت اللغة بالمرأة، بالأمهات ينادين على أطفالهن للطعام، بالنساء ينادين على الرجال للإخصاب. كان الرجل يغتصب أطفاله أو يأكلهم دون أن يعرف أنهم أطفاله، بدأَت الأم قوانين التحريم، مَنعَت الرجالَ من اغتصاب الأطفال وأكلهم. لم تكن الأبوة معروفة حينئذٍ، بسبب الجهل بكيفية تكوين الجنين في الرحم، ولغياب الرجال الطويل في أعمال الصيد وقتل الحيوانات والطيور من أجل الطعام أيضًا. تصوَّرَت بعضُ هذه المجتمعات أن الجنين البشري بذرةٌ غامضة تهبط من السماء مع الهواء، يشبه تلقيح النخل عَبْر الرياح. كثيرٌ من الزعماء السياسيين والأنبياء في التاريخ البشري كانوا مجهولي الأب لهذا السبب. بعد نشوء النظام الأبوي الطبقي، انتزع الآباء من الأمهات السلطة والنسب والاقتصاد والثقافة والزراعة، والقدرة على إنتاج

الأطفال أيضًا أو الولادة. أصبح الطفل يُولد من رأس رجل وليس رحم امرأة، مثل الإله زيوس، الشهير في اليونان القديم، وحوَّاء الشهيرة أمنا، لم تنجبها امرأة، بل وَلَدَها رجلٌ من ضِلعه، ثم تطورَت الفكرة تدريجيًّا مع التقدُّم العلمي، حتى تم اكتشاف الحيوان المنوي الذي يلتحم مع بويضة المرأة لينتج الجنين.

لكن أرسطو، فيلسوف اليونان الشهير، بسبب إيمانه حينئذٍ بالنظام الأبوي العبودي، تَصوَّر أن الجنين يصنعه الذكر وحده. قال إن الحيوان المنوي كائنٌ حي، أما بويضة المرأة فهي في نظره شيءٌ ميت لا حياة فيها. وَرِث هذه الفكرة أغلبُ الفلاسفة والأطباء والعلماء في عصرنا الحديث، وصَفُوا البويضة بالسكون أو «السلبية» أو الموت الكامل. كيف يحتوي جسد المرأة الحي على بويضةٍ ميتة؟ شيء يتناقض مع العقل المتطور، كان الرجال حينئذٍ يخشَون قوة المرأة الغامضة، يصفونها باللغز، الضرورة أم الاختراع؛ لهذا سَبَق التطور العلمي العسكري في أوروبا. بسبب الفقر في الطعام والزراعة والمياه وخصوبة الأرض، غَزَت أوروبا بنظامها الطبقي الأبوي (الرأسمالي) أفريقيا وآسيا. إنه الاغتصاب العسكري والسياسي والروحي، لتدعيم الغزو الاقتصادي المادي، سَبقَت الحملاتُ التبشيرية الروحية والدينية الحملاتِ العسكرية والاقتصادية إلى أفريقيا وآسيا. أوقفَت عجلة التطوُّر في بلادنا، أوقفَت الإبداع الفكري والتعليمي والثقافي، أصبح المفكرون في بلادنا ينقلون عن مفكري أوروبا (ثم مفكري أمريكا)، تدعيمًا لمصالحهم الاقتصادية المتخفية وراء حجاب الأديان، نذكر هذه المرأة الأفريقية العرافة التي قالت قولتها الحكيمة: قبل أن يأتي الإنجليز إلى بلدنا كنا نملك الأرض، وكانوا يملكون الإنجيل، حين خرجوا من بلدنا أصبحوا يملكون الأرض ونحن نملك الإنجيل. حكمة المرأة هذه تُلخِّص خطط الاستعمار القديم والجديد في مقولةٍ واحدة.

هذه المرأة الأفريقية لم تقرأ الكتب، لتدرك دور الاقتصاد في السياسة والحرب والدين، أن الاقتصاد يُحرِّك التاريخ والأساطير. لو اهتدينا بحكمة هذه المرأة الأفريقية! لو استخدمنا مقولتها أداة لتحليل الوضع في بلادنا، لخرجنا بحالة من المعرفة تضيء لنا الطريق!

ساءت أحوال مصر بعد الاستعمار البريطاني القديم، وساءت أكثر وأكثر بعد الاستعمار الأمريكي الجديد. قبل أن يأتي الاستعمار القديم كنا نملك طعامنا (رغم الفروق الطبقية العنصرية الموروثة في العالم). من يملك طعامه يملك استقلاله، سواء أكان دولة أو فردًا، رجلًا أو امرأة. بعد الاستعمار البريطاني عام ١٨٨٢م اتسعَت الهوة

الطبقية والعنصرية، سَيطَرَت على الاقتصاد في مصر طبقةٌ عُليا من كبار الملَّاك الإقطاعيين الزراعيين، ومعهم كبار الرأسماليين المصريين والإنجليز المديرين للقطاع الصناعي والتجاري. أدَّى ذلك إلى الثالوث المزمن الشهير «الفقر، المرض، الجهل»؛ فقط ٢٪ من الشعب المصري، ومعهم الأجانب ملكوا الأراضي والأموال والسلطة والتعليم والثقافة والكنائس والجوامع، ٩٨٪ من الشعب المصري لم يملكوا إلا ما يسُدُّ الرمق، طعامهم الخبز المقدَّد. ثم جاءت ثورة ١٩١٩م لكنها أُجهضت بواسطة الاستعمار البريطاني والحكومات المصرية المتعاونة مع الاستعمار، وقَف حزب الوفد مع المطالب الشعبية، وقَف ضد الإنجليز وضد الملك، ثم خضَع لهما بحكم كبار الرأسماليين والإقطاعيين في القيادة، السلطة تزوجَت الثروة ضد الأغلبية من شباب الوفد، ثم جاءت حركة ضباط الجيش ١٩٥٢م وسقوط الملك، ثم الإنجليز بعد ذلك، وقامت بعض المحاولات الاقتصادية لسد الهُوَّة الطبقية والعنصرية، تمَّ إجهاض هذه الحركة، بسبب استبداد الحكم العسكري تحت اسم الاشتراكية والوحدة والنظام. لم تحدث اشتراكية ولا وحدة ولا نظام. فشِلَت التأميمات، وتمَّت سرقة القطاع العام من قِبل الطبقة الحاكمة الجديدة، زواج السلطة بالثروة. اشتدَّت الأزمة في السبعينيات مع الانفتاح الاقتصادي الجديد. تمَّ تمرير الاستعمار الأمريكي تحت دخان وأبخرة الصحوة الدينية الإسلامية والمسيحية. تم تمرير الاستغلال المادي والقهر للفقراء والنساء تحت اسم الروحانيات. عاد الثالوث الخطير، الفقر والمرض والجهل، والبورصة، ومجتمع الـ ٢٪ من أصحاب الثروة والسلطة ورجال الأعمال. وزراء ورجال أعمال يكسبون البلايين، يتساقطون في فضائح الفساد المتتالية، يتاجرون بالدين الإسلامي أو المسيحي، أو بالاشتراكية والديمقراطية الخاوية من المعنى، أو التي تؤدي إلى العكس. مزيد من الاستبداد ومزيد من الفقر وقهر المرأة، مع مزيد من الشعارات الرنانة السياسية والدينية. أصبح لدينا يسارٌ يميني مستبد، ويمينٌ يساري يضارب في البورصة، الكل يحتمي برئيس الدولة عند السقوط.

انتقل الحكم في مصر من الاشتراكية الدكتاتورية إلى الرأسمالية الفاشية، من الاستعمار البريطاني الناعم الخبيث إلى الاستعمار الأمريكي الصهيوني، العاري من ورقة التوت. ويَتذكَّر الناس مقولة المرأة الأفريقية الفقيرة: أعطَونا كتاب الله وأخذوا أرضنا وأموالنا.

صمتوا حين كان الكلام واجبًا!

ما هذه الظاهرة الغريبة؟ أن يحتل شخصٌ منصب الوزير لعدة سنوات، يشارك في فساد الحكومة، بالصمت على الأقل، فيستمر الفساد والسرقات ونهب أموال الشعب المصري، ثم يُكافأ الوزير بعد الخروج من الوزارة بمنصبٍ مرموق، في بنكٍ كبير أو مؤسسةٍ ضخمة، أو الأمم المتحدة في نيويورك، أو جنيف، أو بيروت، أو فيينا. يتحول إلى رجلِ أعمالٍ يربح الملايين، ثم بعد سنوات من المتعة والمكاسب له ولأولاده وأحفاده، يطرأ له فجأة أن يُشارك في الحملة الإعلامية ضد فساد الحكومة، ويصبح من أقطاب المعارضة المصرية وبطلًا من أبطالها، وقد يُرشِّح نفسه في انتخابات البرلمان أو الشورى أو رئاسة الجمهورية.

كم مرة فكرت في الكتابة عن هذه الظاهرة المريضة، ثُم تجِدُّ الأحداث فأنشغل بها وأنسى، حتى طالعتُ يوم ٢٦ مايو ٢٠١٠م، في الصحف والإعلام، تصريحاتٍ خطيرة أدلت بها وزيرة التأمينات والشئون الاجتماعية السابقة الدكتورة مرفت التلاوي. قالت إن الحكومة استولَت على ٤٣٥ مليار جنيه مصري من أموال أصحاب المعاشات، لدعم البورصة وسد العجز في الميزانية. وقالت إن الحكومة لم تسمح لها، أثناء تولِّيها الوزارة، أن تفعل شيئًا لمنع هذا العمل غير القانوني بل غير الدستوري؟

لماذا لم تكشف الوزيرة، وهي في منصبها، عن هذه الجريمة، هذا النهب الحكومي لأموال الملايين من فقراء الشعب المصري، العجائز الذين يعيشون على معاشٍ ضئيل لا يكفي لسد الرمق؟ لماذا سكَتَت كل هذه السنين؟ بعد خروجها من الوزارة حصلَت على منصبٍ كبير في الأمم المتحدة، ولا أعرف إن كانت ما تزال تشغل هذا المنصب أم لا.

قابلتُ د. مرفت التلاوي في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، كانت تعمل مع د. عمرو موسى بإدارة المؤتمرات الدولية بوزارة الخارجية بالجيزة. أعجبَتْني شخصيتها المستقيمة المساندة للحق. لعِبَت هي دَورًا في تسجيل جمعية تضامُن المرأة العربية الدولية

بوزارة الخارجية، كما أنها تحمَّسَت لإنشاء الاتحاد النسائي الذي شَرعْتُ في تكوينه، مع مجموعةٍ كبيرة من النساء والشابَّات المصريات. شجعَتْنا مرفت التلاوي يومها، وكانت وزيرة الشئون الاجتماعية المختصة بالجمعيات الأهلية. في مكتبها بالوزارة، سلَّمَتْني قائمةً بأسماء وعناوين الجمعيات النسائية في مصر، للاتصال بها لتنضم إلى الاتحاد النسائي، وفعلًا اتصلنا بهذه الجمعيات التي تحمَّسَت للانضمام، واستمر النشاط ليلَ نهار. انضمَّت الكثيرات من الشخصيات والجمعيات النسائية، ثُم حدَّدنا موعد الاجتماع الكبير، لإعلان إشهار الاتحاد النسائي المصري. قبل الاجتماع بيومٍ واحد نشرت الصحف الحكومية، على رأسها جريدة «الأهرام»، تصريحًا بلسان الوزيرة مرفت التلاوي تقول فيه إن هذا الاتحاد النسائي غير قانوني. دُهش الجميع، لم نفهم السر في التغيُّر الطارئ على موقف الوزيرة مرفت التلاوي، حتى التقيتُ بالدكتورة فرخندة حسن بالصدفة، فقالت لي إن السيدة الأُولى تشرع في عملٍ بديل للاتحاد النسائي، باسم المجلس القومي للمرأة.

وفعلًا لم يمضِ وقتٌ طويل حتى نشَرت الصحف الكبرى الخبر العظيم عن تكوين المجلس القومي للمرأة، برئاسة السيدة الأُولى.

لم أفكر في عتاب مرفت التلاوي، أو محاسبتها على ما فعلَتْه مما يخالف الضمير الحي، وقد علَّمَتْني الأيام أن المسئولين الكبار في بلادنا يُغيِّرون ضمائرهم ومواقفهم بغتة، حسب الأوامر العليا التي تصلهم بغتة، لا يملكون إلا الطاعة، حفاظًا على المنصب. ثم فُوجئتُ بعد بضع سنوات برسالة بالفاكس تأتيني من بيروت، بتوقيع د. مرفت التلاوي المدير التنفيذي الأعلى لمنظمة الإسكوا في الأمم المتحدة، تدعوني لحضور مؤتمرٍ نسائي دولي يُعقد في بيروت. دُهِشتُ كثيرًا وسألتُ نفسي هل نسِيَت؟ أم أرادت لضميرها أن يستريح؟ واعتذرتُ عن حضور المؤتمر.

أكثر ما يُدهِشني اليوم هو تلك الصفحات الكبيرة المنشورة والتصاريح الإعلامية بلسان د. مرفت التلاوي، تكشف فساد الحكومة أثناء كانت وزيرة وجزءًا من هذه الحكومة. لماذا لم تعلن عن تقديم استقالتها؟ قالت للصحف منذ شهورٍ قليلة إنها قدَّمَت استقالتها لكن الحكومة رفضَت إعلانها، فلماذا لم تعلن هي بنفسها عن استقالتها؟ هل فرضوا عليها البقاء في منصبها رغم أنفها؟ هل فرضوا عليها الصمت رغم أنفها؟ ولماذا تتكلم الآن فقط بعد فوات الأوان؟ هل أصبحَت معارضة الحكومة موضة؟ أو شرفًا؟ أو بطولة يتنافسون على السطو عليها؟ لماذا لا يتركون المعارضة؟ لماذا لم يصمتوا وتكلموا حين كان الكلام واجبًا، ودفعوا ثمن المعارضة من حياتهم ودمهم ودم أولادهم؟ هل

أصبحَت المعارضة لا تُكلِّف الوزراء السابقين شيئًا إلا الكلام ونشر صورهم في صحف المعارضة والصحف المستقلة؟ يبدو أن كل شيء أصبح مباحًا، ومعروضًا للبيع في السوق الحرة، بما في ذلك معارضة الحكومة! لقد تمَّ إقصاء المعارضين الحقيقيين الذين عانَوا القهر الحكومي على مدى السنين؛ حُرموا من المناصب والمكاسب، تمَّ تشريدهم وإفقارهم وتشويه سمعتهم، أو حبسهم ونفيهم إلى الداخل أو الخارج. أصبح على هؤلاء المعارضين الحقيقيين من النساء والرجال أن يصمتوا، أن يترفَّعوا عن التنافُس في سوق المعارضة، وليس لهم مكان في الصحف الكبرى أو الإعلام الحكومي أو القطاع الخاص؛ حيث يتبارى أصحاب الملايين أو البلايين في نقد الحكومة، كأنما لم يكونوا جزءًا منها، ومنهم وزراء أو رؤساء وزراء سابقون، لهم علاقاتُ قُربى وثيقة حميمة بالحكومة وأصحاب السلطة والثروة. كثُرت المقالات عن الفساد والفقر والمرض بأقلامٍ كانت من أهم أسباب الفساد والفقر والمرض. أقرأ هذه المقالات وأندهش، كيف ينسى الناس الماضي القريب؟ كيف ينسى الوزير السابق صمته الطويل؟

كم هي ضعيفةٌ ذاكرة الشعب المصري؟ فالذاكرة خلايا في مخ الإنسان، تضعف بالفقر ونقص الغذاء واليأس والحزن والإرهاق. لا يذكر الشعب المصري ما أكله بالأمس، ولماذا يذكر شيئًا مؤلمًا؟ من الطبيعي أن ينسى الإنسان الآلام، وإلا فكيف يعيش ويحتمل الحياة؟ ينسى الفقراء ذُل الفقر، وينسى الأغنياء فُحش الثراء. كلاهما ينسى، الفقر مؤلم إلى جوار الثراء، الثراء الفاحش عارٌ وخزي إلى جوار الفقر القاتل.

بعض الناس يقولون: كل إنسان يخطئ، الله يغفر للناس خطيئتهم، فلماذا لا نغفر أخطاء البعض منا؟ وهل نحن منزَّهون عن الخطأ؟ والشعب المصري طيب القلب ينسى الإساءة أو يغفرها لمن يعترف بالخطأ ولا يُكرِّره.

لكن إذا لم يعترف الإنسان بالخطأ، وبدا لنا كأنما لم يخطئ، أو أنه يُكرِّر خطأه ولا يصلحه، كما يحدث مع هؤلاء المسئولين الكبار، لم أقرأ لأحدهم اعترافًا بالخطأ، يلجئون إلى التبرير والتأويل والتمويه، وتغرق الحقائق في المراوغة والضباب.

الفصل الثالث

بعيدة عن الوطن والأهل

تأمُّلات في فضاءٍ بلا حدود

٤ فبراير ٢٠٠٧م

محلِّقةٌ في الفضاء الممدود اللانهائي، قريبةٌ من السحب البيضاء، تُلامِسها عيناي من خلال زجاج النافذة، تعشق عيناي السحب منذ الطفولة، أتطلع إليها أبغي أن ألامسها بأناملي، بأطراف أصابعي أُمسكها، بطرف لساني أذوق طعمها، يشبه طعم الماء الملَّح، المتبخِّر من بحر الإسكندرية (كنا نُسمِّيه البحر المالح في طفولتنا) المتكثِّف في الجو بلون الزبد الأبيض، برائحة نَوَّارات القطن في حقل جدَّتي، المرأة التي وَلدَت أبي من رحمها وحدها، دون مساعدةٍ من رجل أو امرأة، دون مخلوقٍ يحرث معها أرضها أو يمسح عرقها. كان عزرائيل إله الموت يخطَف الأطفال في قريتنا قبل أن يبلغوا السنة الأولى من العمر. مثل كتاكيت الدجاج يحصدهم الإله الجبار في الصيف، وأقسمَت جدتي بأمها وجدتها أن تتحدى الإله الأعظم، أن تجعل ابنها يعيش بإرادتها ضد كل الإرادات؛ أن يكبر ابنها ويصبح الأستاذ المحترم، يحصل على أعلى الشهادات، يتزوج بنت الباشوات، وينجب لها أحفادًا عباقرة من الأولاد والبنات، هكذا جئتُ أنا إلى الدنيا بإرادة جدتي الفلاحة.

أسمع أزيز الطائرة تُحلِّق فوق البحر الأبيض المتوسط، تشق السماء من الجنوب إلى الشمال، من الشاطئ الأفريقي إلى الشاطئ الأوروبي. اليوم ٤ فبراير ٢٠٠٧م، غادرتُ بيتي في شبرا الساعة الرابعة صباحًا، حملتُ حقيبتي وصفقت الباب من خلفي، لم أنظر خلفي إلى من خانوا العهد. لم تكن الطعنات في الصدر بل في الظهر، من البُعد البعيد، ومن القُرب القريب حتى الالتصاق باللحم، أهل الوطن منذ وُلدتُ، وشريك الحياة منذ عشنا معًا ثلاثة وأربعين عامًا. صَفقتُ الباب من خلفي، وخرجتُ إلى المجهول وحدي قبل طلوع الفجر، تركتُ حياتي الماضية كلها ورائي، منذ ولدَتْني أمي. ستة وسبعون عامًا،

أحزان ومآسٍ، وزنازين، وقضايا في المحاكم وسراديب الحكَّام. تم ضبطي متلبِّسة بجريمة الصدق في عالم يكذب، جريمة الكتابة الحرة غير المقيدة بالتعاليم منذ رع الإله وآمون وبعلهما الأكبر.

وراء السحب كان الإله يتخفَّى في طفولتي، مرت السنون والأيام، سبعون سنة وستة من الأعوام. أصبحَت عيناي تخرقان السحب، تكشفان قاع السماء، وقاع البحر والأرض، أصبح عقلي ينتهك أسرار الكون. كيف جاء؟ وفراعنة الأزمان القديمة والجديدة كيف حكمونا؟ كيف أصبحنا عبيدًا لهم؟ الخوف من عقابهم في الدنيا والآخرة؟ الإله رع والملك رمسيس يذوبان داخل ثوبٍ واحد، وإله الشمس أتون يذوب في جسد الإله إخناتون. كان لـ «إخناتون» ثديان ورِدْفان أكبر من أمي وجدتي، حتى قرَّر بعض المؤرخين الذكور أنه كان ذكرًا وليس أنثى. أصبحَت كلمة أنثى منذ التاريخ القديم عارًا يجب أن يتغطَّى، وفضيحة يجب أن تتستَّر. تم إسدال الستار على جدتي إيزيس إلهة المعرفة، وأمها نوت إلهة السماء، وجدتها نون إلهة الكون، السماء والأرض معًا. أعلن الإله الذكوري الجديد أن الأنثى لا يمكن أن تسود؛ لأنها ناقصة العقل. أصبح العقل مذكرًا والأنثى منكرة، واندثر اسم أمي وجدتي في التاريخ، أصبحتُ أحمل اسم رجلٍ غريب مات قبل أن أُولد، اسمه السعداوي، أرى اسمه مطبوعًا فوق أغلفة كتبي فأشعر بالخجل من نفسي. كيف استسلمتُ للتزييف في التاريخ، كيف شاركتُ في دفن اسم أمي؟

قلبي تحت حزام المقعد يتخبط بين الفرح والحزن، لم يعُد الوطن في نظري مسقط رأسٍ فوق قطعة أرض، لا يسقط الرأس في الوطن الأم بل يرتفع في السماء؛ فالوطن الأم هو حيث الكرامة والعدل وليس الهوان والظلم؛ هذه كلمات أبي في طفولتي. أعطى أبي حياته مثل أمه الفلاحة لوطنٍ لم يمنحهم إلا القهر، مثل كل الفلاحين الفقراء في بلادنا، من فرعون الأول منذ سبعة آلاف عام، حتى فرعون الأخير في هذا القرن الواحد والعشرين. يشقى الفلاحون من أجل الوطن، يأكلون الخبز الحاف بليمونةٍ مُخلَّلة أو بقطعة جبنة، ليأكل الحكام وأعوانهم حتى التخمة. يموت أبناء الفلاحين في الحرب ليعيش أبناء الحكام وأعوانهم في النعم. يخدع الممثلون والمطربون الفلاحين بالمسرحيات والأغاني الوطنية. يشترك الأدباء والكتاب في الخديعة، يأكلون اللحم السمين على موائد الحاكمين، يتغزَّلون بالزهد والتقشُّف والتقوى، ينهلون من لذائذ الدنيا حتى الثمالة، يدفعون لأبنائهم ثمن الإعفاء من الجيش ليعيشوا حتى آخر العمر. يرفعون شهداء الحرب الفقراء إلى جنة السماء، يُدينون الفساد والخمر والميسر. يُعارِضون الحكام الفاسدين بالنهار، في الليل

يسهرون معهم، يشربون ويعربدون. يتشدَّق الواحد منهم بالمُثُل العليا في الكلام، يتلصَّص في الظلمة إلى العشيقة المومس أو الولد الغلام.

قبل أن أغادر القاهرة قلتُ لابنتي سأعود في ١٢ مايو، بعد الانتهاء من مؤتمر جامعة أوهايو. قالت ابنتي، هذه مدةٌ طويلة يا أمي، أَلَمْ ترسلي لهم اعتذاركِ عن الحضور؟ نعم، كنت أريد الاعتذار لأبقى في بيتي أكمل روايتي التي أكتبها منذ عامَين.

وما الذي جعلكِ تُغيِّرين رأيك يا أمي، ألا تستريحين من السفر، ألا تسمعين كل يوم عن سقوط الطائرات؟ أنا أكره السفر يا أمي والانتظار في المطارات، والوقوف في طوابير التفتيش بالأجهزة الفاحصة، وخلع الأحذية والأحزمة، والخضوع مثل فئران التجارب للعيون الإلكترونية. لماذا تسافرين يا أمي وتُحمِّلين نفسَكِ كل هذا العناء؟ أنت رأيتِ يا أمي بلاد العالم في القارات الخمس ولم يبقَ أمامك إلا اكتشاف قارةٍ جديدة مثل كريستوف كولومبوس.

ضحكنا كما نضحك دائمًا من قلوبنا العميقة، ابنتي وابني أقرب الناس إلى قلبي بعد أمي أو قبل أمي. لا يرتفع شيء فوق حب الأم إلا حب الذات، تأتي الذات أولًا عند خطر الموت بحكم الطبيعة، لكني لا أتردَّد في إنقاذ ابنتي أو ابني قبل نفسي، تتطوَّر مشاعر الأمومة مع الزمن والوعي إلى ما لا يتخيله العقل.

قلتُ، إن أردتِ أن ألغي السفر فسوف أُلغيه يا ابنتي.

قالت ابنتي، أريد لكِ ما تريدينه لنفسك، أليست هذه عبارتكِ حين كنتُ أسألكِ ماذا تريدين مني أن أفعل؟ وأنا أُعطيكِ الحرية يا أمي لتفعلي ما تشائين كما فعلتِ معي.

في أعماقي تمنَّيتُ أن أُقرِّر عدم السفر، لكني حزمتُ حقيبتي وسافرت. كنت أريد التخلُّص من شبح في الماضي القريب أو البعيد، شبح رجلٍ غريب من الأقرباء أو الغرباء، في العائلة أو في الدولة. منذ ستة أيام فقط، بالضبط في الساعة العاشرة يوم الأحد ٢٨ يناير ٢٠٠٧م كنتُ أصعد السلالم المتهالكة تحت الأقدام، في المبنى العتيق منذ عصر نوح حيث مكتب النيابة. تَسُوق الدولة إلى النيابة من تشاء من المعارضين، دون جريمة إلا الكتابة، قصيدة شعر أو قصة قصيرة أو رواية من الخيال. تحبس الدولة الخيال كما تحبس الحقيقة. لم يتغير نظام الحبس والاحتباس منذ قرار الخديوي إسماعيل. قانون الحسبة دُفن في القبر قبل الخديوي بألف عام وأكثر، أصبحَت نيابة الدولة تحكم (تحت اسم الله) بأحكامٍ انقرضَت مع الديناصورات. يجلس في كرسي النيابة رجلٌ (المحقق) يشبه القساوسة أو المشايخ، باللحية والسبحة والزبيبة، الكرسي خشبيٌّ مكسور داخل غرفة

تشبه الزنازين. يرمقني الرجل بعينَين صفراوين، اسمه (واسم أبيه وأبي أبيه) محفور على قطعة من النحاس فوق مكتبه: «السيد الأستاذ محمد محمد محمد بك النائب الثالث لسيادة الوكيل الثاني لسيادة الباشا النائب الأول».

كانت ألقاب البِك والباشا قد سقطَت مع سقوط الملك فاروق عام ١٩٥٢م، لكنها عادت إلى الوجود في ظل حكم السادات خلال السبعينيات، وازدادت انتشارًا في ظل حكم مبارك ودولة رجال الأعمال، تزايدَت الهُوَّة بين الأثرياء والفقراء، عادت البورصة كما كانت في عهود الملكية والإقطاع. ارتدَّت مصر إلى عصور العبودية، أصبح الباشا صاحب البلايين، يضرب عبيده كما كان يضربهم الأسياد. تطوَّرَت وسائل الضرب من العصا إلى الكرباج، إلى البندقية والمسدس. تطوَّرَت السرقة والرشوة لتصبح بالبلايين، بالإلكترونيات والتريليونات. ارتدَت وسائل الخداع والتمويه عمائم الدين، وأصبح الله مع فخامة الرئيس، كما كان مع جلالة الملك. في الطائرة أُحلِّق بعيدًا عن الوطن، يتخفَّف قلبي من الثقل بابتعادي، وازدياد المسافة بيني وبين الوطن والزوج والدولة والدين والتراث والأسلاف. أصبح الوطن زنزانةً يقف على بابها رجلٌ لا يفك الخط، يتلو بعض الآيات من القرآن، يلفُّ رأسه بعمامةٍ كبيرة، يُبربِش بعينَيه نحو الله في السماء، يهبط بهما إلى الأرض، لا يرى فوق الأرض إلا سيقان النساء أو أردافهن أو الشعر فوق رءوسهن، يصرخ الرجل بأعلى صوته: يا إلهي هذا انتهاكٌ لقانونك يا رب، كأنما الرب على شاكلته لا يرى على الأرض إلا شعر النساء غير الملفوف بالحجاب. الرب بالطبع مشغول بما هو أهم من ذلك، مثلًا بالمذابح في فلسطين، يترك الرب العِنان لبني إسرائيل لذبح المسلمين، عقابًا لهم. لماذا يُعاقِب الربُّ المسلمين؟ يرُدُّ الشيخ المُعمَّم (ذو العمامة) أو المطربش (ذو الطربوش) أو الدكتور (ذو الدكتوراه) في الفضائيات يقول: لأن النساء فسدَت أيها السادة، لأن النساء لا يرتدين زي الله المفروض؛ لأن النساء أصبحن كاسياتٍ عاريات، وقد قال الرسول ﷺ، سيأتي يومٌ على قومي تكون فيه النساء كاسياتٍ عاريات وهذا نذير بمجيء يوم القيامة.

كانت معي ابنتي يوم التحقيق في النيابة، ذلك الأحد ٢٨ يناير ٢٠٠٧م، كانت جريمتها أنها كَتبَت مقالًا تُكرِّم الأم في عيد الأم ٢١ مارس ٢٠٠٦م، أرادت أن تنقذ مليونَين من أطفال الشوارع، يُطلَق عليهم اسم «الأطفال غير الشرعيين»، المحرومين من الكرامة والشرف والغذاء والتعليم والطمأنينة، لماذا يعاقبهم القانون بهذه الوحشية وهم أطفالٌ أبرياءُ لم يقترفوا أي جريمة؟

يُطلِق القانون سراح المجرمين من الرجال، يخون الزوج شريكة حياته علنًا وسرًّا دون عقاب، يُطلِّق زوجته المخلصة بكلمةٍ واحدة أو ورقة يرسلها إليها بالبريد، يتزوج

طفلة في الخامسة عشرة وهو في الثمانين أو التسعين. يغتصب الرجل منهم فتاةً فقيرة في الشارع أو غير الشارع، ثم يتركها ويهرب، تُواجِه الفتاة وحدها (مع طفلها المولود) الدولة والدين والمجتمع والقانون. يقع العقاب القاسي على الأم الصغيرة وطفلها، على حين يمرح الأب المجرم ويستمتع بحياته مع نساءٍ أُخريات، وزوجات أو عشيقات أو جوارٍ أو إماء ومَن ملكَت اليمين. كانت عهود الجواري والعبيد قد دُفنت في التاريخ، لكنها عادت مع عودة اللحى والمسابح والمباخر والبورصة وقانون الحسبة وألقاب سعادة البيه ومعالي الباشا.

جلسَت ابنتي إلى جواري شامخة الرأس، تردُّ على أسئلة المُحقِّق برباطة الجأش:

أنتِ وقَّعتِ مقالكِ باسم أمكِ نوال وليس باسم أبيكِ حلمي؟

هذا غير صحيح أنا وقَّعتُ مقالي باسم «منى نوال حلمي»؛ أي إنني أعطيتُ اسم أمي الشرف ذاته الذي يحظى به اسم أبي، وهذا أمرٌ منطقي عادل، لماذا يُحذف اسم الأم من التاريخ مع أن الأمومة أكثر إنسانية وتضحية للأطفال من الأبوة؟ ثم لماذا يُعاقَب الطفل الذي ليس له اسم الأب؟ لماذا لا يحمل هذا الطفل البريء اسم أمه ويحظى بالشرف وحقوق الإنسان مثل غيره من الأطفال الذين يحملون اسم الأب؟ لماذا يكون اسم الأم عارًا مع أن الجنة تحت أقدام الأمهات؟ والراديو يُغنِّي للأم في عيد الأم، بدلًا من هذه الأغاني المتلاشية في الهواء. لماذا لا تغيرون القانون لتحظى الأمومة بحقوق الأبوة؟

يرمقها المحقق بعينَين متسعتَين، فاغرًا فاه غير قادر على الإجابة. لقد حصل على درجة الدكتوراه في القانون ولا بد أن داخل جمجمته شيئًا من العقل، لا بد أنَّ داخل صدره شيئًا من الضمير الحي، يُؤنِّبه، يقول له ضميره، يا رجل كيف تعاقبون الأطفال الأبرياء بسبب فساد أخلاق الرجال الكبار؟ هل هذا عدل يا رجل؟ كيف تستسلم لهؤلاء المشايخ الذين لم يدرسوا القانون كما درستَ أنت؟

أطرقَ المحقق طويلًا في صمت، يُبحلِق في عريضة الاتهام أمامه، كنتُ أجلس إلى جوار ابنتي أرقبه، ثم أُحوِّل بصري عنه إلى ما حولي، الغرفة ضيقةٌ مختنقة الهواء، بها أربعة كَراسٍ عتيقة، داخل كل كرسيٍّ رجلٌ محقق، فوق مكتبه اسمُه محفورًا مع اسم أبيه وأبي أبيه، أمام كلٍّ منهم طابور من رجال ونساء، ينتظرون دورهم ليتم التحقيق معهم في الجرائم أو اللاجرائم التي أُلصقت بهم. ليس في الغرفة إلا كنبةٌ صغيرة مهترئة جلستُ عليها أنا وابنتي، لم يأذن لنا المحقق بالجلوس لكني أعطيتُ نفسي الحق لأجلس وجلسَت ابنتي إلى جواري، لم يملكِ المُحقِّق الجرأة ليأمرنا بالوقوف مثل باقي المتهمين،

حسب القانون لا يحق للمتهم الجلوس، لكني جلستُ وقلتُ لنفسي: من حقي أن أمنح نفسي الكرامة التي تستحقها، وكرامتي فوق القانون، لن يسلب أحد كرامتي إلا بالدم.

كنتُ في تلك اللحظة على استعداد للدفاع عن كرامتي وابنتي حتى آخر قطرة من دمي، وقد رأى المحقق الدم الأحمر في بياض عيني وأنا أرمقه بنظرتي السوداء. هاله الأسود الكبير في عيني، المتأجج بلهيب الغضب. كنت أعرف منذ طفولتي كيف أصُبُّ هذه النار السوداء في عينَي أي رجل يعترض طريقي، فما بالُ رجلٍ يُحقِّق معي وابنتي، ويبحث عن آية في كتاب الله ليزُجَّ بنا في السجن!

سيظل هذا اليوم محفورًا في ذاكرتي إلى الأبد، رغم تحليقي فوق السحب، تهبط ذكرياتي إلى الأرض، إلى تلك الزنزانة في مبنى النيابة، الجدران الكالحة تعلوها بقع الدم القديم والجديد، سوداء وحمراء ورمادية ورصاصية قاتمة بلون الرصاص، تُذكِّرني بجدران زنزانتي في سجن النساء بالقناطر خريف عام ١٩٨١م، لم أُفرِّق بين دم البشر ودم البقِّ والبعوض والفئران، وغيرها من الكائنات الحية، سجينة الشقوق المظلمة داخل الجدران، تتنافس فيما بينها لامتصاص دم الإنسان.

صوت مضيفة الطائرة يشدني من الماضي إلى اللحظة الحاضرة. تتكلم اللغة الإنجليزية، ماذا تشربين يا سيدتي؟ أتطلع إلى عربتها المحمَّلة بالمشروبات المتنوعة، عصير الفواكه، مياه غازية، بيرة ونبيذ وويسكي وجين، طلبتُ النبيذ الأحمر، أصبحتُ أُفضِّله على غيره من المشروبات، أعرف فوائده الطبية، يُنعش الجسم والعقل والروح، أنسى قبح الحياة في الماضي، تبدو اللحظة الحاضرة جميلة، تدربتُ أخيرًا على الاستمتاع بالحاضر، الماضي راح في العدم والمستقبل لم يأتِ بعدُ، لا وجود إلا لهذه اللحظة الحاضرة، لماذا أُضيِّعها؟

أصابتني نشوة الحاضر بالسعادة، أقبض على اللحظة السعيدة بأصابعي الخمسة، كأنما أقبض على جسمٍ حي. تراني المضيفة أنظر إلى قبضة يدي وأبتسم: أتريدين الكأس الثانية يا سيدتي؟ نعم، نعم أريد الكأس الثانية والثالثة والرابعة، وضحِكتُ من كل قلبي كما كنتُ أضحك وأنا طفلة في السابعة من العمر، وأيقنتُ، من حيث لا أدري، أني وابنتي سوف نكسب القضية، ليس فقط في محكمة القاهرة بل في الكون كله. يغزوني التفاؤل والأمل من بؤرة في أعماقي، ممدودة عبر الأفق اللانهائي إلى ما لا نهاية.

لم أعرف الغيب تلك اللحظة، وأنا محلقة فوق السحب، ذلك اليوم ٤ فبراير ٢٠٠٧م، لكن المستقبل كان يتبدَّى في ضوء الأفق، بعد خمسة عشر شهرًا وتسعة أيام من هذا اليوم،

بالضبط يوم الثلاثاء ١٣ مايو ٢٠٠٨م، صدر قرار محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة بالقاهرة، يؤكد براءتي وبراءة ابنتي من التهم الموجهة إلينا، بل يؤكد أيضًا أن حرية الكتابة وحرية الفكر والرأي حقٌّ للمصريين والمصريات حسب نص الدستور، والأغرب من هذا أنه بعد ثلاثة أيام فقط من صدور هذا القرار التاريخي، قرأتُ في الصحف المصرية، يوم الجمعة ١٦ مايو (ومنها جريدة الأهرام الحكومية) هذا العنوان بالبنط العريض: «تعديل قانون الطفل لحماية حقوق الأطفال في مصر»، يشمل القانون الجديد هذه البنود:

(١) تجريم عملية ختان الإناث، وتشديد العقوبة على من يُجري أو يشرع في إجراء هذه العملية؛ لأن ختان الإناث غير مشروع دينيًّا، وليست له أي فوائدَ صحية ولا علاقة له بعفة البنات التي أساسها التربية والأخلاق (هذه الكلمات هي بالضبط ما وَرَد في كتاباتي من أكثر من نصف قرن).

(٢) يحق للطفل أن يحمل اسم أمه غير المتزوجة في شهادة ميلاده، ولا يُعامل كطفلٍ غير شرعي أو لقيط، ويحق له أن يرث أمه وأن يتمتع بجميع الحقوق التي تُمنح للأطفال الآخرين ومنها التطعيمات ضد الأمراض والتعليم بالمدارس والرعاية الصحية والعمل والكرامة والشرعية.

(هذه الكلمات بالضبط وردَت في كتاباتي منذ نصف قرن ووردَت في كتابات ابنتي الدكتورة منى حلمي منذ عامَين، مما عرَّضها وعرَّضني للوقوف في المحاكم بتهمة الكفر والخروج عن الدين.)

ذكَرَت الصحف أن هذا القانون الجديد أخذ حقَّه من الدراسة والمناقشة ووفقًا لأصول الشريعة وفروعها، من أجل تحقيق المصلحة الفُضلى للطفل. وقد قسم فقهاء الشريعة حقوق الأطفال إلى قسمَين: قسم يعيش في ظل الأب والأم وله كل الحقوق الإنسانية، وقسم حُرم من الأب أو الأم أو كَليهما. وتم تقسيم هؤلاء الأطفال إلى ثلاثة أقسام: الطفل بلا أب ويُسمى «لقيط»، الطفل الذي فقد أمه ويُسمى «قطيع»، والطفل الذي فقد الأم والأب ويُسمى «لطيم» لأن هذا الطفل يصبح «لطمة» تلطم المجتمع على وجهه، وتصفَع المنافقين المتشدِّقين باسم الدولة والدين والشرع. يجب على الدولة أن تسُنَّ القوانين الجديدة ومنها قانون الطفل الجديد لمحو هذا العار عن جبين المجتمع والدولة والشرع.

وجاءت برقيات التهاني لابنتي في بيتها بالقاهرة هذا اليوم ١٦ مايو ٢٠٠٨م، وجاءتني برقيات التهنئة في بيتي البعيد وراء البحار والمحيط؛ حيث كنتُ أعيش الغربة

والمنفى. شملَتِ التهاني خبر البراءة الصادر من المحكمة، وخبر صدور قانون الطفل الجديد الذي يمحو عار ختان البنات، وعار عقاب الأطفال الأبرياء بسبب جرائم آبائهم الأخلاقية والجنسية. كيف كان القانون والشرع يحميان هؤلاء الرجال الفاسدين، ويشجعانهم على فسادٍ أكثر، تحت حماية الله والدولة؟ ألهذا كَرِهَني هؤلاء الرجال منذ أمسكتُ القلم وكشفتُ فسادهم؟ ألهذا تعَّرضتُ لكافة أنواع العقاب لِأَكُفَّ عن الكتابة، لأكف عن فضح الفساد الذي ينخر في بلادنا تحت اسم القانون والشرع؟ ألهذا امتد العقاب لابنتي لأنها أشهرت قلمها أيضًا ضد جيوب الفساد الخفية تحت اسم الأخلاق وفضيلة الشيخ؟

في مؤتمر روتردام يوم ٥ فبراير ٢٠٠٧م ألقيت كلمتي. تعودتُ أن أخاطب جموع النساء والرجال كما أخاطب نفسي، أصبحتُ أعرف موضوعي دون حاجة إلى الورق، أحب أن أنظر مباشرة إلى الناس، أستلهم من عيونهم أفكاري الجديدة. يتابعون كلماتي بعقولهم وقلوبهم، أحملهم معي فوق أجنحة الخيال والإبداع، بعد الظلام لا بد للفجر أن يطلع. سوف ينتصر العقل والعلم على الخزعبلات والأساطير، سوف يتحرر عبيد القرن الواحد والعشرين، نساءً ورجالًا، لا إبداع بغير تمرد، ولا حرية دون ثمن.

الناس هم الناس في كل بلد، تحن عقولهم إلى العدل والحرية والحب، تخفق قلوبهم لسماع الموسيقى أو قصيدة شعر تتغنى بالجمال والصدق، يُصفِّق لكلماتي الناس في أي بلد وبأي لغة، أقول لهم:

لماذا نفرح حين نرى عصفورًا يُغرِّد فوق الشجر؟

لماذا نحزن لعصفورٍ صامت في قفص من الذهب؟

لا يخدعنا الذهب ولا الياقوت عن أحزان العصافير فما بال البشر؟

أتكلم ضد أمراض القرن الواحد والعشرين، وما يُسمى العصر الحديث أو ما بعد الحديث، أكشف الفساد تحت الكلمات المنمَّقة الجميلة، الأخلاق، الدين، القانون، الشرعية الدولية؟

أين الشرعية الدولية في هذه الغابة التي نعيش فيها؟ كيف تغتصب دولةٌ كبيرة حقوق شعبٍ أقل قوة؟ كيف يغتصب رجلٌ حقوق امرأة أو طفلٍ لا حول له ولا قوة؟

إذا كان القانون ظالمًا فلا بد أن نكسره،
إذا كان البرلمان فاسدًا فلا بد أن نحلَّه،
إذا كان الدين غير عادل فلا بد أن نرفضَه،
إذا كان الوطن قاهرًا فلا بد أن نقهره،

إذا كان العالم غابة فلا بد أن نصرعه.
لا شيء يمكن أن يتغير دون أن نُغيِّره،
بأيدينا، بعقولنا، بسواعدنا، بكل سلاح نملكه.

قلتُ لهم: هذه مبادئ الإبداع والتمرد، لا إبداع دون تمرد على الظلم، لا إنسانية دون سلاح يضرب القهر، لا انتصار إلا بعد الهزيمة، لا نجاح إلا بعد الفشل، لا ثورة ولا حرية دون الثمن والدم.

يسألني أحد الصحافيين: «أنتِ مع الإرهاب؟» قلتُ: أنا مع المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الخارجي أو الداخلي. مقاومة الظلم حقٌّ من حقوق الإنسان وليست إرهابًا، إن قتلتَ شخصًا يريد أن يقتلكَ فأنت بريء حسب القانون العادل. الإرهاب هو اعتداءُ دولة على شعبٍ آمنٍ بالقوة المسلحة، كما يحدث في العراق وفلسطين وغيرهما من البلاد. إذا ألقى طفلٌ فلسطيني طوبة على دبابةٍ إسرائيلية سحقَت بيته وأرضه وأهله أتُسمِّي هذا الطفل إرهابيًّا والدبابة الإسرائيلية مسالمةً خاضعة للشرعية الدولية؟

إذا لفَّت فتاة فلسطينية جسمها بالبارود وفجَّرت نفسها في نقطة بوليس إسرائيلية تمنعها من المرور إلى بيتها وأهلها، أتسمي هذه الفتاة إرهابية والبوليس الإسرائيلي مسالمًا خاضعًا للقانون العالمي؟ كيف تُدين الضحية وُتبِّرئ المجرم؟ أليس هذا هو القانون العبودي الطبقي الأبوي منذ سبعة آلاف عام؟ أليست هذه هي القيم المزدوجة الواردة في الكتب المقدسة؟

أنتِ ضد الكتب المقدسة؟ أنتِ لا تؤمنين بوجود الله؟ وأنت تؤمن بوجود الله يا أستاذ؟

طبعًا يا أستاذة أنا أؤمن بالله والمسيح والكتاب المقدس؟

وتؤمن أيضًا يا أستاذ بوجود إسرائيل وأمريكا وأستراليا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا والجميع؟

رمقَني الصحفي بنظرة عداء وانصرف.

تعمدَت بعض الصحف الرأسمالية الاستعمارية حذف كلمتي أو تشويهها، تمامًا كما تفعل الصحف المصرية والعربية المساندة سرًّا أو علنًا لحكومة إسرائيل وأمريكا. قالوا عني: شيوعيةٌ إرهابية ملحدة، ضد عملية السلام في الشرق الأوسط، الاتهامات ذاتها التي ألصقَتْها بي الصحف المصرية والعربية التابعة للقوى الخارجية.

كانت الصحف في بلجيكا، مثل غيرها في أوروبا وأمريكا وإسرائيل، لا تكف عن التشهير بالعمليات الانتحارية في فلسطين والعراق، دون أن تدين الاحتلال الأمريكي

للعراق أو الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. كانت محاولةً استعمارية لتشويه صورة المقاومة الشعبية العراقية والفلسطينية.

هناك في العراق وفلسطين كانت أيادي الاستعمار والحكومات العربية تعمل في السر والعلن لتفتيت قوى المقاومة الشعبية، بالتعاون مع التيارات الدينية السياسية، إسلامية ومسيحية ويهودية وغيرها.

لعِبَت الأموال من الداخل والخارج، والأديان السماوية أو الأرضية، دورًا أساسيًّا في تقسيم صفوف المقاومة الشعبية في العراق وفلسطين، تحوَّلَت من مقاومةٍ سياسية اقتصادية منظمة، متحدة تحت شعار تحرير الأرض والاقتصاد، إلى جماعاتٍ دينية ومذهبية متناحرة. حوَّلَت المقاومة ضد الاحتلال والظلم إلى حروبٍ طائفية، تحت اسم الله وتطبيق الشريعة، تحوَّلَت الأسلحة عن صدور الجيوش المحتلة إلى صدور النساء، تحوَّلَت قضية استعادة الأرض والبترول والثروة إلى قضية الحجاب وتغطية رأس المرأة، أصبح شعار الحريات الدينية سلاحًا لتقسيم الناس طائفيًّا. أصبح شعار الديمقراطية سيفًا يمزق أواصر الشعب الواحد، أصبح اسم الله نارًا تنفجر في كل من خالف القوة الحاكمة في الداخل والخارج، ومشانق تُعلَّق للشعراء والشاعرات، والأدباء والأديبات، والمبدعين والمبدعات.

وبرز قانون «الحسبة» الديني من بطن الأرض، أصبح سيفًا يقطع رقاب العقول المفكرة، وخرج من الشقوق رجالُ دين يتشدَّقون بالشريعة وحدود الله. قطعوا أيادي أولادٍ صغار فقراء سرقوا رغيف عيش. أباحوا سرقة البلايين لأنفسهم وحكامهم في الداخل والخارج، رجموا الفتاة الصغيرة المغتصبة بتهمة الزنى. أباحوا الزنى لأنفسهم وللذكور الفحول أصحاب السلطة والمال. قتلوا طفلة في العاشرة من عمرها خلعَت الحجاب عن رأسها في يومٍ حار. فرضوا ختان الأطفال البنات والأولاد بحد السيف. نشروا الفسق وتعدُّد الزوجات والجواري والإماء وما مَلكَت يمينهم. شرعوا العبودية والعنصرية والخيانة الزوجية لأنفسهم. تاجروا في السر والعلن مع الشركات الأمريكية الإسرائيلية ورجال الأعمال. اتهموا المعارضين والمعارضات بالشيوعية والماسونية والكفر والتعاوُن مع الاستعمار والصهيونية.

وجاءني صوت أصدقائي وصديقاتي في مصر عَبْر أسلاك التلفون يقولون:

لا تعودي إلى الوطن يا نوال حتى تسقُط عنه الدولة الدينية المتنكرة تحت قشرةٍ مدنية. إنهم يتربصون بكِ لاغتيالك، بعد أن اغتالوا صورتكِ وأفكارك. إنهم يريدونكِ كبش

فداءٍ يتلهَّى به الشعب عن جرائمهم ضد الشعب. تم تجهيل الشعب وفرض حجاب العقل باسم الله على الجميع، حتى أساتذة الجامعات أصبحَت لهم لحيةٌ طويلة مثل القسيس، ومسبحة في اليد وزبيبة على الجبين، وأستاذات الجامعات غطَّين رءوسهن بالحجاب أو بالطرحة أو الإيشارب أو التيربون. عادت مصر إلى عصور الظلام والعبودية تحت شعارات الأسلمة والأمركة والديمقراطية.

في القطار من روتردام إلى بروكسل

٦ فبراير ٢٠٠٧م

على رصيف القطار وقفَت مجموعة من الشباب والشابات الهولنديات من أصلٍ عربي. أنا أُطل عليهم من نافذة القطار، إلى جواري «بيلجي» بلجيكية من أصلٍ ألباني.

– مع السلامة يا دكتورة نوال، في انتظار عودتك إلى روتردام. أرجوكِ لا تنسينا.

عيونهم مليئة بالبريق، والفرح والحماسة والأمل. تركوا الأهل والوطن والأرض، هاجروا وحدهم أو مع الأسرة الصغيرة. واجهوا مخاطر البحار، بحثًا عن الكرامة، أو الحرية، أو التعليم أو العمل الكريم. نسُوا لغة الأب والجد؛ نسُوا قسوة الفقر والتقاليد الموروثة منذ العبودية؛ نسُوا آلام الطفولة وذكريات الماضي القريب أو البعيد؛ نسُوا السجن والجلد بالكرباج؛ نسُوا الكيَّ بالنار والضرب بالجنازير؛ نسُوا شفرة الموسى تقطع اللحم الطفولي، تحت اسم الله أو العفة أو قانون الدولة والدين.

كيف أنساكم؟ قلتُ لهم والقطار يتحرك، لم يسمعوا صوتي. لوَّحوا لي بأياديهم ومناديلهم البيضاء. رأت بيلجي الدموعَ في عَينيَّ، قالت: أنتِ لهم أكثر من الأم والأب، غيَّرَت كتاباتك نظرتهم إلى الحياة، لكِ يا نوال في روتردام وفي كل بلاد العالم بناتٌ وأولاد لم تلديهم من الرحم بل من عضوٍ آخر في الرأس: العقل.

لماذا تبكين يا نوال؟ لو كنتُ مكانكِ لشعرتُ بالسعادة الطاغية. أنا أحسدك بصراحة. كانت معي بيلجي في زيارتي للمركز العلمي في روتردام، أنشأه هؤلاء الشباب والشابات منذ أعوام، أعطوه اسم: مركز نوال السعداوي، بناء من أربعة أدوار لونه أبيض، يشبه حمامةً بيضاء وسط الشجر الأخضر، يحتوي على مكتبةٍ مليئة بالكتب، منها كتبي بالهولندية والعربية، وقاعات للبحث والقراءة والدراسة، وغرف لإقامة المهاجرين والمهاجرات من

المغرب أو المشرق، وكل من ليس لهم بيت أو أهل. يعيشون في هذا المبنى حتى يحصلوا على العمل أو مكان في الجامعة أو المعهد.

رأيت اسمي محفورًا فوق الباب الخارجي، تذكرتُ الباب الخارجي لمكتبة قريتي كفر طحلة. أنفقتُ من عمري أربع سنوات لأُنشئها، علق أهالي قريتي يافطة فوق الباب تحمل اسم: مكتبة نوال السعداوي، في الليل جاء رجال البوليس، نزعوا حروف اسمي من فوق الباب، حسب أمر الوزير، وضعوا يافطةً جديدة لامعة تحمل اسم سوزان مبارك زوجة رئيس الدولة. تجمَّع الأهالي في اليوم التالي، نساءً ورجالًا وشبابًا وشابات، ونزعوا اسم السيدة حرم الرئيس، بقِيَت المكتبة بلا اسمٍ محفور على الباب. لكن أهل القرية أطلقوا عليها اسم مكتبة نوال السعداوي، دون حاجة إلى يافطة، دون حاجة إلى قوة البوليس أو السلاح. تم حفر الاسم في تاريخ القرية والناس، في العقول والأذهان. تبقى الحقيقة في الذاكرة، حية لا تضيع، تتوالد مع الأجيال ومرور السنين.

في القطار جلسَت بيلجي في المقعد أمامي، إلى جوارها في الممر وضَعتُ حقيبة ملابسي الحمراء. جلستُ أمامها، وضعتُ الحقيبتَين الصغيرتَين تحت مقعدي إلى جوار الممر، واحدة سوداء من القماش السميك بها أوراقي الهامة، منها جواز السفر والفيزات وتصاريح الدخول وعقود حضور المؤتمرات وتذاكر السفر، ومحفظة النقود، الجنيهات واليوروهات والدولارات التي حملتُها معي، وصور ابنتي وابني حملتها أيضًا، حين يشتد الحنين في البعد، أنظر إلى عيونهما في الصورة، فأعود إلى الوطن.

الحقيبة الثانية الأكبر قليلًا، عليها رسم امرأةٍ إندونيسية تكتب بالقلم. حصلتُ على هذه الحقيبة العام ٢٠٠٦م في مؤتمر جاكارتا الدولي للمسرح النسائي، ملأتُ الحقيبة بأوراق روايتي الجديدة، مائتان وتسعون صفحة، مكتوبة بخط يدي، بدأتُ كتابتها منذ عامَين. لم يبقَ إلا الفصل الأخير. حملتها معي من القاهرة، بأمل إكمالها خلال السفر. انهمَكَت بيلجي كعادتها في الحديث إلى المرأة الجالسة إلى جوارها باللغة الفرنسية، تابعت حديثهما قليلًا، ثم شردَت عيناي إلى التلال الخضراء، من خلال زجاج النافذة الكبيرة، قلبي يخفق بفرح، وحزنٍ غامض، يغلب الفرح على الحزن دائمًا، لا أعرف كيف. القطار مزدحم بالناس، بعض العيون ترمقني باستطلاع وريبة، تكاد تشبه عيون البوليس السري. أُحرِّك رأسي بعيدًا عنها إلى جمال الخضرة والأنهار خارج القطار، ثم توقَّف القطار في إحدى المحطات على الحدود ما بين هولندا وبلجيكا. بدأ بعض الركاب يهبطون وبعضهم يركبون. أحد الركاب توقَّف في الممر إلى جواري وهتف بالإنجليزية: سقطَت

بعض نقودي على الأرض تحت قدمك يا مدام، هل تساعدينني في الحصول عليها بسرعة لأهبط من القطار؟ صدقتُه على الفور لأني فعلًا سمعتُ صوت نقودٍ فضية تسقط على الأرض، ورأيت في يده بعض نقودٍ أخرى وجهازًا صغيرًا جدًّا يشبه التلفون المحمول، يصب في عيني ضوءًا متحركًا يشبه العين الإلكترونية، لكن الوقت كان ضيقًا لأفكر، فانحنيتُ بسرعة لأجمع النقود الساقطة تحت قدمي، لكن لم تكن هناك أي نقود. أخذتُ أبحث تحت قدمَي السيدة الجالسة في المقعد إلى جواري، رغبةً في مساعدة ذلك الراكب المسكين، ثم اعتدلتُ في جلستي حين لم أجد النقود، واعتذرتُ للرجل بأسفٍ شديد، فاعتذر الرجل وهبط من القطار بسرعة مع طابور الناس الهابطين.

وتحركَت عيناي بعد لحظة لأطمئن على وجود الحقيبتين فوق أرض القطار تحت مقعدي، فانطلقَت مني صرخة حادة أفزعَت الركّاب جميعًا: أمسكوا الحرامي أمسكوا الحرامي. واندفع جسمي خارج القطار لألحق بالحرامي الذي سرق الحقيبتَين لحظة انشغالي بجمع النقود لذلك الرجل. فهمتُ أنه خدعني ليشغلني، فلا أرى زميله الذي سرق الحقيبتَين في تلك اللحظة الخاطفة وهبط من القطار. لحسن حظي لم يكُنِ القطار قد غادر المحطة بعدُ، فانطلقتُ أجري وراء الناس الذين غادروا القطار، مئات من ظهور الرجال ليس فيهم ذلك الرجل، وكيف أعرفه من ظهره وأنا لم أرَ إلا وجهه. لونه أبيضُ قمحي، ملامحه خليط من جنوب البحر الأبيض وشماله، أنفٌ إيطالي مع فمٍ إسباني أو فرنسيٍّ جنوبي، عيناه سوداوان من المغرب أو المشرق، أو من إيران أو تركيا.

ترمقني عيون الناس وأنا أجري وأصيح: أمسكوا الحرامي، بعض الأطفال ضحكوا في مرح وسعادة، يستمتعون بالنظر إلى هذه المرأة المكلومة. توقفتُ لحظة ألهث غاضبة، الأطفال قلوبهم متحجرة أكثر من الكبار. الأطفال أبرياءُ نفوسهم صافية! من قال هذه الأكذوبة؟

لم أتوقف عن الجري حتى سِمعتُ صفارات رجال البوليس يجرون ورائي، ومعهم بيلجي تجادلهم بالفرنسية، وهم يُهدِّدونها، القطار سوف يغادر المحطة ولن ينتظر صديقتها، إن لم تصعد فورًا إلى القطار فسوف يمضي القطار دون صديقتها (صديقتها التي يتكلمون عنها هي أنا لا بد)، وأنا فوق الرصيف اللانهائي أطارد شبحًا لا نهائيًّا، لن أموت قبل أن أقبض على الشبح، هكذا تصورتُ.

عدتُ إلى القطار بعد لحظاتٍ منكسرةَ القلب، مملوءة حزنًا وهزيمة وهولًا، لا أكاد أستوعب أنني فقدتُ كل شيء في لحظةِ غباءٍ خاطفة، حتى الرواية المكتوبة بخط يدي

فقدتها، جهد عامَين من الزمن والعرق، وسهر الليالي والأرق، وكل ما عندي من النقود، وأوراق المؤتمرات والتذاكر والفيزات وجواز السفر. أطرقتُ في مقعدي بالقطار، سقط رأسي وحده فوق صدري، غفوتُ قليلًا أحس الضربات القوية السريعة تحت ضلوعي، أيمكن أن تتسرب الروح من جسدي في تلك اللحظة؟ أيمكن حقًّا أن أموت؟

شيءٌ ما يحدث للإنسان قبل الموت بلحظةٍ واحدة، عقلٌ جديد يتسرب إلى رأسه، روحٌ جديدة تتقمص جسده، ماردٌ هائل يخرج من كيانه، قوةٌ شيطانية إلهية خبيثة تتملكه، يتحدى قوى الأرض والسماء والطبيعة، يتحدى الآلهة والشياطين، يخالف المنطق والعقل الظاهر والباطن، يقول لنفسه سأقتل العالم قبل أن يقتلني، سأفعل المستحيل ولن أستسلم أبدًا أبدًا.

منذ طفولتي كانت هذه القوة كامنة في أعماقي العميقة، كانت ماردًا ضخمًا يتثاءب داخلي حتى لحظة الخطر، فإذا به يصحو ويفرد قامته العملاقة، وينهض. سمعَتْني بيلجي أضحك من كل قلبي، سألتني بدهشة: ماذا يضحكك في هذه الفجيعة؟ قلتُ: شر البلية ما يضحك. قالت: كاد البوليس يقبض عليَّ ويضعني في السجن. لماذا يسجنك ولا يسجن اللصوص الذين سرقوني؟ قالت: البوليس لا يقبض إلا على الأبرياء في الغرب أو في الشرق. قلتُ لها: أنت فيلسوفة، لكن لماذا يقبض البوليس عليك؟ هل سرقتِ أحدًا في القطار؟ ماذا كانت جريمتك؟ قالت بيلجي: أوقفتُ القطار بالقوة؟ كيف؟ وحكت بيلجي حكايتها العجيبة، رغم شجاعتي وجنوني لم أتصور أنني كنتُ أفعل ما فعلَتْه.

حين رأت بيلجي القطار يتحرك بدوني شعرَت بالفزع، كيف تتركني فوق الرصيف دون نقود، دون أوراق تثبت شخصيتي، في مدينة لا أعرفها، أجري وراء لصوص هربوا كالأشباح في غمضة عين؟ انتفضَت بيلجي من مقعدها، سارت بخطواتٍ سريعة ثابتة، أمسكت مقبض فرامل القطار في السقف بيديها الاثنتَين. مقبضٌ حديدي كبير، شدَّته بكل قوتها إلى أسفل، ارتجَّت أجسام الركاب ارتجاجةً عنيفة، ارتطمَت رءوسهم بمقاعدهم وانطلقَت أصواتهم المذعورة. ظهر على الفور رجال البوليس، حوَّطوا بيلجي الممسكة بمقبض الفرامل لا تتركه حتى توقف القطار تمامًا، أمسكوها متلبسة بالجريمة: «إيقاف القطار وهو يتحرك وتعريض مئات الركاب للخطر.»

لكنها، بيلجي، امرأةٌ قوية، متعددة الدماء والأجناس والهويات، ورثَت الجسارة عن خليط من جينات أمها البلجيكية وأبيها الألباني. كان جنديًّا جسورًا في الجيش مثل محمد علي، الجندي الألباني الذي حكم مصر عشرين عامًا وأكثر. أيضًا هي امرأةٌ ثارت ضد

تقاليد ألبانيا وبلجيكا وكل العالم، تمشي في المظاهرات، تهتف ضد حكومة بلدها وعائلة أبيها وأمها، ضد أمريكا والصهيونية والعنصرية والرأسمالية. بيلجي لا تخاف الآلهة الذكور أو الإناث ويمكنها أن تُبحلق في عين الشيطان لا يطرف لها جفن.

صوَّبَت بيلجي عينَيها الزرقاوَين البراقتَين بقوة في عيون رجال البوليس، وقالت بفرنسيةٍ فائقة تنم عن جذورها البلجيكية الأصيلة: أنا أوقفت القطار لسببٍ قوي جدًّا، ذلك أن شخصيةً مهمة، كاتبةً عالمية، قد تمَّت سرقتُها في هذا القطار وهي في طريقها إلى بروكسل لتفتتح صباح الغد مؤتمرًا دوليًّا هامًّا. كيف أتركها على الرصيف تبحث عن اللصوص؟ هذه هي مهمة البوليس، واجبكم أنتم أن تقبضوا على اللصوص وتُعيدوا إليها الحقيبتَين. إنها من مصر أيها السادة، ليست من هنا، كيف أتركها في بلادٍ غريبة عنها، وليس معها نقود ولا أوراق تثبت شخصيتها، وليس معها ملابس، لأن حقيبة ملابسها معي هنا في القطار؟

وأشارت بيلجي إلى الحقيبة الحمراء المركونة بالممر.

هبط رجال البوليس من القطار ومعهم بيلجي، كنتُ أطارد اللصوص الأشباح حتى آخر الرصيف، حتى آخر العمر، ثم توقفتُ لحظة ألتقط أنفاسي، رأيت الرجال ذوي اليونيفورم من حولي، سمعتُ أحدهم يقول بالفرنسية:

عليك الصعود إلى القطار وإلا فسوف يمضي القطار بدونك، لا يمكن أن نُعطِّل مائتَين وخمسين راكبًا من أجل فردٍ واحد؟

قلتُ: طبعًا هذه هي الديمقراطية الحقيقية، ليت جورج بوش يتعلم منكم.

وضحكتُ، لا أعرف كيف ضحكتُ، لكن المصيبة بدَت لي كبيرةً إلى حد الضحك.

في القطار جلسَت بيلجي إلى جواري، قالت: حين يصل القطار إلى بروكسل لا بد أن نذهب إلى مكتب البوليس في المحطة ونبلغ عن السرقة. البوليس البلجيكي مدرب على ضبط اللصوص من هذا النوع. اجتاحني أمل من وراء العقل أن الحقيبتَين ستعودان إلى بكل ما فيهما، وأغمضتُ عيني مستسلمة للوهم، ثم أفقتُ على صوت رجل يقول: أنا مستعد لتعويضك عن كل ما فقدت. كان واقفًا أمامي، طويل القامة، يرتدي بذلةً أنيقة، حليق الوجه، عيناه سوداوان مليئتان بالعطف والحنان، يشبه الرجال في بلادنا في المشرق أو المغرب أو إيران أو تركيا، رأيته منذ دقائق جالسًا على مقعده في القطار يرمقني من بعيد بهذه النظرات المتعاطفة مع مأساتي، وهمستُ في أذن بيلجي ما هذا؟ قالت بيلجي: لا يخلو العالم من الإنسانية. قلتُ لها، شيء في أعماقي لا يصدقه، ربما يكون واحدًا

من عصابة اللصوص. وضحكَت بيلجي: خيالك الروائي واسع يا نوال، يبدو أنه كريم الخُلق. قلت لها: أتصدقينه؟ قالت نعم، قلتُ لها: خذي منه رقم تليفونه الأرضي والمحمول، وقولي له إننا سوف نتصل به من الفندق في بروكسل. كتبت بيلجي رقم تلفون الرجل في مفكرتها، سمعته يقول: بدلًا من الفندق، عندي شقة في بروكسل خالية لا يسكنها أحد، يمكنها الإقامة فيها أي مدة تريدها دون مقابل، كما أنني مستعد لإعطائها المبلغ كله الذي سُرق منها، كم كان المبلغ؟

تركتهما يتبادلان الحديث وانغلقَت عيناي من شدة الإرهاق.

بعد بضع دقائق هبط الرجل في إحدى المحطات وهو يُلوِّح بها بيده. بدت السعادة على وجه بيلجي وقالت: يبدو أن الله موجود. قلتُ لها: أُقسم أن هذا الرجل واحد من العصابة، قالت: ولماذا لم يغادر القطار معهم؟ قلت: إنهم مجموعة من اللصوص، لكلٍّ منهم دور محدد، كانوا أربعة رجال على الأقل، أولهم الرجل الذي شغلني بجمع النقود الساقطة منه، الثاني هو الرجل الذي توقَّف عندك لحظةَ قبل أن يهبط وسألك عن شيء باللغة الهولندية (الفليميش) ليشغلكِ عن الرجل الثالث الذي سحب الحقيبتَين بسرعة من تحت مقعدي وهبط من القطار. أما الرجل الرابع فهو الذي بقي في القطار يدرُس ما يحدث ويوهمنا بالمساعدة الإنسانية. هذه العصابة يا بيلجي كانت تراقبنا منذ صعدنا إلى القطار في روتردام، درسونا بدقة، عرفوا بدقة أين وضعتُ الحقيبتين، عرفوا أن بهما أشياءَ ثمينة لأني كنت أتحسَّسُهما من حين إلى حين، أطمئن على وجودهما. عرفوا أنني من بلدٍ أجنبي، أن ملامحي ليست شريرة، كما أن شعري أبيض ولن يمكنني، بحكم السن، أن أجري وراءهم. هؤلاء اللصوص مثل الاستعمار الأوروبي-الأمريكي تحكمه القوة وليس الإنسانية أو العدل؟ صاحت بيلجي: يا لخيالك الجامح يا نوال! يمكنك تأليف قصة عن هذه السرقة. قلتُ: ليست قصة بل الحقيقة، هذه العصابة تتدرب على السرقة بطريقةٍ علمية دقيقة، وقد بقى الرجل الرابع ليدرس سلوك البوليس، وسلوك الضحية. يخفي دوره الحقيقي بدورٍ إنساني مزيف. وقالت بيلجي: لقد أعطاني رقم تلفونه، قلتُ: إنه رقم مزيف وسوف تتأكدين من ذلك حين تطلبينه في بروكسل ليُسلمنا مفتاح الشقة والشيك بالمبلغ المسروق، لماذا هبط من القطار قبل بروكسل؟ قالت بيلجي: ربما لا يعيش في بروكسل، أغلب الأغنياء مثله يعيشون خارج العاصمة، في الضواحي النقية الهواء، الخالية من التلوث والضجيج.

في مكتب البوليس في محطة بروكسل قضينا ثلاث ساعات، كتبتُ البلاغ، ملأتُ الاستمارات، أعطيتُ أوصاف الحقيبتَين، اتصل البوليس بجميع مراكز الأمن على طول

خطوط السكة الحديدية من روتردام إلى بروكسل، والعكس. كان رجل البوليس متعاونًا إلى أبعد الحدود. كان الوقت بعد منتصف الليل فأحضر لنا عصير البرتقال وساندويتش جبنةٍ بلجيكية مع قطع طماطم، قدَّم لنا التلفون لنطلب السفارة المصرية لتجديد جواز سفري المسروق، وأسرتي في القاهرة لترسل لي بعض المال، والمسئولين عن المؤتمر الدولي لتأجيل كلمتي الرئيسية في الصباح. كان الجميع نيامًا فتركتُ رسالة على الآلة الأوتوماتيكية. أعطت بيلجي رقم تلفونها المحمول لمكتب البوليس للاتصال بها عند اللزوم. أدركتُ لحظتها فائدة التلفون المحمول، وقررتُ أن أمتلك هذا الجهاز السحري الصغير بمجرد استرجاع نقودي المسروقة. وضحك رجل البوليس البلجيكي، اهتز جسمه السمين داخل اليونيفورم الرسمي وقال بالفرنسية: كل ما نتمناه أن يرسل اللصوص إليك جواز سفرك وأوراقك الأخرى، إن كنت محظوظة وإن كانت عندهم شفقة، أما الفلوس فعوضك على الله يا مدام.

في غرفتي بالفندق لم أنم، الساعة الرابعة صباحًا من يوم الثلاثاء ٦ فبراير ٢٠٠٧م، يومٌ أسود. ليلةٌ سوداء لا تريد أن تسقط مع الماضي في العدم، سأُلقي الكلمة الرئيسية في المؤتمر الدولي في التاسعة صباحًا. أريد أن ينام عقلي ثلاث ساعات على الأقل ليسترد قدرته على التركيز، الورقة التي أعددتُها للمؤتمر راحت، ذاكرتي أيضًا راحت، لا أستطيع التفكير في شيءٍ آخر سوى حادث القطار. يلوح لي وجه الرجل الذي توقَّف عندي بالممر، في يده جهازٌ صغير أحدث الصوت المزيف الذي يشبه نقودًا فضية تسقط على الأرض، وبؤرة ضوء زغللَت عينيَّ قليلًا فلم أرَ ملامحه جيدًا، لم أفكر لحظتها. أسرعتُ بحكم الإنسانية الغافلة وانحنيتُ بجسمي إلى الأرض لأجمع له نقوده الساقطة، بينما زميله يسرق الحقيبتَين ويهبط من القطار.

تطورت وسائل السرقة في البلاد الاستعمارية. يدرس اللصوص سيكولوجية الأفراد، بمثل ما يدرس المستعمرون سيكولوجية الشعوب وحكامهم. كل شيء أصبح يرتكز على الدراسة والعلم، حتى نشل جيوب المسافرين وحقائبهم، بالإضافة إلى التدريب على السرعة. تتحرك أصابع النشالين بسرعة الضوء، لم تكن إلا لحظة ضوئية خاطفة غفلتُ فيها عن حقيبتيَّ. تذكرتُ حادث سرقة وقع لي في مصر منذ عامَين، في شارع الهرم، كان الوقت ظهرًا وكنت قد تركتُ سيارتي الصغيرة بجوار الرصيف لأشتري بعض الأشياء من محل بقالة، حين عدت، حاولت تشغيل السيارة لكن الموتور كان نائمًا تمامًا. أتكون البطارية قد انتهت؟ أو قُطع سلك منها؟ أتكون البوجيهات؟ لست خبيرة بإصلاح العطل

في السيارات. وبينما أنا حائرة رأيت رجلَين يسيران في طريقهما يتحدثان، وقد مرَّا بي غير منتبهَين لي. ناديتهما وسألتهما إن كانا خبيرَين بشئون الموتور النائم. قال أحدهما: أنا ميكانيكي سيارات، قلتُ لنفسي: يا للصدفة السعيدة، أخذ الرجل يفحص الموتور بعض دقائق ثم قال لي: الطرنبة بحاجة إلى تغيير، لا بد لك من شراء طرنبةٍ جديدة. وماذا أفعل الآن وعندي موعدٌ هام بعد قليل؟ رد الرجل: سأضع لك سلكًا مؤقتًا تسير به السيارة قليلًا حتى تصلي إلى محل يبيع قطع غيار السيارات، فتشتري الطرنبة الجديدة، قلتُ: شكرًا جزيلًا، كم أدفع لك نظير هذه الخدمة؟ قال الرجل: لا شيء. قلتُ: شكرًا جزيلًا. تحركت سيارتي وسارت بضعة أمتار ثم توقفَت. ناديتُ على الرجلَين السائرَين خلفي. وقال خبير السيارات: الأفضل أن أركب لك طرنبةً جديدة الآن، وأخرج من حقيبة يحملها طرنبةً صغيرة. قلتُ: كم ثمنها؟ قال في تعفُّف: لا شيء. قلتُ: لا يمكن، لا بد أن أدفع لك ثمنها وثمن تركيبها أيضًا. فقال الرجل: لن آخذ أجرة يدي، فقط ثمن الطرنبة ما دمتِ تُصرِّين. قلتُ: كم أدفع لك؟ قال: فقط ستة وخمسين جنيهًا. ركب الرجل الطرنبة وأخذ الفلوس. تحركت سيارتي بضعة أمتار ثم توقفَت. نظرت خلفي لأبحث عن الرجلَين، لم يكن لهما أثر، عرفتُ فيما بعدُ أن الرجلَين من اللصوص، يبتكران طرقًا جديدة لخدعة أصحاب السيارات، لقد سرقا الطرنبة السليمة في سيارتي وركبا لي طرنبةً قديمة بالية.

ملامح اللص في مصر تشبه ملامح اللص في بلجيكا. تطاردني الملامح وأنا ممدودة في سريري بالفندق، الساعة أصبحت السابعة والنصف دون أن أنام، أخذت حمامًا دافئًا وشعرت بشيء من التفاؤل، ربما يعثر البوليس على اللصوص. تضاعف التفاؤل بعد أن شربت الشاي الساخن (الإيرجراي) مع التوست المحمر ومربى البرتقال بالزبدة الفريش وبيضة مسلوقة بريشت، هبط الدم من رأسي إلى معدتي، تخدَّرَت خلايا المخ وبدت ليلة الأمس أضغاث أحلام.

في بهو الفندق قابلتني بيلجي، ليست عندها أخبارٌ جديدة من مكتب البوليس، قالت لي: اتصلتُ بالسفارة المصرية وسوف يستخرجون لك جواز سفر جديدًا بدل ضائع، لكن علينا أن نذهب إلى المؤتمر أولًا؛ فالجميع في انتظار كلمتك.

هناك شيءٌ عجيب يحدث لي حين أقف على المنصة. منذ طفولتي في المدرسة تعودتُ الوقوف على المنصة في قاعةٍ مليئة بعيونٍ شاخصة نحوي. أقف أمامهم رافعة رأسي عاليًا، مثبتة عيني في عيونهم، دون أن يطرف لي جفن. ربما رأيتُ أبي يفعل ذلك حين كان يخاطب الجماهير، لم يكن ينظر في ورقة كما يفعل زملاؤه من المتحدثين. كان ينظر في

عيون الناس مباشرة، يُحدِّث المئات أو الآلاف بتلقائية وبساطة كما يحدثنا في البيت. لا تتغير شخصية أبي في أي مكان يذهب إليه، لا يتقمص شخصية الرجال العظماء ذوي المناصب العليا، لا يغير شكله أو مظهره، كان طبيعيًّا رابط الجأش لا يخاف الشياطين.

في المدرسة وفي الجامعة كانوا يختارونني من بين الطلبة والطالبات لأُلقي الكلمة، في حفل التخرج نهاية العام الدراسي، أو حفل توزيع الجوائز، أو في ذكرى الاستقلال أو الجلاء التام، أو تعديل الدستور.

أُجهِّز كلمتي في الليل وأنا داخل السرير، أُرتِّب أفكاري في عقلي مستلقية على ظهري، أكتبها دون قلم، دون ورقة في خيالي، أحلُم بها وأنا نائمة. عقلي يشتغل في النوم مثل اليقظة، في الصباح أجدها محفورة في ذاكرتي. تعودت الاستفادة من ساعات النوم الطويلة، أصبح عقلي وخيالي يكبران في الليل مثل النهار. لم تعُد ساعات النوم تضيع في الغيبوبة، حتى درستُ الطب وعرفتُ أن خلايا المخ تعمل وإن نام الإنسان. وكم من مخترع في العلم عثَر على فكرته العجيبة أثناء النوم! وكم من فنان أو روائي كتب في خياله وهو نائم!

استغرقَت كلمتي خمسين دقيقة، دون ورقة، قلتُ لهم إن ورقتي سُرقت مني في القطار. حكيتُ لهم القصة باختصار، دائمًا أبدأ كلامي من اللحظة الحاضرة، هنا والآن، ثم أعود إلى الماضي وما كان، وأُحلِّق في فضاء المستقبل كما أشاء. أربط بين الزمان والمكان، بين الاستعمار القديم والجديد، والسياسة الدولية والمحلية، بين الاستغلال الوطني والأجنبي، بين نصف المجتمع من النساء ونصفه الآخر من الرجال، بين ختان الإناث وختان الذكور وختان العقل، بين الحروب الدموية والأديان، بين الجنس والاقتصاد، بين الطبقية والأبوية. قلتُ لهم: المقاومة الشعبية ليست إرهابًا بل حقٌّ قانوني لكل شعب، هناك ترابطٌ وثيق بين الإرهابيين في الشرق والغرب، بين إرهاب الدولة وإرهاب الأفراد. جورج بوش وبن لادن توأمان، القاعدة والطالبان صناعة دولية استعمارية مثل إسرائيل، التيارات الدينية المتصاعدة ظاهرةٌ سياسية عالمية تشمل كل الأديان. هناك حاجة دائمًا لقوةٍ غامضة غيبية لتبرير الظلم، ليكون الظلم قانون السماء وليس قانون البشر. نحن نعيش في عالمٍ واحد لا ثلاثة. لا يُوجد شيء اسمه العالم الثالث، ومن هو العالم الأول أيها السادة؟ أهو جورج بوش رئيس العصابة التي نهبَت شعب العراق؟ أهي إسرائيل ابنة الاستعمار التي نهبَت فلسطين؟ نحن نعيش في غابة تحكمها القوة وأنياب الذئب لا العدل أو الإنسانية، وإلا فلماذا تبقى قرارات الأُمم حبرًا على ورق؟ ولماذا لا يُحاكم القتلة ومجرمو الحروب أمام محكمة العدل الدولية؟

ثم تكلمتُ عن علاقة قضايا النساء الجنسية بالسياسة الدولية والدين والتعليم، عن علاقة التمرد السياسي بالإبداع الفكري. هل يمكن أن تحدث ثورةٌ سياسية أو اجتماعية دون ثورةٍ فكرية وتعليمية وإعلامية؟ دون وعي الشعب بقدرته على التنظيم والمقاومة؟ إن غاب الوعي والتنظيم الواعي غابت المقاومة الشعبية. انقسمَت قوى الشعب وتشتَّتت تحت معاول الأديان والمذاهب والطوائف والهويات والشلل والأحزاب؛ لهذا يتعرض المفكرون والمبدعون من النساء والرجال للقهر والسجن والنفي والقتل. يتم اتهامهم بالخروج عن الدين، أو الزندقة، أو البلبلة، أو إثارة الشغب أو إثارة الجدل، لا تستطيع القوة المسيطرة في الدولة أو الاقتصاد أو الجيش أو الكنيسة أو الجامع أن تسيطر على الملايين، دون السيطرة على عقولهم. تحرير العقل أُولى الخطوات لتحرير السياسة والاقتصاد والجنس والقوانين والدستور. لا تُوجد حرية أو ديمقراطيةٌ حقيقية في مجتمعاتٍ رأسمالية أبوية. لا يمكن تحرير الدولة والقوانين العامة دون تحرير الأسرة والقوانين الشخصية، لا يمكن تحرير الجنس دون تحرير الاقتصاد، لا يمكن تحرير الرجال دون تحرير النساء، في الشرق أو الغرب، أيها السادة والسيدات.

واصلتُ كلامي من تجارب حياتي وحياة الآخرين وما يدور في عقلي، لا ألجأ إلى استعراض معلوماتي المستمدة من الكتب، كما يفعل أغلب المحاضرين، يتباهون بما قرءوا لأعظم المفكرين والفلاسفة، يُردِّدون مقولات الآخرين، يُفكِّرون بعقول غيرهم، لا يُعبِّرون عن أنفسهم بصدق، يتخفَّون وراء العبارات المعقَّدة والأفكار المبهمة، تحت اسم الموضوعية أو الحياد العلمي. لا يمكن لأحد أن يعرف رأيهم الحقيقي في أي شيء. إنه مرض النخبة في كل بلد، الرجال والنساء من طبقة المثقَّفين العليا، الحاصلين على الجوائز العلمية والأدبية، المحلية والعالمية، الأساتذة في أكبر الجامعات والأستاذات، أعمدة النظام الحاكم في الشرق والغرب، ينتمون إلى الحكومة والمعارضة في آنٍ واحد، يتأرجحون بين الإيمان بوجود الله وعدم وجوده، يقفون دائمًا في منتصف الطريق، أهل الوسط والوسطية، الفلسفة البراجماتية النفعية في أوضح صورها، عينهم على المصالح ولسانهم يتحدث عن المبادئ، يقولون: «قد يكون الله موجودًا أو غير موجود، والأفضل أن نؤمن بوجوده، لنتقي شره بعد الموت إن كان موجودًا.» ويقولون: «نظام العالم رأسماليٌّ أبوي عسكري، هذه هي طبيعة الكون، الحرب ظاهرةٌ طبيعية منذ الأزل وإلى الأبد، الرجل رجل والمرأة امرأة، والغرب غرب والشرق شرق.»

النخبة في كل بلد هي النخبة، لا تحدث الثورات الشعبية بإرادة القلة من النخبة، بل بإرادة الأغلبية من الشعب الواعي المنظَّم. تتحالف النخبة دائمًا مع أصحاب السلطة في

السر أو العلن، حتى تقوم الثورة الشعبية فإذا بالنخبة تركبها، تقود الثورة ضد الحكام الساقطين، تصعد إلى الحكم مع الحاكِمين الجدد، ثم تعود إلى عادتها القديمة، تتعاون مع الحكام ضد مصالح الشعب. إنها البراجماتية التي تضحي بالمبادئ من أجل المنافع، تُضحِّي بحقوق النساء والأطفال من أجل تملُّق الرجال والآباء والأزواج، تقف مع الأقوياء ضد الضعفاء.

في حفل الغداء الفاخر، ألقى بعض المتحدثين كلماتٍ حماسية عن محاربة الفقر في أفريقيا، من حول الموائد العامرة باللحم المشوي والخضراوات والفواكه والمشروبات، دوَّت الكلمات الرنانة عن الفقراء المساكين، وكيف تُقدِّم البلاد الغنية المعونات للبلاد الفقيرة. قبل أن يهضموا الأكل والكلام طلبتُ التعليق دقيقتَين فقط، قلتُ فيهما: لن تُحل مشكلة الفقر في أي بلد بالمعونات المالية أو العينية، هذه المعونات لا تذهب أبدًا لمن يحتاجونها، بل تذهب إلى النخبة الحاكمة محليًّا والدولة الأجنبية المانحة للمعونة. هذه المعونات خدعةٌ استعمارية تحت اسم الإنسانية، مثل خدعة غزو العراق تحت اسم الديمقراطية، مثل خدعة مفاوضات السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. لن يحل مشكلة الفقر إلا ثوراتٌ شعبية تحريرية تُخلِّص الناس من الحكومة الوطنية والأجنبية في آنٍ واحد. لم يحدث في التاريخ أن شعبًا ما تم تحريره بقُوًى من خارج نسائه ورجاله وشبابه وأطفاله. إن أردتم تحرير البلاد الفقيرة في أفريقيا فعليكم إسقاط حكوماتكم الاستعمارية هنا في الغرب، في أوروبا وأمريكا؛ فهي التي تنهب ثروة أفريقيا وتفرض علينا الفقر والقهر من خلال حكوماتنا الوطنية المتعاونة مع حكوماتكم. أيها السادة والسيدات، الحل هو أن ترفعوا أيديكم عنا وتتركوا لنا مهمة تحرير أنفسنا بأنفسنا.

دُهِشتُ حين سمعت التصفيق يُدوِّي، كما حدث حين أنهيتُ كلمتي في الصباح. رغم كل شيء ينتصر العقل على الخزعبلات، دفعَت الشعوب في أوروبا ثمنًا باهظًا من دمائها لتحرير العقل، ناضلوا بالعقل ضد رجال الكنيسة ونصوص الكتاب المقدس، ونجحَت النهضة العلمية، لكن سرعان ما امتلك سلاحَ العلم الجديد رجالُ السياسة والصناعة والحرب. غزت جيوش أوروبا بلادنا، نهبوا مواردنا، أخذوا الأرض وأعطونا كتاب الله، كما قالت إحدى الفلاحات الأفريقيات، مقولتها الشهيرة: «قبل أن يأتي الإنجليز إلى بلدنا كنا نملك الأرض وكانوا يملكون الكتاب المقدَّس، بعد أن خرجوا من بلدنا أصبحنا نملك الكتاب المقدَّس وامتلك الإنجليز أرضنا.»

بعد الظهر سمعَت بيلجي رنين تليفونها المحمول، صوتًا موسيقيًّا خافتًا ارتعشَت له حقيبةٌ صغيرة تُعلِّقها حول عنقها، أصبح الرجال والنساء في أوروبا يُعلِّقون مثل هذه

الحقيبة الصغيرة حول أعناقهم، حتى لا يمكن للصوص أن ينشلوها في الشارع أو المترو أو القطار أو الأتوبيس. أهداني المؤتمر حقيبةً صغيرة خضراء لها حزامٌ طويل، علَّقتها بيلجي حول عنقي، رغم أنها لا تحتوي إلا على قلم ونوتة من الأوراق البيضاء وكُتيبٍ سياحي صغير عن بروكسل. قلتُ لها بشيء من لسخرية: لم أعد أخاف من النشالين، وقد تم نشلي من قبلُ. رغم الحزن على ما فقدتُ شعرتُ براحةٍ غريبة، أنني أمشي بحرية دون خوف من اللصوص.

وقلتُ: تحررت يا بيلجي من الملكية الخاصة التي تسجن العالم في الخوف. ضحِكَت بيلجي وهي تشد التلفون الصغير من داخل حقيبتها قائلة: بدون ملكيةٍ خاصة لن يكون هناك استعمار.

ألو ألو، نعم، نعم، هذا شيء جميل، سنكون عندكم حالًا، سنأخذ سيارة أُجرة إليكم.

قالت بيلجي وهي تنتفض بالفرح: عثر البوليس على الحقيبتَين. لا بد أن نذهب حالًا لاستلامهما من مكتب البوليس، وجدوا الأوراق وجواز السفر ومفكرتك الخاصة وأشياءَ أخرى لكن لم يجدوا الفلوس طبعًا، قلتُ: والرواية؟ قالت بيلجي: لم يذكر البوليس شيئًا عن الرواية، سوف نعرف كل شيء حين نصل إليهم. المهم جواز السفر ومفكرتك بكل الأرقام والعناوين، وأوراقك الخاصة، هيا بنا.

لم تكن الرواية في الحقيبة، لماذا يسرق اللصوص في بروكسل روايةً مكتوبة باللغة العربية؟ أغلب الظن أنهم ألقَوا بها من القطار تخلصًا من ثقل ثلاثمائة صفحة، أو ربما سرقوها لنشرها وقبض الثمن، أو تسريبها للمخابرات البلجيكية، هل عندك نسخةٌ أخرى منها يا نوال؟

كانت هي النسخة الوحيدة بخط يدي. لم أكن أكتب رواياتي على الكمبيوتر بعدُ، وكان يمكن أن أضع الرواية مع ملابسي في الحقيبة الكبيرة، لكني رأيت أنه من الأفضل أن أحملها معي في حقيبة اليد الثانية، رغم ثقلها. أصبح ضياع الرواية مأساتي، أنفقتُ في كتابتها عامَين وأكثر. لم يبقَ إلا الفصل الأخير وأرسلها إلى الناشر، كيف أستردها من اللصوص؟ هل ألقَوا بها في الطريق؟ هل يحتفظون بها لغرض ما؟ قالت بيلجي: عندي فكرةٌ جهنمية لاسترداد الرواية، أن نعلن في جميع الصحف عن مكافأةٍ سخية لمن يعثر على الرواية. بالطبع أنت مفلسة وأنا لا أملك شيئًا من هذه المكافأة السخية، لكن يمكنني الاتصال باتحاد الأدباء البلجيكي كي يتبنى القضية، العثور على الرواية المسروقة، ما رأيكِ يا نوال؟

رأيي يا بيلجي أن هذا عنوان لروايةٍ جديدة: «الرواية المسروقة».

رغم الحملة الإعلامية التي قام بها اتحاد الأدباء في بروكسل لم أسترد الرواية المسروقة، لكنَّ روايةً جديدة بدأت تزحف ببطء في خيالي، ثم اتصل بي ناشرٌ بلجيكي في بروكسل، يسألني إن كنت قادرة على كتابة الرواية المسروقة من جديد، وسوف يدفع لي مقدمًا لهذه الرواية الجديدة بما يُعوِّضني عن كل ما سُرق مني.

وقعتُ العقد مع الناشر، ليس فقط من أجل الحصول على المال لأُعوِّض ما راح، بل لأنني كنت أود استرجاع روايتي المفقودة عن طريق الخيال، ولِمَ لا؟ ما دمتُ قد كتبتها مرة فلماذا لا أكتبها مرةً أخرى؟

بدأت شخصيات الرواية الضائعة تغزوني في النوم مع شخصياتٍ جديدة، لكنَّ قدرتي على الكتابة كانت قد ضاعت في زحمة الأحداث، وصدمة حادث القطار، مع الأخبار الجديدة التي نُشرت في الصحف المصرية، وانتشَرت في العالم عبر الإنترنت، «أرسل الأزهر مذكرة إلى النائب العام، يتهم فيها الكاتبة نوال السعداوي بازدراء الأديان والتهكُّم على الذات الإلهية، في مسرحيتها المنشورة في القاهرة نهاية العام الماضي ٢٠٠٦م، تحت عنوان: «الإله يُقدِّم استقالته في اجتماع القمة»، ويطالب الأزهر بمحاكمتها وتوقيع العقوبة المشددة عليها.» قالت بيلجي: أتعودين إلى مصر يا نوال؟ هذا جنون، لا بد من حملة ضد هذه التهمة الموجهة إليك، حملة عالمية يشترك فيها كل الأدباء في العالم، ونبدأ الحملة من هنا من اتحاد الأدباء في بروكسل، ومن البرلمان الأوروبي هنا أيضًا.

ضحِكتُ وقلت: ولكننا ضد الاتحاد الأوروبي يا بيلجي، أليس اتحادًا استعماريًّا رأسماليًّا أبويًّا؟

قالت بيلجي: نعم، لكن البرلمان الأوروبي ليس مثل الاتحاد الأوروبي، هل يمكنك إلقاء كلمة في البرلمان الأوروبي في عيد المرأة العالمي في ٨ مارس القادم؟ وتمَّت الترتيبات لألقي كلمتي يوم ٧ مارس ٢٠٠٧م في البرلمان الأوروبي. نشرَت الصحف كلمتي في اليوم التالي، ونشرتها الصحف المصرية في القاهرة بعد بضعة أيام، وأصبح التلفون لا يكفُّ عن الرنين في غرفتي بالفندق في بروكسل.

كنت أسمع أبي في طفولتي يقول: رُب ضارةٍ نافعة، تدربتُ منذ الطفولة على تحويل الفشل إلى نجاح، والهزيمة إلى نصر. أصبح للفشل في حياتي فوائدُ أكثر من النجاح، وأكسبَني الحادث الذي لا يقتلني قوة أكبر.

وفي يوم الثلاثاء ١٣ مارس كنت أُحلِّق في الطائرة عبر المحيط الأطلنطي، لأتسلم الجائزة الدولية للأدب الأفريقي، قدَّمها لي الدكتور «أوستاس بالمر» رئيس الجمعية العالمية

للأدب الأفريقي، يوم الجمعة ١٦ مارس ٢٠٠٧م، في قاعة جامعة «وست فرجينيا» بمدينة اسمها «مورجان تاون». كانت غرفتي في الفندق تطل على نهر عميق يشق الصخور بين الجبال الخضراء. أمشي في الطريق الرملي بين الماء والشجر. تُذكِّرني رائحة النهر والأشجار بقريتي «كفر طحلة» الراقدة في حضن النيل منذ آلاف السنين، وأصواتُ العصافير تُذكِّرني بصوت طفلي أو طفلتي يناديانني في الصباح، يغمرني الحنين إلى الوطن البعيد وراء البحار والمحيط. لا يتراءى لي من الوجوه إلا وجه ابني وابنتي، أو وجه أمي وأبي، أنسى الوجوه الأخرى، لا أذكرها، تمسحها الذاكرة غير الإرادية كما تمسح الآلام والأحزان.

أمضيت شهور ربيع ٢٠٠٧م ما بين الجامعات والمؤتمرات الأدبية، من جامعة ميشيجان إلى أوهايو إلى ميزوري إلى نيويورك إلى أطلانطا إلى جورجيا، وكان المفروض أن أعود إلى مصر يوم السبت ١٢ مايو ٢٠٠٧م لكني ألغيتُ تذكرة العودة وقررتُ البقاء في أطلانطا لأُدرِّس الإبداع والتمرد لمدة عامَين اثنَين. ينتهي العقد مع الجامعة في ٣١ مايو ٢٠٠٩م.

لم أشعر بالحنين إلى الماضي، لا يحمل جسمي من الماضي إلا جروحًا، ما إن تلتئم الجروح القديمة حتى تنكأها الجروح الجديدة، تُوجَّه الطعنات لي في الظهر، من أقرب الأقرباء، من منحتُهم ثقتي ومالي وحياتي، جاءت أقسى الضربات منهم، لم يحفظ العهدَ من الأهل إلا ابني وابنتي. الوجهان البريئان يلوحان لي في الغربة، من وراء البحار والمحيط يطلان عليَّ، يأتيني صوتاهما عبر أسلاك التلفون، ينتفض قلبي بالفرح، كأنما أرى وجهَي أمي وأبي.

أنا أكتب إذن أنا أعيش

أعياد الميلاد في أطلانطا

ديسمبر ٢٠٠٨م

لم تظهر الشمس طوال اليوم في مدينة أطلانطا، رغم التنبؤ بإشراقها في عيد ميلاد المسيح، كيف يمكن للأبِ في السماء أن يأمر بغياب الشمس في عيد ميلاد ابنه يسوع؟ لم تكن أندرونيكا إلى جواري لأجادلها وتُجادلني، رغم تعصُّبها للمسيحية تعشق أندرونيكا الجدل، خاصةً معي. تعرف أندرونيكا أن الجامعة تدفع لي لأُعلِّم الطلاب الجدل؛ فهي جامعةٌ متقدمة فكريًّا، تجذب الأساتذة من كل أنحاء العالم، من أجل إثارة الجدل، لا تحظى «إثارة الجدل» بسمعةٍ سيئة كما هو الحال في جامعاتٍ أخرى أمريكيةٍ أو عربيةٍ أو غيرهما.

كانت رئيسة الجامعة الدكتورة بيفيرلي تاتام قد استمعَت إلى محاضرتي في ٢٣ أبريل ٢٠٠٧م، الساعة الرابعة مساءً، في السادسة مساءً دعتني للعَشاء في بيتها، أثناء العَشاء قالت لي: كم أُحب أن تكوني أستاذة هنا في هذه الجامعة، أيمكن أن تأتي إلى أطلانطا؟ أيمكن أن تعيشي هنا في الجنوب؟ ضحكتُ وقلت: أي جنوب هذا وأنا من أفريقيا من مصر؟

بعد دقائقَ قليلة، قبل أن تُنهي الدكتورة تاتام عَشاءها، غادرَت غرفة الطعام، ثم عادت وفي يدها ورقةٌ ناولتها لي، وقالت: «هذا عَقدٌ لمدة عامَين لتكوني أستاذة كرسي معنا هنا في الجامعة!» اندهشتُ، واندهش معي ضيوفها حول مائدة العَشاء، كيف تركَت

عَشاءها وكيف أمكنها أن تكتب العقد على الكمبيوتر بهذه السرعة؟ تردَّدتُ لحظة قبل أن أقرأ العقد، لكن بعد أن قرأتُه أمسكتُ القلم ووقعتُ باسمي، ورفع الجميع كئوسهم ليشربوا نخب الأستاذة الجديدة التي تُدرِّس الإبداع والتمرد!

سافرَت أندرونيكا إلى نيويورك لتحتفل بالكريسماس مع الأسرة العزيزة، رغم أنها لا تشعر بأي انتماء إلى هذه الأسرة التي يرأسها أبوها، يقول أبوها إن الكون لم يُخلق في ستة أيام، إن الكتاب المقدس من تأليف البشر، إن المسيح لم يُولد من الأم العذراء، ولم يخرج من قبره بعد أن مات. أبوها مثل ٦٥٪ من الشعب الأمريكي لا يذهب إلى الكنيسة، ولا يؤمن إلا بالعلم والعقل والبرهان، لكنه يشارك الأغلبية في الاحتفال بالكريسماس، رغبة في الاستمتاع بلقاء الأقارب والأصدقاء، والتهام الطعام اللذيذ مع النبيذ والخمر، وكل المحرمات الممنوعة في الحياة الدنيا، المباحة في الجنة فقط. تقول أندرونيكا باطمئنانٍ إن أباها لا يؤمن بحياة بعد الموت، ويقول لها ولإخوتها إنه لا يملك إلا حياةً واحدة فقط فوق الأرض!

أفقت على رنين التلفون، جاءني صوت ابنتي منى تقول: «كل سنة وانتي طيبة يا ماما.» صوتها يشبه صوت العصافير في الصباح. تصحو ابنتي باكرًا مع العصافير، تقود سيارتها الحمراء الصغيرة إلى النادي، ترتدي المايوه وتسبح ساعةً كاملة أو ساعة ونصف الساعة، ثم تعود إلى البيت لتتناول القهوة والفطور، تجلس إلى مكتبها وتكتب مقالها الأسبوعي، أو قصةً قصيرة أو قصيدة شعر، أو السيناريو الجديد الذي تُعِده للتلفزيون أو السينما.

«فتحتِ الإيميل يا ماما؟ افتحيه واسمعي الموسيقى في رسالتي.» فتحتُ الكمبيوتر واستمعت معها إلى قطعةٍ موسيقية وأغنية بمناسبة السنة الجديدة ٢٠٠٩م. غمرَتْني السعادة كأنما أجلس مع ابنتي في بيتها في القاهرة، أو كأنما هي تجلس معي في بيتي في أطلانطا. انكمش حجم الكون، انتصر العلم الحديث على المكان والزمان. في أقل من غمضة عين يحدث الاتصال عبر البحار والمحيطات، الصوت والصورة والحركة وكل شيء، لم يبقَ إلا الجسد لينتقل أيضًا في لمح البصر، ربما يتحقق هذا أيضًا في المستقبل القريب، حين تصبح مركبات الفضاء ضمن وسائل المواصلات. سرعتها تُحسب بحركة الضوء وليس بالدقيقة أو الساعة.

لم أعُد أشعر بالبعد عن أي مكان وزمان، وإن ابتعدتُ عن المكان وعن الزمان.

لم أعُد أشعر بالغربة أو الوحدة؛ فالشمس هي الشمس، والقمر هو القمر، وصوت العصافير هو صوت العصافير، وصوت ابنتي يأتيني، رغم المسافات والبحار والمحيطات.

وأهم من كل ذلك أنا أكتب كتابًا جديدًا، ذكريات حياتي وراء المحيط، «أنا أكتب، إذن أنا أعيش» أهو ديكارت الذي قال: «أنا أفكر إذن أنا موجود»؟ لا يا سيدي لا يكفي أن تفكر لتعيش، لا بد لأفكارك أن تخرج إلى الناس عن طريق الكتابة. وإلا فلماذا كتب الآلهة كتبهم وأرسلوها للناس مطبوعة على الورق؟ لولا كتاب الموتى ما عرفنا عن الإله أوزوريس. لولا كتاب الأناشيد ما عرفنا شيئًا عن الإله إخناتون. لولا كتاب التوراة ما عرف الناس إله موسى. لولا كتاب الإنجيل ما عرفنا شيئًا عن إله المسيحية. لولا كتاب القرآن ما عرف أحد عن إله الإسلام. لولا كتاب الجيتا ما عرف الهنود آلهتهم.

لأني أكتب فأنا لا أعرف الغربة أو الغرابة أو الكآبة أو الفجيعة أو الفضيحة، أو غيرها مما يُحزن البشر. وماذا يحزن البشر أكثر من هذا؟ امرأة يموت زوجها لماذا تحزن؟ أو امرأة يخونها زوجها مع نساءٍ أخريات، لماذا تكتئب؟ أو رجل يدخل السجن أو يرحل إلى المنفى، لماذا يشعر بالغربة أو الحزن؟ لماذا لا يبتهج بالتجربة الجديدة، بالحياة المختلفة دون زوج أو أُسرة أو وطن؟

الكتابة تجعل الوطن هو كل العالم، تجعل الإنسانية هي الأُسرة والوطن، الكتابة هي حياتي وراء الشمس، وأمام الشمس، هي حروفي بقلمي، المطبوعة على الورق، تربطني بالناس وتربط الناس بي في كل البلاد بكل اللغات، لهذا أستقبل الصبح الجديد بحبٍّ جديد، بأفكارٍ جديدة تنتظر القلم والورق، أحب رائحة أوراقي أكثر من أي عطر.

قال لي زوجي الثاني ذات يوم: أنتِ تكرهين الجنس! أنت تكرهين الرجال!

قلت له: غير صحيح، أنا مثل البشر بكل غرائزهم، ولكني أحب الكتابة أكثر من الجنس والرجال. اندهش الزوج الذي لم يعرف لذة الكتابة وقال: يعني إيه تحبي أكوام الورق ده أكتر من زوجك؟ تَصوَّر الرجل أن العيب فيه أو في فحولته، لكني شرحتُ له الأمر، دون جدوى، لم يكن خياله قادرًا على إدراك الحقيقة، أن المرأة لها عقل يفكر، وأن التفكير وحده لا يكفي ليكون الإنسان إنسانًا، بل لا بد من التعبير، لا بد من توصيل الأفكار للناس. وأضفتُ قائلة إن ديكارت قال نِصفَ الحقيقة فقط. لا يكفي أن تُفكِّر لتعيش. وانفجر الزوج غاضبًا ولعن أبا ديكارت وأبا الشخص المجنون الذي أباح التعليم للنساء!

بعد الطلاق أقسم الرجل ألا يقترب من امرأةٍ تقرأ، فكيف بامرأةٍ تقرأ وتكتب؟! ثم زوَّجَته أمه بفتاةٍ من العائلة لا تفُكُّ الخط.

ربما تكون هذه مشكلة الكاتبات في العالم أجمع، هنا في أطلانطا لم أتعرف على كاتبةٍ أمريكية سوداء أو بيضاء، إلا وعرفتُ أنها لم تتزوج أبدًا، أو تزوجت عدة مراتٍ

وطلَّقَت زوجها بعد فترة، أو أن زوجها ذهب إلى الحرب ولم يعُد، أو عاد دون أن تعود إليه، أو أن زوجها مات في حادثٍ ما أو بإرادة إلهية، وأقسمَت من بعده ألا تقرب الرجال، لا حبًّا في زوجها الميت بل كراهية في الأزواج الأحياء.

زميلتي شارلوت، أستاذة الأدب الإنجليزي، تخصصت في أدب فرجينيا وولف، تربطها بها علاقةُ إعجابٍ كبيرة، أشبه بالحب، تقول عنها إنها تناسُخ الأرواح. أقدمَت شارلوت على الانتحار مثل فرجينيا وولف، وفي يوم جاءني زوجها يشكو أنها لا تُحبه وتريد الانفصال عنه، وسألتُه: هل تظن أنها تحب أحدًا غيرك؟ وقال الرجل: حبذا لو تقع في حب رجلٍ آخر، إنها تكره كل الرجال، تكره الجنس كله! صوته رن في أذني، يشبه صوت زوجي السابق، رغم أنه يتكلم الإنجليزية. حاولتُ أن أشرح له الأمر دون جدوى، كان عاجزًا عن الفهم، كان يتصور، مثل أغلب الرجال، أن ليس في حياة النساء من شاغل إلا الرجل والسرير. قالت لي شارلوت فيما بعدُ: مشكلة الرجال واحدة منذ نشوء النظام الأبوي العبودي، يتمركز فكر الرجل في الفالاس، البينيس. إنه الفاليك كالتشر (يعني الثقافة النابعة من الفالاس، العضو الذكوري الجنسي وليس العقل). يتصور الرجل أن المرأة لا تفكر إلا في الفالاس، تُضحِّي بكل شيء من أجل الفالاس. يعجز الرجل عن إدراك الحقيقة التاريخية: أن المرأة سبقَت الرجل في التطور الإنساني.

شَعَرتُ بالجوع، ورأيتُ الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساءً، تذكَّرتُ أنني لم آكل منذ الصباح، جلستُ إلى الكمبيوتر أكتب دون أن أشعر بمرور تسع ساعات، الصبح والظهر والمغرب. مرت وجبات الطعام الثلاث دون أن أتحرك من مكاني، دون أن يقرصني الجوع، إذا تغلبتِ الكتابة على غريزة الجوع أقوى الغرائز، ألا تتغلب على غيرها الأقل إلحاحًا؟ ألهذا حرَّمتِ الكنيسة الكتابة على النساء كما قالت شارلوت؟ وقلتُ لها: أهي الكنيسة وحدها؟ قالت: الكنيسة بَدأَت وتبعها الآخرون. وقلتُ: أهي الكتابة فقط التي تم تحريمها؟ وقالت شارلوت: حرَّمَت الكنيسة الضحك على النساء؛ لأن الضحك يعني السعادة، وإن عرفَت المرأةُ السعادة مدَّت يدها وأكلَت من شجرة المعرفة، تَذوَّقَت اللذة المحرمة، وبدأت الكتابة؛ فالمعرفة تقود إلى الكتابة، والكتابة تقود إلى المعرفة؛ أي بدل الخطيئة الواحدة خطيئتان.

أعدَدتُ لنفسي وجبةً خفيفة، شوربة دجاج مع الأرز البني وخبز بني. لم أعُد آكل الخبز الأبيض أو الأرز الأبيض. أشتري الفاكهة والخضراوات واللحوم والخبز من المحل الأورجانيك؛ يعني العضوي؛ يعني الذي يبيع المنتجات الطبيعية العضوية من الحقل

وليس المنتجات المصنعة المخلوطة بالكيماويات الضارة. أدفع الثمن مضاعفًا في المحل الأورجانيك لأكتشف بعد مرور الزمن أن الفرق ليس كبيرًا بين ما يسمونه أورجانيك وبين غير الأورجانيك. وضحِكَت شارلوت وقالت: برافو عليكِ أنا اكتشفتُ الأمر أيضًا، لكني لم أتصور أن جشع الرأسمالية وخداعها يصلان إلى هذا الحد، وإذا كان كبار رجال السياسة يكذبون كل يوم فما بالُ تجار السوبر ماركت؟ تعودتُ أن أفتح التلفزيون بينما أتناول الطعام، أُتابع الأخبار في أمريكا والعالم، وأتناول وجبتي على مهل، مستمتعة بالأكل الذي أعددتُه بنفسي، ومعه الشاي الإيرجراي في الصباح، أو البيرة المثلجة مع الغداء في الصيف، أو كأس من النبيذ الأحمر المعتق مع العَشاء في الشتاء. تعلمتُ كيف أستمتع بالطعام والشراب، وكنتُ لا أعرف لذَّتهما، حين كان الزحام من حولي. إنها بعض النعم التي تُغدِقها الوحدة على الإنسان، أن يأكل على مهل فيستشعر اللذة، أن يتأمل أخبار العالم بعينٍ لا تتعجل الحكم على الأشياء. ألهذا ارتبط الإبداع دائمًا بالوحدة والصمت والتأمُّل العميق غير المتاح بالزحام والضجيج؟

على شاشة التلفزيون كان مجموعة من الأطفال يتحلقون حول رجل له لحيةٌ بيضاء كبيرة يسمونه بابا نويل أو سان كلاوس أو أي اسمٍ آخر، وجهه سمينٌ أبيض، عيناه ضيقتان تبربشان، مليئتان بالمكر والخديعة والمراوغة، يرمقه الأطفال بقدسية، تحجُب القدسية عيونهم فلا يرون الكذب في عينيه. في مثل عمرهم لم أكن أرى الكذب في عيون الكبار المقدَّسين، وإن أحسسته بجسدي على شكل وجع في الصدر، وجعٍ غامض في المثلث الأعلى تحت الضلوع، يشبه الغثيان أو الرغبة في البكاء، كأنما دموعٌ متراكمة منذ وُلدت في صدري، داخل الرئة أو في القلب أو في ثنايا المعدة. كنت أبتلع الدموع قبل أن يراها أحد من الكبار. رغم الابتسامة على وجهي كنت أشعر بالحزن، دون أن أعرف السبب، أشعر بالخديعة دون أن أدركها بعقلي. لقد تم تغييب عقلي منذ الطفولة الأُولى، لأؤمن باللامعقول، بأن الشيطان يهمس في أذني بالليل، الملائكة تحوطني وأنا ساجدة فوق الأرض بين يدي الله، لم يكن هناك بابا نويل أو سانت كلاوس، ولا هدايا ولا رقص ولا غناء.

فوق الشاشة أرى الأطفال يرقصون ويُغنُّون بنات وأولاد، تحظى البنت بهدايا مثل الولد، ترقص وتُحرِّك ذراعَيها وساقَيها في الهواء. منذ التاسعة من عمري، بعد أن أصابني الحيض، تجمَّد جسدي مثل عقلي، أصبحتُ أمشي بساقَين ملتصقتَين خوفًا من عيون الرجال، وحماية لأعزِّ ما أملك بين الفخذَين. تصوَّرتُ أن الله لم يخلق الرجال إلا لسببٍ

واحد، أن يتلصصوا في البصبصة إلى أعز ما أملك، رغبة منهم في امتلاكه. ألهذا السبب كنت أضغطُ بكل قوتي على أعز ما أملك حتى لا يسرقه أحد، حتى وأنا غائبة في النوم؟ تصورتُ أن عيون الرجال يمكن أن تنفذ من تحت عقب الباب!

تتوالى الصور فوق الشاشة، داخل الكنيسة يُرتِّل الرجال والنساء من الكتاب المقدس، صبيٌّ صغير يرتدي ملابس القس يحمل مبخرة، تتصاعد الأبخرة لتعمي العيون عما يحدث، هناك دائمًا أبخرة في المعابد التي يُسمُّونها بيوت الله. يتخفى الله دائمًا وراء عمود من الدخان. في عينَي الصبي الصغير حزنٌ عميق صامت عاجز عن التعبير. يرمقه القس العجوز ذو اللحية البيضاء الكثيفة بعينَي الذئب، تتلصص العينان الغائرتان تبصبصان نحو الصبي، تنتهزان الفرصة لاغتصاب أعز ما يملك، لم أعرف في طفولتي أن الولد مثل البنت يملك أعز ما يملك بين ساقيه، حتى كبرتُ قليلًا وعرفت أن الرجال الكبار يمكن أن ينتهكوا عذرية الولد الصغير مثل البنت الصغيرة. لا تكف الصحف هنا عن كشف أسرار القسِّ في الكنائس. لا يتم الحجر على نشر الفضائح الجنسية بأنواعها المتعددة، المقدس والمدنس سواءٌ بسواء. تربح أجهزة الإعلام من الفضائح أكثر من أي شيء في السوق الحرة.

بدأت الأخبار تتوالى في العالم وفي أمريكا، رجلٌ تنكر في ملابس بابا نويل وأطلق النار على أسرةٍ كاملة كانت تحتفل بالكريسماس. نساء في نيويورك يبعن بيضاتهن في السوق الحرة، البيضة ثمنها عشرة آلاف دولار. عاملة في مطعم فقدت عملها مع الأزمة الاقتصادية، أغلق المطعم أبوابه بسبب قلة الزبائن. لم يعد يذهب إلى المطاعم إلا الأثرياء. تضاعفت أعداد العاطلين والعاطلات. لم تجد عاملة المطعم إلا أن تبيع بيضتها في السوق، يأخذها تجار بنوك أطفال الأنابيب، يبيع الفقراء من الرجال سائلهم المنوي أيضًا، كل شيء قابل للبيع في السوق، من الدم إلى الكبد والقلب والكلية والحيوان المنوي والبويضة. يرتفع الثمن وينخفض حسب العرض والطلب، زادت أعداد الفقراء والعاطلين، وزادت كميات الأعضاء البشرية والبيضات والحيوانات المنوية في البنوك والمعامل الطبية وانخفض ثمنها، رغم التزايد في ارتفاع كل الأسعار انخفض سعر الإنسان بكل أجزائه، خاصة بيض النساء، قد ينخفض سعر بيض النساء في المستقبل القريب عن بيض الدجاج.

رأيتُ على الشاشة صور حرائقَ وأشلاء بشر تتطاير، والأطفال تجري هنا وهناك والنساء تولول. يقول المذيع الأمريكي إن إسرائيل تردُّ على اعتداءات حماس، تضرب إسرائيل مواقعَ حماس العسكرية في غزة، وحماس تضرب إسرائيل؛ يعني أنها الحرب اشتعلت بين حماس وإسرائيل، لكني لا أرى حربًا بين جيشَين عسكريين، بل جيشًا

عسكريًّا واحدًا يضرب الناس في البيوت والشوارع، دبابات تسحق الأطفال والنساء، قنابل تسقط على البيوت فتشتعل النيران في كل مكان، لا أرى جيش حماس؟ أين قوة حماس العسكرية؟ أين صواريخها النارية؟ لا أرى إلا الأشلاء والدم المراق. امرأة تصرخ: آه يا ولدي، آه يا كبدي ثم تنطلق في وجهها النيران. قال المذيع: الرئيس بوش يتابع ما يحدث في غزة، والرئيس المنتخب أوباما يقول للصحافة: ما دامت حماس قد اعتدت على إسرائيل فمن حق إسرائيل أن تُدافع عن نفسها!

أغلقتُ التلفزيون وفتحتُ الإنترنت، أبحث عن الأخبار في الصحف والإعلام غير الأمريكي. ألم تصل أخبار المعركة في غزة إلى بلادنا؟ المانشتات تتكلم عن الأزمة الاقتصادية، عن تزايُد الفقر والبطالة، عن زيارة أوباما خلال المائة يوم الأولى من حكمه لإحدى البلاد الإسلامية. تتبارى الحكومات العربية والإسلامية في جذب أوباما إلى عاصمتها. يتنافس أصحاب الأقلام في تجميل بلدهم في عين أوباما. تعالَ إلى مكة المكرمة يا أوباما فهي أرض الإسلام المقدسة، يحج الملايين من المسلمين إليها كل عام. لا يا أوباما لا تذهب إلى بلدٍ غير ديمقراطي يقهر النساء، تعال إلى القاهرة حيث الديمقراطية وتعدد الأحزاب وحيث الأزهر الشريف أقدم جامعة إسلامية. لا يا أوباما لا تذهب إلى أي بلدٍ عربي، جميع الحكام العرب يتحكمون في شعوبهم بالحديد والنار، بالدكتاتورية الشرسة تحت اسم الديمقراطية، تعالَ إلى جاكرتا عاصمة أكبر دولةٍ إسلامية تسودها الديمقراطية والتعددية والسوق الحرة. وكل شيء تجده في جاكارتا حتى آثار تسوماني التاريخية. تنشب المعركة بين حملة الأقلام في البلاد الإسلامية والعربية، تسيل أنهُر الحبر بدل الدم المُراق في المعارك الحقيقية، تجف الحناجر في الفضائيات العربية، أصبحت زيارة أوباما شرفًا ما بعده شرف. يتحرر البلد من العبودية والفقر ما إن تطأه قدم أوباما، قدمه المقدسة بحذائه الجلدي الثمين ذي البوز المدبَّب في عين الحاسدين.

أهي بَرَكة الأُمِّ البركانيَّة أم انتقامُها؟

لندن ٢٠ أبريل ٢٠١٠م

كان المفروض أن أكتب مقالي هذا من القاهرة، لكن الطبيعة «الأمُّ»، الإلهة الكبرى، انفجرت غضبًا، على معاقل النظام الرأسمالي الصناعي العسكري في الغرب، من بركانها المتفجر في أيسلندا، غطَّت سحب رماده السموات العليا فوق القارة الأوروبية الاستعمارية العجوز. عطَّل الدخان الأسود الكثيف، المشبع بذرَّاتٍ بركانية، طرق الطيران الجوي في بلادٍ كثيرة، منها بريطانيا، حيث كنت في العاصمة «لندن» بعد أن ألقيتُ كلمتي في المهرجان الأدبي العالمي، بدعوة من نادي القلم الدولي، قلتُ في كلمتي: كيف يتجاهل النقاد الذكور إبداعات الكاتبات في الشرق والغرب، كما تجاهل المؤرخون الذكور إسهامات الأم الكبرى إلهة المعرفة والحكمة، في اكتشاف الزراعة والعلم والفن؟ خيانةٌ ذكورية عالمية ومحلية، من الدولة والعائلة، مقابل الإخلاص والتضحية النسائية.

في الفندق الذي نزلنا فيه بجوار جامعة لندن والمتحف البريطاني، تجمَّعنا، نحن المدعوين من مختلف البلاد، أُدباء وأديبات، فنانين وفنانات من كافة فروع الفن، الموسيقى والغناء والمسرح والسينما. بدءوا يثورون ضد الطبيعة الأم، قالوا إنها خذلَتْنا جميعًا، لنصبح سجناء في لندن بلا عمل، وقد انتهى المهرجان، وتم إلغاء كل الرحلات من مطار هيثرو الرئيسي في لندن، ولم يعُد أمامهم إلا أن يصبُّوا اللعنات على الأم الكبرى إلهة الطبيعة والبراكين والزلازل، إلهة الموت سخمت، سخماط كما كانت جدتي تقول في الكوارث وترجعها إلى سخماط إلهة الموت، وإلهة الحياة أيضًا. كانت جدتي الفلاحة فيلسوفة بالسليقة، تقول إن أمُّنا سخماط هي إلهة الموت والحياة معًا، القادرة على صنع الحياة قادرة على أخذها أيضًا.

كان الرجال الذكور أكثر غضبًا منا نحن النساء، خاصة أنا (نوال السعداوي) الكاتبة المصرية، التي أشادت بإلهة المعرفة إزيس في مصر القديمة، وإلهة العدل معات. وفي مسرحيتي «إزيس» أعدتُ إليها مكانتها الفكرية والفلسفية، لم أجعلها مجرد زوجة لأوزوريس، أو أرملة تبكي على زوجها، وتُرمِّم أجزاء جسده المبعثرة في وادي النيل، كما صوَّرها معظم الكتاب الرجال ومنهم توفيق الحكيم، في مسرحيته «إزيس».

بدأتُ أغضب على الأدباء والفنانين من كافة الجنسيات، يُنفِّسون عن غيرتهم الأبدية من المرأة المبدعة الخلَّاقة، أو خوفهم التاريخي العتيق من أي امرأة لها عقل يفوق عقولهم، أو غضبهم الخفي القديم والحديث من زوجاتهم أو من أمهاتهم، أو من أمهات زوجاتهم (حمواتهم)، يعالجون عقدهم النفسية الدفينة تجاه المرأة بالغضب من الأم الكبرى الإلهة الأولى، أنجبت الآلهة الذكور، ومنهم إله التوراة، إله البراكين والزلازل والجهل والدم المُراق في الحروب. لم تكن الأم الكبرى إلهة الجهل والموت، بل كانت إلهة الحياة والمعرفة والعلم والأدب والنور، هي أول من قطف الثمرة المحرَّمة من شجرة المعرفة، وشجرة الحياة؛ لهذا كان اسمها حوَّاء من كلمة حياة حية.

أيَّدَتني النساء بحماس، وبعض الرجال غير المؤرَّقين بذكورتهم وتفوُّقهم الجنسي، أغلبهم من الشباب المبدع المساند لقضية تحرير النساء والفقراء وشعوب فلسطين والعراق وغيرهما. لكن العجائز من الأُدباء والنقاد التقليديين تأفَّفوا من خلط الأدب بالأيديولوجيا. راحوا يصطادون الشابات من الأديبات. رأيت ناقدًا أدبيًّا ألمانيًّا في التسعين من عمره يجري وراء شابة انبهرت بثرائه المالي وفقره الأدبي.

تحوَّل بهو الفندق إلى خشبة مسرح، شاركنا جميعًا في مسرحيةٍ تلقائية، كنا نحن المؤلفين والممثلين والمخرجين والموسيقيين. أصبح نزلاء الفندق هم الجمهور المتفرج، هكذا تغلَّبْنا على السأم والغضب بالإبداع الجماعي والخلق الفني والأدبي. أذاب الإبداع الجدران والفروق الموروثة بين البشر، اتسعَت مساحة الوطن والأهل وشملَت الكون.

تذكرتُ كيف تغلبتُ على السأم والغضب في سجن النساء بالقناطر الخيرية (خريف ١٩٨١م) في عصر السادات. السجن هو أي مكان تعجز عن الخروج منه، بأمرٍ من الحاكم المستبد، في سجنٍ مصري يشبه أقفاص الحيوانات، أو بأمر من بركان أيسلندا المستبد، في سجن فندق خمسة نجوم في لندن، السجن معاناةٌ نفسية أكثر من المعاناة الجسدية، هو الإحساس بالظلم، بالقهر، بالعجز أمام قوةٍ كبرى، سماويةٍ بركانية أو أرضية، سياسيةٍ اجتماعية، طبيعيةٍ فيزيائية، أو فوق الطبيعة، ما وراء الطبيعة، ميتافيزيائية، كما يقولون باللغات الأجنبية.

بالكتابة الإبداعية كسرتُ قضبان السجن، خلال ثلاثة شهور كتبتُ «مذكراتي في سجن النساء» على ورق تواليت، بقلم حواجب، هرَّبَتهما لي سجينة في عنبر المومسات. كان عنبرهن يتمتع بكل ما حُرمنا منه نحن المسجونات السياسيات والأديبات، يُفتِّش العساكر زنزانتنا كل يوم من الأرض إلى السقف، يصرخ رئيسهم في وجوهنا: إن عثرنا على ورقة وقلم أخطر من العثور على طبنجة!

منذ طفولتي كرهتُ كافة السجون في حياتي، منها جدران البيت الأربعة، أنتظر صفارة الإنذار بالغارة الجوية، لأجري مع أسرتي والجميع إلى المخبأ تحت الأرض، حيث تزول الجدران العائلية، وألعب مع ابن الجيران والكونُ من حولنا مطفأ العيون والأنوار. اقترن الحب في الثامنة من عمري بسعادة الحرية؛ انتظارًا للموت، في الحرب العالمية الثانية.

أخفُّ السجون هو السجن السياسي بأمرٍ من الحاكم المستبد. قفص الزوجية ربما أخطر لعامة النساء. الزوج المستبد يخرج من القفص بإرادته المنفردة، يُطلِّق زوجته كما يفرقع أصابعه. يفتح فكَّيه ليتثاءب ويقول طالق ثلاث مرات فقط، تصبح في الشارع مطلقةً محتقرة دون مورد. اليوم يمكن للزوجة أن تخلع زوجها إن تنازلَت عن حقوقها كلها، لا بد أن تكون مستقلة تعول نفسها، تستطيع تسديد أجر المحامي ليرفع قضية الخلع، شيء لا يحدث لأغلب النساء الكادحات بمن فيهن الطبقة الوسطى. أصبح نصف الشعب المصري يعيش تحت خط الفقر، يبيع الأب ابنته الطفلة لرجلٍ عجوز، تتعذب الزوجة في سجن الزوجية بسبب الفقر، وتتعذب في الطلاق بالعار والفقر الأشد.

في سجن النساء بالقناطر الخيرية شعرَت بعض النساء بالحزن حين صدر القرار بالإفراج عنهن، لا أنسى دموع سجينةٍ شابة وهي تُودِّعنا، تمنت أن تبقى في السجن لآخر عمرها. كان الإفراج أو الخروج إلى الحرية مخيفًا لها، كالطلاق أو الانطلاق من سجن الزوجية.

إحدى الفنانات معنا في سجن لندن، كانت سعيدة بهذا البركان المتفجر في أيسلندا، منع سفرها إلى بيتها في ستوكهولم، شمس لندن هذا الربيع لا تعرفها ستوكهولم، هي أيضًا لا تريد العودة إلى زوجها، يكذب عليها ويخونها. عاشت معه أربعين عامًا دون أن تعرف حقيقته، التقت في لندن بشابٍ مسرحي في الأربعين من عمره، سألَتْني بعد أن أفرغت زجاجة نبيذٍ أحمر مُعتَّق: أحببتُه يا نوال وهو يصغرني بعشرين عامًا؟ قلتُ لها: زوجُكِ في التسعين ويعيش مع فتاةٍ تصغره بخمسين عامًا؟ قالت: هل من حقي التمتع

بالحب في الستين من عمري؟ قلتُ: من حقك التمتع بالحب حتى الموت، ثم إن عشرين عامًا ليست شيئًا يا ماريانا، السيدة خديجة أم المؤمنين المثل الأعلى لنا جميعًا تزوجت الرسول ﷺ وهي أكبر منه بعشرين عامًا؟ هتفت ماريانا: فانتاستيك! وأطلقت ضحكةً ارتج لها البركان في السماء وقالت: نسيت الضحك منذ أربعين عامًا. ثم شربت زجاجةً أخرى نخب الطبيعة الأم وبركة بركانها المتفجر.

هروب

الأحد ١٤ يونيو ٢٠٠٩م

السابعة صباحًا إلا ربعًا، تسري في أذني زقزقة عصافير وطيور الغابة المتعددة الألوان والأشكال. لم أرَ مثلها ولا أعرف اسمها، وحفيف أوراق الأشجار الكثيفة المتعانقة فوق رأسي، وهدير مياه النهر المتدفقة مثل شريانٍ من الفضة يشق الصخور من قمم الجبال إلى السفح، وقطرات مطر بقايا سيول الأمس، تتساقط رقراقة فوق ورق الشجر، تلمع تحت ضوء الشروق، فصوص من اللؤلؤ، تشف حرارة الشمس، تُبلِّل وجهي، لها ملمس قطرات الندى في طفولتي، والرائحة ذاتها، وأنا أمشي بين المزارع في قريتي بحضن النيل، في الأربعينيات من القرن الماضي.

كنتُ طفلة في السابعة تتطلع إلى الكون بانبهار ودهشة.

لم تفارقني الدهشة الطفولية، رغم مرور سبعين عامًا، اجتزتُ البحار والمحيطات. والقارات الخمس زرتها وعرفت مدنها وقراها وغاباتها، من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، من القطب الشرقي إلى القطب الغربي. عرفتُ كل الأجناس اللطيفة والغليظة، وكل ما في الغابات والبيوت من حيواناتٍ مفترسة أو أليفة. لم يعُد تحت الشمس من جديد، أحيانًا أمشي وعيناي مغلقتان زهدًا في النظر، وأحيانًا تتسع عيناي بالدهشة الطفولية لرؤية عصفورٍ صغير يزقزق.

في رياضتي اليومية كل صباح أمشي في الغابة، بالقرب من منطقة اسمها الحلق الذهبي، في ولاية جورجيا، لا أعرف أين أكون بالضبط فوق الخريطة، سوى أنني في أغوار الجنوب الأمريكي، في يدي عصا طويلةٌ من الخشب الناعم كالرخام أو العاج، لها بوزٌ حديدي أسود، أعطتنيها صديقتي الأمريكية الإيرانية صاحبة البيت والمزرعة والأرض الممدودة نحو الجبل اسمها أذار.

قالت أذار وهي تناولني العصا: هذه العصا يا نوال للدفاع عن نفسك ضد حيوانات الغابة؟ انقرضَت الحيوانات المفترسة تقريبًا إلا القليل من الكلاب المتوحشة أو الذئاب. إن هاجمك ذئبٌ أو كلب منها لوِّحي له بالعصا، لا تظهري أي خوف وإلا هاجمك وأكلك أكلًا.

قلت لها: يا أذار، الكلاب المتوحشة مثل البشر لا تأكل إلا الضعفاء الجبناء؟

قالت أذار: لكن الكلب المتوحش مثل الأسد لا يأكل الفريسة إلا حين يجوع، أما البشر فيأكلون الآخرين وبطونهم متخمة. كلما ازداد الحيوان قوة ازداد إنسانية، بعكس الإنسان، تزيده القوة السياسية جشعًا، أما القوة العسكرية فتجعله أقل من حيوانٍ مفترس. وسكتَت طويلًا ثم تمتمَت: أما القوة الدينية العمياء فتجعله حيوانًا أعمى يبطش بالرفقاء أكثر من الأعداء، وبالنساء أكثر من الرجال. تصوَّري يا نوال أنني حين أمشي في الغابة أكون أكثر اطمئنانًا مما لو كنتُ أمشي في شوارع تكساس أو نيويورك أو فرانكفورت، أو إسلام أباد أو كابول أو طهران. أصبح خطر العصابات السياسية الدينية في العالم أشد من خطر حيوانات الغابة. قد تلقى المرأة حتفها لمجرد السير في الشارع أو الذهاب إلى المدرسة أو مكان العمل، وقد تنطلق الرصاصة في صدر أي كاتبة أو كاتب إذا حاول أحدهما أن يُقدِّم مسرحية أو قصيدةً جديدةً من الشعر. أصبح العالم غابة. لا أمان في أي مكان إلا الغابة. وضحكَت ضحكةً طويلة مبحوحة تنتهي بشهيقٍ مديد أو زفيرٍ طويل.

تعودتُ أن أمشي كل صباح ساعة وعشرين دقيقة لأحمي نفسي من الأمراض بكل أنواعها. الرياضة الجسمية هي رياضة للعقل والنفس والروح، يذوب الثلاثة في وجودي، وأنا أمشي، أُحرِّك ذراعيَّ وساقيَّ في انبهار ودهشة، كيف يتحرك جسمي الموغل في الزمن بهذه الخفَّة والسهولة، كأنما أنا طفلة أو شابة في ربيع العمر؟

تقول أذار الإيرانية: روحكِ الشابة تحمل جسمكِ يا نوال.

وسألتُها ماذا تعني بكلمة الروح؟ سألتني: ألا تؤمنين بالروح؟ قلتُ: العقل يا أذار يزداد شبابًا بازدياد العمر. وقالت أذار: هناك عقول تشيخ مع الجسد، بل تسبق الجسد في الشيخوخة والجمود، عندنا في إيران شبابٌ تجمدت عقولهم عند القرن السادس أو الخامس الميلادي. ثم صمتَت طويلًا تتذكر كيف هربت بحياتها من حكومة الخميني، كيف دخلَت السجن في عصر الشاه دفاعًا عن العدل والحرية، ثم دخلَت السجن في عصر الخميني دفاعًا عن العدل والحرية أيضًا. كان سجن الخميني أشد قسوة من سجن الشاه، تحت اسم الله تكون السجون مثل نار جهنم الحمراء.

وقالت أذار: كان الخميني ينافس الله في حرق الناس أحياءً ثم تبديل جلودهم المحروقة بجلودٍ سليمة، لتُحرق من جديد، وهكذا يستمر الحرق إلى الأبد. أما الفتاة العذراء فهي تُغتصب جنسيًّا بواسطة حراس السجن قبل أن تموت؛ فالعذراء تدخل الجنة لتكون ضمن الحور العين هدية الله للرجال الصالحين بعد الموت، أما تلك التي فقدَت غشاء بكارتها فهي تذهب إلى نار الجحيم.

سمعتُ هذا الكلام من أذار كثيرًا، منذ التقيتُ بها في يوم المرأة العالمي في مدينة أطلانطا العام الماضي. لا تكُفُّ أذار عن استرجاع الماضي في طهران، مات أخوها الأصغر رميًا بالرصاص في سجن الخميني، قبل أن تهرب بشهرٍ واحد، مات أبوها من الحزن وشربَت أمها السُّم بعد موت ابنها وزوجها وهرب ابنتها أذار إلى حيث لا تعلم.

قبل أن تشرب أمها السُّم جلسَت فوق سجادة الصلاة وراحت تخاطب الله بصوتٍ عالٍ جدًّا. سمعها الجيران من خلال النافذة تقول وهي تشير إليه في السماء: إذا كان الخميني هو مندوبك على الأرض فماذا تكون أنت؟ ألا ترى ما يفعله الخميني بنا؟ ألا تستطيع أن تمنعه بقوتك الجبارة؟ سكوتك يا رب على جرائم الخميني تُشكِّكني فيك؟ أنت إذن متعاونٌ معه، وأنا إذن لا أؤمن بك! ثم نهضَت الأم من جلستها، طوت سجادة الصلاة ووضعتها في ركن في غرفة الكرار. شربت السم كما فعل سقراط وماتت وعلى وجهها ابتسامة الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة. حكى الجيران في إيران قصة انتحار الأم لابنتها أذار في أمريكا عبر الهاتف منذ بضع سنين.

قرأَت أذار قبل أن تهرب من طهران كتابي الذي تُرجم إلى الفارسية بعنوان «الوجه العاري للمرأة العربية»، ترجمه ونشره أستاذ بجامعة طهران اسمه حسين صادق بازارداه، كان يملك دارًا للنشر باسم: «مركز الأفكار الجديدة». تم حرق هذه الدار وما فيها من كتب بعد أن حكم الخميني إيران.

في بداية الحكم الإسلامي تعرَّض هذا الأستاذ وزوجته وبنتاه لبطش الخميني، واستطاع الهرب إلى لندن، لحِقَت به زوجته وابنته الكبرى، أما الابنة الصغرى فقد تم اعتقالها قبل أن تجتاز الحدود ما بين إيران والسعودية، دخلت الابنة السجن وعُذِّبت، ثم ساعدها أبوها على الهرب إلى لندن.

تناولتُ العشاء الإيراني في بيت هذه الأسرة في مدينة لندن في الثمانينيات من القرن الماضي، أسرةٌ جميلة تجلس حول المائدة في الحديقة الصغيرة، تشبه أسرتي في طفولتي، تعاون الأب مع الأم في طبخ البامية باللحم، والأرز بالمكسرات، والزبادي بقطع الخيار مثلما

نفعل في مصر. أتشمم أوراق النعناع في الحديقة، والخس والفجل والطماطم والجرجير، رائحة الخبز الإيراني الخارج من الفرن، أرشف الشاي بالنعناع بعد الأكل، تنغلق عيناي عائدة إلى الوطن.

قالت أذار: قرأتُ كتابك قبل أن يحترق في طهران مع دار النشر. أردتُ أن أقابلكِ أو أراسلكِ وأهنئكِ على هذا الكتاب. ملأني شجاعة على التحدي. كان يمكن أن يقتلوني مثل أخي لولا أنني نجحتُ في الهرب خارج إيران. عانيتُ القهر والعذاب هنا في أمريكا، عشت عدة سنوات دون أوراقٍ رسمية، مارست مهن الخدم والطباخين دون تصريح بالعمل. تم استغلالي كمهاجرةٍ غير قانونية، حصلتُ على أدنى الأجور عن أشق الأعمال. كافحتُ سنواتٍ لأدفع مصاريفي في جامعة جورجيا، حصلتُ على الماجيستير في الأدب الإيراني. كنتُ أحلم بأن أكون كاتبة مثلك، لكني انهمكت في العمل السياسي هنا في ولاية جورجيا، ضد النظام الخميني والأمريكي سواء بسواء، كلاهما وجهان لعملةٍ واحدة كما تقولين يا نوال، تعجبني عبارتك: بن لادن وجورج بوش توءمان. ثم قابلت «بابك» في اجتماعٍ سياسي لمناصرة الشعب الفلسطيني، نحن الإيرانيين نتحمس للقضية الفلسطينية مثل العرب، هناك روابطُ تاريخية بيننا وبين العرب، اللغة الفارسية فيها كلماتٌ عربية، والثقافة والموسيقى ونكهة الطعام، كنا نحب الأميرة المصرية فوزية زوجة الشاه رغم كراهيتنا له.

وقلتُ: هذه الأميرة عاشت في ظل الشاه حياةً تعيسة، مثل غيرها من نساء الملوك والأباطرة. ماتت الأميرة فوزية من الحزن والغربة في طهران. كان زوجها الشاه يسهر مع الغواني والمومسات مثل الملك فاروق في مصر، وكانت هي حبيسة القصر الإمبراطوري مثل الملكة فريدة في القاهرة. وضحِكَت أذار قائلة: لم أحلُم في حياتي بأن أكون ملكة أو أميرة، لم أحلم بأن أعيش في قصر أو بيتٍ كبير. كان حلم حياتي أن أصبح كاتبةً عظيمة تعيش كتبي بعد موتي.

تناولنا الفطور بعد رياضة الصباح، نحن الثلاثة، أنا وأذار وزوجها «بابك»، الشاي الإيرجراي والفول المدمس مع البيض المسلوق أربع دقائق، وصحنًا كبيرًا مُلئ بالخس والخيار والطماطم والنعناع، كلها من إنتاج بابك في المزرعة، وصحن الفاكهة الكبير، جمعها بابك من فوق الشجر في الحديقة، الخوخ، العنب الأسود والأحمر، الموز، الأناناس، البابايا، التوت الأسود بطعم العسل ألتهمه بنهم الطفلة، يُذكِّرني بشجرة التوت بطفولتي في قريتي كفر طحلة. كنت أتسلق الشجرة في الحقل وألتهم حبات التوت اللذيذ، لم أعُد

قادرة على تسلُّق الشجرة، أمد ذراعي عاليًا وأشد ثمرة التوت من فوق الغصن، أحاول القفز فوق قدميَّ لأصل إلى الغصون العالية، وأضحك مستعيدة طفولتي منذ سبعين عامًا. وتضحك أذار ويضحك بابك، أشعر بهما من حولي مثل الأُسرة الحميمة، أشعر بينهما أنني في بيتي، يمتد مفهوم الأسرة والوطن ليشمل الصداقات النادرة.

وماذا تعني كلمة أذار بالفارسية؟ تعني النار، وماذا تعني كلمة بابك؟ بابك اسم رجل إيراني ثار ضد الظلم والعبودية، قاد حركة مقاومة في إيران ضد الحكم منذ ألف عام، قتله الملك عبَّاسي بعد أن أودعه السجن.

سألتُه: هل دخلتَ السجن يا بابك؟

قال: رجال السافاك مباحث الشاه أودعوني السجن ثلاثة شهور واستطعت الهرب إلى لندن ثم إلى جورجيا، حيث قابلتُ أذار ووقعتُ في حبها.

وضحِكَت أذار: الحقيقة أنا التي وقعت في حبه ثم وقع هو بعد ذلك.

رد بابك: نعم أذار امرأة تملك إرادتها وتُقرِّر ما تريد، علَّمَتْني أذار ما لم تعلِّمنيه أمي في إيران، أن أحترم إرادة المرأة ورجاحة عقلها. دبَّرَت أذار أمر حياتنا معًا، وانتقلنا سويًّا من الفقر والجهل إلى الثراء والمعرفة، لسنا أثرياء بالمقياس الأمريكي، لكننا أثرياء بالنسبة لأهلنا في إيران.

وطرأ لي سؤال: لماذا يكون الهرب من السجن سهلًا في إيران؟ نحن في مصر لا يمكن أن نهرب من السجن إلا نادرًا جدًّا. لم أسمع في كل حياتي عن هروب سجين إلا أحد الرجال القتلة، وسجينٍ آخر من تجار المخدرات، يلعب الحراس دورًا في تهريب السجين نظير المال.

«في إيران أيضًا يلعب المال دوره في حالات الهروب من السجن، وأحيانًا تساعد الأحزاب السياسية في تهريب السجناء من أعضائها. أنا هربت بمساعدة حزبي.»

فتحت الكمبيوتر لأرد على الرسائل، إحداها تحمل يوتوب لأغنية أم كلثوم «وانت معايا يصعب عليَّ». رأيتُ على شاشة الكمبيوتر أم كلثوم، واقفةً مرفوعة الرأس بقامتها الشامخة، تُغنِّي أغنيتها الشهيرة، جسمها الممشوق الممتلئ قليلًا يتحرك مع الموسيقى بكبرياء الموسيقى، أكثر من كبرياء الملوك. عظمة الإبداع تعلو على عظمة الأباطرة، تشبه عظمة الآلهة وأكثر، عيناي تملؤهما الدموع، أبكي فرحًا بقوة الفن الساحقة، وأبكي حزنًا على تدهور الفن في الوطن. أصبح الفن حرامًا والموسيقى من وحي الشيطان. أصبح المبدعون والمبدعات يُساقون إلى المحاكم بتهمة الخروج عن دائرة الإيمان. أصبحت رءوس

النساء ملفوفة بالطرحة البيضاء أو السوداء. وجوه الرجال يغطيها الشعر الكثيف الأسود أو الأبيض، عيونهم تطلق شررًا أحمر، لون الجحيم، يُهدِّدون كل من خالفهم الرأي بالموت.

أم كلثوم كانت تغني دون حجاب يغطي رأسها الشامخ، شعرها الأسود الغزير ملفوف حول رأسها كالتاج، مشبوك من الخلف بتوكةٍ فضية. يتحرك رأسها مع عنقها القوي، مع جسمها الممشوق داخل فستانٍ بسيط لا تبرج فيه ولا خلاعة. تمدُّ ذراعيها إلى الأمام وتشبُّ بجسمها إلى أعلى وهي تنشد:

«أدِّ كده مشتاق إليك، أدِّ كده ملهوف عليك، نفسي أندهلك بكلمة ما اتقلتشي لحد تاني.»

من خلفها الفرقة الموسيقية، كلهم رجال، أجسامهم ناحلة داخل بذلاتٍ باهتة، وجوههم ضامرةٌ ممصوصة، تشبه وجوه الفلاحين الفقراء في قريتي. أم كلثوم تستدير إليهم من حين إلى حين بحركةٍ سريعة، تشجعهم بهزة من رأسها أو ابتسامةٍ خفيفة، يردون عليها بحماسٍ أكبر في العزف. تنتفض الأوتار الرفيعة تحت ضربات أصابعهم النحيفة، عظامها القوية بارزة.

«نفسي أندهلك بكلمة ما اتقلتشي لحد تاني، أد كده مشتاق إليك، أد كده ملهوف عليك.»

أم كلثوم تُردِّد المقطع عشرات المرات، مئات المرات، كل مرة تختلف عن الأخرى في اللحن وطريقة الغناء.

الجمهور يصفق بحماسٍ شديد، يُغنُّون معها ويهزُّون رءوسهم طربًا. بعضهم يلقون بطرابيشهم إلى الأرض من شدة النشوة، يردِّدون في نفسٍ واحد: أعيدي أعيدي أعيدي يا ست. وأم كلثوم تعيد وتعيد، لا تمل الإعادة ولا هم يملون. السعادة تبدو على الوجوه. أغلبهم رجال بالبذلات الأنيقة والوجوه الحليقة. قلةٌ قليلة من النساء، ترتدي الواحدة منهن فستان سهرةٍ يكشف عن عنقها وجزءٍ من صدرها حتى الشق العميق بين النهدَين، تتنهَّد الواحدة منهن مع كلمات الحب تنهيدةً عميقة تنمُّ عن الحرمان الطويل. إلى جوارها زوجها متأججًا باللذة، يشعل سيجارةً محشوة بالحشيش. زوجتُه ترمقه بحسد، وأم كلثوم تغني، كأنما تغني لنفسها، عيناها مرفوعتان إلى أعلى، إلى أفقٍ بعيد غير محدود، لا ترى آلاف العيون الشاخصة إليها، والتي لا ترى غيرها، وهي لا تراهم ولا تكاد تحس وجودهم، ولا تسمع تصفيقهم. كانت تُحلِّق في عالمٍ آخر بعيد عنهم، عالم الإبداع.

«أدِّ كده مشتاق إليك، أدِّ كده ملهوف عليك، نفسي أندهلك بكلمة ما تقلتشي لحد تاني.»

تذكرتُ أمي وأنا طفلةٌ حين كانت تستمع إلى أم كلثوم ليلة الخميس أول الشهر، أراها جالسةً في صالة البيت تتابع الغناء والموسيقى، جالسة وحدها مع الراديو. أين كان أبي تلك الليالي؟ ربما كان ساهرًا في المقهى مع أصدقائه، ربما كان مسافرًا في مهمةٍ خاصة بعمله. المهم أن أمي كانت تجلس وحدها مع الراديو تستمع إلى أم كلثوم، تشرد عيناها بعيدًا بنظرةٍ حزينة، تبتلع دمعةً حبيسة أو تمسحها خلسةً بيدها أو منديلها. لم أعرف في طفولتي أحزان أمي، كانت تبدو سعيدة دائمًا متألقة متأنقة، تضحك ضحكتها التي تتردد في الجو بصوت العصافير المغردة.

أد كده مشتاق إليك، نفسي أندهلك بكلمة ما تقلتشي لحد تاني.

دموعي أحسها تجري فوق خدي. ماتت أمي في شبابها حزينة لم أعرف حزنها، ماتت أم كلثوم في كهولتها حزينةً مقهورة بالنظام الحاكم، وأنا مثلهما عشتُ الحزن في ظل حكمٍ قاهر. وأيضًا لم ألتقِ في حياتي برجل أقول له: «أد كده مشتاق إليك، نفسي أندهلك بكلمة ما تقلتشي لحد تاني!»

في رسالةٍ أخرى بالكمبيوتر رأيتُ بعض لقطات من مؤتمر عن المرأة في مصر عام ٢٠٠٩م، قرأَت زوجة الحاكم كلمةً فاترة من ورقةٍ طويلة مكتوبة. تململ الجمهور في القاعة مللًا، أغلبهم رجال وبعض النساء، أغلبهن محجبات، جالسات في مقاعدهن بوجوهٍ حزينة مُشبعة بالشحم والهموم، أجسامهن سمينةٌ مملوءة لحمًا وحزنًا.

بروكسل

أول مارس ٢٠٠٧م

كان يومَ أحد، مدينة بروكسل في إجازة، شوارعها خاليةٌ تمامًا، الأبواب والنوافذ مغلقة، وأنا أمشي وحدي في المساحات المفتوحة الممدودة، كأنما أملك المدينة والكون كله. تحت الشمس الدافئة الحنون أمشي، أفرد ذراعيَّ وأحتضن الشمس كأنما صدر أمي. بالأمس كانت الثلوج تغطي الأرض والأشجار والبيوت والسيارات، ذابت الثلوج وتلاشت تحت قوة الشمس المشرقة، تُذكِّرني بقوة أمي أو جدَّتي، حين كانت تتمرد على أي سلطةٍ تُهدِّدها، ثم تشرق كالشمس في انتصارها على برودة العالم.

تحرَّرتُ من معطفي الصوفي الثقيل، فتحتُ صدري للدفء والطمأنينة. كم تلقَّى ظهري الطعنات من الأهل والأصدقاء أكثر من الأعداء والغرباء! أخلع سترتي، أكشف عن الجروح في ظهري والكدمات، تداويها أشعة الشمس برفقٍ كأنامل أمي، تلتئم الجروح وتعود عظام ظهري قويةً مستقيمة، تتلاشى التقوُّسات القديمة والتشوُّهات، وأمشي تحت الشمس وأمشي، إلى آخر العمر أمشي، تشرب عيناي خضرة الشجر كأرضٍ بور شققها الظمأ، أملأ صدري بهواء نقي، أطرد الغبار الأسود والتراب.

من بعيد، من الجنوب الشرقي وراء البحر تزحف سحابةٌ قاتمة، تُذكِّرني بالسحابة السوداء فوق مدينتي القاهرة لسكانها الفقراء، المقهورة على مدى القرون بالغُزاة، من الخارج والداخل، يتعاونون في السر، ويتبارزون في العلن، يتنافسون على امتلاك الأرض والماء والهواء، يفرضون الحجاب على العقل باسم التعليم والولاء لله وللوطن، يقتلون باسم الله ويسرقون عرق الناس وينجحون في الانتخابات بالأغلبية الساحقة ٩٩٫٩٩٪.

توقفتُ أمام بابٍ مفتوح تعلوه بالحروف اللاتينية كلمة «بابل» أهي مدينة بابل في العراق القديم؟ حيث بلبل الله ألسنة أهلها حتى لا يفهم بعضهم البعض الآخر، ويتفرقون دون إكمال بناء برج بابل؟ هذا البرج كاد يخترق السحب. تجمَّع أهل بابل في وحدةٍ قوية متماسكة متفاهمة، وبدءوا بناء البرج، أصبح البرج يُهدِّد العرش الإلهي في السماء. قرر الله بلبلة ألسنة الناس فتوقَّف العمل والبناء. أصبح اسم المدينة بابل، جاءت القصة في كتاب الله المقدَّس، أصبحت المدينة امرأةً زانية تعصي أوامر الله وتدعو الناس إلى الوحدة والعمل البناء، لإكمال البرج الصاعد إلى السماء، لكن الله فرَّقَهم فانهزموا. المرأة الفاضلة لم تقترف جريمةً سوى حبها لمدينتها وأهلها، سوى تصميمها على الوحدة والعمل لبناء البرج. تم إلصاق تُهمة الزنى بها في الكتاب المقدس، تم تصويرها على شكل وحشٍ له سبعة قرون يركبه الشيطان، لكنَّ جنود الرب الأعظم منها تضربها بسيف الله فيسيل دمها ويغرق السماء والأرض.

شدني العنوان «بابل» لأدخل من باب السينما، ربما امتلك المخرج المكسيكي (أليخاندرو جونزاليس إينارتو) الوعي والشجاعة، لتبرئة المرأة المدينة، من التهمة الأزلية الزائفة، ومعه كاتب السيناريو المكسيكي (جويلير مو آرباخا) مع موسيقى وألحان (جوستانو سانتا أولالا)، مع ممثلين وممثلات من المكسيك والمغرب واليابان وأمريكا. جرت أحداث الفيلم في هذه البلاد، دفعتُ عشرة يورو في التذكرة، جلسَت إلى جواري امرأةٌ بيضاء الوجه ترتدي قبعة ومعطفًا أسود. ابتسمَت لي وقالت: رأيتُ هذا الفيلم ثلاث مرات دون أن أفهمه، لكنه أعجبني كثيرًا لا أعرف لماذا. قلتُ لها: أحيانًا نفهم الأشياء بقلوبنا أكثر من عقولنا، لكن الفن الجيد نفهمه بالعقل والقلب معًا. وضحكت السيدة وقالت: ربما في هذه المرة الرابعة أفهمه بعقلي وقلبي، لكن قلبي يا سيدتي يؤمن بالله والمسيح. رغم أن عقلي يرفُض الكتاب المقدس، ضحكتُ وقلتُ: هذا الانفصام بين قلوبنا وعقولنا موروث منذ سبعة آلاف عام.

بدأ الفيلم وساد الصمت في القاعة، ينطق الممثلون والممثلات في الفيلم بلغاتهم المحلية، في المكسيك، والمغرب، واليابان والولايات المتحدة الأمريكية، اللغة المحلية مع اللكنة الشعبية مما بلبَلَنا نحن المشاهدين للفيلم، رغم الترجمة أسفل الصور المتحركة بسرعة، لا نكاد نقرأ الترجمة حتى يتغير المشهد، هل أراد المخرج أن يُبلبِل عقول الناس كما فعل الإله في كتابه المقدس؟ أحداث الفيلم أخذتنا إلى قصةٍ مفكَّكة متناقضة، تعتمد على الإثارة الجنسية للذكور، تتملق التقاليد الشعبية البالية تحت اسم احترام التراث والخصوصية

الثقافية أو الهوية الأصلية، بما في ذلك تدخين الحشيش بواسطة عجائز النساء في قرى المغرب، وعادات منذ العبودية كالختان والحجاب، وانجذاب جنسي ذكوري فحولي إلى بناتٍ صغيرات بلهاوات.

أثار الصبي المغربي في الفيلم إعجابنا بذكائه وشخصيته القوية بالنسبة لأخيه الأكبر، ومهارته في الرماية وإطلاق الرصاص، ليس فقط على الذئاب التي تأكل غنمه بل أيضًا على الأتوبيس السياحي الأمريكي، وكذلك إصابته الهدف وقتله رجل البوليس الذي قتل أخاه الأكبر. كان هذا الصبي المغربي الفقير البطل المأساوي في الفيلم، حتى اللحظة الأخيرة حين سلم نفسه للبوليس بعد أن انتقم لأخيه المقتول، حتى في لحظة ممارسته للعادة السرية، بيده من تحت سرواله المغربي الفضفاض، كانت له يدٌ قوية ثابتة الإرادة، قادرة على منحه اللذة الجنسية، بقدْرِ ما هي قادرة على إطلاق الرصاص وإصابة الهدف.

تذكرتُ في هذه اللحظة مشهدًا في فيلمٍ آخر؛ طابور من الجنود في الجيش الأمريكي، كلٌّ منهم يقبض على قضيبه المنتصب بيد، وباليد الأخرى يقبض على البندقية، الترابط بين القوة الذكورية على الغزو الجنسي والغزو العسكري. التمرد الجنسي للفتاة اليابانية في فيلم بابل تمردٌ سلبي بائس غير محترم، تمردٌ سطحي يقودها فقط إلى خلع ملابسها، والوقوف عارية في الشرفة العالية، أمام عيون ناطحات السحاب في سوق طوكيو الحرة، قممها مدببةٌ مثل كل أبراج الرأسمالية، تخرق عيون الآلهة في السماء.

بدت الفتاة ضحية نظامٍ عالمي طبقي ذكوري، لكن الضحايا لا ينالون الاحترام بل الشفقة، والفارق كبير بين الشفقة والاحترام. نال الصبي المغربي الاحترام لأنه اختار المقاومة، وقرر أن يكون قاتلًا وليس مقتولًا كأخيه الأكبر، لم يصور لنا المخرج امرأةً واحدة مقاتلة تستحق الاحترام، كلهن ضحايا فقيراتٌ من الطبقات الدنيا في المغرب والمكسيك، أو من الطبقات الأعلى، أمريكيات ويابانيات. لا تكون المقاومة أو الشجاعة أو القتال إلا عند الرجال، حتى رجل البوليس الياباني، الذي تسير إليه الفتاة عارية، تُقدِّم له جسدها كاملًا في استسلامٍ كامل، يجعله المخرج إنسانًا يقاوم الغرائز ويتعفف. يترفَّع رجل البوليس عن الاستسلام لشهوة الجنس، ربما إشفاقًا على الفتاة الصغيرة أو على أبيها المتهم بتجارة الأسلحة؛ ربما إرهاقًا من عمله البوليس القاسي؛ ربما لأنه متزوج من امرأة يحبها؛ ربما كان يمارس الجنس مع الرجال وليس النساء. المهم أن هذا الرجل البوليسي نال الاحترام، أما الفتاة فقد نالت الشفقة دون احترام.

مثلها مثل كل النساء في الفيلم، حتى الشغالة المكسيكية الفقيرة، التي كانت تجتاز الحدود لتعمل في بيوت الأثرياء الأمريكيين، أصبحَت ضحية الظلم، استسلمَت لرجال

البوليس عند الحدود، وعادت إلى المكسيك منكسرة منكَّسة الرأس. لماذا كانت تبكي وهي عائدة إلى وطنها وأهلها؟ وهي تعانق ابنها في حفل زفافه؟ وهي محوطة بدفء مشاعر الأهل والأحباء في المكسيك؟ هذا الدفء الذي افتقدته داخل حياة الطبقة العليا الأمريكية، ومنهم المرأة الجالسة بجوار زوجها في الأتوبيس السياحي. تركا أطفالهما مع الشغالة المكسيكية في بيتهما الكبير في أمريكا. يدور بينهما حوارٌ بارد عن حياتهما الباردة، بينما يشق الأوتوبيس طريقه بين هضاب المغرب، الزوج يعيش ملذاته الخاصة بعيدًا عن زوجته، لماذا لم تنطلق رصاصة الصبي المغربي في صدر الزوج وليس الزوجة؟

لكن المخرج لا يريد أن يجعل الرجل (رغم فساده الأخلاقي) ضحية للظلم الواقع في العالم، بل المرأة هي الضحية، هي التي تُعاقب برصاصة الصبي المغربي، وهي التي تنزف الدم حتى يتم نقلها بالطائرة إلى المستشفى. لم تحظَ هذه الزوجة إلا بالإشفاق مثل غيرها من الضحايا، أما زوجها فقد أصبح بطلًا وهو يبذل الجهود لإنقاذ زوجته من الموت، رغم ما كان بينهما من جفاء، رغم فظاظته في معاملة الفقراء من أهل المغرب. كان يشخط فيهم كأنهم أُجراء في أرضه، يحثُّهم على الإسراع لإنقاذ زوجته، يتشاجر مع الجميع لتحقيق رغبته، يحاول تعطيل الأتوبيس كله، بكل ما فيه من السياح، الرجال والنساء، بمن فيهم كبار السن، أوشك أحدهم على الموت، فانطلق السائق بالأتوبيس رغم اعتراضات الزوج. بالغ المخرج في حماس الزوج لإنقاذ زوجته، كأنما لم يحبها إلا عندما أشرفَت على الموت، أو أراد التخفيف عن إحساسه بالذنب قبل موتها، بسبب الآلام التي عانتها في الحياة معه.

لا يتعمَّق المخرج في شخصيات الفيلم، بل ينشغل بالشعارات السياسية العامة تحت اسم الإنسانية، أو تصوير قسوة الفقر أو مآسي العولمة الرأسمالية، والسوق الحرة، وتجارة السلاح العالمية، والضحايا الأبرياء لما يُسمى الإرهاب. أحدهم الصبي المغربي الفقير، الذي يقبض عليه البوليس كأنما يقبض على منظمةٍ إرهابية، ربما عَبَّر وجه المرأة المغربية العجوز عن مآسي الفقر، تجاعيد المعاناة محفورة في الجلد والعظم، وصمتها البليغ، بفمها المجعَّد المزموم، وتمرُّدها المكتوم وهي تنفث دخان الحشيش، تمرُّد سلبي بائس عاجز. تحاول، بقراءة بعض التعاويذ السحرية، أن تُنقِذ حياة السائحة الأمريكية، صورةٌ مزيفة عن القدرة الطبية لبعض الآيات المقدسة.

شخصية الأب الياباني، والد الفتاة، تجسد تاجر الأسلحة الدولي، مزيج من القسوة والفساد، هل قتل هذا التاجر زوجته أم إنها انتحرت إنقاذًا لنفسها من الحياة معه؟ هل

رأت الفتاة أباها يدفع أمها من الخلف لتسقط من الشرفة العالية؟ هل أفقدَها هذا المشهدُ النطق؟ وجعلها تضيع مع شباب العصر الضائع في حلبات الرقص والمخدرات والجنس؟

كانت الشرفة هي المكان الذي حدثَت فيه الجريمة، فأصبحت المكان حيث تنتقم الابنة من أبيها، لم تمتلك الفتاة من وسائل الانتقام الكامل لكل شيء في العالم إلا العُرْي الجسدي الكامل، أن تخلع عنها كل ملابسها وتقف عارية في الشرفة تصفع بعريها أباها ورجل البوليس، وناطحات السحاب وتجار السلاح، وسوق الرأسمالية ونخاسة العبيد في العصر ما بعد الحديث ومنهم أمها وهي وكل النساء.

لم يقُلِ الفيلم شيئًا من هذه الأفكار التي راودَتْني، وخرجتُ من دار السينما أقول لنفسي: هذا فيلمٌ جيد رغم ما فيه من ثغرات وقيم ذكورية، يكفيه أنه أثار خيالي وجعلني أكتب قصةً أخرى للفيلم وسيناريو آخر لم يخطر على بال المخرج أو الكاتب، ولا علاقة له باسم بابل.

رحلة كازاخستان

٢٧ يونيو إلى ٢ يوليو ٢٠١٠م

في أواخر الستينيات من القرن العشرين، سافرتُ إلى الاتحاد السوفييتي، في رحلةٍ طويلة قطعتُ بعضها بالطائرة وبعضها بالقطار، وبعضها على نهر الفولجا في سفينة مع «فالانتينا» بطلة الفضاء حينئذٍ، من بعد رائده الأول «جاجارين». زرتُ عددًا من المدن منها ليننجراد، ستالينجراد، موسكو حيث الكرملين ومقبرة لينين، رأيتُه راقدًا داخل بذلته السوداء الرسمية محنطًا مثل توت عنخ آمون، والطوابير من البشر تملأ الميدان الكبير، تنتظر بالساعات لتُلقي نظرة على زعيم الثورة البلشفية. لم أكن من أتباع لينين، أو غيره من زعماء الشرق أو الغرب. لكن احتفاء الشعوب بفردٍ ناضل من أجلها أمرٌ جليل. كانت مدينة «ألماتي» عاصمة كازاخستان تحت حكم السوفييت، حضرتُ فيها مؤتمرًا أدبيًّا عام ١٩٦٨م وأكلت تفاحها، (كلمة ألماتي تعني التفاح)، وجوه أهلها تشبه الصينيين. لكن في هذه الرحلة إلى كازاخستان، بعد أكثر من أربعين عامًا من الرحلة الأولى، وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي بعشرة أعوام، أصبحت مدينة الآستانة هي عاصمة كازاخستان منذ ١٩٩١م. هبطتُ إلى مطارها بعد رحلةٍ طويلة في الجو، بدأت من القاهرة إلى فيينا في النمسا، ثم من فيينا إلى الآستانة. عشر ساعات طيران. كنت أعشق السفر في الطفولة والشباب. رغم مرور الزمن، لا زلت أفرح بالتحليق في الجو أو ركوب القطار مثل الأطفال. لا شيء مثل السفر وتجاوز الحدود يقضي على التعصُّب للقبيلة ومسقط الرأس. لا شيء مثل السفر يُوسِّع عقولنا وقلوبنا. تذوب الهويات الضيقة الصغيرة الموروثة بالدم والرحم والدين والعرق. نكتسب الهوية الإنسانية الأكبر التي تُوحِّد البشر رغم الاختلاف. أشعر بالراحة في السفر، وسعادة التحرر من القهر المزمن داخل سجن الأرض والأسلاف.

جاءتني الدعوة لإلقاء كلمة في مؤتمرٍ دولي «رفيع المستوى». ترددتُ حين قرأت هاتَين الكلمتَين «رفيع المستوى». هذه المؤتمرات تنظمها الحكومات، شرقًا وغربًا، تنفق عليها الملايين، والنتيجة! الملل والدعايات والحقائب المنتفخة بالأوراق، وصور الرؤساء والزعماء، ومجلدات خطبهم الطويلة المصقولة. لكن رغبتي في رؤية الآستانة تغلبَت. منذ المدرسة الابتدائية، قرأتُ في كتاب التاريخ عن الآستانة. تصوَّرتها عاصمة الإمبراطورية الممدودة شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، في آسيا حتى حدود الصين، البحر الأسود وبحر قزوين إلى البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، إلى مصر ونهر النيل في أفريقيا. كلمة الآستانة شغلَت خيالي الطفولي، مع اسم محمد علي باشا حاكم مصر، كان يجلب منها العلماء وإليها يرسل البعثات. حلمتُ بها وأنا في الثامنة من عمري، أزورها لأول مرة بعد أن أشرفتُ على الثمانين من العمر. رجال البروتوكول في المطار يشبهون رجال البوليس. لا بدَّ أن أتبع طقوسهم في الاستقبال، وأن أبتسم لصورة الرئيس المنشورة. ابتسامته عريضةٌ كاشفة عن أنيابه، تشبه ابتسامة السادات وجورج بوش وستالين وكل المستبدين. كنت مدعوة بصفتي الشخصية، كاتبة حرة مستقلة لا أتبع أي حكومة أو نظام. يتكلمون لغتهم التي تبدو كالصينية أو الهيروغليفية، إلا فتاةً صغيرة تكلمَت بعض الإنجليزية، حملَتْني إلى الفندق «راديسون» في سيارةٍ سوداء كالشبح عليها علم يرفرف، مثل فرخةٍ مذبوحة تفرفر.

في الفندق خمسة نجوم أصابني تسممٌ غذائي. قضيتُ الليلة الأولى أتقيأ ما أكلتُ. أول نتائج المؤتمر رفيع المستوى والانفتاح على أمريكا وأوروبا؟ كل شيء في الفندق يلمع، ويبرق، صحون الطعام، وجوه الجرسونات، الملاعق الفضية والنجفات الكريستال. تحت البريق والأضواء يتخفى تلوُّث الطعام، يحدث هذا في معظم بلاد العالم منها بلادنا. هذا إيجاز بليغ للانفتاح على الرأسمالية تحت اسم الديمقراطية وحرية السوق. يختبئ التسمم الغذائي تحت شعار الثورة الخضراء والأمن الغذائي، جاءوني بأطباء كثيرين. أقول لهم هذه سموم دخلت المعدة، يهزون رءوسهم غير فاهمين، المترجم لا يفهم، الأطباء حائرون مذعورون، يحاولون حملي إلى المستشفى، أعترض: لن أذهب، إذا كان الفندق خمسة نجوم بهذا الحال فكيف يكون المستشفى؟ تشبثتُ بقوتي الباقية. طردتُ الطعام كله من معدتي. ألقيت علب الأدوية في صفيحة القمامة. طلبتُ عصير الليمون، والكمون، والكاموميل، وكمياتٍ كبيرة من الماء النقي، ثم نمتُ نومًا عميقًا. صحوتُ في الصباح مشرقة مع الشمس، أخذوني إلى المؤتمر لألقي كلمتي، نلتُ التصفيق الكثير، رغم نقدي للديمقراطية الزائفة والخصخصة والسوق الحرة. لكنني أشدتُ بالتعليم الجديد القائم

على الحرية والتعددية والنقد وإثارة الجدل. مرافقتي فتاةٌ كردية الأصل اسمها «نارينا»، تجولَت معي في المدينة. سكانها سبعمائة ألف نسمة، تزيد قليلًا عن قريتي في حضن النيل، لكن الشوارع واسعةٌ نظيفة. البنات يلعبن في الحدائق سعيدات على ضفاف نهر «إيسيل»، يرتدين ملابس الصيف الخفيفة. لا أحد من الرجال يتطلع إلى النساء، لم أرَ امرأة واحدة ترتدي الحجاب، رغم أن الأغلبية من المسلمين، المسجد له قبةٌ ذهبية، فيه قليل من المصلين. لم يعترض أحد على تجولي فيه برأسي العاري. يختلف الإسلام في كازاخستان عن أي بلادٍ أخرى، لا يؤمنون بحجاب المرأة. تتغير القيم الدينية بتغير المكان والزمان. تتعدد الأديان هنا والمذاهب والأعراق. القوانين في كازاخستان كلها مدنية، بما فيها قانون الأحوال الشخصية القائم على العدل والمساواة بين الجميع، بصرف النظر عن الدين أو الجنس أو الطائفة. حين يصل المواطن إلى الثامنة عشرة من العمر يحق له أن يغير اسمه واسم أبيه أو عائلته، ويختار ما يريد من الأسماء أو الأديان أو المذاهب. الدين غير مفروض بالوراثة أو التربية أو التعليم. في مدارس كازاخستان يدرُس التلاميذ والتلميذات جوهر كل الأديان وليس الإسلام وحده. تسود فكرة التعددية في الفكر والسياسة والتعليم والثقافة. كازاخستان دولةٌ مدنية سكانها ١٨ مليون نسمة.

تحت حكم الاتحاد السوفييتي، كان التعليم بالمجان لكل فئات الشعب، لكن مناهج التعليم كانت محكومة بالفكر الشيوعي وحده. بعد الاستقلال، والانفتاح على أوروبا وأمريكا، أصبح التعليم بالفلوس، لم يعُد للفقراء قدرة على التعلم. تحرَّرَت المناهج من التحكم الشيوعي. أصبحت أكثر حرية وتعددية، لكنها خضعَت للقيود الطبقية. إنها حرية مَن يملك المال، حرية السوق، على غِرار ما يحدث في البلاد الرأسمالية. تزداد الهوة بين الطبقة العليا والطبقات الأدنى، لكن الحريات الشخصية والفكرية تزيد.

قلتُ لنارينا: ألا يمكن أن تأخذوا إيجابيات الرأسمالية والاشتراكية وتتركوا سلبياتهما، مثلًا أن يكون التعليم حرًّا متعددًا ومفتوحًا للفقراء والأغنياء على السواء؟ ألا يمكن التحرر من القيود الطبقية مثل التحرُّر من القيود الجنسية والدينية؟ ضحكَت نارينا وقالت: يا ريت يا دكتورة، لكن الرجال يحكموننا بالعقلية التقليدية، شيوعية كانت أو رأسمالية، النساء المسلمات هنا متحرِّرات، لكن الرجال يحتكرون السلطة في الدولة والعائلة.

سحابة صيف في أعالي جبل لبنان

وجدتُ نفسي في بيتٍ صغير جميل في أعالي جبل لبنان، في هذا الشهر أغسطس ٢٠١٠م، في القاهرة كانت درجة الحرارة ٤٠، الصهد والحر والتراب والضجيج والأرض، والفساد العام والخاص يغرق الصحف، والحزن يغرقني. خيانات الأصدقاء والصديقات والأقرباء والقريبات، في العائلة والدولة والعالم. لكن الأوفياء أكثر على المدى البعيد، ولحظات الحب والصداقة العميقة تغمر قلبي، رغم الحزن العابر. كل شيء يعبُر حياتي مثل سحابة صيف، مثل قطرات الماء تنزلق على ظهر الإوزَّة. ويبقى التفاؤل والضحك والفرح هو الأصل، وهو الباقي معي إلى نهاية العمر. يسألونني دائمًا: من أين يأتيكِ هذا التفاؤل والفرح رغم سواد الدنيا؟ رغم ما يمر بحياتك من مصائب؟ أضحك وأقول لهم: رب ضارةٍ نافعة، كما سمعتُ من أبي في طفولتي. وكان يقول: الإبداع هو تحويل الضار إلى نافع. وكان يقول أيضًا، وهو يضحك: كلمة مصيبة هي مؤنث مصيب أي صائب يعني صحيح، كل المصائب تنقلب في حياة المبدع أو المبدعة إلى الشيء الصائب الصحيح، ولا يصح إلا الصحيح، يعود إليَّ صوت أبي وهو يضحك، فيغمرني الضحك والفرح والتفاؤل.

رنَّ جرس التلفون وجاءني صوته من بيروت: نوال عاملة إيه في حر أغسطس في القاهرة؟ إيه رأيك تيجي إجازة على جبل لبنان. لم أتعرف على صوته، قال: أنا زياد، قلت: زياد؟ لا أذكر أحدًا اسمه زياد، أنت مصري أم لبناني؟ يا ست نوال أنا زياد اللي عمل معاكي حوار في التلفزيون اللبناني من عشر سنين، أجمل حوار عملته في حياتي، لا يمكن أنساه لا يمكن، وانتي نسيتيني؟ قلتُ: يا زياد لا أتذكر الأمس فما بال عشر سنوات؟ وأنا أنسى دائمًا حواراتي فيما يُسمى الفضائيات، لأنها لا تعجبني. لا لا يا ست نوال هذا الحوار كان غير أي حوار، إيه رأيك تيجي على بيروت نعمل حوار جديد وتقضي إجازة أسبوع في جبل لبنان، بنتي رانيا قرأت كل كتبك ونفسها تشوفك، قلتُ: طبعًا أحب أشوف

بنتك أنا باشجع كل الشباب والشابات، لكن تدفع كام على حوار التلفزيون يا زياد؟ أنتم تجنوا الملايين من الفضائيات وإحنا الكاتبات والكتَّاب نجني الألم واللكمات؟ قال: ندفع لك يا دكتورة اللي تقولي عليه، قيمتك في الدنيا أكبر من أي مصاري (مصاري يعني الفلوس باللغة اللبنانية).

ودَّعَني ابني وابنتي في المطار، يُلوِّحان لي من بعيد، ماما لا تغيبي عنا، ارجعي بعد أسبوعٍ واحد. لمحتُ الدموع في العيون مثل وميض الضوء، هل ألقاهما مرةً أخرى أم إنه اللقاء الأخير؟ مهما كبرا في عيون الآخرين هما في عينيَّ طفلاي. غبتُ عنهما سنوات المنفى والغربة والمعاناة والسجن والمطاردة الدائمة، ابتلعت دموعي في البئر الغائرة في أعماقي. لا أبكي أمامهما منذ طفولتهما، تحمل أمهما من أجلهما الجبال، وتمشي وتمشي إلى آخر الدنيا، من أجلهما يمكن أن تُضحِّي بحياتها وموتها في الدنيا والآخرة.

في مطار بيروت استقبلَني زياد وابنته رانيا وباقة وردٍ أحمر. عدتُ إلى الوطن برائحة الورد، على حضن الأم، أعانق رانيا كأنها ابنتي، وزياد أيضًا ابني. لي في كل بلاد العالم بنات وأبناء، هذه هي المكافأة الوحيدة للكاتبة، مهما ارتفع ثمن الكتابة، مهما كانت المعاناة والألم ونزيف الدم تظل المكافأة أكبر وأعظم.

في أعالي جبل لبنان، أكتب هذا المقال، أتطلع إلى السماء، أدرك لأول مرة أن الكتابة المبدعة تعلو إلى رسالات السماء؛ فالإبداع هو قمة الصدق، قمة ما ينتجه العقل الواعي وغير الواعي معًا، الواقع والخيال معًا، الظاهر والباطن معًا، المعلن والخفي، العلم والفن، الطب والأدب، السياسة والدين والتاريخ والمستقبل. يُذيب الإبداع الفواصل الموروثة بين الأشياء، يُلغي الثنائيات والازدواجيات الزائفة منذ العبودية. ينتشل الإبداع الأجيال الجديدة من الجهل وسوء التعليم والردة الأخلاقية، ينير أمامهم الطريق إلى الصدق والكرامة والاعتزاز بالنفس.

الكلمة هي الشرف، منطوقةً ومكتوبة، شفهيَّةً وتحريرية. من لا كلمة له لا شرف له. من يخُن كلمته يخُن نفسه قبل أن يخون غيره.

أتأمل الجبل الشاهق وأفكر، أدرك أن مشكلة التعليم في بلادنا هي أننا لا نتعلم كيف نفكر. يملئون الدماغ بمعلوماتٍ تطير بعد الامتحان وتختفي مثل سحابة الصيف. لكن الإبداع يُعلِّمنا كيف نفكر. بدلًا من أن تعطيني سمكة علِّمني كيف أصطاد. علِّمني كيف أفكر بعقلي أنا وليس بعقول الغير.

آه يا جبل لبنان، يا أجمل جبال العالم! يا صوت فيروز وأسمهان! يا ذكريات الحب والجمال والصدق والحرية والعدل!

أتطلَّع إلى الجبل والبحر والسماء، وتنهمر دموعي من روعة الشجن.

ذكريات بيروت تتدفَّق. منذ ثلاثين عامًا وأكثر، جئتُ إليها لأقيم فيها أيام الحرب، كنت أحمل لقب مستشارة بالأمم المتحدة، بمنظمة الأكوا (اختصار اللجنة الاقتصادية لبلاد غرب آسيا) مركزها بيروت. تحمل اليوم اسم الإسكوا (اختصار اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لبلاد غرب آسيا، أضيف المجال الاجتماعي للاقتصادي).

لقب مستشار بالأمم المتحدة كان يعني لا شيئًا، يمكن للمستشار ألا يعمل أي شيء، وهذا هو المطلوب، حتى يستريح ويريح. إن اشتغل وأخذ المسألة بجدية فهو يكشف الفساد الكامن تحت السطح، يسرع الجميع للتخلص منه.

لا يختلف الموظَّفون في هذه الهيئة الخطيرة عن غيرهم في الحكومات العربية. كنت أشعر بالاختناق داخل مكتبي فأهرب منه إلى الشارع حيث رصاصات القناصين تنطلق من النوافذ العالية الخفية.

أقطع شوارع بيروت، لا أهاب الموت، يعجز العقل البشري عن إدراك موته. يدرك موت البشر جميعًا إلا هو. أكسبني الجهل بالموت شجاعةً منقطعة النظير. أمشي على شاطئ الروشة أدندن بأغنية فيروز أو أسمهان. أتذكر طفولتي على شاطئ الإسكندرية، أسبَح في البحر كالسمكة وراء أمي، يحملني أبي فوق رأسه ثم يلقي بي فوق الأمواج.

حنيني للوطن والأهل يزيد بازدياد البعد، فإن اقتربت وتلاشت المسافات تبدَّد الحنين، وبدأتُ أحلم بالرحيل. أيكون الفراق هو شرط الحب؟ هذا السؤال خطر لي في العاشرة من عمري، حين غمرني الحب لأبي وأمي يوم سافرتُ بعيدًا عنهما.

أكبر حب في حياتي كان في العاشرة من عمري، إنه حبي الأول والأخير، عشت العمر كله أبحث عنه دون جدوى. أقترب من الثمانين عامًا من عمري وما زلتُ أبحث عنه.

شيء في ارتفاع الجبل يُقرِّبني من الحب المستحيل، العدل المستحيل، الحرية المستحيلة. اتساع الأفق وامتداد البحر إلى اللانهائي، اللامنتهي، يجعلان قلبي يخفق كما كان قلب الطفلة يخفق، ترجُّ الخفقة كيانها والجبل والبحر والسماء والأرض.

في الوطن، الأرض مستويةٌ دون ارتفاع، أحنُّ إلى الجبل والقمم الشاهقة تغطيها الثلوج، لكن صوت المذيع يأتيني من تحت الأرض، إسرائيل في عدوانٍ جديد على لبنان، أهبط من قمة الجبل وأصحو على صوت الرصاص.

فقاعات هواء في الفضائيات

منذ أيامٍ قليلة، جاء إلى بيتي المذيع المتأنق، من البلد الشقيق، من خلفه تابعه يحمل له بذلةً الشغل وعدة النصب. وعددٌ كبير من الفنيين والعمال، يحملون الكاميرات وأجهزة البث السريع، المرئي والصوتي والحركي. المذيع متسلط سليط اللسان، برميل من النفط الخام. الكرافتة والدبوس والحذاء اللامع يعكس الضوء. كل شيء فيه يلمع إلا العينَين، إنهما منطفئتان خاليتان من البريق، يتحدث نصف الفصحى، الخليجية البدوية، جسد مدكوك باللحم والدهن، خالي الذهن، منفوخ بالهواء، ملسوع بالأضواء، يخطف الكلام، بشرته مسلوخةٌ نصف محروقة، يعطي التوجيهات للعمال من حوله، شباب مصر الحزين، عيونهم منكَّسة، وجوهم ضامرةٌ ممصوصة، ضحايا الاستبداد والبطالة والبورصة والخصخصة والفساد والاستعمار والسوق الحرة والعولمة وأوبئة العصر. لم أرَ حزنًا في العالم يعلو على حزن الشعب المصري. أهبط من المطار إلى أرض الوطن لينوء قلبي بالهموم، الحزن والقهر المتراكم في العيون طبقةً فوق طبقة، آلاف الطبقات ومئات القرون، شباب وشابات لم يعرفوا مرح الطفولة أو تمرُّد المراهقة، لم يدركهم الوعي بكرامة العقل وسمو الذات. ولدوا عجائز من رحمٍ مقهورة حزينة، أكثرهم حزنًا شابٌّ من قرية العبيد في جبل الصعيد، عيناه غائرتان في قاع الجمجمة، عظام خديه نتوءاتٌ حجرية، أخاديدُ مدببة تحت الجلد، منحوتة بإزميل في صخور الجبل، يحمل صندوقًا مزخرفًا يفوح منه العطر، علب الماكياج وأدوات عملية التجميل، زراعة وجوهٍ جديدة للمذيعين والمذيعات وضيوف الفضائيات.

الأطباء الإسبان، منذ ثلاثة شهور (مارس ٢٠١٠م) في مستشفى «فال دي هيبرون»، في مدينة برشلونة، نجحوا، لأول مرة في العالم، في إجراء عمليات الجراحة لزرع وجهٍ كامل، بدلًا عن الوجه المحروق أو المحطم في حادثٍ ما، يزرعون عضلاتٍ جديدة للوجه، وجلدًا

وأنفًا جديدًا، شفاهًا جديدة، عظامًا جديدة للفكَّين والحنك والأسنان والخدَّين والجبهة والذقن والأذنَين.

ينظر الإنسان إلى نفسه (في المرآة) فلا يعرف وجهه، والآخرون لا يعرفونه بالطبع. رجال المباحث والبوليس لا يعرفونه. تقدمٌ علمي جديد يخدم المصابين في الحوادث، كما يخدم عشاق الجريمة وأضواء الشاشة الصغيرة. مثل كل اكتشافٍ علمي جديد، الطاقة الذرية والنووية قد تنقل الطب إلى مرحلةٍ أعظم، وقد تُدمِّر العالم في حربٍ كونية، وطب زراعة الأعضاء قد يخدم البشرية، وقد يتحول إلى تجارة وقرصنةٍ دولية. أصبح للمذيع وجهٌ جديد يتألق بريقًا وبياضًا مثل ورق الألومنيوم المفضض. قلتُ له ضاحكة: وجهك السابق كان أفضل يا أستاذ؟ أصابه إحباط: أعرف أنكِ ضد الماكياج يا دكتورة، الماكياج أصبح ضرورة كالماء والهواء، لماذا تسبحين دائمًا ضد التيار؟ «لأن السمك الميت هو الذي يسبح مع التيار يا أستاذ.»

كان في جعبته الكثير من أسئلة استخرجها من «النت»، أراد أن أرُدَّ عليها كلها، أول سؤال: كيف تعتبرين الرجل الذي يمارس تعدد الزوجات خائنًا أو فاسدًا أخلاقيًّا، رغم أنه يمارس حقه الوارد في القرآن؟ أتعترضين على أمر الله؟

لم يمنح الله هذا الحق يا أستاذ؛ لأنه يتنافى مع العدل والإخلاص الزوجي، والحفاظ على صحة الأسرة والمجتمع. هناك دولٌ إسلامية منعَت تعدُّد الزوجات، و... و... و... و...

وانهالت الأسئلة المكرَّرة المملة: تقبيل الحجر الأسود أليس من أركان الإسلام؟ لماذا تقولين عنه عادة وثنية؟ كيف نخاطب الله بالضمير غير المذكر «هو»، لماذا أنت ضد النقاب؟ هل أنت ضد الحرية الشخصية؟ لماذا تطالبين بتسمية الأطفال غير الشرعيين باسم الأم؟ ألا يشجع ذلك على فساد النساء؟ و... و...

قاطعتُه قائلة: بل يقضي ذلك على فساد الرجال.

ثم جاء السؤال: لماذا تُشبِّهين الزواج بالبغاء المقنع؟ لماذا ترفضين المهر والنفقة؟ لماذا تقولين إن عذرية البنت ليست مقياسًا للشرف الحقيقي؟ لماذا تعترضين على مفاهيم الأنوثة والرجولة؟ ما علاقة الإبداع بالتمرد؟ و... و... و... و... و...

من أجل تبديد الملل، قلتُ: نحن نُضيِّع وقتنا على الهواء، في الوقت الذي تسعى بلادٌ أخرى لاكتشاف الكواكب والسماوات السبع. كوكب المريخ يكتشفونه اليوم ويصورونه بدقة. الزهرة تبدأ دورةً جديدة تمر خلالها بين الشمس والأرض في ٥ يونيو ٢٠١٢م، ثم بعد أكثر من مائة عام، بالضبط في سنة ٢١١٧م، يقترب القمر من الزهرة، يمكن أن نراهما بالتلسكوب على شكل نجمة داخل الهلال، ثم تمر الزهرة من وراء القمر فلا نراها.

بدأ كوكب الزهرة في الاقتراب من كوكب الأرض في بداية هذه السنة ٢٠١٠م. تظهر الزهرة اليوم على شكل قمرٍ صغير يبعد عن الأرض ٢١٠ ملايين كيلومتر فقط، في صباح ٢٠ أغسطس القادم تصبح الزهرة قريبة من الشمس، تبعد عنها ١٠٥ ملايين كيلومتر فقط. وفي ٢٩ أكتوبر المقبل تمر الزهرة بين الشمس والأرض، وتختفي وراء القمر لتطل من ورائه بعد فترة من الزمن. كل ذلك سينقل علم الكون الجديد إلى آفاقٍ أكبر. نحن نتكلم يا أستاذ عبر أقمارٍ صناعية اكتشفها غيرنا، لم نكتشف شيئًا في العلم منذ ألف عام. اشترينا بأموال النفط وأموال الفقراء الجوعى مئات المحطات الفضائية، للثرثرة الفارغة، والتسلية والترفيه، أنا لست ضد الترفيه يا أستاذ، لكن بعد الإرهاق في العمل والإنتاج، ليس الترفيه عن الراحة والكسل والاستهلاك. أنت جئتَ من بلدك كل هذه المسافة لتدافع عن حقِّك في تشريد أُسرتك؟ لماذا تريد الزواج بأربع نساء يا أستاذ؟ ألا تكفيك واحدة؟

انتقل إلى سؤالٍ آخر بسرعة البرق: كيف تقولين إنَّ حجاب المرأة ليس في الإسلام؟ مع أن الحجاب ركن من أركان الإسلام مثل الصلاة والزكاة والحجِّ وتقبيل الحجر الأسود. كل الفقهاء يؤكدون على أن حجاب المرأة فريضة مثل الصلاة، وضروري لحماية المرأة من عيون الرجال في الطريق.

سألتُه: هل تنظر إلى المرأة في الطريق؟ ردَّ المذيع: نعم أنا رجل ينجذب إلى المرأة بالطبيعة الرجولية، قلت: ليست الطبيعة الرجولية. الرجل المستقيم الأخلاق هل ينظر إلى النساء في الطريق؟

تصبَّب العرق قطراتٍ تلمع فوق جبينه تحت الأضواء، أشار بطرف إصبعه إلى الشاب المصري العجوز. أسرع فأخرج من الصندوق مناديلَ ورقٍ شفافةً معطرة، مسح بها عرق المذيع، ثم غطَّى وجهه بطبقة من البودرة ولمساتٍ خفيفة لأحمر الخدود.

أخيرًا قلت: الناس في بلادٍ أخرى يتنبئون بما يحدث في الكون بعد مائة عام، ونحن غير قادرين على تحليل الظواهر من حولنا اليوم. نَجتَرُّ أسئلة القرون الوسطى. يلعب التعليم والإعلام والقنوات الفضائية دورًا في تدمير العقل، في بث الخرافات والإثارة السطحية، كان يمكن خلال الساعة الماضية أن نقيم حوارًا عميقًا يفتح الأذهان، يشجع الناس على البحث عن الحقيقة في العلوم والتاريخ والفن والأدب.

ألا تشعر بالخسارة يا أستاذ؟ ابتسم في سعادةٍ بلهاء وقال: بالعكس كان حوارًا رائعًا يا دكتورة.

وابتسمتُ في حزن لا يعالجه شيء.

صديقتي الأمريكية أديل

الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق، أصحو من النوم على مهل، أتمطَّى في الفراش الدافئ، أُبعث من الموت إلى الحياة، أنتقل من اللاوعي إلى الوعي بنعومة دون عجلة، لا شيء يجعلني أقفز من السرير هلعًا لأن الوقت فات؛ فاليوم هو الأحد. لا مواعيد ولا حصص في الجامعة ولا محاضرات؛ الإجازة الأسبوعية المقدَّسة المفروضة علينا، بحكم القانون المسيحي السائد. يستريح الأمريكيون والأمريكيات في البيوت بملابس النوم، يتناولون فطورًا دسمًا ملغمًا بالزبدة والعجائن ودهن الحيوانات، كل المحرمات. يخرج بعضهم للصلاة في الكنيسة إن لم تتلبَّك أمعاؤهم، إن آمنوا بوجود الله والمسيح، أغلبهم لا يؤمنون، وإن آمنوا بالقلب لا يؤمنون بالعقل. يكتفون بشكر الله والمسيح في عيد الشكر، الخميس الأخير من نوفمبر كل عام، أو ثلاث مرات في اليوم قبل الأكل. يُتمتِمون بكلماتٍ من الكتاب المقدس، مع ابتلاع أقراص المهضِّمات، وطرد الشياطين من الأمعاء مع الغازات.

قلبي يخفق مع اليقظة الكاملة، في انتظار حدثٍ مجهول، أتوقع دائمًا خبرًا سعيدًا منذ طفولتي، أو كارثةً تقع، لحظة الإفاقة من النوم لا يميز قلبي بين خفقة الفرح وخفقة الفزع، شحنة الدم الساخنة المندفعة داخل الصدر هي الشحنة، جفاف الفم والحلق وانقطاع النفس إلا شهقة الدهشة. لم تفارقني الدهشة الطفولية بلا سبب، أو لمجرد الصحيان في الصبح، أو سقوط أبي فجأة إلى الأرض بقامته الفارعة القوية لحظة الموت، أو شهقة أمي الأخيرة المندهشة، ممسكةً يدي بيدها تفارق الدنيا، أو خيالي الجامح يخلق الكوارث التي لم تحدث بعدُ، والتي أعرف أنها ستحدث حتمًا، مثل أن يسقط شخصٌ عزيز ميتًا بسرطان الدم أو يُصاب بسكتةٍ قلبية أو جلطة في المخ. لم أكن أعرف من الكوارث إلا أخفَّها، المرض والموت، وكان الفرح يطغى على الحزن.

أرمق جهاز التلفون الصامت بجوار سريري كأنما سيرنُّ فجأة بالخبر السعيد أو النبأ المشئوم. إن لم يرنَّ الجرس أحزن لضياع الفرح، وإن جاء الجرس أرتعد من الحزن. كلاهما، الفرح والحزن، يدفعان حرارة الدم إلى جسدي، فأشعر بلذةٍ غامضة مجهضة تشبه نشوة الحب أو الاكتئاب المفاجئ يغمر الإنسان والحيوان، عقب قمة الجنس.

الشمس غائبة وراء السحب في سماء مدينة أطلانطا. منذ يومَين كانت الشمس مشرقة، تتألق الشمس دائمًا في «عيد الشكر» كما يقول «كريس» أستاذ التاريخ، لمجرد مشاكستي؛ فهو مثلي لا يؤمن بحكاية الأيام الستة، أو نظرية الخلق الواردة في الكتاب المقدس. بشرته الخمرية سمراء بلون طمي النيل، القلب الممتلئ دفئًا من قلب قارتنا الأفريقية، الأنف الروماني المسحوب إلى أعلى من شمال البحر الأبيض المتوسط، الوسامة والقامة الممشوقة يتميز بها أصحاب وصاحبات الدماء المختلطة، من أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا الشمالية والجنوبية. تُذكِّرني قامته الفارعة بأبي وابني، عيناه العسليتان بأمي وابنتي، حين يكسوهما البريق القوي أتذكر الحب الأول في حياتي، قبل الزواج الأول، قبل أن أشهد أول ميت في حياتي، قبل أن تهرب الدماء من وجهي ويصبح لونه مثل الكفن أو ملاءة السرير، وأنا في عمر الورد.

رن جرس التلفون، فانتفضتُ وتردَّد ذراعي في الهواء متوجسًا، ثم دفعه الأمل أو الوهم إلى الامتداد حتى رفعت السماعة: ألو، ألو.

رنَّ صوتي في أذني. ليس صوتي، امرأة أخرى تتلقى نبأ موتها أو موت عزيزٍ عليها، أو تهمة كافكاوية غامضة تقودها إلى المقصلة، أو على الأقل إيداعها السجن لعدم تسديدها الديون المتراكمة عليها منذ الولادة. كان يلازمني، منذ الولادة، إحساسٌ دائم أنني لم أُسدِّد ديوني لأمي وأبي. منذ وعيتُ أسمع أبي يقول حين أتمرد: أأشقى من أجلك ليلَ نهار، أشقى لتصبحي ضمن بني آدم، أشقى حتى لا تمسحي البلاط وتأكلي المخلل والعيش الحاف، أشقى لأدفع لك مصاريف التعليم والأكل والملابس، ألا تسمعين الكلام؟ أمَّا أمِّي فكانت ديوني لها أكثر من أبي؛ لأنَّها تشمل الحمل تسعة شهور في بطنها وآلام الولادة والرضاعة والتحميم والتأكيل والتلبيس و... و... و... و... وماتت أمِّي ومات أبي وأنا في مقتبل العمر، قبل أن أُسدِّد ديونهما، هكذا ظلَّ قلبي طوال حياتي ثقيلًا مملوءًا حزنًا حتى في قمَّة الفرح.

– ألو ألو، ألو مين؟ مين؟

جاءني صوتها يتحدث الإنجليزية باللهجة الأمريكيَّة، لم تتعرَّف على صوتي أوَّل الأمر، سألَتْني: هل أنت مُصابةٌ بإنفلوانزا الطيور؟ قلتُ: لا، الخنازير. ضحكَت.

عرفتُها من ضحكتها المرحة. إنَّها صديقتي الأمريكيَّة الأفريقيَّة «أديل نيوسن هيرست» أستاذة الأدب الإنجليزي في جامعة ميزوري. كانت عميدة كلية الآداب والفنون في هذه الجامعة قبل أن تُقدِّم استقالتها في صيف ٢٠٠٧م. نشأَت المشاكل منذ أعوام بينها وبين إدارة الجامعة، ومنهم الرئيس أو نائب الرئيس، وكان مؤيِّدًا للثالوث اليميني: الحزب الجمهوري وجورج بوش والكتلة المسيحيَّة الأصوليَّة. ولاية ميزوري يسمُّونها «سُرَّة حزام الكتاب المقدَّس». وجدتُ نفسي في قلب هذه السُّرَّة المفزعة في مدينة سبرينجفيلد عاصمة الولاية، فقد دعَتْني العميدة أديل نيوسن هيرست لأُلقي محاضرة في كلية الآداب والفنون عن الإبداع والتمرُّد، يوم ١٧ أبريل ٢٠٠٧م. كانت القاعة مليئةً بحشود من الطلَّاب والأساتذة والموظفين في الإدارة، بمن فيهم الرئيس ونائب الرئيس والوكيل. بعد انتهائي من المحاضرة وقف الجميع يُصفِّقون بضع دقائق، إلا الصف الأول حيث جلس أعضاء السلطة العليا في الجامعة. رأيتهم جالسين ساهمين يرمقونني بعيونٍ حمراء. في مكتب العميدة أديل قالت: الطلبة والطالبات أحبُّوك، هل تقبلين التدريس هنا في هذه الجامعة؟ وقَّعَت معي العميدة عقدًا لتدريس الإبداع والتمرد في الكلية، لكنَّ الإدارة في الجامعة رفضت تنفيذ العقد، واشتدَّ الصراع بين العميدة ورؤسائها في الجامعة إلى أن قدَّمتِ استقالتها من منصب العميدة، وآثرَتْ أن تكون أستاذة فقط في قسم اللغة الإنجليزيَّة. قالت أديل إنَّ العقد معي يمكن أن يُنفَّذ بالقانون عن طريق المحامي، لكنِّي تنازلتُ عن حقِّي القانوني كراهيةً في المحامين والمحاكم. لا أطيق هذه المهن، محامٍ يقودني إلى محكمة أو طبيب يقودني إلى غرفة الجراحة، أو غيرهما من أصحاب المهن الحرة، في السوق الحرة، حرِّية نهب الآخرين تحت اسم القانون أو الطب أو الإنسانيَّة والديمقراطية، والحب. واصلَت أديل حديثها عبر الهاتف، قالت: لا بدَّ أن أُرسل الكتاب إلى الناشر بعد أسبوع، وعندي أسئلة لكِ عن حياتك. قلتُ لها: لكنَّك يا أديل أكملتِ هذا الفصل عن تاريخ حياتي منذ شهور؟ نعم يا نوال لكن عندي بعض الأسئلة الجديدة. مثل ماذا يا أديل؟ السؤال الأول كيف تكتبين؟ والسؤال الثاني لماذا تكتبين؟ أووووهووو يا أديل ألَمْ أردَّ أكثر من مرة على هذه الأسئلة؟ وضحكت أديل، نعم يا نوال لكنِّي لم أدوِّن إجابتك وقتها. أتتذكرين؟ كنَّا نأكل اللوبستر المشوي ولم يكن معي دفتر مذكراتي، أووهووو يا أديل لقد نسيتُ ما قلتُه لك، وانفجرنا في الضحك.

هناك متعة لا شكَّ في أن يتحدَّث الإنسان عن نفسه، خاصة هؤلاء المصابين بالنرجسية، فكيف أن يؤلِّف الآخرون كتبًا عنهم؟ لم يكن هذا أوَّل كتابٍ بالإنجليزية عن حياتي وأعمالي. مع كل كتابٍ كنت أشعر بلذَّة التحقُّق، تشبه لذَّة الإبداع والكتابة ذاتها، ثم تكرَّرت هذه اللذَّة خلال السنين العشرين الأخيرة. في التكرار تضيع لذَّة الأشياء لتصبح عادية مثل الحياة الزوجية. يُولِّد التكرار نوعًا من الملل يشبه الحزن الغامض. دائمًا يراودني الحزن لحظة الفرح، لحظة استلامي الجائزة الدولية أو درجة الدكتوراه الفخريَّة، وأنا أصعد إلى المنصَّة لتلقِّي الجائزة يثقل قلبي بالحزن، أبتلع الدموع خلسة حتى لا يراها أحد. بعض الناس يقولون إنَّها دموع الفرح، لكنِّي أُدرِك في أعماقي أنَّه الحزن، ربَّما لأن أبي وأمي ماتا قبل أن يشهدا نجاحي، أو قبل أن أُسدِّد لهما ديوني، أو ربَّما يساورني الشكُّ في الجائزة أنَّ النجاح ذاته يبدو فشلًا يتنكَّر على شكل النجاح، وحزنًا يتنكَّر على شكل الفرح، أو أنَّ هذا الاحتفال الكبير أو الفوز العظيم ليس إلَّا لحظة خاطفة مصيرها الموت، مثل كل شيء في الحياة. كانت فكرة الفناء المحتوم تتملَّكني، تقبض على روحي، مثل عزرائيل. أوَّل مرَّة في حياتي أسمع اسم عزرائيل من جدَّتي، كنتُ في الخامسة من العمر، أري جدَّتي صاحية في الليل جالسة في السرير، وأسألها لماذا لا تنام؟ تقول جدَّتي: عشان لمَّا عزرائين ييجي يلاقيني صاحية يسيبني ويروح لغيري يقبض على روحهم! ثم ماتت جدَّتي رغم صحيانها ونصاحتها، لكنها ماتت منتصبة بقامتها الفارعة كالشجرة. لماذا تلوح لي جدَّتي دائمًا في الحلم واليقظة وأنا بعيدة عنها بآلاف الأميال في المكان والزمان؟ وكنت أنساها وهي إلى جواري تجلس في السرير؟

ذكرياتي ومذكِّراتي بعيدًا عن الوطن والأهل

١

صيف عام ٢٠٠٩م

قضيتُ شهور الصيف في تلك القرية داخل أشجار الغابة في ولاية جورجيا الجنوبيَّة، أقرب مدينة إليَّ على بُعد عشرين ميلًا، أذهب إليها أحيانًا لشراء ما أُريد من السوق، أو لمجرَّد رؤية البشر، أو سماع أصواتهم. هنا لا أسمع إلا تغاريد العصافير في الصبح وعواء الذئاب في الليل، ونقيق الضفادع، ووقع أقدام الغزلان الخافتة السريعة فوق الأرض، أو حفيف زحف «البيفر» من النهر إلى الشاطئ، ثم التهام السمك في البُحيرة الصغيرة. يشتغل بعض أهل القرية بالزراعة، الخضراوات والفواكه بكل أنواعها. بعضهم يعمل بالصيد، الغزال في الغابة، أو الأسماك في الأنهار، والبحيرات الطبيعية أو الصناعية، يحفر الناس الأرض ويملئونها بالمياه من الأنهر، تصبح بحيرة أو مزرعة لتربية الأسماك، يحمل الصيَّادون البنادق الحديثة، يسهُل بها التصويب على الغزالة. إصابة الهدف أصبحَت سهلة بتلك البنادق المتطوِّرة. هناك دائرة داخل البندقية تُحدِّد نقطة الهدف بالضبط. صوَّبتُ البندقية ذات يوم إلى عنق الغزالة وضغطتُ على الزناد، سقطت الغزالة إلى الأرض تنتفض في أنفاسها الأخيرة. تلك الليلة أصابني الأرق، لم تغادر مخيلتي عينا الغزالة الجاحظتان دهشة لاكتشاف الموت. لحم الغزالة الشاردة في الغابة أَلذُّ لحم، كلما كانت الغزالة شاردة زاد لحمها لذَّة، مثل كل حيوانات الغابة وطيورها. الديوك الروميَّة والفراخ البرية المتوحِّشة، أي كائنٍ حي طليق حر في الغابة، يصبح لحمه القوي المشدود أكثر لذَّة،

ليس مثل اللحم الطري لتلك الكائنات المستأنسة، تسري سموم الخضوع والمذلَّة والاكتئاب في دمها، مثل جسد النساء المرتخي المتهدِّل، سجينات البيوت، الخاضعات لسلطة الذكور وقانون الاحتباس.

توقَّفتُ عن أكل اللحوم بكل أنواعها، البرية أو المستأنسة، منذ رمقَتْني الغزالة المقتولة بعينَيها المشدوهتَين الجاحظتَين، هاتان العينان رأيتهما من قبلُ في طفولتي، عينا الخروف المذبوح في حمَّام بيتنا، ونحن الأطفال من حوله نهلِّل بفرحة العيد. أيُّ عيد؟ وأيُّ طفولة؟ تبتهج بمشهد الذبح والدمِ المُراقِ فوق البلاط؟ طاردَتْني هاتان العينان في طفولتي، نغَّصت عليَّ حياتي، لكنِّي لم أتوقَّف عن أكل لحم الخروف حتى اليوم. هل ينتمي الخروف إلى فصيلة الحيوان المباح أكلها، وينتمي الغزال إلى فصيلة أرقى؟ هل الحرية والكرامة والانطلاق في الغابة ترفع من قيمة الحيوان فيصبح أكله عملًا غير إنساني؟

هل المرأة (أو الرجل) الطليقة المطلَّقة الحرة، أكثر كرامة وإنسانيَّة من تلك الحبيسة الخاضعة الخانعة؟

تراودني الأفكار المتمردة وأنا أمشي في الغابة، تنتقل عدوى الجموح من الحيوانات البرية إلى جسدي، أدبُّ بحذائي القوي، له كعبُ حديدي، أدقُّ بكعب البندقية على الارض، يُكسِب السلاحُ القاتل شجاعة وإقدامًا، إن اعترض طريقي كلبٌ متوحِّش أو حيوانٌ مفترس يمكن أن أصوِّب السلاح إلى رأسه. ألهذا تحتل التجارة بالأسلحة المرتبة الأولى في مكاسب الرأسماليَّة الاستعمارية؟ ألهذا تحكُم العالمَ الطبقي الذكوري القوةُ المسلَّحة وليس العدل؟ ألهذا تمتنع كثير من النساء (الفيمينيست) المتحرِّرات عن أكل اللحوم؟

أصبَحتُ ضمن هؤلاء الممتنعات عن أكل اللحم، تعففًا عن قتل الحيوان أو الطيور أو حتى الأسماك، لي صديقات من الفيمينيست لا يأكلن بيض الفراخ تعففًا عن قتل أيِّ شيءٍ حيٍّ، وماذا تأكل هؤلاء النساء؟ يأكلن الخضراوات والنباتات، لكن أليست هذه أيضًا كائناتٍ حيَّة؟

هؤلاء الصديقات يذكِّرنني ببعض الناس في الهند، من المذهب الجيني، الذي يُحرِّم قتل أيِّ كائن حيٍّ، وإن كان من فصيلة الهاموش. رأيتهم يسيرون في شوارع الهند، يرتدون فوق أنوفهم كمامات، ليس حماية لأنفسهم من الهاموش أو الفيروسات الحية، بل لحماية الفيروس أو الهاموش من الموت داخل أنوفهم. أهذه درجةٌ أعلى من الإنسانية أم هو الجنون بعينه؟

لكنَّ الجنون أنواع، هناك قوانينُ غير معقولة في عالمنا الرأسمالي الأبوي، بمعنى أنَّها قائمةٌ على الظلم والكيل بمكيالَين، أو الازدواجية. مثلًا عقاب الشعب الضعيف المسالم واحتلاله، التضامن مع الدولة القوية العنصرية الظالمة، إباحة العلاقات الجنسيَّة المتعدِّدة للرجال وتحريمها على النساء، عقاب الطفل غير المعروف الأب بأن يُطلَق عليه لقب «غير شرعي»، «ابن حرام»، إعطاء اسمِ الأب حقَّ الشرف والشرعيَّة وعدم إعطائه لاسم الأُم، رغم أن الأُمَّ هي التي تهَبُ حياتها للطفل وترعاه.

أغرب قانون عرفتُه هو قانون صيد الغزلان في ولاية جورجيا، السائد في أمريكا وبعض بلاد أوروبا. يُبيح القانون اصطياد الغزلان وقتلها وأكلها لحمًا شهيًّا، لكنَّ القانون ذاته يحرِّم خداع الغزلان قبل قتلها، كأنَّما الخداع جريمةٌ أشدُّ من القتل. خداع البشر مُباح في ظلِّ هذا النظام الرأسمالي الاستعماري، لكنَّ خداع الحيوانات غير مباح. تتمتَّع الكلاب والقطط المستأنسة في البيوت بحقوقٍ أكثر من الفُقراء من البشر، يُحرَّم على الصيادين وضع الذرة على الأرض لإغراء الغزلان بالإقبال عليها لأكلها، فيتمكَّن الصيَّادون من اصطيادها بالبندقية. ليس من الإنسانية خداع الغزلان قبل قتلها والتهام لحمها. أخلاق الرجل الأرستقراطي الجنتلمان، ينحني للمرأة قبل اغتصابها، القيم الزائفة للرأسمالية الذكورية.

الغريب أيضًا أنَّ القانون ذاته يُبيح للصيَّادين زرع الذرة في أرض الصيد؛ لأنَّ الزراعة عملٌ طبيعي، أمَّا نقل الذرة إلى أرض الصيد فهذا عملٌ مصنوع ينطوي على الخداع! ويُبيح القانون أيضًا قطع الشجر والحشائش الطويلة من أرض الصيد، حتى لا تختفي فيها الغزلان، ويسهُل على الصيَّادين اقتناصها وتصويب الرصاص إلى رأسها، فهل قطع الأشجار عملٌ طبيعي؟ يتلاشى المنطق من أغلب القوانين الطبقيَّة الأبويَّة؛ فالاستغلال أو الظلم يقتضي غياب المنطق. ألهذا لا يتكاثر في هذا الزمن مثل أعداد الكنائس والجوامع والسيناجوجات، وتزداد أصوات رجال الأديان ارتفاعًا في الأبواق الإعلاميَّة والمزامير؟

تذكَّرتُ، وأنا أمشي في الغابة، كيف تكون الحيوانات أكثر إنسانيَّة من البشر، الأسد لا يُقدِم على افتراس الحيوان الأضعف إلا إذا كان جائعًا، لكنَّ الرأسماليِّين الذكوريِّين يفترسون الشعوب الأضعف بسبب الجشع وتكويم الأموال وليس بسبب الجوع. ذكور الحيوانات لا تؤدِّب إناثها بالضرب، كما يفعل الرجال من البشر، لكنَّ خبرًا من الرياض بالسعودية قرأته في النت يوم ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٨م، يقول:

بعد يومٍ واحد من إعدام رجلٍ سعودي ضرب زوجته حتى ماتت، أفتى الشيخ «عبد المحسن العبيكان» المستشار بوزارة العدل السعودية بأنَّه: يجوز للمرأة، دفاعًا عن

حياتها، أن ترد عنف زوجها بالعنف، إن حاول قتلها، وإن كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياتها، وهذا جائز شرعًا حسب حكم «دفع الصائل»؛ فأيُّ إنسان إذا صال عليه صائلٌ كوحش الغابة الأسد أو السبع أو حتى إنسان، له أن يدافع عن نفسه حتى لو وصل الأمر لقتل الصائل إن حاول قتله.

لكن أيحتاج هذا الجرُم البشع إلى فتوى الشيخ في عام ٢٠٠٨م من القرن العشرين؟ كل المواثيق والقوانين، في كل بلاد العالم، تُشرِّع حق الدفاع عن النفس، ولا يُعتبر القتل جريمة في حالة الدفاع عن النفس. أمَّا المرأة فلم تكن إنسانة في القانون الشرعي السعودي، وكم من أزواج قتلوا زوجاتهم ضربًا وتأديبًا، دون أن ينال الزوج أيَّ عقاب!

في العالم الأبوي الرأسمالي الحديث وما بعد الحديث، في الشرق والغرب، الإسلامي أو المسيحي اليهودي، لا تشمل حقوق الإنسان حقوق النساء؛ لأنَّ المرأة في هذه الأديان السماويَّة أقل من الرجل. يحمل الأطفال في كل هذا العالم اسم الأب، ما عدا القلَّة من البلاد التي بدأَت تُعطِي الأطفال حقَّ الانتساب إلى الأم، كعلاجٍ لمشكلة الأطفال بدون أب، أو ما يُطلق عليهم في بلادنا «الأطفال غير الشرعيِّين»؛ هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين يعاقبهم النظام الأبوي، بدلًا من عقاب أبيهم. الجاني هنا هو الأب الذي يخدع الفتاة الصغيرة الغريرة باسم الحب، ثم يهرب منها ومن طفله المولود، عقاب الضحيَّة وإطلاق سراح الجاني هو الأساس الأخلاقي، أو الأصح اللاأخلاقي، لهذا العالم الذي نعيش فيه.

يسري هذا القانون غير الأخلاقي، الموروث منذ العبوديَّة، على الأفراد والجماعات والدول. لا يُقدَّم إلى المحاكمة مجرمو الحرب في الدول الاستعماريَّة الكبرى، أو توابعها في دولة إسرائيل، بل يُطلَق سراحهم ليمرحوا في نعيم الدنيا، يُكرِّرون جرائمهم على مدى السنين والعقود والقرون.

أعطَتْني أنجيل، صديقتي المصريَّة في جورجيا، كتابًا بالإنجليزية عن الإسلام صدر عام ٢٠٠٨م، قالت «هذا الكتاب مدهش يا نوال، رغم أنَّني مسيحيَّة ولست مسلمة، لكنَّه يدافع عن روح الإسلام، وروح الأديان جميعًا.» أعجبني الكتاب لأنَّه يرفض التطرُّف أو العنف ويدعو إلى حريَّة الأديان. مؤلِّف الكتاب اسمه «طارق فالح» من باكستان، ينال الكتاب الكثير من أضواء الإعلام، وتُنشر عنه المقالات في الصحف في أمريكا وكندا وأوروبا، مثلما يحدث لهذه الكتب المنتشرة في السوق الحرة، من تأليف نساء ورجالٍ مسلمين، أصبحوا نجومًا في سوق الإعلام الرأسمالي الأبوي، أذكر منهم طارق رمضان (مصري)، أيان هرسي علي (من الصومال)، رشاد منجي (من كندا) وغيرهم.

يقول المؤلِّف طارق فالح في مقدِّمة كتابه: «تاه المسلمون في صحراء سيناء، دون أن يقودهم سيِّدنا موسى خارج التيه، يُسبِّب المسلمون لأنفسهم الآلام والجروح، هم السبب وراء مشاكلهم وأزماتهم وليس مؤامرات الصهيونيَّة وبلاد الغرب.»

هكذا يتجاهل هذا المؤلِّف أثر الاستعمار الأمريكي الأوروبي الإسرائيلي، على بلادٍ مثل فلسطين والعراق وباكستان وأفغانستان والصومال والسودان وغيرها، كأنَّما الاحتلال العسكري الاقتصادي لهذه البلاد غير موجود، أو لا علاقة له بالمشاكل الداخلية، كأنَّما الداخل ينفصل عن الخارج، أو أنَّ السلطة الخارجيَّة تنفصل عن السلطة المحلية. كأنَّما الحروب الدينية الطائفية ليست غطاءً للحروب الاقتصادية والسياسيَّة أو جزءًا منها. يخضع هذا المؤلِّف وأمثاله من المؤلِّفين (عن وعي أو غير وعي) للفكر الأبوي الرأسمالي.

يُدين الشعبَ المسالم ضحيَّة العدوان، ويتجاهل القوة الباطشة الاستعماريَّة. يُدين الحكومة المحلية التابعة للقوى الخارجيَّة. يُدين عنف الإسلاميِّين ويتجاهل عنف المسيحيِّين واليهود. يفصل بين الكتب السماويَّة المنزلة من عند الله، والأحكام والقوانين العامَّة والخاصَّة المُستمدة من هذه الكتب المقدَّسة.

هذا الفصل بين الأشياء غير المنفصلة يؤدِّي إلى الجهل والتعمية عن الحقائق الواضحة؛ وبالتالي الخضوع للقوى الباطشة، أو الانخراط في معاركَ جانبيةٍ فاشلة، وصراعاتٍ طائفيَّة ودينيَّة، تُخطِّط لها القوى المسيطرة داخليًّا وخارجيًّا، «فرِّق تسُد» هو مبدأ الاغتصاب والظلم والقهر.

لا يمكن لنا أن نُبرِّئ المسلمين (أو غيرهم) من أخطائهم، وخضوعهم للسلطات الحاكمة دينيًّا وسياسيًّا. لا يمكن لأيِّ شعب أن يتحرَّر من القهر الأجنبي دون التصدي للقهر الوطني المحلي، كلاهما وجهان لعملةٍ واحدة. القهر الأجنبي لا يتحقَّق دون التعاون مع القهر الوطني (القهر الوطني استعمار أيضًا، كذلك القهر العائلي). لا يمكن للنساء التحرُّر من قهر الدولة دون التحرر من قهر الرجال داخل الأسرة. هذا أمرٌ منطقي، فكيف أحارب اللص الذي يدخل بيتي إذا كانت الأغلال الحديديَّة تحوط جسدي فلا أستطيع الحركة؟ وكيف يفكِّر عقلي منطقيًّا إذا كان يتغذَّى كل يوم بكتب وأفكارٍ غير منطقيَّة؟

هكذا تلعب مثل هذه الكتب دورًا في إجهاض حركات المقاومة الشعبيَّة الصحيحة، في الانحراف بها إلى معاركَ غيرِ صحيحة، ومنها المعارك التي تتمُّ تحت اسم الإسلام أو المسيحيَّة أو اليهوديَّة، أو أي شعارٍ ديني. لا تؤدِّي هذه المعارك الزائفة إلا إلى مزيد من التعصُّب الديني، ومزيد من الحروب والصراعات الطائفيَّة، وتبقى الأرض محتلَّة أو يزداد الاحتلال والاغتصاب، والنهب لثروات الشعوب ضراوة.

ألم تؤدِّ المقاومة الإسلامية في فلسطين إلى مزيد من الاحتلال الإسرائيلي العسكري والاقتصادي للشعب الفلسطيني؟ ألم تكن إسرائيل هي التي شجَّعت المقاومة الإسلامية (حماس) لضرب المقاومة الشعبيَّة الوطنيَّة (فتح)؟ ألم تؤدِّ المقاومة الإسلاميَّة في العراق إلى مزيد من الفشل في تحرير العراق، أكثر من القوى الباطشة خارجيًّا وداخليًّا؟ ألم يشجِّع الاحتلال الأمريكي الانشقاق بين السُّنَّة والشيعة في العراق؟ ألم تشجِّع أمريكا «بن لادن والقاعدة» لضرب السوفييت؟ ألم تشجِّع أمريكا حكم «الطالبان» في أفغانستان لتقسيم الشعب وانحراف المقاومة عن أهدافها للتحرُّر إلى الحرب ضد النساء، وحرق جلودهنَّ بالنار لعدم ارتداء الحجاب؟

أليست المعارك المحلِّية والدولية حول «حجاب المرأة» هي الفخ المنصوب، لإجهاض المقاومة الشعبيَّة وإشعال الصراعات الدينيَّة بينها؟

وكم من الملايين تُنفق لنشر الكتب الدينيَّة، البشريَّة منها والإلهية على حدٍّ سواء! في غرفتي في كل فندق أنزل فيه أجد كتابًا واحدًا على الأقل من كتب الله، داخل الدرج في الدولاب، إلى جوار الشامبو والصابون المعطِّر. يترابط العطر الزكي بالله وكتابه المقدَّس، أينما نذهب تلاحقنا كتب الله، والكتب الأخرى المشجِّعة للأديان، التي انتشَرت في السوق الرأسمالية الحرة مثل الفيروسات الجديدة، على حين تُصادَر الكتب العلمية الجادَّة العميقة التي تحارب الخزعبلات السياسيَّة والدينيَّة معًا دون انفصال.

قرأتُ في النت، صباح ٢٣ يوليو ٢٠٠٩م، خبرًا عن عقد مؤتمرٍ شعبي بالقاهرة، لرفض توريث الحكم في مصر لجمال بن حسني مبارك (الذي حكم مصر ثلاثين عامًا تقريبًا منذ ١٩٨١م)، وإلغاء المادَّة ٧٦ من الدستور، وإنقاذ الشعب المصري من الاستعمار الأمريكي الإسرائيلي الجديد، في ظلِّ حكم السادات الذي امتدَّ إلى حكم مبارك. فقدَت مصر استقلالها السياسي والاقتصادي، أصبحَت مستعمرة أمريكيَّة إسرائيليَّة. تمَّ تحويل الشعب المصري إلى أمَّةٍ جاهلة، محجَّبة العقل والوجه، لا تقرأ إلا المصحف الشريف. أصبحَت أمَّة مريضة بالقلب والسكَّر والفشل الكلوي، إضافة إلى الفشل الكبدي، بسبب انتشار فيروس سي، أعلي نسبة إصابة بفيروس سي في العالم هي في مصر، (١٥٪ من الشعب المصري يُصاب بالسرطان بسبب انتشار فيروس سي). يموت الشباب مبكِّرًا في مصر بسبب فيروس س. تُنفق الأموال لطبع الملايين من المصاحف والكتب الدينيَّة وبناء الجوامع والكنائس (وترميم سيناجوج اليهود القديم في وسط القاهرة) ولا تُنفق لتحسين صحَّة الشباب والفقراء، أو تطوير المدارس المتهاوية الأبنية والمناهج، القائمة على تحفيظ القرآن وغرس الخزعبلات في عقول الأطفال والتلاميذ.

كنتُ أتمشَّي في غابة جورجيا، خلال صيف ٢٠٠٩م، أتأمَّل الأشجار ومياه النهر الجارية بين الشجر. لفتَت نظري أشجارٌ ساقطة فوق سطح الماء، تصوَّرت أنَّها سقطَت بفعل العواصف القويَّة أو التورنيدو أو الهوريكين، لكنِّي علمت من أهل القرية شيئًا أدهشَني، حيوان البيفر (كلب البحر) هو الذي يَقرِض الشجرة من أسفل الجذع، يقرضها ويقرضها، اليوم وراء اليوم، دون كلَل أو ملَل، حتى تسقط الشجرة على سطح الماء، يجمع البيفر حولها الأغصان المقروضة والحشائش، ليصنع لنفسه تحت الشجرة بيتًا منيعًا، ينام فيه آمنًا داخل النهر.

لا شكَّ أنَّ عقل البيفر يشتغل على نحوٍ إبداعي، لا يقلُّ إبداعًا عن عقل الإنسان، بل قد يتفوَّق عقل البيفر، (له ذيل سمكة ورأس كلب وأرجل بطَّة)، عن عقول البشر في أفريقيا الذين خدعهم الاستعمار وأعطاهم كتاب الله وأخذ منهم الأرض والنهر والذهب في بطن الأرض.

تذكَّرتُ أنَّني كنتُ أقود سيارتي عَبْر شوارع القاهرة في حيٍّ إمبابة. كانت الدنيا ليلًا، لفت نظري إعلانٌ كبير تحوطه لمبات النور، فوق منارةٍ عالية لجامعٍ كبير، قرأت على الإعلان هذه العبارة المأخوذة من كتاب الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. لا عجب أنَّ القصص عن الجانِّ والعفاريتِ غزت عقول الكبار والأطفال، منذ الصحوة الدينيَّة تحت حُكم السادات في مصر، ورونالد ريجان في أمريكا. إذا كان الله يؤكِّد في كتابه الكريم عن وجود الجنِّ فهل يُنكر وجوده البشر؟ وإذا كان الهدف الوحيد من خلق الجنِّ والإنس (البشر) هو عبادة الله فهل يفكِّر الناس (والعفاريت من الجنِّ) إلا في الصلاة والصوم؟

ألهذا تنتصر علينا العقول الأخرى في أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، فهي مشغولة باختراع الأسلحة الجديدة التي تفتك بنا، وقنابل الليزر، والرءوس النوويَّة، بينما نحن نصلِّي لله ونخفي رءوسنا بالحجاب أو تحت الرمال.

الوجع في قلبي يشتدُّ على مصير بلادنا. تتحالف القوى الخارجيَّة والداخليَّة على إغراقنا بالخزعبلات. تعمل وسائل الإعلام وأنظمة التعليم على تجميد عقولنا، عند القرون الوسطى أو العصر العبودي. لا يؤرِّق مضاجع السلطات السياسية والدينية إلا المفكِّرون من النساء والرجال، أصبح تشغيل العقل هو جريمة العصر في بلادنا.

ذكريات ومذكِّرات بعيدًا عن الوطن والأهل

٢

صيف ٢٠٠٩م

القرية في غابة جورجيا.

أتمشَّى في الغابة، مستمتعة بالخضرة القويَّة المرويَّة بسيول الأمس. أسمع أصوات الحيوانات عن بُعد، تعود أفكاري إلى الماضي والحاضر والمستقبل. أقول لنفسي: استغرقي يا نوال في متعة اللحظة الحاضرة، هنا والآن هي الحقيقة، وغيرها وَهْم. أيكون الماضي ميتًا والمستقبل غير موجود؟ لكنَّ خيالي يسبح في الزمن كيفما شاء، لا يفصل بين الحاضر والماضي والمستقبل. رأيتُ أرنبًا يقفز من بين الأشجار إلى الطريق، تذكرتُ فجأة جورج بوش الابن، لا أدري ما الشبه بينه وبين الأرنب، ربَّما الرأس أو العينان أو الأذنان، أو لا شيء من الملامح، بل حركة الجسم، الاندفاعة المسرعة من المخبأ إلى مجال الرؤية، امتزاج الخوف بشجاعةٍ كاذبة تشبه التهوُّر. يرتعد الأرنب ذُعرًا، رغم اندفاعته السريعة في عرض الطريق، بالضبط بجوار قدمي توقَّف يلهث، كان يمكن أن أرفع العصا وأضربه. بالأمس رأيتُ جسد أرنب ممزَّق في عرض الطريق، أيكون الأرنب من الحيوانات الغبيَّة؟ يدفعه الغباء والجبن إلى المغامرة الفاشلة؟

رأيت جورج بوش ينحني ذعرًا حين طارت فردة الحذاء في الجو، مثل قذيفة كادت تُصيب رأسه. ضحك العالم لهذه الصورة التي نشرَتْها الكاميرات إلى بقاع الأرض. الحذاء التاريخي في القرن الواحد والعشرين، يتَّجه بوزه إلى رأس الإمبراطور الأمريكي، الكاوبوي المتغطرس، صبي الحرب الذي يلعب بالنارَيْن: الدين والسلاح النووي، الله والمسيح في خدمة السلاح، والسلاح في خدمة الله والمسيح، ويحتلُّ جورج دابليو العراق تحت اسم

الحضارة والديمقراطيَّة وحقوق المرأة. ينافس الفيمينيست في تحرير المرأة العراقيَّة من الدكتاتور صدَّام حسين. تمَّ قتل صدَّام حسين بالسلطة الأمريكية، أهناك سلطةٌ تعلو على الدكتاتور جورج بوش لتقتله؟ المحكمة الدولية؟ الأمم المتَّحدة؟ مجلس الأمن؟ أيُّهما يعلو على الآخر: السلاح الأمريكي أم القانون الدولي؟

أضحكَت أكاذيب جورج العالم شرقًا وغربًا، منها تصريحه الشهير عن الأزمة الغذائية في العالم عام ٢٠٠٨م، كانت أسباب الأزمة ما يلي:

(١) تحويل الأموال لتمويل الحروب الاستعماريَّة الجديدة في العراق، وما سُمِّي الشرق الأوسط، بدلًا من إنفاقها في التنمية الزراعية وإنتاج الغذاء.

(٢) اشتداد سطوة الاستعمار الأمريكي الأوروبي الإسرائيلي الجديد، وشراسة العولمة من أعلى.

(٣) السياسة الرأسمالية الأمريكية وتحويل المساحات الكبيرة من الأراضي لإنتاج الوقود والإيثانول، بدلًا من الإنتاج الزراعي.

(٤) تزايد الجشع والفساد للشركات المتعدِّدة الجنسيَّات وانفلات السوق الحرَّة، تحت اسم الحرية، والبورصات والبنوك الكبرى والشركات التي صعدَت فوق القانون والمحاسبة.

كان من نتيجة ذلك تزايد الهوَّة بين الفقراء والأغنياء في العالم، وازدياد الأزمة الاقتصاديَّة وأزمة الغذاء.

تجاهل جورج بوش كل هذه الحقائق، وأعلن، يوم ٨ مايو ٢٠٠٨م، أنَّ أزمة الغذاء نتجت عن ازدياد شهيَّة أهل الصين والهند الفقراء للأكل، بعد أن تحسَّنت صحَّتهم مع زيادة دخلهم، ممَّا أدَّى إلى ارتفاع أسعار الأغذية.

ردَّ الهنود على جورج بوش قائلين: يأكل الفرد الأمريكي الواحد خمسة أضعاف ما يأكله الفرد الهندي. وإن أكل الهنود مثلما يأكل الأمريكيون فسوف يضطر العالم إلى زرع الأغذية فوق القمر والكواكب في السماء. ثم انتشرت صورة كاريكاتيريَّة عن عدد من السيَّاح الأمريكيِّين: القطط السمان يشيرون إلى عددٍ من الهنود الفقراء الشديدي النحافة يبحثون عن بقايا طعام في كومٍ من القمامة. ويقولون في ضيق: لا عجب أنَّنا نعاني في أمريكا أزمة في الغذاء، لأنَّ هؤلاء الهنود يأكلون أكثر من اللازم!

قانون الغابة يسود العالم، يعتمد على تجهيل الناس ونشر الأكاذيب، بلسان رؤساء الدول، باراك أوباما أرقُّ صوتًا من جورج بوش، أكثر ذكاءً، يعرف كيف يدغدغ مشاعر

الناس بكلماتٍ معسولة. كم تحدَّث عن نزع السلاح النووي من العالم! لكنَّه لم ينزع سلاحه النووي في أمريكا ولا في إسرائيل. الوكالة الدوليَّة للطاقة الذرية لم تفتِّش عن السلاح النووي في إسرائيل أو أمريكا، كما فتَّشت عنه في العراق أو كوريا الشماليَّة أو إيران. النظام الدولي الراهن المقيد لانتشار الأسلحة النوويَّة يفتقد النزاهة والعدالة، يخضع للقوَّة المسيطرة بالسلاح. تحكمه الازدواجيَّة الأخلاقيَّة والكيل بمكيالَين مثل الأمم المتَّحدة ومجلس الأمن ومحكمة العدل الدوليَّة في لاهاي بهولندا. الدول النوويَّة في العالم تمتلك ٢٧ ألف رأسٍ نووي، تنال الدول النوويَّة كل الاحترام، لا يمكن غزوها أو سحقها، كما حدث للعراق وفلسطين. تمَّ سحق العراق وفلسطين لأنَّهما لا يملكان أسلحةً نوويَّة. إسرائيل تتحدَّى الأمم المتَّحدة وترفض تنفيذ قراراتها بسبب قوَّتها النوويَّة. أمريكا تتحدَّى العالم وتخرق القانون الدولي بسبب سلاحها النووي.

حصل المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية على جائزة نوبل للسلام، أَلِأنَّه لم يُعطِ أوامره بالتفتيش على السلاح النووي في إسرائيل وأمريكا، كما فعل مع البلاد الأخرى؟

من يحكم جائزة نوبل للسلام؟ أهي قوَّةٌ ما خارقة للنظام الرأسمالي النووي الدولي الحاكم؟

ما علاقة الله بالقوَّة النوويَّة في العالم؟ هل يقف معها ضد الشعوب الضعيفة ضحيَّة العدوان؟ هذا الصيف، خلال شهر يوليو ٢٠٠٩م، خرجت الجماهير في مظاهرات حاشدة ضد الحكم الإسلامي في إيران. سار الرجال والنساء في شوارع طهران يهتفون: يسقط حُكم الملالي، يسقط الحكم الديني، أبعدوا الله عن قوانين الدولة. ثلاثين عامًا عانى الشعب الإيراني الويلات في ظلِّ الحكم الإسلامي، عَبْر الإنترنت سمعت ملايين الأصوات في شوارع طهران تصرخ: يسقط الحكم الإسلامي والاستعمار الأمريكي البريطاني الإسرائيلي.

قلتُ لصديقتي الإيرانية أذار: زرتُ إيران ثلاث مرَّات قبل حكم الخميني عام ١٩٧٩م، قابلتُ الكاتب جلال آل أحمد (قبل موته بعامٍ واحد)، وعددًا من المفكِّرين ومن الشباب والشابَّات في الجامعة. كانت ثورة شعبيَّة على وشك الحدوث في إيران، تطيح بالشاه والقوى الاستعماريَّة المساندة له. ثورة اجتماعيَّة اقتصاديَّة تُحرِّر إيران من القهر الطبقي الأبوي؟ ربَّما بدأ الدكتور مصدق هذه الثورة الاشتراكيَّة بتأميم البترول الإيراني، قبل أن تخطِّط المخابرات الأمريكية لإسقاطه عام ١٩٥٣م. تخشى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحلفاؤها الثورات الاشتراكيَّة الشعبيَّة، تُحاول إجهاضها بالمؤامرات والانقلابات العسكريَّة

أو الدينيَّة، وقد تمَّ إجهاض الثورة الاشتراكيَّة في إيران بواسطة الخميني والحكم الديني. ساعدَته في ذلك القوى الخارجيَّة في أوروبا وأمريكا. خدم الخميني الاستعمار الخارجي أكثر ممَّا خدم الإسلام، بالضبط كما يفعل الحكم الإسلامي في السعوديَّة. لا يخفى على أحدٍ كيف لعبت السعوديَّة والتيَّارات الإسلاميَّة (المموَّلة والمسلَّحة أمريكيًّا) دورًا رئيسيًّا في ضرب القوى الاشتراكيَّة في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، وفي الحرب ضدَّ السوفييت في أفغانستان خلال الثمانينيات.

قالت أذار: هربتُ من إيران قبل أن يقتلني الخميني، كما قتل كل المعارضين له من اليسار أو اليمين أو الوسط، أو الإسلاميِّين من المذاهب أو الأفكار الأخرى. خُدعنا جميعًا بشعارات الثورة عام ١٩٧٩م، «الاستقلال، الحرية، الجمهورية» تحوَّلت من ثورةٍ جماعيَّة شعبيَّة، إلى حكم الوليِّ الفقيه الفرد، يستمد مشروعيَّته من الله لا من الشعب. أراق الخميني وأتباعه دماء الشعب تحت اسم حكم الله. لا أدري كيف يصمتُ الله على هذه الجرائم التي تتمُّ باسمه، هذا الصمت الإلهي مُريب، يُشكِّك الكثيرون في وجود الله. كم من الشباب والشابَّات ماتوا في السجون، منهم ثلاثة من عائلتي! لا يخلو بيت في إيران من الأحزان على القتلى في السجن أو في الحرب ضدَّ العراق، لا يخلو حيٌّ من شارع يحمل اسم شهيد.

كنتُ أصلِّي وأصوم رمضان، لكنِّي توقَّفتُ عن كل ذلك، بل امتدَّت شكوكي إلى كل الأديان. اكتشفتُ الخديعة الكبرى التي يعيشها الناس. ابنة خالتي، الطالبة بجامعة طهران، لم تكن بلغَت التاسعة عشرة من عمرها، اغتصبها الحرس الإسلامي في السجن، قبل إطاحة رأسها بالسيف، لاعتقادهم أنَّ المرأة إن ماتت وهي عذراء تدخل الجنَّة. عثَر الحرس الإسلامي في يومٍ على جثَّة رجل في الطريق، حفروا له مقبرة، اتَّضحَ لهم قبل دفنه أنَّه حليق ليس له اللحية الإسلاميَّة، جلدوه خمسين جلدةً ثم دفنوه.

قلتُ لها: يا أذار، حيوان «البيفر» في الغابة له عقلٌ أكبر من بعض الرجال في القرن الواحد والعشرين، فما بالُكِ بالقرون الوسطى؟ في الإنترنت هذا العام ٢٠٠٩م في ١٤ يوليو، نُشر خبر عن صحافيَّة في السودان اسمها لبنى أحمد الحسين و١٢ فتاةً أخرى معها، يواجهن عقوبة الجلد، ٤٠ جلدة لكل فتاة. وجَّهت إليهنَّ السلطة الحاكمة تهمة الخروج على الشريعة الإسلامية، لارتدائهنَّ البنطال (البنطلون).

قالت أذار: الحكم الإسلامي في إيران أو السودان أو أيِّ بلدٍ آخر يعاني من وباءٍ أخطر من إنفلوانزا الخنازير. لا شكَّ أنَّ فيروس الخنزير له عقل وأخلاق أفضل من هؤلاء

الطغاة الذين يحكمون باسم الله. لماذا يُحوِّل الله بصره عن المذابح في العراق وفلسطين وإيران ولا ينظر إلا إلى أجساد النساء وما يلبسن؟ أهي عين الله أم عيون الرجال الذكور مندوبيه على الأرض؟

وأضافت أذار: من أجل حماية المرأة من عيون الرجال، يفرضون عليها الحجاب. يقولون إنَّه أمر الله، لكنَّ المفروض أن يأمر الله بتحجيب عيون الرجال، وليس تحجيب النساء، أليس هذا هو المنطق أو العدل؟

البابا شنودة في مصر، يوم ٧ سبتمبر ٢٠٠٧م، حين سأله أحد الرجال: هل ملابس الفتيات المسيحيات (غير المحجَّبات) تؤدِّي إلى العثرات والخطايا؟ ردَّ عليه البابا شنودة: المسيح لم يقل إنَّ عثرتك امرأة، بل قال إنَّ عثرتك عيناك. لكن المسيحيَّة لا تقل قهرًا للنساء عن الإسلام، أمَّا اليهوديَّة فهي أكثر الأديان قهرًا للمرأة. لو قرأتِ التوراة يا أذار لعرفتِ ذلك.

تحمل أذار الجنسيَّة الأمريكيَّة، هربَت من إيران منذ ثلاثين عامًا إلى أطلانطا، حصلَت على الدكتوراه في التاريخ من جامعة جورجيا، لها نظريَّة عن «الإرهاب».

تقول أذار:

التخويف الأمريكي ممَّا يُسمَّى «الإرهاب» لم يبدأ في ٩ سبتمبر ٢٠٠١م، بل بدأ منذ أربعة قرون، منذ ١٠ فبراير ١٦٧٥م حين بدأت مقاومة السكَّان الأصليِّين في أمريكا ضدَّ الغزاة الأجانب. حملوا البنادق وبدءوا المقاومة الشعبية في لانكستر وماساشوستس غرب بوسطن الحالية. تصاعدَت النيران من بيوت الغزاة، (كما تصاعدَت من برجَي التجارة في نيويورك يوم ٩ سبتمبر ٢٠٠٩م)، استمرت المقاومة الشعبية حتى عهد الملك فيليب. تم تدمير ثلثَي المدن والقرى في الولاية التي أطلق عليها الغزاة الإنجليز اسم: «نيو إنجلاند» (إنجلترا الجديدة). امتدت المقاومة الشعبية حتى النصف الثاني من القرن ١٨، قُتل فيها الآلاف من الجانبَين. انتصر الغزاة الإنجليز بقوة السلاح في النهاية، ذبحوا السكان الأصليين وملكوا أمريكا، أصبحوا هم الأمريكيين اليوم. رغم الانتصار العسكري أصابتهم حالةُ رعب نفسية من أي مقاومةٍ شعبية. أطلقوا عليها اسم «الإرهاب»، هكذا يُسمِّي جورج بوش المقاومة الشعبية الشرعية في العراق وفلسطين وغيرهما من البلاد. يمتلئ قلب الأمريكيين بالرعب من المقاومات الشعبية منذ أربعة قرون، بالضبط منذ ١٠ فبراير ١٦٧٥م، منذ جاءوا إلى أمريكا وقاتلوا سكانها الأصليين واغتصبوا أراضيَهم وثرواتهم، دون وجه حق. يُدرِك الأمريكيون حتى اليوم، بمن فيهم جورج بوش وباراك أوباما، وكل

من يحملون الجنسية الأمريكية، بمن فيهم أنا، أذار بابك، الأمريكية المهاجرة من إيران، نُدرك أن أراضينا وأملاكنا هنا في أمريكا تم اغتصابها بالسلاح والقتل، وإن تظاهرنا بالبراءة والإنسانية والرقي، نُدرك أننا لسنا إلا مجموعات من الغزاة الهمج المهاجرين، جئنا إلى أمريكا هربًا من الموت أو الجوع أو القهر في بلادنا، تحوَّلْنا إلى قاهرين لغيرنا من الشعوب. نحن مثل اليهود، قهرتهم النازية فإذا بهم يقهرون الشعب الفلسطيني بأشدَّ مما فعلَتْه النازية فيهم.

قلتُ لأذار:

النازية لم تقهر اليهود فقط، بل قهرت كل الذين عارضوا هتلر، من المسيحيين وكل الأديان والأجناس. كان العدو الرئيسي للنازية هم المطالبين بالعدالة الاجتماعية أو المساواة بين الشعب الألماني، بصرف النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو الطبقة. أطلق عليهم هتلر اسم الاشتراكيين الخونة للنظام الألماني، أو الشيوعيين الملاحدة، من أتباع اليهودي كارل ماركس. كان عقابهم الموت بالرصاص أو حرقًا في الأفران. لم يضطهد هتلر اليهود لأنهم آمنوا بالتوراة (بعض اليهود تعاونوا مع هتلر) بل لأنهم طالبوا بالعدالة الاجتماعية والمساواة. وقد حرق الآلاف غيرهم للسبب ذاته من المسيحيين الألمان وغير المسيحيين. لكن الاستعمار البريطاني خلال القرن العشرين أراد استخدام مأساة اليهود (في ألمانيا) لزرع دولةٍ يهودية في وسط منطقةٍ إسلامية، أطلق عليها «الشرق الأوسط»، للسيطرة على الذهب الجديد في بطن الأرض «البترول». جلب اكتشاف البترول في منطقتنا حروب الاستعمار الأوروبي الإسرائيلي الأمريكي. أصبحت دولة إسرائيل مندوبة الاستعمار الأجنبي في المنطقة، يُشعِلون الحروب الداخلية الدينية للتغطية على الحروب الاستعمارية البترولية، تم استخدام «الدين» كسلاحٍ فتاك ضد الوحدة الوطنية والعدالة الاجتماعية. تغيرت النظم السياسية في بلادنا لتصبح نظمًا دينية، تقطع يد صبيٍّ فقير سرق رغيف خبز، وتُغمِض عينَيها عن كبار اللصوص في السلطة الحاكمة داخليًّا وخارجيًّا، تحرق وجه فتاةٍ صغيرة لم ترتد الحجاب، وتغمض عينَيها عن كبار الرجال يغتصبون الأطفال والبنات الصغار، تحت اسم حرية الطلاق للرجل فقط، أو حق تعدد الزوجات أو الإماء لرجال، وما ملكت يمينهم من نساء، أو تحت اسم زواج المتعة، أو الزواج الموقَّت، أو زواج الهبة، وكلها أشكالٌ مختلفة من الفوضى الجنسية للرجال، لا يعاقبهم الشرع أو القانون عليها، أنتجت في بلادنا الملايين من الأطفال «غير الشرعيين».

أصبحوا في الشوارع دون رعاية أو مأوى أو طعام، أصبحوا ضحايا أنظمةٍ دينية غير أخلاقية. تقتل البنات الصغيرات باسم الأخلاق، وتقتل المفكرين والشعراء تحت اسم

الخروج عن المعلوم من الدين، أو التهكُّم على الذات الملكية أو الذات الإلهية، لا فرق بينهما.

في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم الأحد ٢٨ يناير ٢٠٠٧م في مدنية القاهرة، مصر، قادنا البوليس (أنا وابنتي الشاعرة مني حلمي) إلى النيابة العامة بتهمة «الخروج عن المعلوم من الدين»، يحمل مبنى النيابة اسم «مجمع المحاكم» جدرانه ملطخة بالطين والتراب وبقع الدم.

يتزاحم أمام الباب المخلوع رجال ونساء من الشعب المصري، المقهور على مدى القرون منذ الفراعنة، وجوهٌ ضامرة ممصوصة امتصها الحكام، عيونٌ ذابلة مكسورة كسرها البوليس والنظام. جاءوا من القرى والمدن والنجوع الفقيرة، استدعتهم النيابة للتحقيق والإدانة، أبرياء، معظمهم ضحايا جرائم اقترفها غيرهم. هذا الفتى الغض البريء يأخذونه إلى السجن بدلًا من أبيه الهارب. هذه الزوجة البريئة تدخل السجن بدلًا من زوجها القاتل. هذا الصحافي الذي كتب مقالًا يكشف فساد الحكم والدولة الدينية.

كانت التهمة الموجهة ضدي أنني خاطبتُ الله في مقال لي بالضمير المؤنث «هي» دار التحقيق معي كالآتي: كيف تقولين في مقالك «هي الله»؟

– وماذا تقول أنت؟ «هو الله؟»

– نعم، سبحانه جل جلاله «الله» يخاطب بالمذكَّر، هو، كما جاء في كتابه الكريم.

– الله ليس جسدًا بل روح، أليس كذلك؟

– نعم الله سبحانه روح ليس له جسد.

– الروح في القرآن تخاطب بالضمير المؤنث، أليس كذلك؟ لا شك أنك تعرف هذه الآية القرآنية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ لهذا ليس من الخطأ مخاطبة الله بصيغة المؤنث لأنه روح وليس جسدًا.

صمَت المحقق طويلًا يفكر في هذه الحجة المنطقية المتمشية مع القرآن: «إذا كان الله روحًا والروح مؤنثة في القرآن فلا بد أن يكون الله مؤنثًا أيضًا.» ربما أخذ يُقلِّب الفكرة في رأسه متحيرًا ماذا يفعل.

إنه شابٌّ في حوالي الأربعين، درس القانون في كلية الحقوق، جامعة القاهرة. أصبح وكيلًا للنائب العام في وزارة العدل، المفروض أن يحكم بالعدل والمنطق وليس بأي شيءٍ آخر. رمقني من تحت نظارته الطبية بنظرةٍ متحيرة، ثم أخذ يحملق في الملف أمامه، يحمل اسم: المتهمة نوال السعداوي، إلى جواره ملفٌّ آخر يحمل اسم: المتهمة مني حلمي.

اتجه إلى ابنتي مني حلمي يسألها عن مقالها المنشور في عيد الأم، العام الماضي، الذي خالفَت فيه شرع الله.

– أنتِ وقَّعتِ مقالك باسم «منى نوال حلمي» وهذا خروج عن الدين؛ لأن القرآن يحض على النسب للأب وليس للأم.

– أنا أردتُ تكريم أمي في عيد الأم الرسمي، الذي تحتفل به الدولة كل عام، وتُذاع فيه الأغاني عن الأم، فجعلتُ اسمها مُشرِّفًا لي مثل اسم أبي. أنا لم أطالب بإلغاء النسب الأبوي لكنني أضفتُ إليه اسم أمي، وهذا يتمشى مع جوهر الإسلام الذي يضع الأم في مرتبةٍ أعلى من الأب، والجنة تحت أقدام الأمهات. الأم تعيش وتموت من أجل أطفالها في معظم الأحيان، والأب يعيش ويموت من أجل نفسه في معظم الأحيان، لماذا يتشرد ملايين الأطفال في الشوارع لتخلي الأب عن مسئوليته؟ لماذا تمتلئ المحاكم بآلاف الأمهات المكلومات وأطفالهن بسبب فساد الآباء وأنانيَّتهم؟ لماذا يكون الاحتفال بعيد الأم بالأغاني فقط وليس بالعمل الجاد لإنصاف الأمهات؟

رمقتُ ابنتي بفخر، نعم هذه الفتاة من صلب هذه الأم، فرِحتُ بها وقلتُ للمحقق: المفروض أن تحظى الدكتورة منى حلمي بالجائزة الأدبية الكبرى، لا أن تُحوَّل للتحقيق في النيابة. نحن نعود إلى عصور الظلام يا أستاذ، حيث تفشَّى قانون الحسبة ومعه فساد الحكم ورجال الدين.

خرجتُ مع ابنتي نتمشَّى على شاطئ النيل. قلتُ لها: اكتبي يا ابنتي واكتبي، انشري أشعارك في العالم، أضيئي العقول المظلمة، ولا تهابي سلطة رجال الدين والدولة.

كتبَت ابنتي قصيدة تحت اسم «أمي» وهي في المدرسة الابتدائية:

منذ طفولتي علَّمَتْني أمي، كيف أرفع رأسي عاليًا في السماء، وليس كيف أتكحل وأتعطر لأغري الرجال، كيف أزهو بعقلي وأنا أمشي في الطريق، وليس كيف أُغطِّي أو أكشف جسدي الخليع. أنا أفخر بأمي واسمها وعملها المجيد، وكم رجال تخلَّوا للشارع عن طفلٍ وحيد!

ذكرياتي ومذكِّراتي وراء المحيط

٣

المحيط الأطلنطي يمتد تحت بصري إلى ما لا نهاية، وأنا فوق رمال شاطئ مدينة بورتلاند عاصمة ولاية «ميين» أقصى شمال الولايات المتحدة، على حدود كندا. قضيتُ عام ٢٠٠٣م أستاذةً زائرة في جامعة سازيرن ميين (جامعة جنوب ميين) عشتُ في جزيرةٍ صغيرة داخل المحيط اسمها «بيكس أيلاند»، أذهب إلى الجامعة بالفيري. تنقلني السفينة من شاطئ الجزيرة إلى شاطئ المدينة في خمس وثلاثين دقيقة، أمشي مسافة الساعة بالخطوة السريعة لأصل إلى الجامعة. في الصباح الباكر أمشي في رياضتي اليومية حول الجزيرة، في الطريق الدائري بين مياه المحيط وغابة الأشجار التي تظلِّل الجزيرة، كأنما أعيش في حلم أو في فيلمٍ سينمائي.

أصبحت ولاية «ميين» عام ١٨٢٠م الولاية الأمريكية ٢٣، انضمت إلى الاتحاد كولايةٍ حرة، وليست كولاية عبيد كما حدث لولاياتٍ أخرى منها ولاية ميزوري. تُعتبر ميزوري من أكثر الولايات عنصرية وتعصبًا للمسيحية، يُسمُّونها اليوم «سُرَّة حزام الإنجيل» أي مركز الكتلة المسيحية الأصولية.

لكنَّ ولاية «ميين» أكثر تحررًا، لها تاريخ ضد العبودية، يحكي الناس هنا عن شبابٍّ أفريقي اسمه «دارنج» جاء مقيدًا بالسلاسل فوق سفينة إلى جزيرة «ميين»، تحطمَت السفينة قبل الوصول إلى الشاطئ، كاد الكابتن السيد الأبيض أن يموت غرقًا، لكن الشاب المقيَّد بالسلاسل أنقذه بشهامة وإنسانيةٍ نادرة، كافأه الكابتن بأن فك سلاسله وأعطاه حرِّيته.

تقول القصة إن الشاب الأفريقي دارلنج أصبح بطلًا بعد أن حرر الجزيرة من خطر الدبب المفترسة، قتلها جميعًا، زوجوه لعروسٍ جميلة بيضاء مثل سندريلا، أنجب منها ولدَين جميلَين، بشرتهما ليست بيضاء ولا سوداء، بل مزيجٌ خمري من عناصرَ متعددة. انتشر نسل دارنج المتطور الجديد حتى عام ١٨٤٧م، الزواج المختلط حدث في ولاية «ميين» قبل غيرها، كان يهرب إليها السود من العذاب والهوان في الولايات الأخرى، كما هرب إليها سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر) من تعسُّف السلطة الأمريكية، وصيادون نزحوا إليها من بلدانٍ كثيرة، في هذه الجزيرة اختلطَت الأجناس والألوان. أطلقوا عليها مجتمع مارون، ومسكن الدم الزنجي الجنوبي، تصوَّروا أنها سوف تهدد الدم الأنجلو ساكسن النقي.

دارت حكاياتٌ كثيرة عن تاريخ الجزيرة، أن ربابنة السفن البيض كانوا يعودون إليها ومعهم مومسات وعشيقاتٌ سوداوات من الكاريبيان. عانت الجزيرة من هجماتِ العنصريين ذوي الدم النقي، في إحدى الهجمات خطفوا ٦٠ رجلًا وامرأة، سجنوهم في مبنى مدرسة «ميين» للمجانين أو العقول المتخلفة، ثم قتلوهم جميعًا وهُدمت المدرسة، كانت فضيحةً كبرى كشفت وحشية الأنجلو ساكسن من ذوي الدم النقي.

بعد مائة عام نسِيَت الجزيرة هذه المأساة، لكن ظلَّت العنصرية تفرض نفسها على بعض القوانين، منها قانونٌ يمنع أن تتبنى الأُسرة البيضاء أطفالًا سودًا أو من نسلٍ مختلط. ظل هذا القانون سائدًا حتى يوم ١٠ مايو ١٩٥٩م، حين جاءت بآلام الوضع إلى الولاية امرأةٌ بيضاء، ومعها رجلٌ أسود، ولدَت في مستشفى «ميرسي» طفلةً خمرية اللون سمَّتْها فيكتوريا، لم يكن لأي أُسرة أن تتبنى الطفلة المختلطة الدم. لم ترَ الطفلة أباها الأسود أبدًا، تركَتْه أمها وتزوجت رجلًا أسود اسمه رويل، واحد من الجنود أثناء الحرب العالمية الثانية، كان في إجازة يتمشى في شوارع «ميين»، حين التقى بأم فيكتوريا، حملت الطفلة اسم زوج أمها، أصبح اسمها فيكتوريا رويل، راقصة بالية معروفة، كتبَت مذكِّراتها ونشرَتْها حين كنتُ هناك، في تلك الجزيرة الجميلة على الشاطئ الأطلنطي، ذات التاريخ المجيد ضد العبودية، والثلوج البيضاء المتألقة تحت الشمس.

أستعيدُ صورة أول سفينة تحمل العبيد من أفريقيا، وصلَت إلى هذا الشاطئ في عام ١٦١٤م، ألغى الدستور الأمريكي الرق رسميًّا عام ١٨٦٥م، لكن العنصرية ظلَّت تحكم أمريكا ضمن النظام الطبقي الأبوي المسيحي. صدر أمر المحكمة العليا عام ١٩٦٥م بإنهاء الفصل العنصري بين البيض والسود، بعد هزيمة أمريكا في حرب فيتنام، والمظاهرات ضد التفرقة بقيادة مارتن كينج ومالكوم إكس.

الشمس مشرقة في منتصف يوليو مع الدفء الحاني، الثلوج تغطي الأرض طول الشتاء والربيع، وجزءًا من الخريف. أُحب السير فوق الثلج أحيانًا، لكنني أعشق دفء الشمس، مياه المحيط باردةٌ في عز الصيف، لا أستطيع السباحة في هذا المحيط، أرقُبه من الشاطئ بحذر، أمد قدميَّ إلى الأمواج الصغيرة المنكسرة عند الشاطئ. من البعد تبدو الأمواج مخيفة، كم غرق من العبيد تحت هذه الأمواج، كانت السفينة الواحدة تحمل ٤٠٠ عبد من النساء والرجال والأطفال، كان الزحام شديدًا في قاع السفينة، حيث يتكدس العبيد، يموت بعضهم بالجوع أو المرض، أو يُلقي بهم تجار العبيد إلى المحيط، للتخفُّف من الحمل أثناء الطريق، يصل إلى الشاطئ ١٠٠ فقط أحياءً من الـ ٤٠٠، يموت نصفهم بالرصاص أو بالضرب، أثناء الهروب في الغابات والأحراش عند الشاطئ.

قرأتُ رواية أليكس هيلي «روتس = جذور»، حكى قصة حياته كعبدٍ أفريقي، كيف خطفوا جدَّه ونقلوه عَبْر المحيط إلى أمريكا. لعبت الرواية وغيرها من الروايات، دورًا في رفع الوعي بقضية تحرير الزنوج، مع ترجمة أعمال «بريخت» إلى الإنجليزية، وكتابات أخرى أضاءت العقول وشجَّعَت الثورة والتمرد، ضد الظلم والعنصرية، بقيادة أبطال الحركة الزنجية.

بريخت قال هذه العبارة: «بائسةٌ هي الأرض التي في حاجة إلى أبطال.»

أصبح أدب بريخت منبرًا فكريًّا أدبيًّا لملايين المقهورين في العالم. في قلب مدينة نيويورك أنشأت الحركة الثورية من البيض والسود «بريخت فورام»؛ ملتقى ثقافي أدبي فني، يدعو إلى مقاومة العنصرية، والكفاح ضد أي تفرقة بين البشر، على أساس اللون أو الجنس أو العرق أو الدين أو الطبقة. تجمَّع حول بريخت فورام المثقفون والفنانون من السود والبيض والنساء والشباب، طاردتهم السلطة الحاكمة بتهمة الشيوعية والإلحاد، أو الخيانة الوطنية، لكن بريخت فورام قاوم القهر وظلَّ يعمل حتى اليوم. وقد دُعيتُ عدة مرات إلى هذا الملتقى خلال السنين الماضية، لإلقاء كلمتي في يوم المرأة العالمي أو يوم إلغاء الرق أو العنصرية، أو في مظاهرة ضد التسلُّح النووي، أو ضد الحرب في فلسطين أو العراق أو غيرهما.

قامت الحرب الأهلية في عهد أبراهام لنكولن (الرئيس الأمريكي رقم ١٦)، واضطُر إلى إلغاء العبودية بقراره في ١٨٦٣م، إلا أنه ظل مؤيدًا للرق والعبودية حتى اغتياله في ١٤ أبريل ١٨٦٥م، كان لنكولن براجماتيًّا، بمعنى أن الحقيقة تُختبر بالنتائج العملية للإيديولوجية أو للأفكار المطروحة، لم يكن يهمه تحرير العبيد، بل كان هدفه الاتحاد

أو الوحدة بين الولايات، أن يُوحِّد الصفوف بصرف النظر عن الاختلافات؛ بمعنًى آخر، تجاهل مشاكل الزنوج والنساء والفقراء، أو تجاهل المشاكل الطبقية الأبوية والعنصرية، من أجل إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية. كان أبراهام لنكولن مزدوج المقاييس السياسية والأخلاقية مثل بيل كلينتون وغيره من الحكام في الغرب والشرق، تُؤدِّي البراجماتية إلى الازدواجية وبالتالي غياب المبادئ والأخلاق.

كشفَت العشيقة السرية «مونيكا لوينسكي» عن فساد أخلاق الرئيس الأمريكي «بيل كلينتون» في التسعينيات من القرن العشرين، كما كشفَت «سالي هيمينجز» العشيقة السرية للرئيس الأمريكي «جيفرسون» ثم كشفت بحوث (دي. إن. إيه) عن أطفاله المجهولِين من جاريته السوداء «سالي هيمينجز». كل يوم تعلن وسائل الإعلام عن فضيحةٍ أخلاقية جديدة، أو عشيقةٍ سرية لأحد الحكام أو أعضاء الشيوخ أو البرلمان، كلما اقترب الرجل منهم إلى القبر تعلَّق بفتاةٍ صغيرة، وما خفي كان أعظم في حياة الرجال البراجماتيين.

البراجماتية نشأت في أمريكا لتدعيم الرأسمالية الأبوية المسيحية، وكانت براجماتية «جون ديوي» الفيلسوف الأمريكي، ومعاصره فرانكلين روزفيلت (خلال الثلاثينيات من القرن العشرين)، إصلاحية وليست ثورية. أراد تحسين نواقص الرأسمالية الصناعية المبكرة، وليس إسقاطها كنظامٍ يقوم على الربح والاستغلال والحرب، واستخدام المسيحية كعقيدةٍ طبقية أبوية عبودية، تقوم على العنصرية والتفرقة بين الناس على أساس الدين والجنس والطبقة.

إذا كانت الحرب في صالح أمريكا فإن الحاكم البراجماتي يشعلها: من «لنكولن» حتى «بوش» الأب والابن، تحقيقًا للمصالح القومية الأمريكية، دون مراعاة المبادئ الإنسانية والقوانين الدولية، التي تقتضي العدالة والمساواة بين الشعوب؛ لهذا لم تتوقف الحروب الاستعمارية في العالم، بقيادة الترسانة العسكرية الأمريكية.

في داخل أمريكا تزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء، ١٪ من الشعب الأمريكي يحصل على ٢٠٪ من الدخل القومي، تُشجِّع أمريكا كل التيارات الدينية الإرهابية لتحقيق مصالحها الاقتصادية، منها القوى اليهودية والمسيحية لتدعيم إسرائيل، ومنها القوى الإسلامية لضرب كلِّ من يُعادي الرأسمالية الذكورية.

ورث الأمريكيون عن آبائهم الإنجليز القيم المزدوجة الاستعمارية، يغرق تاريخ بريطانيا في الفساد والدم والحروب. في القرن ١٧ (بعد أحداث ١٦٤٢م) قامت حربان أهليتان انتهتا بقطع رأس الملك شارلز الأول، ثم ١٠ سنوات كرومويل، أحداث ١٦٦٠م،

ثم الطاعون الأعظم في لندن ١٦٦٥م، ثم الحريق الأعظم في لندن ١٦٦٦م، الذي عالج الطاعون، ثم قامت ثورة ١٦٨٨م، أعلنت الملكية الدستورية في ١٦٨٩م، لم تكُفَّ الصراعات بين الملوك والبرلمان، لم تكُفَّ الحروب بين الكاثوليك والرومان، وبين الأنجليكانيين والبيوريتانيين، وبين الاسكتلنديين والأيرلنديين والإنجليز، بحور من الدماء.

انتقلَت بحور الدماء إلى أمريكا بمجيء الإنجليز إلى شواطئها من الشمال في نيوإنجلاند، وإلى شواطئ فلوريدا وكارولينا في الجنوب، لم تكُفَّ الحروب بين الإنجليز وغيرهم من المهاجرين الفرنسيين والهولنديين، جاء الفرنسيون قبل الإنجليز بخمسين عامًا، في عام ١٥٦٠م. في عام ١٦٨٢م ذهب القائد الفرنسي «لا سال» إلى نهر الميسيسبي محاولًا غزوه لصالح الملك لويس XIV في فرنسا، كان «لا سال» تاجر فرو من «الكيبيك» المستعمرة الفرنسية في كندا، سافر «لا سال» إلى فرنسا ليُقدِّم للملك خريطةً خاطئة عن نهر الميسيسبي، ترسم النهر قريبًا من مناجم الفضة في ولاية «نيو ميكسيكو» المستعمرة الإسبانية. واصل الأمير ابن الملك الفرنسي الحرب ضد الإنجليز والإسبان للسيطرة على أمريكا الشمالية، واستطاع السيطرة بالسلاح على دلتا الميسيسبي عام ١٧١٨م، وأنشأت فرنسا مستعمرتها في ولاية لويزيانا، بالقرب من خليج المكسيك، وتأسسَت مدينة «لا نوفيل أورليانز» عاصمة لها هذا العام ١٧١٨م، قبل أن يتغير اسمها إلى «نيو أورليانز» تحت سيطرة الإنجليز، بعد حروب بين الفرنسيين والإنجليز والإسبان والألمان والأمريكيين المستوطنين، الذين جاءوا من ولايات أخرى مثل كارولينا وفرجينيا.

كانت السفن المحملة بالعبيد الأفارقة تصل تباعًا إلى نيو أورليانز، أصبحَت مركزًا للإمبراطورية الأمريكية الجديدة القائمة على العبودية، على تسخير العبيد في العمل بالأرض حتى الموت، أو الفرار هربًا إلى ولاياتٍ أخرى.

جاء نابليون إلى الحكم في فرنسا في نوفمبر ١٧٩٩م، كانت الإمبراطورية الإسبانية تتساقط منذ ١٧٩٠م، تفاوض نابليون سرًّا مع الملك كارلوس لإعادة ولاية لويزيانا إلى فرنسا. في عام ١٨٠١م اكتشف الرئيس الأمريكي «توماس جيفرسون» خطة نابليون، فاستعد للحرب ضدُّه، لكن نابليون كان قويًّا عسكريًّا، تفاوض معه جيفرسون بدلًا من الحرب على شراء مدينة نيو أورليانز بالمال، سافر السفير الأمريكي إلى فرنسا سرًّا ليشتري المدينة من نابليون، كان نابليون يعاني هزيمته في جزر الكاريبيان، وتحرَّرَت هايتي من الاستعمار الفرنسي، وأعلنت جمهورية هايتي المستقلة، فوجئ السفير الأمريكي باستعداد نابليون، ليس لبيع مدينة نيو أورليانز وحدها بل لبيع ولاية لويزيانا كلها، من الجنوب عند خليج المكسيك، إلى الشمال في كندا، كل مجرى نهر المسيسيبي.

حكم الأنجلو أمريكان بدل الفرنسيين والإسبان، زاد القهر والاضطهاد للعبيد السود، بدأت المقاومة ضد العبودية من «ميدان الكونجو» في قلب مدينة أورليانز، أصبح هذا الميدان من ١٧٥٠م حتى ١٨٥٠م المكان حيث يتجمع العبيد الثائرون، يلقون الخطب والقصائد الداعية إلى الثورة، يرتج الميدان بكلماتهم النارية، وإيقاع رقصهم الأفريقي، «الروك أند رول»، كلمة «روك» تعني «يرجُّ» بمعنى أنَّ إيقاع الرقص كان يرجَّ المدينة. هكذا بُني الأساس لرقصات الروك أند رول عام ١٩٤٧م في ميدان الكونجو في نيو أورليانز عام ١٧٥٠م.

أصبحَت نيو أورليانز مركزًا اقتصاديًّا وثقافيًّا وفنيًّا هامًّا منذ ١٨٠٣م، موسيقى الجاز تطوَّرَت خلال ١٨٠٠ سنة. تحكي الموسيقى تطوُّر المكان والزمان، ثقافة السود في المدينة، كانوا خليطًا من أجناسٍ متعددة، أُطلق عليهم اسم «سيريول»، أول سفينةٍ رست على شاطئها حملَت العبيد من «بنين»، أوائل الحكم الفرنسي. ومن نهر السنغال، جاءوا إلى نيو أورليانز بآلاتهم الموسيقية، وغنائهم، كانوا أساس موسيقى الجاز والبلوز. من الكونجو جاءوا إبَّان الحكم الإسباني، ومعهم الطبلة والرق والمزمار. انتقل الرقص والموسيقى والغناء من أفريقيا إلى كوبا، من هافانا إلى هارلم حي الزنوج في نيويورك، موسيقى الأفروكاريبيان وغيرها، كلها بدأت في ميدان الكونجو في نيو أورليانز، منذ ١٧٥٠م، تطوَّرَت عَبْر الزمان والمكان، دخلَتها آلاتٌ أوروبية وأمريكية، تزاوجت الطبلة مع الجيتار والكمنجة، وتزاوج البيض مع السود لإنتاج فصائلَ جديدةٍ من البشر، وأنواعٍ متطورة من الموسيقى والرقص والغناء.

سافرتُ إلى جزر الكاريبيان وإلى هايتي، سافرتُ داخل أمريكا الشمالية والجنوبية، من أقصى الشمال في كندا إلى المكسيك والبرازيل، سبحتُ في المحيط الأطلنطي في مدينة نيويورك، تمدَّدتُ تحت الشمس على شواطئ كارولينا وفلوريدا، خالطتُ كل الأجناس والألوان، أدركتُ كم يتطور الإنسان باختلاط الدماء، كلما تعدَّدتِ الأجناس داخل الإنسان ترقَّى، وأصبح أكثر إنسانية. نقاء الدم غير موجود في الواقع الحي، الهوية النقية هي العنصرية.

أثناء حرب الاستقلال في هايتي (١٧٩٦–١٨٠٤م) هرب آلاف الفرنسيين المزارعين، هرب من الموت أيضًا خليطٌ من الأجناس، سود وملونون وسيريول، وأيضًا آلاف اللاجئين الكوبيين الذين فروا من الحكم الإسباني في كوبا، هربوا جميعًا من سان دومنيك، المستعمرة الكاريبيان الغارقة في الدم، وأصبحوا ضمن أهل نيو أورليانز، تم إثراء المدينة

والثقافة والفنون بهذا الخليط النادر من البشر، وظلَّت هذه المدينة غريبة عن ثقافة الكاوبوي الأمريكية التي روَّجَت لها ما أُطلق عليها الحضارة الأمريكية الحديثة.

تنطوي ثقافة الكاوبوي على القتل والخداع. توارث حكام أمريكا هذه الثقافة المخادعة، بنَوا حكمهم على مؤسسات التجسس من نوع الـ «سي. آي. إيه». استخدم تومس جيفرسون الخداع لإحباط الثورة في هايتي، رغم عدائه لزعيمها «توسان»، كان يُقدِّم له السلاح خلسة لإضعاف قوة نابليون، ثم مات توسان في السجن إثر خديعةٍ أخرى، لكن الثورة في هايتي استمرت بعد موت توسان حتى الاستقلال.

أصبح جيفرسون بطلًا في التاريخ الأمريكي الملطخ بالدم؛ لأنه نجح في الاستيلاء على ولاية لويزيانا من الفرنسيين، وكان جيفرسون عنصريًّا يُخفي عُنصريَّته تحت قشرةٍ ناعمة من الإنسانية، واصل تسخير العبيد في الواقع الحيِّ، رغم إصداره قرارًا يعلن إنهاء العبودية. أما فساده الأخلاقي فكان يُغلِّفه بالحديث عن الأخلاق المسيحية النبيلة. في عام ١٩٩٨م لم يكن لأحد أن يكشف أطفاله المجهولين من جاريته السوداء لولا العلم الحديث وأبحاث الدي. إن. إيه.

في عام ١٨٠٧م منعَت بريطانيا تجارة العبيد تحت ضغط الحركة الشعبية بقيادة الكويكرز. منذ اشترى جيفرسون ولاية لويزيانا من نابليون وأصبحت نيو أورليانز جزءًا من أمريكا، تصاعدت القوة الإمبريالية الأمريكية. في عهد جيفرسون عام ١٨٠٨م تم منع التجارة بالعبيد من الخارج فقط، انتعشَت تجارة العبيد داخل أمريكا، لتسخيرهم في الزراعة، خاصة القطن، في ألباما والمسيسيبي ولويزيانا وتكساس.

زاد أعداد العبيد الزنوج من ٩٠٠٠٠٠ إلى ٤ مليون في النصف الأول من القرن ١٩، نزحوا من حول فلوريدا إلى نيو أورليانز بالقوارب، أصبح الاقتصاد يقوم على السخرة في الأرض، وعلى رأس المال المتجمع من بيع العبيد في السوق مثل البقر والغنم. الجارية السمراء كان ثمنها ٧٠٠٠ دولار، تُباع أو تُقدَّم كسلفة أو قرض، كانت سوق العبيد تجلب أرباحًا أكثر من الأرض. في عام ١٨٦٠م جلبت سوق العبيد والجواري ٤ بليون دولار، سبعة أضعاف الدخل الأمريكي كله.

ظلَّت نيو أورليانز مركزًا لهذه العبودية المتوحشة حتى الحرب الأهلية، بعد معركة نيو أورليانز عام ١٨١٥م، وهزيمة أمريكا، تصاعدَت الحرب الأهلية، ثم الحركة المدنية لتحرير السود، وخروج الملايين من السود والبيض في مظاهرات ضد العبودية على مدى مائة وخمسين عامًا، حتى اغتيال قائد الحركة الدكتور مارتن لوثر كينج، في منتصف

الستينيات من القرن العشرين، رغم المآسي التي مرت بها المدينة من غرق الآلاف بفعل الهاروكينات القادمة من المحيط، أو انهيار السدود فوق نهر المسيسيبي، أو تزايد الفقر والبطالة مع أزمات الرأسمالية المتوحشة. ظلَّت مدينة نيو أورليانز مركزًا للثقافة والفنون، والموسيقى والغناء. يرجُّ إيقاعُ رقصها الروك أند رول أركانَ الإمبراطورية الأمريكية وقصورها المنيعة، يهزُّ جدران البيت الأبيض المتينة في العاصمة واشنطن. أجل كانت نيو أورليانز «المهد» الذي خرجَت منه الإمبراطورية الأمريكية من العبودية، أتكون «مقبرتها» أيضًا؟

ذكرياتي وراء المحيط في إندونيسيا وبلادٍ أخرى

خريف ٢٠٠٦م

عواصف وأمطار تنهمر سيولًا فوق غابة الأشجار. أتأملها من خلال النافذة الزجاجية الكبيرة، أين أنا؟ في أطلانطا؟ غابة جورجيا؟ في جنوب أفريقيا؟ في أوغندة، إثيوبيا، السنغال، إندونيسيا، الهند، إيران، البرازيل، كندا، أستراليا، النرويج، اليابان، كوريا، طشقند، السودان؟ تبدو البلاد والأشجار والأمطار متشابهة. لا أكاد أعرف أين أكون حتى أنظر إلى مفكرتي اليومية. منذ طفولتي أحتفظ بمفكرةٍ سرِّية، أُسجِّل فيها أين أذهب بعيدًا عن الأنظار، وما يخطر لعقلي من أفكارٍ محرمة. مفكرتي هي صديقتي الدائمة الأبدية. لم تعُد لي أسرار الطفولة الآثمة، أصبحتِ الفضيلة إثمًا، والإثم فضيلة. تطور عقلي مع مرور الزمن واكتشفتُ الخديعة. كم يحطمون عقولنا ويقتلون البديهة، ليس في بلادنا فقط بل في العالم كله. سافرت إلى كل البلاد، في القارات الخمس، أدركتُ أن الخديعة هي قانون الأرض والسماء، منذ جدَّتي حواء أصل الخطيئة، حتى أمي المقتولة في ريعان الشباب بالفضيلة.

١٩ نوفمبر ٢٠٠٦م كنتُ في إندونيسيا، ألقيتُ كلمة الافتتاح للمؤتمر الدولي للمسرح النسائي في جاكرتا. قضيتُ ثلاثة أيام فقط (١٩ إلى ٢١ نوفمبر). بعد أن ألقيتُ الكلمة هزَّني التصفيق في القاعة الواسعة، مئات النساء والرجال من كافة البلاد وقفوا يُصفِّقون حتى فاضت دموعي، وهجمَت عليَّ الشابات الإندونيسيات يغمُرنني بالقبلات. هناك حركةٌ شعبية في إندونيسيا كبيرة يقودها الشابات والشباب ضد فرض الحجاب على المرأة الإندونيسية، وضد أسلمة الدستور الإندونيسي. رئيسة المؤتمر كاتبةٌ مسرحية

اسمها «راتنا» لها ابنةٌ فنانة ممثلة في المسرح وموسيقية، اسمها باللغة الإندونيسية «أنا أحلم بالحرية». دعانا حاكم جاكرتا إلى حفل عشاء وغناء ورقص، شارك الحاكم في الرقص والغناء كواحد من الشباب، ثم دعاني للرقص معه. رقصتُ على إيقاع لحن أغنيةٍ إندونيسية تقول: «ارقصي معي رقصتي الأولى والأخيرة يا نور العين.» قلتُ للحاكم الإندونيسي وقدماه تدبَّان على الأرض بالإيقاع الموسيقي: ولماذا الأخيرة ونحن في ربيع العمر؟ ضحك الحاكم وجميع المشاركين والمشاركات في حلبة الرقص. كنتُ في الخامسة والسبعين من عمري تلك الليلة الإندونيسية، لكني رقصتُ ساعة ونصف الساعة مثل شابَّة في العشرين، أهي السعادة بالحرية تعيد إلينا الشباب؟ أم ماذا؟

تجولتُ اليوم التالي مع راتنا في شوارع جاكرتا، زحام وحر ورطوبة وعرق وتراب، كأنما أسير في شوارع القاهرة في أغسطس. العيون ذابلة، الوجوه شاحبة، حزينة، مرهقة، ممصوصة، تشبه وجوه الناس في بلادنا. تغيَّرَت الوجوه حين اقتربنا من الميدان وتغيرت العيون، لم تعد ذابلة حزينة بل متقدة بالحماس والأمل، آلاف الرجال والنساء والشباب والشابات، يسيرون صفوفًا صفوفًا، يسدون الشوارع والميدان، رافعين اللافتات والشعارات باللغة الإندونيسية، يهتفون ضد جورج بوش وأمريكا الاستعمارية، وإسرائيل الصهيونية، وقالت راتنا: هذه المظاهرات بسبب زيارة جورج بوش لنا، انظري، الجماهير تقذف موكبه بالبيض الفاسد. سألتُها مندهشة: جورج بوش هنا في جاكارتا؟ قالت: جاء في زيارة لإندونيسيا بالأمس، لم نسمع الأخبار بسبب انشغالنا في المؤتمر، قلت: مصادفةٌ سعيدة، يأتي جورج بوش إلى جاكرتا وأنا هنا، لأستمتع برؤية الشعب الإندونيسي يقذفه بالبيض الفاسد والطماطم. وقالت راتنا: الشعب هنا واعٍ غير مخدوع بالإعلام، نحن نتمتع بحريةٍ سياسية واجتماعية أيضًا. المرأة الإندونيسية تفوَّقَت في المسرح والموسيقى، والإبداع في كل المجالات بسبب الحرية. أطلقت على ابنتي اسم «أنا أحب الحرية». القانون هنا يعطي الأم الحق في أن تعطي ما تشاء من الأسماء لأطفالها، لا تحمل ابنتي اسم أبيها ولا اسم أمها، بل تحمل اسمًا آخر أجمل يؤكد حبنا للحرية. ابنتها رشيقةٌ جميلة، ترقص على المسرح وتغني وتعزف الموسيقى، يصفق لها الجمهور طويلًا، تفخر الأم بابنتها المسماة «أنا أحب الحرية» أجمل اسم سمعتُه في حياتي. هل يأتي يوم تحظى فيه الأم المصرية بحرية الأم الإندونيسية؟ إندونيسيا تتمتع بقدْر من الحريات السياسية والدينية أكبر مما هو في بلادنا، سكانها أكثر من ٢٣٥ مليون نسمة، متعددة الأديان والأعراق، أغلبيتهم يؤمنون بالإسلام (حوالي ٩٠٪). دخلها الإسلام في القرن الأول الهجري في عهد

عثمان بن عفان، عَبْر التجار والملاحين العرب. خضعت إندونيسيا للاحتلال الهولندي ثم الاحتلال الياباني، وناضلَت للتحرر حتى نالت استقلالها عام ١٩٤٥م. أول رئيس لإندونيسيا أحمد سوكارنو حارب التطرف الديني السياسي، أصر على دستورٍ مدني يجعل الوطن للجميع، لا يُفرِّق بين المواطنين على أساس الدين؛ لهذا رفض سوكارنو أن تكون الشريعة الإسلامية مصدر التشريع في الدولة. هكذا توحَّدَت الدولة وتطوَّرَت، لكن القوى الاستعمارية الخارجية وأعوانها في الداخل أطاحوا بحكم سوكارنو وجلبوا حكم سوهارتو الذي شجَّع التصاعُد الديني لتقسيم الشعب الإندونيسي. في عام ١٩٩٨م ظَهرَت على الساحة عشرات الأحزاب السياسية الدينية، بما فيها الأحزاب والجمعيات الإسلامية التي أغرقَتِ الناس في صراعاتٍ طائفية وجهل وتعصُّب، وساعدتها الانتخابات غير الحرَّة في ظل عدم الوعي السائد على كسب ٤٥٪ من الأصوات في انتخابات ٢٠٠٤م، إلا أن تزايُد الوعي وتطوير التعليم غير الديني والمقاومة الشعبية المدنية ضَربَت هذه القوى الدينية السياسية في انتخابات ٢٠٠٩م، فهَبطَت نسبةُ ما جمعوه من الأصوات إلى ٣٠٪، ويزداد الوعي يومًا وراء يوم لتحرير إندونيسيا من براثن الدين والاستعمار معًا.

أصبح الدين الوجه الآخر من الاستعمار الجديد في القرن الواحد والعشرين.

في الطائرة، خلال عودتي إلى القاهرة، قرأتُ خبرًا في الصحف المصرية، مفاده أن وزير الثقافة (فاروق حسني) متهم بالخروج عن المعلوم من الدين، بسبب تصريحه أنَّ حجاب المرأة ليس من الإسلام. تعود مصر إلى الوراء تحت اسم الإسلام، يتعاون النظام الحاكم مع الاستعمار الجديد والدين لضرب القوى الشعبية وإغراق الناس في الجهل. يتلهى الناس في مصر بقضية الحجاب عن قضية تحرير البلاد من السيطرة الأمريكية الإسرائيلية، وأعوانها في السلطة الحاكمة المصرية. هل سبقَتْنا إندونيسيا على طريق التحرُّر والاستقلال من براثن التوءمَين الخبيثَين: الاستعمار الجديد والدين؟

غربتي في الوطن تشتد يومًا وراء يوم، ما إن أعود إلى القاهرة حتى أُفكِّر في الرحيل.

لم يمضِ يومان على عودتي من إندونيسيا حتى وجدتُ نفسي في الطائرة. سأُلقي كلمتي في المنتدى الاجتماعي الدولي في روما (٢٤ إلى ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٦م). تمر المضيفة الإيطالية بعربة المشروبات: ماذا تشربين يا سيدتي؟ قلتُ: أي مشروب يعالج الغربة.

أثناء الإقلاع جلسَتِ المضيفة في المقعد أمامي، ابتسمَت لي، سألتُها:

أنت من إيطاليا؟

وُلدتُ في روما، لكن ليس لي وطن، حياتي في الطائرة، في الجو، فوق الجميع الأوطان وطني في كل مكان وفي لا مكان، مثل الله، لهذا لا أشعر بالغربة.

ارتجَّتِ الطائرة ارتجاجاتٍ عنيفة في تلك اللحظة فقالتِ المضيفة وهي تشير إلى السماء: لا يعجبه كلامي لهذا يُهدِّد بإسقاط الطائرة، لكن لا تقلقي يا سيدتي فأنا أقول هذا الكلام منذ عشرين عامًا، ولم تسقط مرةً واحدة.

وأنا أُحلِّق فوق السحب، فوق البحر الأبيض، تذكرتُ كلماتِ هيجل عن الغربة: نشعر بالغربة أو الاغتراب حين نفقد القدرة على تغيير مصيرنا أو التأثير في مجرى الأحداث. وقال ماركس: الاغتراب حالةٌ عامة في ظل النظام الرأسمالي الذي يهبط بالعامل إلى مستوى السلعة. تزداد غربته بازدياد قوَّة إنتاجه وحجمه لأنه لا يعمل من أجل نفسه بل من أجل غيره.

ماكس فيبر قال: إن الاغتراب سمةٌ عامة للمجتمعات الرأسمالية حيث تتحكم قوًى غير إنسانية بجميع نواحي الحياة. وقال هايدجر: الاغتراب حالة الإنسان الذي يشعر أن وجوده غير أصيل؛ لأنه لا يصنع قراراته بنفسه. وقال سارتر: الاغتراب شعور الإنسان حين يعجز عن تأكيد حريته.

أبي قال: الغربة عن الوطن يشعر بها الفقير المطحون أو المتمرد الثائر أو المفكِّر المطارَد، وقالت أمي: تشعر المرأة بالغربة في بيت أبيها وزوجها. وقلتُ لنفسي: المرأة لا وطن لها في ظل النظام الأبوي الطبقي الديني، وهو العالم الذي نعيش فيه، ألهذا أشعر بالغربة في كل مكان؟

٣٠٠ مليون سكان البلاد العربية، شعوبٌ مغتربة، عاجزة أمام سلطة الدولة، والدولة عاجزةٌ أمام سلطة القوى الخارجية. يستخدم أصحاب السلطة الأديان لتعمية الناس عن الحقيقة.

في مؤتمر روما دافعت أليساندرا الماركسية عن حرية المرأة في ارتداء الحجاب، أو الميني جيب. أخذ الحوار عن الحجاب وقتًا أكثر من الحوار حول الحرب في العراق وأزمة الرأسمالية. أخذتُ الكلمة وقلتُ «تغطية المرأة بالحجاب مثل تعريتها في السوق الحرة، التعرية والتغطية وجهان لعملةٍ واحدة، الحرية الزائفة لحرية السوق، حرية الأقوى للتحكُّم في الأضعف تحت اسم الحرية.»

يوم الجمعة أول ديسمبر، ركبتُ الطائرة من القاهرة إلى باريس، مرت المضيفة بعربة الصحف والمجلات العربية والأجنبية. مانشيت كبير في جريدة "الأهرام" المصرية الصادرة بالأمس ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٦م:

تعديلاتٌ تاريخية في الدستور قبل ٢٤ أبريل القادم تبدأ بالمادة ٧٦.

لا أحد يُصدِّق الصحف في بلادنا، أهل قريتي يطلقون على أي أكذوبة لقب «كلام جرايد»، ثم خبر يقول: رسالة إلى الرئيس مبارك من خادم الحرمين الشريفين. سألَتَنْي فتاة فرنسية جالسة في المقعد المجاورة لي: من هو خادم الحرمين الشريفين؟ قلت: أحد أباطرة النفط. سألت: أين هما الحرمان الشريفان؟ قلتُ: أحدهما في البيت الأبيض في واشنطن، والثاني؟ أين يكون؟

خبرٌ آخر يقول: رئيس نادي القضاة في مصر يصدر تصريحًا ضد تولي المرأة منصب القضاء. لماذا يا سيدي؟ لأن القضاء يقتضي العقل والحكمة والذكورة. لكنَّ القاضيات النساء نجحن وتفوَّقن على القضاة الرجال في ١٣ دولةً عربية؟ في تونس والمغرب تزيد القاضيات عن ٢٥٪ من القضاة، وتحتل المرأة في مصر منصب الوزيرة، فهل ينقُص عمل الوزارة عن عمل القضاء؟ يقول رئيس نادي القضاة: الدولة المصرية تحكمها تقاليدُ وعاداتٌ ليس من الضروري توافُقها مع المساواة. لماذا لا تُغيِّرها يا أستاذ؟ وقد تغيَّرت فعلًا. عندنا في مصر اليوم امرأتان قاضيتان فلماذا تقف في وجه التقدُّم وتنضم إلى التيارات السلفية؟ وفي التاريخ الإسلامي تقلَّدَت المرأة منصب «المفتي» كانت المرأة مفتية تُصدِر الفتاوى، فهل عمل المفتي أقل من عمل القاضي؟

من جُدَّة خبر يقول: مليون ونصف من الحجَّاج يرمون الشيطان بالجمرات في خمس ساعات فوق جسر الممرات بمساعدة ٩٠٠٠ من رجال البوليس السعودي.

في طفولتي سمعتُ جدتي تقول، قبل أن يسافر جدِّي للحج: يمكنه أن يرجم الشيطان هنا ويُوفِّر نفقاتِ السفر إلى مكة، لو أنه امتنع عن شرب الخمر وزيارة بيوت العاهرات.

خبر من واشنطن يقول: بوش والمالكي يبحثان معًا وسائل وقف العنف في العراق، وخبر من العراق يقول: الاحتلال الأمريكي يُشعِل الحرب الأهلية بين السُّنة والشيعة والأكراد، لتقسيم العراق إلى ثلاثة أقسام، حسب مبدأ الاستعمار «فرِّق تسُد».

خبر من فلسطين: حكومة مبارك تحمل لقب «سمسار» بين إسرائيل والفلسطينيين، لحساب الأمريكان.

خبر من مصر: زراعة القطن أَصبحَت عبئًا ثقيلًا على الفلاحين المصريين، اختفت فرحتُهم وغناؤهم في مواسم الجني: نورت يا قطن النيل يا حلاوة عليك يا جميل. زادت ديون الفلاحين بسبب زراعة القطن، وقرَّروا التوجُّه إلى القاهرة في مظاهرةٍ احتجاجية.

في باريس، ألقيتُ كلمتي في المؤتمر الدولي النسائي يوم ٢ ديسمبر ٢٠٠٦م، مجموعاتٌ مختلفة من الحركة النسائية الفرنسية، وجمعيات المهاجرين والمهاجرات إلى فرنسا، بعضهم من المغرب والجزائر وتونس وتركيا ولبنان وفلسطين وسوريا وغيرها. يدور الحديث حول رويال سيجولين، نَجحَت على منافسيها في الحزب الاشتراكي وصعدَت لخوض انتخابات الرئاسة الفرنسية، هل تكسب الانتخابات الرئاسية؟ قلتُ في كلمتي: لا يكفي أن تكون رويال سيجولين امرأة لتكون ضد القهر الرأسمالي الأبوي. المهم ما في رأسها من أفكار، وما سياستها وبرامجها. إن كسبَت رويال سيجولين الانتخابات وأصبحَت رئيسة فرنسا، هل تنقلب على مبادئها الاشتراكية كما فعل توني بلير في إنجلترا؟

تعرَّضَت سيجولين لكثير من النقد الموضوعي وغير الموضوعي. لمجرد أنها امرأة تعرضَت لسخرية الإعلام الذكوري، خاصة حين حَضرَت مؤتمرًا وهي حامل في الشهر التاسع. رافقَتْها طبيبتُها خوفًا من أن تفاجئها آلام الوضع وهي في المؤتمر، أنجبَت ابنها حين كانت وزيرة البيئة. نُشرت رسوم كاريكاتيرية تسخَر منها، جعلوا لها وجهَ عجوزٍ متأنقة أنثوية من البورجوازية.

داخل حزبها الاشتراكي اتَّحدَت ضدَّها مجموعة من النساء أطلَقْن على أنفسهن اسم: «جمعية ١٤٣ متمردة»، أعلنَّ الاحتجاج على طريقة عملها، وتركيزها على أناقتها وأنوثتها وليس على برنامجها وخُططها للمستقبل.

بعد باريس سافرتُ إلى مدينة غرناطة في إسبانيا، بدعوة من جمعية الثقافات الثلاث، عنوان المؤتمر الدولي: المرأة، السياسة، الإعلام. غرناطة محاطة بالجبال، أشجارها الطويلة الباسقة الرشيقة. من نافذتي بالفندق أُطلُّ على قصر الحمراء، تجوَّلَت داخل القصر في اليوم التالي، في الليل دُعيتُ إلى حفل غناء ورقص وموسيقى.

في الطائرة من برشلونة إلى القاهرة، حضرتُ اجتماع المنتدى الاجتماعي الدولي. يتبارى الكثيرون لإلقاء الخطب الرنَّانة، لا أميل إلى هذه الاجتماعات التي يسودها التنافُس، والتحزُّب، والتشدُّق بكلماتٍ ثورية. تنبأتُ بفشل هذا المنتدى الاجتماعي الدولي الثوري. تسيطر عليه مجموعة أفراد في فرنسا، وفرقٌ أخرى من عددٍ من البلاد. تنفستُ الصُّعَداء بعد انتهاء المؤتمر. أخذتُ إجازةَ يومٍ واحد، تجوَّلْتُ في شوارع برشلونة، أجملها شارع الهمبرا، يقود إلى البحر وتمثال كولومبس. جلستُ في أحد المقاهي المطلة على البحر، أرشف النبيذ الأحمر مع الفول السوداني، وأقرأ الصحف. الشمس دافئةٌ حنونة رغم الشتاء، تشبه الشمسَ في الوطن شهر يناير، نسمة البحر لها رائحة الإسكندرية. طلبتُ

صحنًا من السمك المشوي، لكن الأخبار في الصحف بدَّدَت روعة اللحظة الحاضرة. أودُّ ألا أقرأ شيئًا عن عالم السياسة، تفسد السياسة حياة الناس، ولا تكُفُّ الحروب والحرائق والجرائم تحت أسماءٍ بريئة مثل الديمقراطية أو الحرية أو العدل أو الله، كم من دماءٍ تُراق في الحروب الطائفية الاستعمارية الجديدة!

الفصل الرابع

أملي بعالمٍ أفضل

في الطائرة إلى مونتريال، كندا

الأحد ٥ يوليو ٢٠٠٩م

تعيش الطفلة في أعماقي رغم مرور العقود، أمامي عامان اثنان فقط لأبلغ الثمانين من العمر، أُطِل من نافذة الطائرة على الجبل الأخضر والوديان الممدودة الخضرة، أَعشَق خُضرة الزرع والشجر منذ الطفولة. كنتُ أفرح بركوب القطار من قريتي إلى المدينة، أصبحتُ أفرح بالتحليق فوق السحاب وأنتقل من قارة إلى قارة، يطغى الفرح بالطيران على الخوف من السقوط وتهشيم عظام رأسي. في طفولتي كنتُ أحلم بالطيران مثل العصافير، تنبُت لي أجنحةٌ ما في النوم، أو ذراعاي أُحرِّكهما في الهواء فيرتفع جسمي إلى أعلى مُحلقًا في الجو، وأسأل الله لماذا لم يخلقني عصفورةً بل خلقني بنتًا لها جسدٌ عاجز عن الطيران يحيض بالدم الفاسد كل شهر.

تبتسم المضيفة في وجهي وتسألُني بالفرنسية: ماذا تشربين يا مدام؟ تذكرتُ أنني في طريقي إلى كندا الفرنسية، اسمها الكيبيك وعاصمتها مونتريال، قرأتُ شيئًا عن تاريخ الكيبيك، جاء الفرنسيون إلى كندا قبل الإنجليز واستعمروها، كما حدث في أمريكا، احتل الفرنسيون شاطئ فلوريدا قبل الإنجليز، وشاطئ كارولينا وغيرها من الأراضي الأمريكية، لكن الإنجليز حاربوا الفرنسيِّين وانتصروا عليهم. تمَّ تغيير النشيد القومي الفرنسي إلى النشيد الإنجليزي «يا رب احفظ الملكة»! وتم فرض اللغة الإنجليزية وإزالة الأسماء الفرنسية من الشوارع والمدن، ما عدا بعض الأسماء الفرنسية الباقية حتى اليوم في بعض الولايات المتحدة الأمريكية، مثل ديترويت، دي مواء، سان ليوي. تقاوم هذه الأسماء الفرنسية الهزيمة أمام الإنجليز حتى اليوم.

نَجحَتِ الكيبيك الفرنسية الكندية في المقاومة إلى حدٍّ ما ضد الإبادة الكاملة بالآلة العسكرية البريطانية، وبقي الحكم الفرنسي حتى اليوم، إلى جانب الحكم الإنجليزي في الكيبيك، وبقيَتِ اللغة الفرنسية هي اللغة الغالبة في مونتريال وأغلب مدن الكيبيك، وسادت اللغة الإنجليزية في الأجزاء الأخرى من كندا.

أيُّ تاريخٍ دموي بين الفرنسيين والإنجليز، لا يقل دموية عن تاريخ الكاثوليك والبروتستانت في العصور الوسطى. لم تتطور عقول البشر كثيرًا رغم مرور القرون. كانت الكيبيك الفرنسية محاصرةً بجيش الإنجليز أثناء الصراع بينهما لاحتلال كندا واستعمارها، كان الإنجليز من أكلَة لحم الحصان، والفرنسيون لا يأكلون الخيول لسببٍ غير معلوم. المهم أن الفرنسيين وجدوا أنفسهم محاصرين بأكلة الخيول، أصبح الخوف يسودهم بطبيعة الحال، هزمهم الخوف أكثر من أي شيءٍ آخر، أصبح الإنجليز أصحاب السلطة في الكيبيك، كان اللحم شحيحًا في ذلك الوقت. أقام الفرنسيون مأدبة غداءٍ للإنجليز من لحم الحصان كنوع من النفاق، دفعهم الخوف من الشنق إلى أكل هذا اللحم رغم الغثيان. كانت الطبقة الحاكمة الإنجليزية هي التي تأكل لحم الحصان، وتُحرِّمه على الجنود وسائر الشعب من الفقراء العاملين الكادحين.

في القرن السابع عشر قام صراع وجدلٌ عنيف في الكيبيك الفرنسية المناضلة ضد الإنجليز، حول أكل لحم كلب البحر (البيفر)، هل هو لحمٌ حلال أم حرام؟ كان الكاثوليك يُحرِّمون أكل اللحم ١٤٠ يومًا في السنة، ويبيحون أكل السمك. اشتعل الجدل بين رجال الدين في الكيبيك وفي العاصمة الكبرى باريس، وفي السوربون، جلس القسس ورجال الدين بعمائمهم ومسوحهم ولحاهم وشواربهم، يتناقشون حول معضلةٍ هامة هي: هل كلب البحر (البيفر) من فصيلة السمك أو فصيلة الحيوان؟ رأى بعضهم أن البيفر له ذيل سمكة، وقرَّروا أنه من فصيلة السمك ويُباح أكله. البعض الآخر رأى أن البيفر له رأس حيوان وبالتالي يجب تحريمه حسب الشريعة الكاثوليكية ١٤٠ يومًا في السنة، هكذا استمر الصراع بين الفِرَق المسيحية. كان شعب كيبيك الفقير يأكل ما يمكن أن يأكله ليسد الجوع، دون حاجة إلى قرار رجال الدين، يتغلب جوع المعدة في الإنسان على أي دين. كانت كلاب البحر (البيفر) متوفرة، تَسبَح بالآلاف في الماء، يصطادها الناس ويأكلون لحمها اللذيذ، يشوونه على نار المحرقة. تتصاعد رائحة الشواء إلى الرب في السماء، يتشممها الرب بلذةٍ عارمة، ويطالب عبيده بتقديم القرابين إليه لحمًا مشويًّا وليس أي شيءٍ آخر. أجل، لم يكن الرب يتقبل (كما جاء في كتابه المقدَّس) إلا لحم الحيوان المشوي، أما القرابين

الأخرى من الخضراوات أو الأسماك أو الثعابين فكان يرفضها وهو يمط بوزه إلى الأمام، في وجه من يُقدِّمها من البشر.

هل صدر قرار باريس بتحريم أكل اللحم؟ لا، لا، صدر القرار أن كلاب البحر من فصيلة الأسماك، بسبب ذيلها السمكي الأكيد، وبالتالي فإن أكلها حلالٌ حلال. بالهناء والشفاء. هكذا خضع القرار السماوي في نهاية الأمر لقرار البطون الجائعة فوق الأرض. وبعث قرار باريس السرور في الكيبيك المستعمرة الفرنسية في كندا.

في مطار مونتريال، كان في انتظاري مجموعة من الشباب والشابات الكنديات العربيات، الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين إلى كندا، من فلسطين ولبنان وسوريا والعراق ومصر وتونس والجزائر والمغرب، هاجروا من بلادهم هربًا من القهر، أو طلبًا للعمل أو التعليم. حملَتْني «مريم» الجزائرية في سيارتها إلى الفندق، حكت لي في الطريق قصة حياتها، كيف جاءت من الجزائر إلى كندا هاربة من جحيم الأهل والزوج، كانت في العشرين من عمرها، أُمًّا، تحمل طفلها يحبو وطفلتها ترضع، قادتها إحدى الجمعيات الخيرية إلى الكنيسة، أعطاها القسيس دروسًا في المسيحية، قال لها: المسيحية أكثر إنسانية من الإسلام، لم يكن المسيح يؤمن بقتل الكفار مثل نبي الإسلام، لا يمكن للزوج أن يُطلِّق زوجته أو يضربها كما فعل زوجك المسلم، ردَّد لها أقوال المسيح: من ضربك على خدِّك الأيمن فأدِرْ له الأيسر. قال لها: اسمعي يا مريم، إن أصبحتِ مسيحية سيكون من السهل لك الحصول على عمل في مونتريال، ليكن اسمك ماري بدلًا من مريم.

وأطلقت مريم الجزائرية ضحكةً مرحة وحرَّكَت رأسها ناحيتي. مالت بنا السيارة وكادت تسقط في النهر، قلتُ لها: لا أريد أن أموت في حادث سيارة في مونتريال. قالت مريم: لا أريد لك الموت بأي شكلٍ يا دكتورة، لولا كتابك الذي قرأتُه بالعربية في الجزائر وأنا تلميذة في الثالثة عشرة من عمري لصدقتُ كلام هذا القسيس واعتنقتُ المسيحية، لكن كتابك كشف لي كيف تقوم الأديان على العبودية والعنصرية وليس الحرية، على إبادة الآخرين غير المؤمنين بإله موسى أو المسيح أو محمد، على قهر المرأة وإخضاعها لسلطة الرجل، على الطاعة العمياء وليس الجدل أو الفكر النقدي الخلَّاق. لولا كتابكِ لَمَا تحرر عقلي من سجن الدين والدولة. جميع الدول، بما فيها كندا، لا تحكم بالعدل. منذ جئتُ إلى مونتريال منذ سبعة وعشرين عامًا قررتُ الكفاح، من أجل تعليم نفسي، والعمل ليلَ نهارَ لأبني مستقبل طفلي وطفلتي، حصلتُ على الدكتوراه في الأدب، وأصبحتُ أستاذة في الجامعة، ابني أصبح محاميًا وابنتي مهندسة، قرأتُ كتابكِ وأنا

تلميذةٌ صغيرة في الثالثة عشرة من عمري، ولم تفارق كلماتك عقلي، كان حلم حياتي أن أُقابلك يا دكتورة، ابني وابنتي يريدان مقابلتك أيضًا. في الجامعة أدرِّس كتبك للطلاب والطالبات، غدًا سأكون في محاضرتك، وقد دعوتُ إليها كل طلابي وطالباتي وزملائي وزميلاتي وصديقاتي الكنديات والعربيات. سيكون العدد كبيرًا غدًا والقاعة ليس بها إلا ثمانمائة مقعد.

تأخَّرتِ المحاضرة عن موعدها نصف ساعة، بسبب الزحام عند الباب، اضطُر الكثيرون إلى الجلوس على الأرض أو السلالم أو النوافذ، تأملتُ الوجوه ومئات العيون التي ترمقني باستغراب، أو استطلاع. ماذا يمكن أن تقوله هذه الكاتبة المصرية؟ ولماذا يسعى إلى سماعها كل هؤلاء الرجال والنساء، من مختلف الأعمار، من مختلف البلاد والأديان والأجناس؟

أندهش أنا نفسي كل مرة في كل محاضرة يدهشني هذا الإقبال والحماس، في أي بلدٍ أسافر إليه، من إندونيسيا إلى أستراليا إلى أفريقيا وآسيا إلى أوروبا والأمريكيَّتَين. تُرجِمَت كتبي إلى لغات العالم، لكنني لا أُجيد إلا العربية والإنجليزية، وبعض الفرنسية التي درستُها في المدرسة الابتدائية في الإسكندرية لمدة ثلاثة أعوام خلال الثلاثينيات من القرن العشرين.

في الصف الأول تعرفتُ على وجوهٍ مصرية، نساء ورجال لم أرَهْم منذ أربعين عامًا وأكثر، أقباط ومسلمون ويهود، هاجروا من مصر في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، أصبح بعضهم أساتذة في الجامعات، أغلبهم من رجال الأعمال الأثرياء. كان بعضهم من أقارب الأُسرة المالكة أيام الملك فاروق، أو الملكة فريدة، أو الملكة ناظلي أو الأمراء والأميرات. لم أتخيل في طفولتي وأنا أسمع الراديو يغني: «ملك البلاد يا زين يا فاروق يا نور العين.» أو أسمع شيخ الأزهر الأكبر في صلاة الجمعة يدعو لصاحب الجلالة الملك المعظم «أن يحفظه الله ذخرًا للبلاد مدى العمر.» لم أتخيل أنه سيأتي يومٌ ألقى فيه محاضرة على بشرٍ تجرى في عروقهم دماءٌ ملكية من نسل السلطان فؤاد، ومحمد علي باشا، القائد الألباني، الذي حكم مصر وأذلَّ شعبها، مثل غيره من الحكام.

أُحملق في العيون والعيون تُحملق فيَّ، دائمًا أبدأ محاضرتي بالنظر إلى الوجوه أمامي، أتأمَّلهم قليلًا، أحاول دراسة الجمهور الذي سأخاطبه، أستوحي من نظراتهم بعض الأفكار الجديدة، أو أتذكر أشياءَ قديمة، لكني أبدأ دائمًا بـ: «هنا والآن»، ماذا يشغل النساء والرجال في مونتريال، في كندا، في أمريكا، في بلادنا العربية، وغيرها من بلاد

العالم، إنه عالمٌ واحد يحكمه نظامٌ واحد رأسمالي أبوي مسيحي يهودي وإسلامي، رغم الاختلافات الطفيفة بين الأديان تدور تحت لوائها الحروب الدموية منذ بداية التاريخ حتى اليوم.

ودارت محاضرتي بإيجاز حول هذه النقاط:

تناقُضات العالم الرأسمالي الديني ما بعد الحديث، كيف يفقد العقل قدرته على التفكير؟ كيف يلعب التعليم الأكاديمي دورًا في قتل الإبداع؟ كيف يؤمن الإنسان، منذ الطفولة، باللامعقول ولا يرى التناقُضات في قوانين الدولة والدين، القيم المشتركة بين الأديان، ومنها قهر النساء، علاقة السياسة بالدين والجنس والاقتصاد، كيف يُزيف التاريخ؟ كيف يُؤدِّي التعليم الديني في الطفولة إلى اضمحلال العقل النقدي؟ كيف يعمل الاستعمار الجديد تحت زعامة البيت الأبيض في واشنطن؟ لماذا يحتاج هذا النظام إلى الأديان، ويُشجِّع تصاعدها السياسي في كل بلد في العالم؟ هل بن لادن وجورج بوش وجهان لعملةٍ واحدة؟ ما سر هذه الحروب المتتالية في أفغانستان؟ أهو الصراع حول المزرعة الكبرى للمخدرات؟ أفغانستان تنتج سنويًّا ما يزيد عن ٣٠٠ طن هيروين، تحت حماية جيش الاحتلال الأمريكي. تحمل الطائرات الحربية أطنان المخدرات إلى كل أنحاء العالم، بمكسب مائة ألف ضعف التكلفة تقريبًا. تكلفة زراعية كيلو جرام الأفيون ألف دولار تقريبًا. يُباع في السوق الحرة العالمية بمائة ألف دولار وأكثر، يتحول الأفيون إلى مورفين ثم إلى هيروين، لتصبح تجارة المخدرات المصدر الرئيسي الثالث لأرباح الرأسمالية الدولية، يأتي ترتيبها بعد تجار السلاح وتجارة الجنس والرقيق الأبيض. وكم تتستَّر هذه الحروب الاقتصادية تحت اسم الله أو الحضارة والديمقراطية. وكما انتعش الاقتصاد البريطاني بتجارة الأفيون خلال احتلال الإنجليز للصين في الماضي، ينتعش في الحاضر الاقتصاد الأمريكي بتجارة الأفيون والحشيش والهيروين، ثم يذهب باراك أوباما إلى القاهرة ليُلقي خطبة يوم ٤ يونيو ٢٠٠٩م يرتدي فيها مسوح البابا الأكبر أو شيخ الأزهر، ويتلو الآيات المقدسات من التوراة والإنجيل والقرآن. يترحَّم بالدموع في عينيه على ضحايا اليهود في القرن الماضي، ولا تفرُّ من عينيه دمعةٌ واحدة أو نصف دمعةٍ على ضحايا هذا القرن من الفلسطينيين. وترتدي هيلاري كلينتون الحجاب الإسلامي، وتغمز بطرف عينها إلى نتانياهو في تل أبيب. وهكذا تحدُث اليقظة أو الصحة الدينية في كل بلاد العالم، تحت رعاية الاستعمار الرأسمالي ما بعد الحديث، وهكذا يشتد القهر الواقع على النساء والأطفال والفقراء في ظل الأديان السماوية الثلاثة.

كنتُ أرتدي قميصًا باهت اللون وحذاءً قديمًا، بعد المحاضرة سألَتْني إحدى الأستاذات الأكاديميات المتأنقات: كيف أُلقي المحاضرة على الجماهير بهذا القميص الباهت والحذاء القديم؟ قلتُ لها: المهم بالنسبة لي أن يُفكِّر الناس بعقولهم، وليس بما أرتدي من أحذية أو قمصان.

تكلمتُ خمسين دقيقة وأعطيت النقاش ساعة وعشرين دقيقة دائمًا أعطي وقتًا للمناقشة والحوار أكثر من وقت المحاضرة، كما أفعل مع طلابي وطالباتي في الجامعة. يقتضي التعلم الحوار بين الجميع والنقاش المتعمق، أكثر من التلقين بواسطة المُحاضر أو المتحدث، أو المتحدثة.

قالت فتاةٌ كندية ترتدي حول عنقها كوفيةٌ فلسطينية: «هاربر» (رئيس وزراء كندا) مثل «جورج بوش» يُشجِّع التيارات المسيحية الأصولية في كندا، من أجل نهب الشعب بواسطة الشركات الرأسمالية والبنوك، الأزمة الاقتصادية سببها هذه المؤسسات القائمة على الجشع، نشأَتِ الأزمة بسبب التلاعُب في الأسواق والبورصات ومدخرات الناس في البنوك. بدلًا من أن تضع الحكومة يدها على هذه البنوك والمؤسسات وتحجم شهوتها للربح، إذا بها تضخُّ إليها مليارات الدولارات على حساب الشعب الكندي. تمَّت مكافأة اللصوص بأموالنا نحن الفقراء الكادحين. زاد التديُّن المزيَّف في كندا وزاد معه قهر المرأة، بالضبط كما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية في ظل إدارة جورج بوش الأب والابن، (والروح القدس). في كندا زادت البطالة واتسعَت الهوة بين الأغنياء والفقراء، وبين النساء والرجال. تُشجِّع الحكومة الأديان تحت اسم الحرية والديمقراطية؛ زادت أعداد الكنائس والجوامع والمعابد اليهودية، تعتمد الدولة على تحجيب العقول بواسطة الأديان، حماية للرأسمالية والاستغلال الطبقي والجنسي. أَصبحَت التجارة بالجنس في العالم خمسمائة مليار دولار سنويًّا، وهي المصدر الثاني للربح للرأسماليين، قبل التجارة بالمخدرات وبعد التجارة بالأسلحة. أي عالم هذا الذي نعيش فيه؟ أتفق مع كل ما قِيل في المحاضرة عن الترابُط بين الدين والمال والسلاح والاستعمار وتجارة الجنس والمخدرات، وسيطرة الرجال على النساء. نحن نعيش في عالمٍ واحد تحكمه القوة وشريعة الغابة، لا يختلف النظام في كندا عنه في أمريكا أو أوروبا أو أي بلد في العالم.

كان موت مايكل جاكسون هذه الأيام يشغل الإعلام والرأي العام، في مونتريال وكندا مثل أمريكا وأوروبا، يحمل لقب ملك البوب، ملك الغناء والرقص. حتى في موته ظل مايكل جاكسون يجذب الملايين، أوقفَت جنازته المرور في كاليفورنيا، كما كانت حفلاته

تُوقِف المرور في الشوارع، مثل الإقبال على مباريات كرة القدم والبيسبول، يمتلئ الاستاد بالملايين. تسعى الدول الرأسمالية إلى إبعاد الشباب عن التفكير في فساد الحكم، بمشاهدة المباريات والمبارزات بين الديوك أو الثيران أو أفلام الجنس والجريمة، أو الرقصات العارية الخليعة. أي شيء، وكل شيء حتى لا يُفكِّر المقهورون والمقهورات بالقهر الواقع عليهم، تحت أسماءٍ جميلة منها الله أو الوطن أو الحرية أو الديمقراطية، وكم من دماءٍ أُريقت تحت هذه الكلمات الجميلة!

راح مايكل جاكسون ضحيةَ نظامٍ رأسمالي غير إنساني يحمل يافطةً إنسانية. غيَّر مايكل جاكسون لون بشرته السوداء أكثر من مرة، أجرى له أطباء التجميل عشرات العمليات الجراحية، لتغيير شكل أنفه، وشفتَيه، وجفنَيه، وحاجبَيه، وبشرة وجهه وعنقه ويدَيه ورجليه، كسب الأطباء منه الملايين ليُشوِّهوا وجهه الطبيعي، ليجعلوا منه مسخة أو نسخةً صناعية رديئة. رأيتُ صورة مايكل جاكسون في طفولته، كان جميلًا جذابًا فنانًا بالفطرة، أفسدوا فطرته وفنَّه تحت اسم الحداثة وما بعد الحداثة الرأسمالية. استنزف المحامون أمواله التي كسبها من فنه في قضايا أخلاقيةٍ مصنوعة، منها الجنس ومنها المخدرات، هكذا عاش ومات هذا الفنان الأصيل ضحية نظامٍ سياسي فاسد، قادر على إفساد الجميع، لمجرد تحقيق الربح، وتراكُم المال.

راح مايكل جاكسون كما راحت مارلين مونور وغيرها من الفنانين والفنانات.

الدكتوراه الفخريَّة والتعدُّديَّة والنسبيَّة

٢٠١٠م

سافرتُ لاستلام درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة المكسيك يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠١٠م، تسلَّمتُ خلال السنوات الماضية عددًا من هذه الدكتوراهات الفخرية من جامعاتٍ مختلفة، منها جامعة ألينوي بأمريكا، وجامعة ترومسو في النرويج، وجامعة يورك في إنجلترا، وجامعة بلجيكا (الفرنسية)، وجامعة بلجيكا (الهولندية)، وجامعة سانت أندروس في اسكتلندا وغيرها. لم تنشر صحيفةٌ مصرية خبرًا واحدًا عن هذه الدكتوراهات الفخرية، رغم أن الخبر نُشر في صحفٍ عربية وأجنبية.

منذ نصف قرن وأكثر، لم تنشر صحيفةٌ حكومية في مصر خبرًا عن أعمالي الأدبية أو الفكرية، فما بالُ الجوائز الأدبية أو الدكتوراهات الفخرية التي أحظى بها من الجامعات في العالم؟ هذا يحدث لكلِّ مَن يعتبر حرية الرأي أهمَّ من السلطات الحاكمة وثرواتها وجوائزها. في طريقي من القاهرة إلى باريس ثم مدينة المكسيك أكثر من ست عشرة ساعة في الجو. في الطائرة قرأتُ الصحف المصرية والعربية والأجنبية، تستولي أخبار فوز السيدة زوجة رئيس الدولة بالدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة على الصحف المصرية جميعًا، والمقالات الطويلة عن إنجازات السيدة الأولى المتعددة في كافةِ الميادين المرموقة. يتبارى الكُتَّاب والكاتبات في ترديد مآثرها وأفضالها على الشعب المصري، خاصة الفقراء من النساء والأطفال والمحتاجين. إحدى الكاتبات البارزات في الصحافة المصرية، تتأرجح بين المعارضة والحكومة، بين اليسار واليمين والوسط، كتبت تقول إنها ابتهجت كثيرًا بهذه الدكتوراه الفخرية للسيدة الأولى، ليس رياءً لها، لا، حاشا لله كما قالت، بل لأن السيدة الأُولى امرأة، ونادرًا ما تُكرَّم النساء في بلادنا، وهي (السيدة الأُولى) تستحق هذا التقدير عن

جدارة لأعمالها العظيمة. وتفاخرت الكاتبة بشجاعتها وباعتبار نفسها معارضةً صادقة لا تنافق السلطة؛ لأن النفاق ليس من طبعها. اتصلت بي هذه الكاتبة (قبل سفري إلى المكسيك بأيامٍ قليلة) لتخبرني أن أحد الشيوخ المتاجرين بالدين في الفضائيات قد أغرقَني بالشتائم، وأنَّها استاءت منه جدًّا لأنه أنكر كفاحي الطويل لتحرير النساء في بلادنا، وأنها هي شخصيًّا قد أخذَت من أفكاري في كتاباتها، وعرفَت حقوق المرأة لأول مرة في حياتها من كتبي المنشورة. قالت عني رائدة الرائدات، ليس في مصر بل في العالم العربي كله، قالت لي: تحرَّرَت على يدك أربعة أجيال على الأقل من النساء والرجال. ثم أضافت بحماسٍ شديد: اسمعي يا نوال، هذا الرجل المُعمَّم يُشوِّه صورتك بطريقةٍ بشعة، يجب أن تردِّي عليه، وترفعي عليه قضية سبٍّ وقذف في المحكمة.

قلتُ لها: بدلًا من أن تمدحيني سرًّا، من خلال أسلاك التلفون، لماذا لا ترُدِّين عليه علنًا في الإعلام، ولكِ مساحاتٌ في الصحف والفضائيات؟ أليس الواجب عليك وعلى جمعيتك النسائية أن تُدافعن عن حقوقي المهدورة كما دافعتُ عن حقوقكن المهدورة كما ذكرتِ يا سيدتي؟

سَكتَت طويلًا ثم قالت: صحيح يا نوال، أنا مقصِّرة، والحركة النسائية المصرية كلها مقصِّرة في حقك، وسوف أنشر خبر حصولك على الدكتوراه الفخرية من جامعة المكسيك، كما سوف أكتب مقالًا عن روايتك الأخيرة «زينة»، لقد قرأتُها وأعجبتني جدًّا، هذه الرواية لم يكتب عنها أحد من النقَّاد، كلهم مُوظَّفون في الحكومة كما تعرفين.

بالطبع لم تنشر شيئًا، لا الخبر ولا المقال، بل قرأتُ مقالها (وأنا بالطائرة) تكيل المدح لجامعة القاهرة؛ لأنها مَنحَت الدكتوراه الفخرية للسيدة الأولى، كما عبَّرَت عن استيائها من تلك القلة المنحرفة (بلغة السادات) التي اعترضَت على هذا التقدير الذي يذهب لمن تستحقه.

لم أندهش لسلوك هذه الكاتبة الصحفية المرموقة (فهي تمثل أغلبية الكاتبات والكُتَّاب في الإعلام والثقافة والأدب) تحظى بلقب «الكاتبة الكبيرة» وتذهب إلى جميع المؤتمرات النسائية والثقافية، داخل مصر وخارجها. يعتبرونها من صاحبات الرأي، ينشرون رأيها في كل المناسبات العظيمة، وسوف تحظى قريبًا بجائزة مبارك، أو جائزة الدولة في الأدب أو الإعلام أو الثقافة أو غيرها.

هي من جيلٍ أصغر مني، تربَّت في ظل الانفتاح ودولة رجال ونساء الأعمال. لا ألومها ولا غيرها من النساء أو الرجال. نعيش عصرًا انقلبَت فيه القيم، المال والربح والمصالح

فوق الصدق والأمانة والوفاء بالوعد. النفاق أصبحَ حصافةً وذكاءً اجتماعيًّا. الخيانة الزوجية أصبحت وجهة نظر أو حريةً شخصية مثل النقاب والعباءة. الصدق أصبح تهورًا وقلة حكمة. التعبير عن الرأي أصبح كفرًا بالله والوطن والرئيس. التمسك بالعدل والمساواة أصبح نوعًا من الجهل وتبسيط الأمور المعقدة العميقة. أصبحَت الفهلوة فوق الموهبة، وامتلأت الساحة الثقافية والأدبية والفنية بالمهرجين والمهللين لمن يملك السلطة أو الثروة.

استعرضتُ التعليقات عن مقالي السابق في «المصري اليوم» بعنوان «فبركة الصورة لإخفاء الحقيقة المؤلمة». نقدتُ في مقالي النفاق والكذب والتغطية على الحقيقة، اتهمني أحد المتشنِّجين دينيًّا بالكفر وعدم احترام أوامر الله؛ لأن الله أمر بالستر، يعني إخفاء الحقيقة المؤلمة، فلماذا أعارض أمر الله؟ اتهمَتْني امرأة بأنني أدعو إلى السفور وكشف المستور، وهذا ضد الإسلام. قالت إن الله أمرنا بأن نظهر محاسننا، أظهروا أحسن أعمالكم والله أدرى بالسرائر.

بالطبع جاء عددٌ غير قليل من التعليقات لرجال ونساء يفضلون الصدق والصراحة والمكاشفة على الكذب والنفاق والتغطية على الحقيقة. لكني دُهشت لهذا المنطق المغلوط السائد في بلادنا لمعنى الأخلاق؛ لم تعد القيم الإنسانية العليا، مثل الصدق والعدل والحرية والوفاء بالعهد، تندرج تحت بند الأخلاق، بل أصبح كل شيء نسبيًّا، حسب نظرية أينشتاين أو تعليمات الماركسية. يمكنك أن تقول نصف الحقيقة أو الربع أو السدس، حسب اللحظة التي تمر بها. يمكنك أن تنافق رئيسك لتحافظ على موقعك وراتبك الشهري. يمكنك أن تتملَّق الحاكم حتى تأمن السجن أو النفي. يمكنك أن تخون زوجتك سرًّا حتى تستغل مواهب الاثنتَين، الزوجة والعشيقة. يمكنك أن تعقد صفقة تكسب فيها الملايين من وراء الستار. هذه كلها أمورٌ نسبية ووجهاتُ نظرٍ مختلفة ومتعددة في عالمٍ متعدِّد تسوده شركات رأسمالية، تسرق حسب قانون السوق، القانون الطبقي الأبوي الاستعماري، التعددية وحرية السوق وحرية البطش بالأضعف، الاحتلال العسكري للدولة الأصغر، التي لا جيش لها، نوويًّا أو غير نووي (مثل السلطة الفلسطينية، سلطة بلا قوة، بلا جيش، أمام قوةٍ عسكرية نووية في إسرائيل وأمريكا).

تابعتُ من المكسيك أخبار المفاوضات الهزلية بين ممثل السلطة الفلسطينية (محمود عباس) المطأطئ البطيء الخطوة، وممثل إسرائيل وأمريكا، الثنائي نتانياهو وأوباما. يسيران بخطوةٍ سريعة رشيقة، يقفزان مثل فهدَين، من ورائهما جيوشٌ نووية وأسودٌ

ذرية، وأممٌ متحدة متخفية، ومحكمةُ عدلٍ دوليةٌ منقبة، وحكوماتٌ عربية متعاونة سرًّا أو علنًا. والفاتيكان والأزهر والأرض والسماء تشهد في صمت. من يَقدِر على تحدِّي القوى النووية، والبلايين من الدولارات الأمريكية؟ وكل شيء حسب الواقعية والأخلاق النسبية وارد ومباح في ظل القانون والشرع، فهل نلوم كاتبةً مصرية لا تملك أَمرَها، وحياتُها وخُبزُها في يد زوجها أو الدولة؟

دروس في التاريخ

السبت ٤ أكتوبر ٢٠٠٨م

صحوتُ من النوم على صوت هتافٍ يأتي من بعيد، من الناحية الأخرى من مدينة أطلانطا، قُرب الساحل الشرقي للمحيط الأطلنطي جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تكون العشوائيات من ذوي البشرة السوداء، والبعض من ذوي البشرة البيضاء الفقراء، من المهاجرين ومن غير المهاجرين الذين يحملون الجنسية الأمريكية.

الحقيقة التاريخية أن جميع سكان أمريكا، شمالًا وجنوبًا، هم من المهاجرين الذين استوطنوها بعد إبادة السكان الأصليين الذين حملوا اسم الهنود الحمر، رغم أنهم لم يكونوا هنودًا ولم يكونوا حمرًا. جاء المستعمرون البيض من أوروبا إلى القارة الأمريكية الجديدة بسلاحهم ولغتهم وكنيستهم التي تؤمن أن النظام العبودي أو الطبقي الأبوي هو قانون السماء. جاءوا باسم الرب الأعلى وقتلوا الشعب الآمن المستقر، واستولَوا على الأراضي وعلى الأنهار والبحار والأشجار والمزارع والبيوت والفنون والاقتصاد والثقافة والإعلام والسلاح وكل شيء، بالضبط كما يفعل المستعمرون في كل مكان وزمان، بالضبط كما فعل الإسرائيليون بالتعاون مع الاستعمار الأوروبي الأمريكي منذ منتصف القرن العشرين، وأبادوا الشعب الفلسطيني واستولَوا على أرضه وأنهاره وثقافته واقتصاده، تحت اسمِ آيةٍ في الكتاب المقدس. فوق الجدار في غرفة نومي صورة لبعض الطالبات والطلاب في الجامعة من ذوي البشرة السمراء تكاد تشبه بشرتي، يُلوِّحون بقبضة أياديهم في غضب، أفواههم مفتوحة في هتافٍ لم أسمعه في الصورة، وإن سمعتُه منذ أكثر من أربعين عامًا في أول رحلة لي لأمريكا، كانوا يهتفون ضد جونسون (رئيس أمريكا حينئذٍ) وضد الحرب في فيتنام، مشيتُ معهم في المظاهرات في شوارع نيويورك وواشنطن، أقول معهم: يسقط جونسون ويحيا الشعب الفيتنامي.

خرجَت أمريكا من فيتنام منهزمة عسكريًّا وأخلاقيًّا، كما يحدث لها اليوم في حرب العراق. مات جونسون منذ سنين وعاش الشعب في فيتنام، وسوف يموت جورج بوش ويحيا الشعب العراقي، هذا الدرس في التاريخ لا يحفظه الحكام والملوك والأباطرة في كل زمان ومكان.

أتأمل الوجوه في الصورة، يشبهون زملائي وزميلاتي في جامعة كولومبيا في نيويورك عام ١٩٦٥م، عايشوا خلال الستينيات من القرن الماضي زعيمهم الأسود مارتن لوثر كينج، الذي وُلد هنا في مدينة أطلانطا (يسمونها المدينة السوداء) وتعلَّم في جامعتها الصغيرة وقاد حركته الكبيرة لتحرير الزنوج من الجنوب إلى الشمال، حتى تم اغتياله غدرًا وهو واقف على المنصة يخطب في الجماهير خطبته الشهيرة التي بدأها قائلًا: عندي حُلم. أصبح يوم ميلاد مارتن لوثر كينج عيدًا قوميًّا يحتفل به الشعب كله والحكومة الأمريكية، تتعطل المدارس والجامعات والأعمال والشركات والمكاتب، يكاد يشبه الاحتفال بميلاد المسيح؛ الكريسماس.

وهذا أيضًا درسٌ من التاريخ يؤكد أن من يناضل من أجل العدل والحق يبقى خالدًا وإن مات، وأن الذي يقترف الظلم والكذب يموت وإن عاش.

إن الشجاع الصادق لا يموت إلا مرةً واحدة، والكاذب المنافق الجبان يموت في اليوم الواحد آلاف المرات.

هذه هي كلمات أبي وأمي وجدَّتي الفلاحة، انحفَرَت في خلايا الأذن والعقل الظاهر والباطن منذ كنتُ في الخامسة من العمر. كلمات جلبت لي المتاعب والمشاق في حياتي كلها من الطفولة حتى تجاوزتُ السبعين من العمر، كلمات أصبحت جزءًا من جسمي، لا تفارقني وإن أشرفتُ على الهلاك أو الموت.

بين اليقظة والنوم لم أعرف من أين يأتي الهتاف، يذكِّرني بالمظاهرات الطلابية وأنا تلميذة بجامعة القاهرة خريف ١٩٥١م وشتاء ١٩٥٢م قبل قيام حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وسقوط النظام الملكي، الذي بدا لي نظامًا من عند الله لا يسقط أبدًا. أذكر أنني وجدتُ نفسي أمشي في الشارع وسط الآلاف الذين نزلوا إلى الشوارع يهتفون: تحيا الثورة، تحيا مصر حرة.

غمرني وأنا في سريري إحساسٌ بالدفء، كأنما أعود شابة في العشرين من عمري في بيتي في مدينتي القاهرة، لم أعُد كهلةً تعيش المنفى في مدينة أطلانطا، عاد إليَّ الإحساس بالشباب والحماس، حتى فتَحتُ عيني ورأيتُ التاريخ ٤ أكتوبر ٢٠٠٨؟

هل انقضى ستة وخمسون عامًا في نصف دقيقة ما بين النوم واليقظة؟ أيلعب الزمن لعبته المراوغة معي منذ الولادة حتى نهاية العمر؟ يرتدي الزمن قناعًا خادعًا مثل الزوجَين في شهر العسل، حتى مرحلة النضوج الأخيرة، يسقط فيها القناع عن الزمان والمكان والوجوه.

فتحتُ النافذة المطلة على الأشجار الداكنة الخضرة المبللة بمطر الهوريكين، تحمل الهوريكين اسم امرأة دائمًا من كاترينا إلى كارولينا إلى إيكا، مثلما تحمل المراحيض أسماء أمل وهدى ونهاد فوق أحواضها الناعمة من السيراميك الصيني أو الإيطالي أو الفرنسي أو الإنجليزي أو الأمريكي، قد تختلف البلاد في الثقافات أو الحضارات أو الأديان أو العلوم أو الفنون، إلا أن نظرتها للنساء تكاد تكون واحدة. قد تصعد المرأة إلى المنصب رئيسة دولة أو رئيسة حكومة أو برلمان أو وزيرة خارجية أو وزيرة حربية إلا أن أغلب النساء في بلادهن لا يحظين أبدًا بالحقوق الإنسانية المتساوية مع حقوق الرجال. لا تزال المرأة الأمريكية تناضل لتحصل على الأجر المتساوي مع الرجل عن العمل المتساوي. أما الحرية الجنسية السائدة دون الحريات الأخرى الاقتصادية والأخلاقية فهي تؤدي إلى تعاسة النساء الأمريكيات في الحب والزواج والعمل وفي كل شيء.

كان الهتاف يأتي من بعيد من ناحية الجنوب، لم ألتقط الكلمات أو اللغة، فارتديتُ ملابسي وخرجتُ إلى الشارع، يجذبني الهتاف الجماعي منذ طفولتي إلى الخروج إلى الشارع، إلى السير بين الآلاف المؤلفة، إلى كسر القيود والانطلاق إلى الأفق المفتوح إلى ما لا نهاية، كانت شمس الصباح دافئة في شهر أكتوبر، الخريف أجمل الفصول، راح حر الصيف ولم يأتِ بعدُ برد الشتاء. أشعة الشمس تلامس وجهي كأنامل أمي، أشم رائحتها في نسمة الخريف الحنون، أعود إلى الوطن دون مشقة السفر؛ لأن أمي هي الوطن في حياتها وموتها، في حضورها وغيابها.

سِرتُ في الشارع مارتن لوثر كينج حتى تقاطعه مع شارع الجامعة، رأيتُ المظاهرة وهي تسير مع دقات الطبول والموسيقى واللافتات المرفوعة، أكثرها ارتفاعًا تقول: يسقط جورج بوش وجون ماكين وسارة بالين.

حشد من الشباب من جميع الأشكال والألوان، سود وبيض وصفر وسمر وخضر وزرق، من الجنسين، الذكور والإناث، ومن الجنس الثالث. تذوب الأنوثة في الذكورة، والجنس الرابع لا يذوب في أي جنس أو جنسية أو هوية، والجنس الخامس يتعرى إلا ما يستر العورة، والجنس السادس يعتبر كل ما فيه عورة حتى الوجه والكفان.

نعم، رأيتُ بعض الشابات يرتدين النقاب الأسود الكامل وبعضهن بالحجاب أو الإيشارب الذي يغطي شعر الرأس فقط، لا يتدخل أحد هنا فيما لا يعنيه، وإن تعرَّت فتاة أو تغطت فلا أحد ينتبه للعُري أو التغطية، وإن غاب اثنان منهما في قبلةٍ شهوانية طويلة أو ما هو أكثر من القبلة، اثنان وليس فتاة وفتى؛ إذ قد يكون الاثنان من جنسٍ واحد أو جنسٍ مختلف، لا أحد يتدخل.

هذه هي الحرية الوحيدة هنا تقريبًا، وهي تحدث تحت اسم حرية الاختيار، حرية اختبار ملابسي ورفيقي أو رفيقتي في السرير، حرية اختيار لون الروج الذي ألون به شفتي، أحمر أو أزرق أو بنفسجي، حرية اختيار العملية الجراحية التي أُخفي بها تجاعيد وجهي لأجعل أنفي أصغر أو ثديي أكبر أو جفني أوسع. وماذا عن حرية الحصول على عمل؟ وماذا عن حرية البقاء في عملي وعدم التعرض للطرد في أي وقت؟ في شهر سبتمبر الماضي ٢٠٠٨م طرد من وظائفهم مائة وثمانون ألفًا من النساء والرجال دون خطأ فعلوه.

خرجَت المظاهرة من شارع مارتن لوثر كينج ثم دخلَت إلى شوارعَ صغيرة، حيث يتكدس الفقراء في عشوائياتٍ أشبه بعشوائيات الوطن، لم أشعر بالغربة وأنا أمشي داخل هذه الأزقَّة، تشبه الحواري بجوار بيتي في شبرا. تتعثر قدماي في أكياس القمامة وبراز الكلاب؛ فالفقراء هنا يتشبهون بالأغنياء في اقتناء الكلاب، لكنها كلابٌ هزيلة جرباء تعني نقصان الغذاء، تشبه أطفالهم وعجائزهم، كيف يصبح وجه الكلب شبيهًا بوجه صاحبه؟ مثل وجه الزوجة أو الزوج يصبح كلٌّ منهما شبيهًا بالآخر من طول الزمن معًا تحت سقفٍ واحد.

بالأمسِ رأيتُ كابوسًا في النوم بعد أن قرأت عن الحرائق في الوطن، كأنما حريق شب في بيتي، أو هوريكين متوحشة خطيرة جاءت من المحيط واخترقت السقف، الليلة السابقة قبل الأمس انتفضتُ من نومي واقفة فوق القدمَين الاثنتَين. كنتُ أمشي على قدمٍ واحدة طوال الأسبوع الماضي، بعد أن رأيتُ إعلانًا في التلفزيون عن نوع من أمراض العظام الخبيثة، انقضَّ السرطان على قدمي اليمنى أثناء نومي، وأصبحتُ أعرج في مشيتي حتى رأيتُ الحريق في المسرح القومي فانتفضتُ واقفةً فوق القدمَين، شُفيتُ من سرطان العظام، فالسمُّ لا يعالج إلا بسمٍّ أشد.

أصبحَت المظاهرة في حديقةٍ كبيرة خضراء تُشبه هايد بارك في لندن، وقام أحد الشباب واقفًا فوق صندوقٍ خشبيٍّ كبير يخطب في الحشد المتجمع، شعره أسودُ أكرت،

بشرتُه سمراء ليست سوداءَ تمامًا، يرتدي قميصًا أسود عليه صورة باراك أوباما بألوان زاهية.

أقول لكم يا زملائي وزميلاتي إن الكارثة التي جلبَتْها لنا إدارة جورج بوش وحزبه الجمهوري ليست اقتصاديةً فقط، ليست فقط انهيار سوق العقارات وسوق الأموال والبورصة والبنوك والشركات الكبرى، بل هي أيضًا كارثةٌ سياسة واجتماعية وأخلاقية. إننا نشهد مرحلةً تاريخية هامة يتغير فيها النظام العالمي تغيُّرًا جذريًّا. إن القوة العظمى الأمريكية تتهاوى، هذه القوة التي تصاعدَت بعد الحرب العالمية الثانية. نحن نشهد اليوم تساقُط الإمبراطورية الأمريكية، هزيمتها الكبرى العسكرية في العراق وأفغانستان، وهزيمتها الاقتصادية، سقوط نظامها الرأسمالي وسوقها الحرة. ما نشهدُه اليوم هو أخطر من ضربة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م التي أسقطَت بُرجَي التجارة العالمية في نيويورك. يقولون لنا إن جشع وول ستريت هو سبب الكارثة، لا، لا، ليس الجشع بل النظام الذي يمنع السيطرة على الجشع، التسيُّب والفساد وإطلاق العنان للربح دون حدود، دون قوانينَ تسري على الجميع، الكبار والصغار بالتساوي. لقد بطش الكبار وأصحاب الأموال بنا، سمحَت لهم الحكومة بذلك من خلال قوانينَ مزدوجة، تُفرِّق بين الأثرياء والفقراء، تحمي الأثرياء وتجعلهم يضاعفون أرباحهم على حساب مصالح الملايين. جميع الإمبراطوريات في التاريخ صعدَت إلى القمة، ثم هوت واندثَرت بسبب الطموح العسكري المريض والديون الخارجية؛ هذا بالضبط ما حدث للإمبراطوريات البريطانية والعثمانية والرومانية، وهذا ما يحدث لنا اليوم. إنها أكبر أزمةٍ اقتصادية نمرُّ بها بعد الأزمة الكبرى في الثلاثينيات من القرن الماضي. خسِرَت بلادنا في هذه الأزمة أكثر من تريليون دولار، الديون الخارجية بلغت عشرة تريليون دولار، العجز في الميزانية الفيدرالية تضاعف إلى نصف تريليون دولار، خمسة ملايين شخص أصبحوا تحت خط الفقر، مائة وثمانون ألف شخص فقدوا وظائفهم خلال الشهر الماضي سبتمبر، سبعة ملايين شخص بدون تأمين صحي، وها هو بوش وماكين وحزبهما الجمهوري يُحوِّلون عبء الضرائب وعبء الأزمة من فوق كاهل الأثرياء إلى فوق كاهلنا نحن الفقراء الكادحين. إنهم يحاولون إنقاذ أصحاب الأموال والسوق والبنوك والشركات الخاسرة على حسابنا نحن، على حساب حياتنا وصحتنا، وعلى حساب حماية البيئة وتطوير التعليم وتدعيم البناء التحتي الأساسي للمجتمع الأمريكي. لقد أنفقنا في حرب العراق وأفغانستان ٧٠٠ بليون دولار، وقُتل من جنودنا أربعة آلاف شاب، وجُرح ثلاثون ألفًا، غير الملايين من أرواح الشعبَين العراقي

والأفغاني، فكيف نستمر في حربٍ خاسرة؟ كيف نضاعف ميزانية الحرب ونحن نعاني أكبر كارثةٍ اقتصادية؟ كيف نستمر في إنفاق عشرة بلايين دولار كل شهر في حرب العراق؟ أليس ذلك هو جنون الأباطرة ورعبهم قبل السقوط؟ أثناء حرب فيتنام لم تتدهور صورة أمريكا في نظر العالم كما هي تتدهور اليوم. الأمل الوحيد أمامنا هو أن ننتخب باراك أوباما في نوفمبر، رغم تنازلاته الأخيرة، رغم أخطاء حزبه الديمقراطي المتكررة، رغم أنه جزء من النظام السائد إلا أن كل شيء نسبي، وهو أفضل بكثير من جون ماكين، الذي هو امتداد لسياسة جورج بوش، وحزبهما الجمهوري الذي سلبنا الأمان الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. هذه الحكومة الإرهابية التي ترهبنا تحت اسم الحرب ضد الإرهاب، حكومة تستمد قُوتها من العنف والتجسُّس والتعذيب، إنها وصمة في جبيننا أن يتم القبض على الأبرياء لمجرد الشبه وتعذيبهم في السجون، في غوانتنامو أو في سجون العراق أو هنا داخل أمريكا؛ هذا السقوط الأخلاقي أضاع كرامتنا في العالم، أصبحَت صورتنا مثل الوحوش في الغابة.

تتابعَت الكلمات والخُطب من الشابات والشباب، بعضهم يؤيد ما قِيل والبعض يعارض، أغلبهم ضد حرب العراق لكنهم ليسوا ضد الحرب في أفغانستان أو باكستان أو أي بلدٍ آخر للحفاظ على مصالح أمريكا، أو للقبض على الإرهابيين، على رأسهم أسامة بن لادن، بعضهم من التيارات الاشتراكية اليسارية الذين يعارضون التسليح النووي المتصاعد في العالم بسبب التسلُّح الأمريكي النووي وغير النووي، ميزانية الحرب في أمريكا وحدها تبلغ ٧٠٠ بليون دولار، ما يساوى ميزانيات الحرب في جميع بلاد العالم. أما الأسلحة النووية الأمريكية فهي تمثل ٩٥٪ من الأسلحة النووية في العالم مع أسلحة روسيا النووية. أما إسرائيل فهي الدولة الوحيدة المسلحة نوويًّا في الشرق الأوسط. يعارض الجناح الاشتراكي داخل الحزب الديمقراطي مرشَّحه للرئاسة باراك أوباما، الذي يؤيد إسرائيل على طول الخط، ويؤيد النظام الرأسمالي الطبقي الأبوي.

بعض الشابات الاشتراكيات دافعن عن أوباما وقالت فتاةٌ متحمسة ترتدي بلوزةً شفافة تكشف عن نهدَيها، بصورة أوباما متربعة على النهد الأيسر فوق القلب مباشرة، هتفَت الفتاة قائلة: أوباما اشتراكي ماركسي أيها الزملاء والزميلات لكنه يستخدم التكتيك في الانتخابات حتى يصل إلى الحكم فيستطيع الوفاء بوعوده الاستراتيجية في التغيير الكامل. انبرت لها فتاةٌ أخرى من الكتلة المسيحية الأصولية تغطي رأسها بإيشاربٍ خفيف جدًا يُطيِّره الهواء، وهتفَت قائلة: لا نريد ماركسيين ملحدين أيها الزميلات والزملاء، نريد جون ماكين المؤمن بالمسيح وبنظريَّة الخلق الواردة في كتاب الله.

وهنا اختلطَت الصيحات، بعضها يؤيد وبعضها يعارض. صعد أخيرًا فوق الصندوق شابٌّ طويل نحيف فوق خده الأيسر حسنةٌ سوداء بحجم حبة زيتون أسود، وألقى كلمة عن خطأ نظرية الخلق الواردة في الكتاب المقدس، التي تقول إن الكون خُلق في ستة أيام، مع أن علم الكون الجديد أثبت أن الكون بدأ منذ خمسة عشر بليون عام نتيجة تصادُم جزيئاتٍ ذرية لا متناهية الصغر لا متناهية السرعة، أضعاف سرعة الضوء. وقد أدَّى هذا التصادُم إلى البيج بانج؛ أي الانفجار الكبير، الذي نتجت عنه سخونةٌ شديدة أضعاف سخونة الشمس ثم حدث التبريد الشديد مئات الدرجات تحت الصفر، وهكذا تكونت المادة الأولى لهذا الكون الذي نعيش فيه. دب الصمت طويلًا والعيون مُبحلِقة تحاول الفهم، ثم وقفَت فتاة ترتدي طرحةً سوداء حول رأسها وتكشف عن الجزء الأعلى من بطنها داخل الجينز الضيق وقرأَت بعض الآيات من الإنجيل والتوراة والقرآن وقالت إن جون ماكين رجلٌ مسيحي مؤمن ومع ذلك هو يرفض نظرية الخلق الدينية ويؤمن بنظرية دارون للتطور؛ فالعلم عنده لا يتعارض مع الإيمان.

بدأتُ أشعر بآلام المفاصل من طول الوقوف على القدمَين، تحت الشمس التي تحوَّلَت من حنان الأم إلى العنف والحرق، وتركتُ المظاهرة تتظاهر وتدخل في مناقشات لا نهائية، أدركتُ أن المظاهرات هي المظاهرات في كل مكان وزمان، قد تنتهي إلى لا شيء إن لم يصحبها عملٌ منظَّم دائم يشمل الأغلبية ويؤدي إلى نتائجَ فعلية تُغيِّر النظام. سِرتُ أمشي في الطرقات، عائدة إلى بيتي، رأيتُ الشوارع مسدودة بالسيارات الواقفة في طوابيرَ طويلةٍ أمام محطات البنزين، الرجال والنساء داخل السيارات المتوقفة ينفخون من الغيظ ويلعنون جورج بوش الذي جلب لهم هذه الكوارث المتلاحقة بما فيها أزمة البنزين. كم رأيتُ مثل هذا المشهد في الوطن، حين يتوقف المرور ساعة أو ساعتَين؛ لأن موكب الرئيس يمر، أو ضيفًا للرئيس أراد الفرجة على هرم خوفو وأبو الهول! ينفخ الناس من الغيظ داخل سياراتهم المتوقفة، تتصاعد أبخرة القيظ مع أبخرة الغيظ مع اللعنات فوق رءوس الرؤساء والملوك والأباطرة وضيوفهم وكل ما ينتمي إليهم بصلة.

تنفَّستُ الصعداء حين وصلتُ إلى بيتي وبدأتُ أتهيَّأ لكتابة الفصل الجديد في روايتي القادمة. أعود إلى نفسي الحقيقية حين أكتب الرواية، أعود إلى الحبِّ الوحيد في حياتي، حين أترك العنان لخيالي. الخيال هو أقصر الطرق إلى الحقيقة، لا يقول الصدق إلا الخيال.

في البرلمان الأوروبي في مدينة بروكسل

الأربعاء ٧ مارس ٢٠٠٧م

جئتُ من مصر، من أفريقيا، هناك من يُطلِق علينا اسم العالم الثالث، لكن نحن نعيش في عالمٍ واحد وليس ثلاثة عوالم، عالمٍ واحد رأسمالي طبقي أبوي، تحكمه القوَّة العسكرية والاقتصادية وليس العدل. العدل غائب عن عالمنا هذا، في الغرب والشرق، والشمال والجنوب، يكفي أن نشهد الدماء المُراقة من الشعب العراقي والفلسطيني، كيف يموت الآلاف والملايين بالحرب العسكرية والاقتصادية، من أجل تراكم الأموال والأرباح لتجار السلاح والشركات المتعددة الجنسيات، أرباح السوق الحرة، وهي حرية الأقوى للبطش بالآخر الأقل قوة.

في مصر خلال الشهر الماضي أصدر الأزهر قرارًا بتحويلي إلى المحاكمة أمام النائب العام في القاهرة، بتهمة ازدراء الأديان ونقد الذات الإلهية، لماذا؟ لأنني كتبت مسرحية باللغة العربية عنوانها: «الإله يقدم استقالته في اجتماع القمة»، هذه المسرحية عملٌ إبداعي خيالي للمسرح، كتبتها عام ١٩٩٦م، ولم تُنشر إلا في يناير ٢٠٠٧م، نشرها ناشرٌ مصري بالقاهرة، تلقى أمرًا من الأمن العام بإعدامها، فأعدمها، وبالطبع تم منعُ تداوُل هذه المسرحية في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠٠٧م، مع أربعة كتبٍ أخرى لي، تمت مصادرتها.

لا شك أن تدخُّل الأزهر أو رجال الدين في الحكم على الأعمال الإبداعية وحرِّيَّة الفكر والتعبير، أمرٌ يتعارض مع الدستور المصري، الذي ينص على حرِّيَّة التعبير والفكر، كما أنه يتعارض مع المنطق.

إن الذي يحكم على أي كتابٍ أدبي هم القراء والقارئات، أو على الأقل الأُدباء والأديبات، ونُقَّاد المسرح والسينما والفن وليس رجال الدين أو الأزهر.

إن جميع الأعمال الإبداعية التي لعِبَت دورًا أساسيًّا في تقدُّم البشرية قد أُدينت بواسطة رجال الدين في جميع أنحاء العالم. لقد تقدمَت الإنسانية ضد إرادة رجال الدين من جميع المذاهب والعقائد، سواء كانت مسيحية أو يهودية أو إسلامية أو غيرها.

أما تاريخ مؤسسة الأزهر فهو معروفٌ لدينا. وقد ساند الأزهر قوى الاستعمار الخارجي، والحكومات المصرية المتعاقبة، ضد مصالح الشعب المصري، نساءً ورجالًا. وفي بداية الخمسينيات من القرن الماضي حين كنا نتظاهر ونحن تلاميذ وتلميذات ضد الملك والاحتلال البريطاني كانت مؤسسة الأزهر تساندهما وتدعو للملك أن يحكم مصر إلى الأبد، بل أن يكون خليفةَ المسلمين.

هناك ردَّةٌ سياسة وفكرية خطيرة في العالم كله، وليس في مصر وحدها؛ هي حركةٌ سياسية رجعية تتخذ من الدين وسيلة للسيطرة على عقول النساء والرجال؛ هذه التيارات الدينية السياسية الرجعية قد تصاعدَت في جميع البلاد، وجميع الأديان، بتشجيع من الاستعمار الأمريكي الدولي، والحكومات المحلية التابعة لهذا الاستعمار؛ وذلك لضرب القوى التقدُّمية المستنيرة في العالم، التي تناضل ضد القهر الطبقي الرأسمالي الأبوي.

إنها ليست حركةً إسلامية فقط، كما يُصوِّرها البعض، بل هي تشمل الأديان جميعًا. يعتمد جورج بوش في قوته على التيارات المسيحية الأصولية المتخلِّفة في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد شجَّع والده «جورج بوش الكبير» التيارات الإسلامية، وبن لادن، وتنظيم القاعدة، لضرب الاتحاد السوفييتي خلال الثمانينيات من القرن الماضي.

في المسرحية التي كتبتُها أردتُ أن أكشف عن هذا الترابُط الوثيق بين القوى السياسة والقوى الدينية في عالمنا المعاصر، وكيف يُستخدَم الله لتبرير الحرب والظلم وقهر الفقراء والنساء.

منذ السادسة من عمري سمعتُ جدتي الفلاحة المصرية تقول «ربِّنا هو العدل عرفوه بالعقل.» وقال لي والدي الذي تخرج في الأزهر «الله هو العدل وليس كتابًا يخرج من المطبعة.»

ويدور الحوار في المسرحية حول الإله رمز العدل، والإله الآخر الذي يتمسك به رجال الدين، الإله «النص» المطبوع في كتاب، والذي يختلف في تفسيره رجال الدين، ويتقاتلون، بسبب اختلاف هذه التفسيرات. ينتصر في مسرحيتي إله جدتي، وهو الإله رمز العدل

والحرية والمساواة والحب والسلام، أما الإله الآخر إله الحرب والظلم فإنه يقدم استقالته.

وأنا أشكركم لدعوتي اليوم للتحدُّث إليكم تحت قبة البرلمان الأوروبي، في مدينة بروكسل، وأشكر كل أصحاب وصاحبات الضمائر الذين تضامنوا معي في الحرب ضد الظلم، وضد التجارة بالأديان في حلبة السياسة والاقتصاد، وأنا لم أهرب من مصر خوفًا من المحاكمة، كما ردَّدَت بعض الصحف، وأنا مستعدة أن أُقدَّم للمحاكمة الفكرية والفلسفية، وليس للمحاكمة على أيدي رجالِ دينٍ متعصبين يحاولون تكفير أي شخص لا يُفكِّر مثلهم.

وهناك فكرةٌ يقترحها بعض الأدباء والأديبات هنا في بروكسل، وهي أن تُقام محكمةٌ دولية في بروكسل خلال مارس ٢٠٠٨م؛ أي بعد عامٍ واحد، للحكم الأدبي على مسرحية «الإله يقدم استقالته في اجتماع القمة»، وأن يكون القضاة من أصحاب وصاحبات الفكر الإبداعي، والفلاسفة، ونُقَّاد الأدب والمسرح والسينما، والفنانين والفنانات.

إذا أُقيمت هذه المحكمة الدولية فإنني أقبل حكمها، ولكني لا أقبل حكم رجال الأديان من أي مذهب أو عقيدة، أو تحت سيطرة أيِّ حكومة في الشرق أو في الغرب.

نحن نعيش في مرحلةٍ خطيرة؛ إذ يُسفك دم المفكرين من ذوي الرأي الحر، ودم المفكرات وذوات الفكر الحر، واليوم هو يوم المرأة العالمي، وأنتهز هذه الفرصة لأقول إن حقوق النساء هي حقوق الإنسان؛ فالمرأة إنسانة كاملة العقل والجسد والروح. إن حقوق المرأة عالميةٌ إنسانية لا تخضع لما يُسمُّونه الخصوصيات الثقافية، أو الهوية الأصلية، أو النسبية الثقافية أو المذهب الديني أو العقيدة والإيمان.

حقوق المرأة هي حقوق الإنسان كاملة بصرف النظر عن الدين أو الهوية أو العِرق أو الطبقة أو الجنسية أو الجغرافيا أو التاريخ أو غيرها.

أصبحَت المرأة ممزقة بين التغطية تحت اسم الدين، أو التعرية تحت اسم السوق الحرة والاستهلاك، وقد رأيت في القاهرة وبروكسل شاباتٍ يغطين رءوسهن (تحت اسم الأسلمة) ويُعرِّين بطونهن في الجينز الأمريكي (تحت اسم الموضة)!

منذ ثلاثةِ أعوامٍ جئتُ إلى بروكسل لأشارك في المحاكمة الدولية لجرائم الحرب في العراق، وقد تمَّت إدانة جورج بوش في تلك المحكمة، إلا أن القرار ظل حبرًا على ورق، لماذا؟ لأن القوة هي التي تحكم وليس العدل. والسؤال الآن هو: كيف نُغيِّر العالم ليحكمه العدل وليس القوة؟

إن الأمل قوة، وعندي أمل أن تغيير العالم ممكن، بل ضروري، حتى نعيش في سلام وحرية وديمقراطية حقيقية. وقد بدأت شعوب العالم تتلاقى وتتحد معًا وتهتف معًا: عالمٌ آخر ممكن بل ضروري.

إن قوة الشعوب الواعية المنظَّمة المتحدة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا هي الأمل الوحيد في تغيير العالم وجعله أكثر إنسانية وعدلًا وحرية وسلامًا وحبًّا.

هل تأخَّرتِ الثورة سبعين عامًا؟

منذ العاشرة من عمري، كنتُ أحلُم بأن ثورةً سوف تنفجر ويخرج الناس جميعًا يصيحون: العدل، الحرية، الكرامة. هذه الكلمات الثلاث شكَّلَت أحلام طفولتي. كانت سلاسل حديدية تُحوِّط جسدي وعقلي وروحي، تسلبني الحرية والعدل والكرامة، في كل خطوة، في البيت والمدرسة والشارع، سلاسل من حديد أُحسُّها ولا أراها، أوامرُ وتحذيرات وتهديدات وتحريمات تحت اسم الله أو الأب أو الأم أو ناظرة المدرسة والمدرسين والمدرسات. الأربعينيَّات من القرن العشرين، كنا أطفالًا نتجمع في الحوش الترابي المحاط بالجدران نهتف بصوتٍ مخنوق: يسقط البيت والمدرسة. كبرنا وكبر معنا الهتاف ممتدًّا خارج أسوار البيوت والمدارس. في كلية الطب تظاهرنا بالآلاف، طلبة وطالبات، ضد الاحتلال الإنجليزي، دسنا صورة الملك فاروق بأقدامنا، انتشر رجال البوليس في كل مكان، دوت طلقات الرصاص، سالت دماء الشباب الثائر على الإسفلت، تم إيداعهم السجون، ضربوهم وعذبوهم، بعضهم مات، بعضهم حمل السلاح وسافر إلى القنال يحارب الاحتلال الأجنبي، قُتل بعضهم برصاص الجيش الإنجليزي، قتل بعضَهم بوليسُ الحكومة والملك، تمَّت مطاردة الناجين منهم في الصحراء حتى سلَّموا سلاحهم، مات بعضهم في السجون، ومات بعضهم من وطأة الحزن على عُمرٍ ضاع فداءَ وطنٍ خائن. تم دفنهم جميعًا في التاريخ، شرِبَت الأرض دماءهم، لم يُكرِّمهم أحد في الحكومة أو الشعب، لم يكن للشعب المقهور صوت ولا ذاكرة ولا تاريخ. كان الشباب الفدائي هم البداية الحقيقية لثورة الكرامة والعدل والحرية، صعِدَت فوق جُثثهم حركة ضباط يوليو ١٩٥٢م، أصبح الجيش يحكم مصر تحت اسم الثورة، تمَّ نسيان من صنعوا الثورة بدمائهم، من داسوا صورة الملك بأقدامهم وحاربوا الإنجليز في قنال السويس حتى الموت.

هل يُكرِّر التاريخ نفسه؟ يتردَّد السؤال في بداية هذا الشهر (أبريل ٢٠١١م)، بعد مرور ستين عامًا على صورة جلالة الملك مدهوسة تحت الأقدام، بعد مرور عشرين يومًا على صورة فخامة الرئيس مفقوءة العينَين بإصبع طفلة، بعد أن هجمَت العصابات الحكومية بالأحصنة والجمال والرصاص الحي على الشباب والشابات والآباء والأمهات والأطفال. كانوا في ميدان التحرير يغنون للحرية والعدل والكرامة، سقط منهم الآلاف قتلى وجرحى، امتلأت بهم القبور والمستشفيات قبل أن يسقط فخامته المعظم بعد تسعة أيام، في طرفة جفن يتلاشى نصف قرن وتسعة أعوام كأنها اللاشيء، مثل أصحاب الجلالة والفخامة، يصبحون اللاشيء بعدما كانوا كل شيء، أعود فتاةً في ريعان الصبا، أدوس صورة صاحب الجلالة وأغني مع الفتيات والفتيان، الحرية والكرامة والعدل. يعود إليَّ حلم طفولتي في المدرسة الابتدائية، أُغنِّي مع الأطفال الأغنية ذاتها، طرفة عينٍ أخرى ويتولى الجيش الحكم تحت اسم الثورة عام ١٩٥٢م. يمضي الزمن تسعة وخمسين عامًا، طرفة عينٍ أخرى ويتولى الجيش الحكم تحت اسم الثورة عام ٢٠١١م، هل يُكرِّر التاريخ نفسه؟ يسألني بعض الشباب ممن صنعوا الثورة ٢٠١١م: هل تُجهَض ثورتنا كما أُجهِضَت الثورات السابقة؟ هل يُكرِّر التاريخ نفسه؟ هل يقفِز على الثورة أصحاب الجلالة والفخامة والمعالي بعد وضع مساحيقَ ثورية ووجوه تنكرية؟ بدأَت اليوم أصواتٌ خافتة، تنقد على استيحاءٍ حكم المجلس الأعلى للقوات المسلَّحة، بعد التأكيد على وطنية الجيش المصري وإخلاصه للوطن، وليس لصاحب الجلالة أو الفخامة، لكن لماذا لم يأمر الجيش بمحاكمة قتلة شباب الثورة ورءوس الفساد في النظام السابق، وعلى رأسهم المسئول الأكبر قمة هرم خوفو؟ لماذا لا يعلن عن بدء المحاكمة اليوم وليس غدًا؟ لماذا تأجيل مثل هذه المحاكمات الضرورية لإحقاق العدل، فتتم تبرئة الأبرياء ويسري العقاب على من أجرم وأمر بالقتل أو نهب أموال الشعب والسرقة والتزوير والكذب الإعلامي والثقافي؟

أخيرًا تم تغيير القيادات الإعلامية، منهم رؤساء تحرير الصحف، لكن لماذا يظلُّ الكاتب الكبير (أو الكاتبة الكبيرة) متربعًا على عرش العمود اليومي أو المقال الأسبوعي، الذي كان بوق النظام الساقط، والمدافع الأكبر عن الرئيس السابق حتى آخرِ رمق؟ لماذا يتعرض رئيس التحرير للخلع ويبقى من هو أخطر منه يمارس الكتابة اليومية أو الأسبوعية، وأصبح يُقدِّس شباب الثورة العظيمة بعد أن كان يُقدِّس فخامة الرئيس المعظَّم؟ هل رئيس التحرير أقل جاهًا وأكثر بُعدًا عن مراكز الحكم الجديد من ذلك

الكاتب الكبير؟ لا شك أنه ليس كاتبًا كبيرًا واحدًا، بل عددٌ كبير منهم أصبح النفاق يجري في عروقهم مع الدماء. إنهم وأمثالهم في كل موقعٍ مهم يُجسِّدون فساد النخبة المحظوظة الحائزة على الجوائز والحوافز، التي نافقَت صاحب الجلالة المعظَّم في الأربعينيات والخمسينيات، أَطلقَت عليه لقب الملك الصالح، بعد سقوطه انقلبَت عليه ومنحَتْه لقب الملك الفاسد. تَكرَّر النفاق من الرئيس البطل الخالد محرِّر البلاد، أصبح بعد موته الدكتاتور الشيوعي سبب الهزيمة والعار. ثم جاء الرئيس المؤمن بطل السلام والنصر، تحوَّل بعد اغتياله إلى خائن باع البلد لأمريكا وإسرائيل. وجاء الرئيس بطل حرب أكتوبر المجيدة التي رفعَت رأس مصر عاليًا، أصبح بعد السقوط حاميَ الفساد، الحرامي، مهرِّب الأموال، جلبَ العار لمصر هو وأُسرته، لماذا لا يُقدَّم هؤلاء الكتاب الكبار إلى المحاكمة مع رئيسهم السابق مع مقالاتهم المتحولة من التقديس إلى التخوين. إنهم يُقدِّسون شباب الثورة اليوم وإن تم إجهاض الثورة فسوف يلعنونها ومن صنعها، وهم يتملَّقون المجلس الأعلى للجيش اليوم لأنه يجلس على عرش الحكم وإن تبدَّل الوضع فسوف يكونون أول من يلعن الحكم العسكري المطلق الباطش. في رأيي، أن هذه النخبة من الكُتاب والكاتبات، الذين تمَّ الإنعام عليهم من قِبل الرؤساء السابقين بالجوائز والألقاب والمنح المادِّيَّة والأدبية، وتمَّ تولِّيهم أعلى المناصب الفكرية والثقافية والإعلامية، هذه النخبة المنافقة هي أصل الفساد في بلادنا، وهي التي تُفسِد الحكام والمحكومين في آنٍ واحد. هي التي تُبعِد عن الساحة الثقافية أصحابَ المواهب الحقيقية، هي التي ترتدي ثوب المعارضة لتُعطي صورةً شكلية للمعارضة. هي التي تتحكَّم حتى اليوم في تشكيل الرأي العام وتزييف العقل المصري؛ هي النخبة التي تفلت دائمًا من المحاكمة؛ لأنها تصبح دائمًا الأعلى صوتًا بحكم تربُّعها على عرش الكتابة والإعلام؛ لأنها الأسرع إلى نفاق الحكم الجديد وتقديم فروض الطاعة والولاء قبل غيرهم. يتعلم أبناؤهم وبناتهم النفاق منهم، يتعلَّم الشعب والحكومة النفاق منهم، يتغطى النفاق بأقنعةٍ زاهية، ونظرياتٍ مقنَّعة لعقول تم تعطيلها بكتاباتهم. لا يُكرِّر التاريخ نفسه حسب دراستي للتاريخ؛ هذه الثورة مختلفة عن غيرها في مصر والعالم؛ هذه الثورة لن تجهضها قوةٌ داخلية أو خارجية؛ هذه الثورة غيَّرَت التاريخ ليس في مصر، ليس في العالم العربي وحده، بل ألهمَت شعوبًا وراء المحيط، منهم شعبُ ولاية ويسكونسن في أمريكا، ثاروا من أجل شعارات الثورة المصرية ذاتها «العدل، الحرية، الكرامة»، حملوا لافتاتٍ كتبوا عليها: «سيروا بخطوة المصري.» نعم علينا أن نعي وندرك كيف تَتجمَّع القوى المضادة للثورة المصرية داخليًّا وخارجيًّا، لكن علينا

أن نُدرك أيضًا أن هذه الثورة ليست حركة أو انتفاضة تفور وتهدأ بالنظريات المزيفة عن احترام الأمن والاستقرار، بالمسكنات والوعود الخادعة المطَّاطة، أو بالتقسيم وإحداث الفتنة بين الشعب الواحد. إنها ثورةٌ حقيقية تشملنا جميعًا شبابًا ونساءً ورجالًا وأطفالًا، مسيحيين ومسلمين، كل الفئات والأعمار والطبقات؛ ثورة أزالت الغشاوة عن العقول التي تم تزييفها بكتابات وأحاديث النخبة، أعمدة الحكم في كل عهد، تتغير وجوهم فقط، تبقى أقلامهم مسيطرة على الثقافة وتشكيل الرأي العام.

قالوا لي أنت تحلُمين، هذه الثورة سوف تُجهض وتنتهي كما انتهى غيرها من الثورات، قلت نعم أنا أحلُم، وكنتُ أحلُم منذ العاشرة من عمري بهذه الثورة، تأخرَت الثورة في رأيي سبعين عامًا، لم أحلم أبدًا أنني سأعيش حتى أبلغ الثمانين من العمر، لكني كنتُ أحلم دائمًا بالثورة، ضد كل أنواع الظلم والقهر والاستبداد، في البيوت والمدارس ودواليب العمل وسراديب الدولة والحكومة والمعارضة؛ ضد التجارة والربح في سوق السياسة والعقائد والأديان؛ ضد السلطة المُطلَقة للأب في الأسرة، والملك أو الرئيس في الدولة.

كنتُ خارج مصر يوم ٨ مارس ٢٠١١م، حين رأيتُ في الإنترنت صور الشابَّات المصريات مع زملائهنَّ الشباب في ميدان التحرير يحتفلون بيوم المرأة العالمي، يحمل الشباب مع الشابات لافتاتٍ تُكرِّم شهيدات الثورة وشهداءها، تحمل شعارات الثورة منذ بدايتها العدل الحرية الكرامة، العدل للجميع نساءً ورجالًا، الحرية للجميع نساءً ورجالًا، الكرامة للجميع نساءً ورجالًا. تعرَّفتُ في الصور على وجوه الكثيرين منهم، الوجوه نفسها التي رأيتُها في ميدان التحرير، طالبات وطلبة الجامعات، شبابٌ وشابات تخرجوا واشتغلوا أو لم يحصلوا على عمل، أمهاتٌ وآباءٌ جدد يسيرون بجوار بناتهم وأبنائهم، أم شابة تضم طفلها فوق صدرها بذراعها، رافعة بذراعها الأخرى لافتة تقول: «نريد قانونًا مدنيًّا مُوحَّدًا للأحوال الشخصية.» «نريد دستورًا جديدًا مدنيًّا يؤكد المساواة للجميع نساءً ورجالًا، مسلمين ومسيحيين وكافة المصريين.» يجب إلغاء السلطة الأبوية المطلقة، يجب تكريم الشهيدات والشهداء، واحترام حقوق الشعب دون تفرقة لأي سبب أو اختلاف.

يكفي أن تكون إنسانًا طبيعي العقل لترى المرأة إنسانًا مثلك، لها ما لك من حقوق وواجبات في الدولة والأسرة. الشعب نصفه نساء، الثورة الشعبية لا تكون ثورةً حقيقية دون النساء، فلماذا اعتبار النساء المصريات فئةً ناقصة الحقوق الإنسانية؟ أو من الأقليات أو من المهاجرين أو اللاجئين (لا تستحق مثلهم إلا مفوضية أو إدارة في

إحدى الوزارات). ألا تستحق المرأة أن تمثل كنصف الشعب (أو على الأقل ٢٥٪) في كل السلطات التنفيذية والتشريعية والبرلمانية والقضائية والدستورية وجميع المؤسسات واللجان والمجالس العليا والدنيا، في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية والتعليمية؟

ألا يحق للمرأة أن تخرج في يوم المرأة العالمي تحمل اللافتات، تُنادي بالعدل والحرية والكرامة؟ أليس العدل والحرية والكرامة من حق المرأة مثل الرجل؟ لماذا إذن هجم بعض الرجال على هؤلاء الشابات في ميدان التحرير؟ لماذا كسروا لوحاتهن واللافتات؟ لماذا تحرش بعض الذكور منهم بالفتيات وانهالوا عليهن ضربًا، وفي أماكن حساسة من أجسامهن؟ بالطبع كان هناك بعض شباب الثورة الذين شاركوا الشابات في مسيرتهن، وحملوا معهن اللافتات واللوحات، لكن غلب عدد الذكور من فصيلة الحيوان على فصيلة الإنسان من الرجال والشباب الراقي خلقيًّا.

تجاهلَت النخبة إياها، نساءً ورجالًا، هذا الحدث المؤلم؛ لأن القوى السلفية تصاعدَت سياسيًّا وإعلاميًّا وارتفع صوتها ضد النساء، وليس أمام شابات وشباب الثورة إلا الاتحاد؛ فالاتحاد قوة في مواجهة القوى المعادية للثورة والحرية والعدل والكرامة، لا بدَّ من البدء في حملات رفع الوعي والتنظيم؛ حيث يصبح للشابات والشباب اتحادهم الشبابي والنسائي، وللعمال والفلاحين اتحاداتهم المستقلة عن السلطة الحاكمة. كانت هذه التنظيمات، خاصة النسائية منها، تخضع للسيدة الأولى زوجة الحاكم، وقد سقطَت هذه التنظيمات مع سقوط الحكم السابق، فأين هي التنظيمات الثورية الجديدة من الشباب والشابات؟

هل ينتصر النقاء الثوري على أخطبوط الفساد؟

١٤ مارس ٢٠١١م

تتميز الثورات الشعبية في التاريخ بالنقاء الأخلاقي والتمسك بالمبادئ الإنسانية الرفيعة، الكرامة، الحرية، العدالة، الصدق. ألم تكن هذه المبادئ هي الشعارات التي رفعَتْها الثورة المصرية في ٢٥ يناير ٢٠١١م؟ تنفجر الثورات ضد فساد الحكومات وكذب السلطات المطلقة بكافة أشكالها؛ فالسلطة المطلَقة لا تقوم ولا تستمرُّ في الدولة والعائلة إلا على الاستبداد والخديعة والتحكم في ملايين البشر بالقوة العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية والفكرية والدينية، أصبحَت الصحافة والإعلام المرئي والمسموع من أهم الأسلحة لإجهاض الثورات في العصر الحديث وما بعد الحديث، يقوم الإعلام الحكومي الدولي والعربي والمصري بحماية الحكومات الفاسدة. تتعاون القوى الدولية الاستعمارية مع الحكومات المحلية التابعة لها في التربص بأي انتفاضةٍ شعبية لتحويلها عن أهدافها الثورية العميقة من أجل التغيير الجذري الشامل لتصبح حركةً إصلاحية سطحية، تقوم بعملياتٍ شكلية تجميلية للنظام السابق الفاسد دون اقتلاعٍ لأُسس الفساد ذاته.

يكفي أن نتابعَ ما يُنشر اليوم في الصحف الحكومية المصرية (ما يُسمُّونها الصحف القومية الكبرى) لنكتشف كيف تسعى فلول النظام السابق الساقط بقوة الثورة المصرية إلى إجهاض أهداف الثورة تحت اسم الثورة العظيمة ذاتها. نقرأ في الصفحة الأولى مانشتًّا كبيرًا يؤكد ضرورة محاكمة الرئيس السابق وتجميد أرصدته وأسرته وأعوانه في البنوك وإعادتها للشعب المصري، ثم نقلب الصفحة لنقرأ مانشتًّا عريضًا يناقض المانشيت السابق، يؤكد أن رجل مبارك العظيم يُلقي خطابًا في ميدان مصطفى محمود. نرى

صورة بعض الموظَّفين حاملين لافتاتِ تأييد لمبارك بطل النصر، وترشيح ساعده الأيمن في الانتخابات المقبلة، وفي صفحة أخرى نرى وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس في زيارته للقاهرة مع المجلس العسكري الأعلى ورئيسه المشير، ثم نقرأ مقالًا لرئيس التحرير الذي كان أحد أبواق مبارك وأحد فلاسفة الفساد وتبريره، يكتب مقالًا ضخمًا لا نفهم منه شيئًا، يدَّعي الأستاذية وإعطاء دروس للشباب، يمدح ثورتهم العظيمة بنبرةٍ خطابية إنشائية تفتقد الصدق، ثم يقول: هل الثورة تعني الفوضى وانعدام الأمن والاستقرار وإيقاف عجلة الإنتاج وقتل السياحة؟ ثم يُشكِّك الشباب في ثورتهم ويقول: من السهل أن يحشد الشباب مظاهراتٍ مليونية، لكن من الصعب عليهم أن يقوموا بعملٍ إيجابي يساعد الوطن على الخروج من الأزمة الراهنة. كان منذ لحظات يقول عنها الثورة العظيمة، تحوَّلَت بسرعة في نظره إلى الأزمة الراهنة، يعلن عن خوفه من غياب الأمن، مع أن غياب الأمن لم يحدث من الشباب الثائر بل من بوليس النظام السابق. يحذر من الفتنة الطائفية وحرق الكنائس، يعرف أن الشباب الثائر لم يحرق كنيسةً واحدة ولم يتحرش بفتاةٍ واحدة، تم حرق الكنائس والتحرش بالنساء بواسطة بوليس النظام السابق وأعوانهم في أمريكا وإسرائيل. يُحذِّر من تدهور الوضع الاقتصادي، يطلب من الشباب العودة إلى بيوتهم، ينصحهم بالعمل على زيادة الإنتاج، تنشيط السياحة بدلًا من تنظيم مظاهراتٍ مليونية، تناسى أو نسي الكاتب الكبير أنه لولا هذه المظاهرات المليونية ما سقط رأس النظام، وما استمع أحد لمطالب الشباب، وما تم خلع عدد من وزراء النظام والكشف عن سرقاتهم البليونية. ويمضي السيد رئيس التحرير في مقاله الكبير يضرب الثورة بكلماتٍ مراوغة معسولة، يدسُّ السم في العسل، يُقلِّده في ذلك كافة رجال ونساء الصحافة والإعلام السائد.

كنا نتوقع سقوط رءوس الصحافة والإعلام الذين ساندوا الفساد وبرَّروه، أو على الأقل تستَّروا عليه ولم يكشفوه، لكنهم ما زالوا جميعًا في مواقعهم يخدمون النظام السابق، يعملون معه في الخفاء والعلن على حدٍّ سواء، أصواتهم عاليةٌ مسموعة كما كانوا، أرباحهم مستمرةٌ كما كانت، أصبحوا يُلقِّنون الشباب (الذي صنع الثورة العظيمة) الدروس والنصائح. لا يخجلون، لا يتذكرون أنهم عجزوا عن الثورة بل خانوها، مع ذلك يتشدَّقون بالوطنية والثورية أكثر من الشباب الثائر، من يحميهم؟ من يبقيهم في مناصبهم؟ أهو المجلس العسكري الأعلى؟ أم الحكومة الجديدة الظاهرة؟ أم الحكومة الخفية الكامنة في الظل؟ عرفنا من التاريخ أن كل ثورةٍ لها أعداء، يتربصون بها لإجهاضها؛ لاستعادة ما فقدوه أو ما يمكن أو يفقدوه لو نجحَت الثورة وحققَت كل

أهدافها، ومنها عزلهم عن مواقعهم؛ لهذا يمارسون نفاقهم الذي أصبح بحكم العادة جزءًا من شخصيتهم، وطريقهم الأمثل للتربُّح مِن كل مَن يملك السلطة، لكني أثق في قدرة الشباب والشابات الذين صنعوا الثورة وأسقطوا رأس النظام أن يُسقِطوا جسده وأذرعته وأصابعه وأذياله. لن تقف في وجه الثورة أي قوةٍ داخلية أو خارجية، وإن حشدَت أمريكا وإسرائيل جيوشهما، وإن جاء وزير الحربية الأمريكي روبرت جيتس إلى ميدان التحرير، وإن خطَّط لضرب الثورة من تحت الحزام، وإن تم حرق كنسية في مصر لإحداث فتنة بين المسلمين والأقباط الذين اتحدوا وتآخَوا في ظل الثورة، وإن تمَّ إرسال، بالطائرة، رجلِ دينٍ مدرَّب على فلسفة الاستعمار «فرِّق تسُد»، جاء بالطائرة فجأة بعد نجاح الثورة يخطب في الملايين، ما هي القُوى الخارجية التي أرسلَتْه؟ جاء ليتسلَّق الثورة، يُحاوِل قيادتها دون أن يكون له أيُّ دور فيها، يُحاوِل إجهاضها لتكون دينية رغم أنها سياسيةٌ اقتصادية اجتماعية ترفع شعارات العدالة والحرية والكرامة وتغيير الدستور ليكون مدنيًّا خاليًا من البنود الدينية والأبوية التي تُفرِّق بين المسلمين والأقباط وبين الرجال والنساء.

سألني صحفيٌّ أمريكي: هل يمكن للإخوان المسلمين أن يُجهضوا الثورة ويُحوِّلوها إلى ثورةٍ دينية كما حدث في إيران بعد ثورة ٧٩م؟ قلتُ لن تتحول الثورة المصرية إلى ثورةٍ دينية؛ لأن الشباب والشابات الذين صنعوا الثورة المصرية على وعيٍ كامل بضرورة أن تصبح مصر دولةً مدنية تفصل بين الدين والدولة، أن يتساوى فيها الجميع أمام الدستور والقانون، حتى الأجيال الجديدة من الإخوان المسلمين يؤمنون بالدولة المدنية وليس الدينية. تعلَّم الشباب المصري من تجربة إيران وكيف أُجهضَت ثورتها السياسية الاقتصادية الاجتماعية الثقافية لتُصبح ثورةً دينية دموية مدمرة لإيران. أدركوا كيف تعاوَن الاستعمار الفرنسي مع الأمريكي والبريطاني لإرسال الخميني بالطائرة إلى طهران لإجهاض الثورة. هذه القوى الاستعمارية تُدرك خطورة الثورة المدنية الساعية للقضاء على النظام الطبقي الأبوي، وعلى الاستعمار الخارجي وأعوانه في الداخل. يُفضِّل الاستعمار الثورة الدينية على الثورة المدنية الاشتراكية بل تخدم الثوراتُ الدينية المصالحَ الطبقية الأبوية في الداخل والخارج. يستخدم الاستعمار الخارجي والداخلي الأديان لتبرير الظلم والقهر تحت اسم الله، يخدع الملايين ويتاجر بالله في حلبة السياسة والنهب والقتل. تلعبُ الدول الدينية (على رأسها الدولة اليهودية في إسرائيل) دورًا في استخدام النصوص في كتب الله لاحتلال البلاد ونهبها وإبادة أهلها؛ لهذا تُصبح الثورات الدينية أقل خطرًا على الاستعمار (والحكومات المحلية التابعة له) من الثورات المدنية السياسية والاقتصادية.

لكن الثورة المصرية لن تنخدع ولن تتحوَّل إلى ثورةٍ إسلامية كما تُخطِّط لها القوى المعادية لها في الخارج والداخل. كما أن الثورة المصرية لن تستسلم للحكم العسكري من خلال المجلس الأعلى للجيش الذي يتولى السلطة مؤقَّتًا في مصر، ولن تستطيع أمريكا أو إسرائيل أو أي قوةٍ استعماريةٍ خارجية أن تجهض الثورة المصرية لصالحها. لقد أعادت الثورة توحيد الشعب المصري وأذابت في ميدان التحريرِ كل الخلافات الدينية والسياسية والجنسية والطبقية الأبوية؛ لهذا لن تُجهض الثورة وسوف تستمر وتُحقِّق كل أهدافها للتغيير الجذري وليس الشكلي فقط، المعركة مستمرة والثورة مستمرة، وسوف ينتصر النقاء الثوري على خدَع المتآمرين داخليًّا وخارجيًّا.

هل يمكنهم إجهاض الثورات الشعبيَّة؟

وجدتُني جالسة أمام الكاميرا في مدينة واشنطن، تحاورني مذيعة اسمها كريستيان أنانبور، امرأةٌ متوسطة العمر، سمراء، نحيفة، شعرها أسود، ملامحها إيرانية، لهجتها أمريكيةٌ متنمرة، يقولون عنها مشهورة جدًّا من خلال برنامجها التلفزيوني الأسبوعي في قناة «أ. ب. س.» قالوا حاورَت رؤساءَ دول منهم الرئيس المصري السابق حسني مبارك، ورؤساءَ آخرين فيما يُسمُّونه الشرق الأوسط (أسألهم: الأوسط بين من ومن؟) لا يعرفون الجواب، قالوا إنها متخصصةٌ في شئون بلادنا (الشرق الأوسط)، وإنها أشهر وأهم في نظر الأمريكيين من أي رئيس دولة فيما يُسمُّونه العالم الثالث. ينتفض في رأسي عصبٌ من أعصاب الغضب حين أسمعُهم يقولون عنا العالم الثالث، أسألهم: ومن هم العالم الأول؟ لا يعرفون الجواب، يخجلون من القول: أمريكا؟ يعرفون أنها تقتل الشعوب لتنهب مواردها وبترولها تحت اسم الديمقراطية أو التنمية، وتُسلِّح إسرائيل وتساندها مائةً في المائة ضد إرادة العالم تحت اسم السلام. وتحت اسم الشراكة والتعاون تُسانِد الدكتاتوريات القامعة والحكومات الفاسدة والتيارات الدينية المتطرفة، مسيحية أو يهودية أو إسلامية أو غيرها، ما دامت تخدم مصالح الإمبراطورية الأمريكية. ساءت سمعة أمريكا في العالم كله، وتزيد سمعتها سوءًا باستخدامها الفيتو في الأمم المتحدة، لضرب أي محاولة لإنصاف الشعب الفلسطيني، ثم تتشدق بعد كل ذلك بالمبادئ والإنسانية والحضارة والديمقراطية وحقوق الإنسان بل وحقوق المرأة!

جلست السيدة المذيعة أمامي متنمرة منتفخة بغرور الجهل في عصر الكاميرا والفضائيات. يتحول الجهلاء إلى نجوم مثل لاعبي كرة القدم، ترى في عينيَّ نظرة ماكرة تقول لها: كلما زاد الإنسان علمًا وثقة بالنفس زاد تواضعًا وبساطة. كانت تغطي وجهها بالمساحيق وتبربش برموشها الصناعية وتهز شعرها المصبوغ بلونٍ أسود من الليل، وأنا

جالسة أمامها غير عابئة بشكلي أو شعري الذي طيره الهواء وابتل برذاذ المطر والثلج الهاطل من سماء واشنطن. كنت مستريحة داخل جلدي كما يقولون باللغة الإنجليزية عن الشخص الواثق من نفسه غير المبالي بالدنيا والآخرة. تصورتِ المذيعة أنها سيدة الموقف لأنها تملك القناة أو تملك طائرةً خاصة أو أرصدة في البنوك تزيد عن أرصدة رئيسِ أي دولة مخلوع أو في طريقه للخلع بثورةٍ شعبية عارمة. قلتُ لها قبل بدء البرنامج إن باراك أوباما ربما يصبح رئيسًا مخلوعًا عاجلًا أو آجلًا، بعد انتقال عدوى الثورة المصرية الشعبية العظيمة إلى الشعب الأمريكي في ولاية وسكونسن، ومنها سوف تنتقل الثورة إلى كل الولايات المتحدة، وغير المتحدة. هزَّت شعرها ورموشها غير مُصدِّقة، قلت لها إننا نعيش في عالمٍ واحد (وليس ثلاثة عوالم) يحكمه نظامٌ أبوي طبقي واحد موروث منذ العبودية. لم تكن تنصت لما أقول مثل كافة المذيعين والمذيعات في كل بلاد العالم، كانت تنظر في المرآة لتعدل خصلة الشعر المتحركة مع رأسها هنا وهناك. ثم بدأ البرنامج، وهي تلهث تنتقل من سؤال إلى سؤال بسرعة البرق لا تسمع الإجابات، شيء يجعل أعصاب الغضب تنفجر في أي رأسٍ إلا رأسي، لقد تعوَّدتُ على تفاهة البرامج التلفزيونية في كل بلاد العالم، على رأسها بلادنا العربية، أحافظ على هدوئي الكامل لأصوِّب إجابتي بكلمةٍ محددة مختصرة، كطلقةِ رصاصٍ واحدة تُصيب الهدف. تُدوِّي الطلقة في رأسها، تَتجمَّد في مقعدها، تتلعثم لا تعرف ماذا أقول، تُكشِّر عن أنيابها كالنمرة الحائرة، تخرج عن النص الذي حفِظَته عن ظهر قلب. تسألني عن معنى ما أقول، أُعيد عليها ما قلتُه: نعم أيتها المذيعة الشهيرة، أقول لكِ إن جورج بوش وأسامة بن لادن توءمان. تُبربِش مرةً أخرى تُردِّد «تَوءمان؟ كيف هذا؟» أفتح فمي لأشرح لها العلاقة بين الاستعمار الأمريكي الجديد والتيارات الدينية السياسية، لكنها تنتقل إلى سؤالٍ آخر، وينتهي البرنامج دون توضيح أي شيء.

تمَّت إذاعة البرنامج دون أن أراه؛ حيث إنني لا أفتح التلفزيون إلا نادرًا ولا أحفظ مواعيد البرامج التي أشارك فيها، لكن جاءتني الرسائل عبر البريد الإلكتروني تقول إن السيدة المذيعة حذفَت جزءًا من كلامي المتعلق بجورج بوش وبن لادن؛ مما يعني أن الإعلام الأمريكي، مثل الإعلام في بلادنا، يخضع لمقص الرقيب! هذه هي الديمقراطية الأمريكية! لا أعرف كيف اكتشفوا ذلك، لكن الأمر كان سهلًا لمن يتابعون البرامج في الإنترنت، وانتشر الخبر عن الإلكترونيات في الأقمار الصناعية، يا لها من تكنولوجيا فاضحةٍ خطيرة، أخطر من ويكيليكس! تنتشر الفضائح عبر الأثير في كل أركان الأرض

والسموات السبع، تبتهج قلوب الشعوب بهذه الفضائح التي تكشف زيفَ ما يُسمُّونها الدول الديمقراطية. كم تشدَّق باراك أوباما وهيلاري كلينتون بهذه الكلمة التي تساقطَت كما تتساقط ورقة التوت عن الجسد العاري!

لكنْ هناك امرأةٌ أمريكية اسمها إيمي جودمان، تختلف عن هذه الكريستيان أنانبور، أصبحَت إيمي جودمان معروفة في أمريكا والعالم ببرنامجها التلفزيوني والإذاعي «الديمقراطية الآن» (ديمقراسي ناو). قلتُ لها ما قلتُه لكريستيان أنانبور وأكثر، كانت إيمي تستمع ثم تردُّ في هدوء. إيمي جودمان حاورَتْني بحريةٍ كاملة، لم تقاطعني، لم تحذف حرفًا واحدًا، حكيتُ لها عن مقص الرقيب أنانبور، قالت برنامجنا مختلف، نُحاوِل كشف الحقائق داخل الديمقراطية الزائفة تحت حكم الرأسمالية الاستعمارية الإمبرياليَّة. سألَتْني عن الثورة المصرية الشعبية، دَوْر النساء فيها، ماذا أتوقع لمستقبل مصر الحرة المستقلة الجديدة، هل هناك مخاوف من نشوء ثورةٍ مضادة؟ قلتُ لها: كل الثورات الشعبية تتعرض لمحاولاتِ إجهاضٍ من القوى الخارجية والداخلية، لكن ثقتي كبيرة في وعي الشبابِ والشاباتِ الذين صنعوا الثورة، نجحوا في إسقاط رأس النظام، وسوف ينجحون في إسقاط الجسد أيضًا، بسبب اتحادهم ووعيهم وعدم قبولهم التنازُل عن مبادئهم الأساسية. شاركَت النساء مع الرجال دون تفرقة في الثورة، كان عدد الشباب في مسيرة اليوم العالمي للمرأة أكثر من عدد الشابات، حمَلوا معهن الشعارات التي تؤكد على المساواة والعدالة والكرامة والحرية للجميع، دون تفرقة على أساس الجنس أو الدين، خرجَت الملايين من كافة فئات الشعب من كل محافظة، من أسوان إلى الإسكندرية، حتى الأطفال شاركوا في الثورة، وما زالت الثورة مستمرة حتى تحقق كل أهدافها.

يعمل مع إيمي جودمان شابٌّ مصري اسمه شريف عبد القدوس، حفيد السيدة روز اليوسف. سألَتْني إيمي جودمان عن روز اليوسف. قلتُ: امرأةٌ عظيمة كان لها دورٌ كبير في الفن والسياسة والثقافة، أصدَرَت مجلتها روز اليوسف التي لعِبَت دورًا هامًّا في التصدي للاستعمار البريطاني والحكم الملكي قبل ثورة ١٩٥٢م، صنَعَت روز اليوسف حينئذٍ مدرسةً جديدة للصحافة المصرية، تدرَّبت فيها أجيالٌ من الشباب والشابات. أشرق وجه شريف عبد القدوس بابتسامةٍ جميلة، تنمُّ عن الفخر بجدَّته، من منا يشعر بالفخر بجدَّته أو أمِّه؟ سؤال دار في رأسي وما زال يدور: لماذا يختفي اسم الأمهات والجدَّات في التاريخ رغم جهودهنَّ العظيمة؟

مليونيَّة الشباب والشابَّات، يوم المرأة العالمي

كان هدف الثورة المصرية تحقيق الحرية والكرامة والعدالة بين كل فئات الشعب، بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الطبقة، لهذا ساند شباب الطبقة الوسطى مظاهرات الفقراء والعمال والعاطلين عن العمل. عارض هذه المظاهرات ذوو المال والنفوذ في الحكومة الانتقالية، ونخبهم الثرية المسيطرة على الصحف والإعلام والثقافة، قالوا عنها «فتنٌ فئوية أو طبقية» تشقُّ وحدة الثورة الشبابية العظيمة، التي نادت بالحرية الليبرالية ولم تتعرض لمطالبَ فئويةٍ طبقية تُهدِّد الأمن والاستقرار. هاتان الكلمتان «الأمن والاستقرار» هما الغِطاء الموروث منذ العبودية لضرب الثورات الشعبية.

حاول نظام مبارك ضرب ثورة ٢٥ يناير. حاول مبارك لأكثر من أسبوعَين، تحت اسم الحفاظ على الأمن والاستقرار، كان يمكن القضاء على الثورة والثوار (عملاء القوى الأجنبية كما أشاع الإعلام) لولا الصمود الشعبي الهائل وقوة التنظيم والوعي. أثبت الشباب الثوري أنهم أكثر حرصًا على مصالح الملايين من المقهورين والمقهورات، أكثر إدراكًا بين السلطة الأبوية المطلقة والسلطة الطبقية، أكثر وعيًّا بأن قضية تحرير النساء (نصف الشعب) لا تنفصل عن قضية تحرير الوطن داخليًّا وخارجيًّا.

إن علاقتي بالأجيال الجديدة من الشباب والشابَّات لم تبدأ في ميدان التحرير أيام الثورة، بل هي مستمرةٌ منذ سنينَ طويلة، أغلبهم من عمر أولادي وأحفادي، من مختلف فروع المعرفة، يتردَّدون على بيتي في مجموعاتٍ صغيرة أو كبيرة، للتحاور والجدل في الأدب والإبداع والتمرُّد وشتى العلوم والفنون، أدهشَني اتساع أُفقهم وحبهم للجدل (رغم ما أشاعه النظام الحاكم أن الجدل من الشيطان، وتم إلصاق تهمة «مثير للجدل» لكل مفكر أو مبدع من الرجال أو النساء). أدهشني إبداع الشباب الثائر، قدرتهم على كسر الحدود، والربط بين العلوم الإنسانية والطبيعية، الربط بين حقوق الإنسان وحقوق النساء

وحقوق الفقراء. هذا هو الشباب الجديد الواعي الذي أبدع وتَمرَّد وصنع الثورة العظيمة. نَجحَت الثورة هذه المرة بسبب قوة الوعي وتفتح العقل على القيم الإنسانية الرفيعة، الحرية، الكرامة، العدالة، للجميع، نساءً ورجالًا، عمالًا وفلاحين وفقراءَ وعاطلين. ظهَرَت هذه القيم النبيلة في ميدان التحرير. تلاشت الفروق الطبقية والجنسية والدينية، تساوى المسلم مع المسيحي، تساوى العامل مع الدكتور، تساوت المرأة مع الرجل، تساوى الطفل مع الكبير، تساوى الجميع أمام قانون الثورة الجديد في مجتمع ميدان التحرير، في النضال الثوري وفي الحياة اليومية خارج الخيام وداخلها، في الأكل والشرب والجوع والعطش والبرد والكنس والتنظيف والتمريض. سقطَت القيم الطبقية الأبوية وتقسيم العمل على أساس الجنس والطبقة. لم يعُد التمريض أو التنظيف من اختصاص النساء أو الخدَم الفقراء، تساوى الجميع في الأعمال والمسئوليات، في الحياة، وفي الموت بالرصاص الحيِّ، تساوى الجميع في الرقص وفرحة الانتصار، ثم مواصلة الثورة حتى تحقيق الأهداف كلها.

وتساوى الجميع في الإحساس بخيبة الأمل حين تشكَّلَت اللجنة لتعديل الدستور وليس تغييره من جذوره الأبوية الطبقية، حين تشكَّلَت اللجنة من رجال القانون فقط، رغم أن الدستور عقدٌ اجتماعي يشمل كل نواحي الحياة العامة والخاصة، لا فصل بين السياسة والاجتماع والدولة، والأُسرة نواة المجتمع. تشكَّلَت اللجنة من الرجال فقط، وتمَّ إقصاء النساء عنها، المدهش أن الشاب الثائر الواعي غضِبوا أكثر مما غضبتِ النساء الأستاذات في الجامعات. قرَّر الشباب تشكيل الاتحاد النسائي المصري مع الشابات، بل أعلن الشباب قبل الشابَّات عن مسيرة مليونيَّة للنساء في اليوم العالمي للمرأة ٨ مارس، قالوا إن الحرية والعدالة والكرامة التي طالبَت بها الثورة تشمل حقوق الشعب كله، النساء والرجال والأطفال. غضب الشباب والشابَّات حين تمَّ الإعلان عن الإبقاء على المادة ٢ من الدستور وليس حذفها، قالوا: هذه المادة تُفرِّق بين المسلمين والأقباط، يجب أن يكون الدستور مدنيًّا بالكامل منعًا للفتن الطائفية؛ يجب فصل الدين عن الدستور والدولة والقوانين كلها، العامة والخاصة، لابد أن يكون قانون الأحوال الشخصية مدنيًّا موحدًا لكل المسلمين والمسيحيين، يجب أن نكون كلنا سواء أمام القانون في الدولة والأُسرة؛ هذه هي العدالة التي نادت بها الثورة، ويجب أن يكون من حق النساء والأقباط الترشُّح في كل الانتخابات بما فيها الرئاسة.

اكتشفتُ أن هذا الرأي يؤمن به كثير من شباب الإخوان المسلمين من الأجيال الجديدة التي تشبَّعَت بقيم الثورة الشبابية، ٢٥ يناير، التقيتُ ببعضهم في ميدان التحرير أيام

الثورة، وأدهشَني إيمانهم بالحرية والكرامة والعدالة للجميع، نساءً ورجالًا ومسلمين وأقباطًا.

تشكَّلتِ اللجنة الشعبية لتأسيس الاتحاد النسائي المصري من الشباب والشابات سواء بسواء، قالوا: لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطيةٌ دون عدالة وحرية وكرامة للجميع دون تفرقةٍ على أساس الجنس أو الدين أو الطبقة، يجب تغيير الدستور كله، هذا الدستور الحالي يُكرِّس السلطة الطبقية الأبوية المطلقة؛ دستور يتناقض مع كل مبادئ ثورة ٢٥ يناير. إنه دستور النظام السابق، لا بدَّ أن يسقط هذا الدستور مع سقوط النظام، يجب تشكيل جمعيةٍ تأسيسية من النساء والرجال، مسلمين وأقباط، تقوم بعمل دستورٍ جديد للبلاد يتسق مع مبادئ الثورة الجديدة، يتم الاستفتاء عليه بعد عمل حواراتٍ متعمقة حوله من الشعب كله.

وماذا عن مليونية النساء في اليوم العالمي للمرأة ٨ مارس؟ بدأ الشباب الثائر هذه الفكرة بعد إقصاء المرأة عن لجنة الدستور، تحمَّسَت لها الشابَّات أكثر من بعض عضوات الجمعيات النسائية السائدة، وبعض منظمات المجتمع المدني، أو المنظمات غير الحكومية أو الحكومية، وبعض منظمات حقوق الإنسان التي تنسى أن المرأة إنسانٌ لها حقوق الإنسان، وبعض التيارات السياسية أو الدينية الرجعية التي تعتبر الحركات النسائية مدسوسة من الغرب، هدفها تقسيم صفوف المناضلين. هؤلاء هم الذين اتهموا المطالبين بحذف المادة ٢ من الدستور أنهم عملاءُ للأجانب يشقُّون الوحدة الوطنية لإحداث فتنةٍ طائفية. هؤلاء هم الذين اتهموا مظاهرات العمال والفقراء والعاطلين أنهم يُحدِثون فتنةً فئوية أو طبقية، ويُهدِّدون الأمن والاستقرار، وهم أيضًا الذين قالوا عن شباب ٢٥ يناير إنهم دسيسةٌ أمريكية صهيونية تهدد الأمن والاستقرار، لكن ما إن نَجحَت الثورة وأسقطَت النظام حتى تسابق الجميع إلى تملُّقها، أصبحت هي الثورة المقدَّسة، أعظم ثورةٍ في تاريخ مصر بل في العالم أجمع!

نَجحَت الثورة المصريَّة، سوف تستمرُّ وتحقِّق أهدافها كلها

طال بي العمر لأعيش ثورة الشعب المصري، من ٢٥ يناير ٢٠١١م حتى لحظة كتابة مقالي صباح الأحد ٣٠ يناير، شَهدتُ ثورة الشعب التونسي من خلال الشاشة والنت والصحف، لكن فرقٌ كبير بين أن تشهد ثورة من خلال الإعلام، وبين أن تعيش الثورة لحظةً بلحظة مع الثائرات والثائرين المصممين على إسقاط النظام القائم حتى آخرِ نفس. أمشي بين صفوف الشباب والشابات فوق قدمَين قويتَين، استعاد جسمي وروحي قوة الشباب، عدتُ إلى العشرين من عمري، ضاعت آلام الزمن والقهر العام والخاص. ذابت الجموع في الفرد وذاب الفرد في الجموع، ذابت الدموع في العرق، زال برد يناير وصقيع المنفى في حرارة الأنفاس ودفء التلاحُم، وجوه الشباب في ٢٠١١م هي وجوه مصر المستقبل، تُنادي بالحرية والكرامة والعدالة والاستقلال، شعارات الشعب المصري الموحَّد، لا تمييز بينهم على أساس الدين أو الجنس أو الطبقة أو اللون أو غيرها، تذكرت المظاهرات منذ طفولتي بالمدرسة الابتدائية في نهاية الثلاثينيات، ثم مدرسة حلوان الثانوية في الأربعينيات، ثم كلية الطب جامعة القاهرة في الخمسينيات، ثم مظاهرات الستينيات بعد الهزيمة الكبرى ١٩٦٧م، طالبنا عبد الناصر بالتغيير دون جدوى، ثم جاء أنور السادات لتعود مصر إلى الوراء في كل المجالات. ثم ثورة الخبز يناير ١٩٧٧م (انتفاضة الحرامية بلغة السادات)، تدهورت الأحوال وزاد الطغيان حتى مذبحة سبتمبر ١٩٨١م، خرجنا من سجن السادات ذي القضبان لنعيش سجنًا أكبر بدون قضبان تحت اسم الديمقراطية في عصر مبارك. رأيت الشباب المصري يكتب على دبابات الجيش المصري «يسقط مبارك» ويمزقون صوره بمقار الحزب الحاكم. تذكرت مظاهرات التلاميذ والتلميذات في نهاية ١٩٥١م وبداية

١٩٥٢م، دسنا بأقدامنا صورة فاروق الأول، هتفنا يسقط الملك، أجهض القصر والإنجليز ثورة الشعب بحريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢م، تمَّ نهب وحرق أكبر المحلات والفنادق بالقاهرة لضرب الثورة المصرية التي قادها الشباب والشابات، والفدائيون الذين عادوا من الحرب الشعبية في القنال ضد جيش الاحتلال البريطاني. طاردتِ الحكومة المصرية مع الإنجليز فلول الفدائيين، منهم طالب الطب أحمد حلمي، وكان أحمد المنيسي طالب الطب أيضًا قد قُتل في القنال برصاص الإنجليز، ومئات الفدائيين من طلاب الجامعات قُتلوا أو طاردهم الإنجليز مع السلطة الحاكمة، أجهض بلطجية الحكم الثورة الشعبية بالحرائق والنهب والسلب وترويع المواطنين، كما يحدث اليوم. هذه هي مؤامرة أي حكمٍ فاسد قبل سقوطه، يحرق البلد ليحرق مستندات إدانته وسرقاته وتعاونه مع الاستعمار الخارجي، ليُوهم الناس أنه الحامي لهم، بأمل أن يثور الناس ضد الشباب الثائر. نجحت مؤامرة الملك والإنجليز في إخماد الثورة الشعبية ستة شهور فقط لتهب ثورة الجيش المصري في يوليو ١٩٥٢م، وتطرد الملك والإنجليز. يتمتع الجيش المصري بتاريخٍ وطني مشرِّف، ها هو اليوم يحمي الثورة الشعبية من بلطجية الحكم والحرائق والنهبٍ والسلب.

الساعة الآن الرابعة إلا دقائق من يوم الأحد ٣٠ يناير ٢٠١١م، من بيتي في شبرا (وأنا أكتب مقالي الأسبوعي هذا للمصري اليوم) أسمع فجأة هدير الطائرات الحربية تدوِّي في سماء القاهرة، طائرات حربية نفاثة بأسرع من الضوء كما يبدو، تكاد تشبه الغارة الإسرائيلية الجوية على القاهرة يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م، ماذا يحدث الآن؟ هل هي طريقةٌ جديدة لترويع الناس وإجهاض الثورة الشعبية؟ يبدو أن طرق الترويع التقليدية من نهب وسلب وحرق قد فشلت تمامًا؛ لأن الشعب المصري بدأ حماية نفسه بنفسه من البلطجية. تكونت لجانٌ شعبية في كل شارع (حتى شارعنا الصغير في شبرا) لحماية البيوت والممتلكات الخاصة والعامة، كانت قوى الأمن والشرطة قد اختفت من الشوارع، لم يبقَ إلا الناس يحمون أنفسهم بأنفسهم، ظهرت طبيعة الشعب المصري العريق الحضارة، لمحني بعض الشباب وأنا أخرج من بيتي هذا الصباح، اقبلوا نحوي يبتسمون، أهلًا يا دكتورة نوال هل تريدين توصيلة لميدان التحرير، قلت لهم: «شكرًا سآخذ تاكسي، لجانكم الشعبية دليل الوعي والتنظيم، مبروك نجحت الثورة.» كانوا يحملون مختلف الأسلحة لضرب البلطجية، من العصا الخشبية إلى سكين المطبخ، أحدهم طفل كان يحمل ماسورةً حديدية صغيرة، ابتسم وقال لي بلغة الكبار: «آجيب لك تاكس يا دكتورة؟» سألته: عمرك كام؟ قال بفخر كبير: «سبع سنين.» كأنما هي سبعة آلاف عام، حضارة مصر.

مررتُ على مستشفى معهد ناصر لأطمئن على صحة بعض الشباب الذين أُصيبوا في المظاهرات، لم يكن مدير المستشفى هناك، تطوع أحد الأطباء الشباب لمرافقتي، صعدنا في غرفة ٧٢٣ وغرفة ٦٢٠، قالوا زيارتك أراحت قلوبنا، لم يزرنا أحد ليكتب عنا، قلت أنا أزوركم اليوم كطبيبة، ولأطمئن أنَّ خدمات المستشفى لكم كافية، وسوف أكتب عنكم في مقالي الثلاثاء القادم بالمصري اليوم، أحضروا لي عصير برتقال، سألتهم عن أكل المستشفى قالوا كويس، والعلاج؟ كويس، لكن نريد أن يسمع الوطن أصواتنا عبر الصحافة، أوَّلهم اسمه «وائل محمد محمود» فقد عينه اليسرى تمامًا بسبب قنبلةٍ مطاطية أصابت عينه مباشرة عن عمد لإفقادها البصر، هو خريج كلية التربية قسم إنجليزي جامعة عين شمس، لا ينتمي لأي تيارٍ سياسي، جاءته الدعوة للمشاركة في المظاهرة عبر الفيسبوك. كان ينادي بالحرية والكرامة والعدالة، قال وائل: «فقدت عيني اليسرى من أجل تحريرنا من العبودية، والحرية لها ثمن، أنا غير نادم أبدًا.» إلى جواره كان يجلس رجل على طرف السرير، قال: «أنا والد وائل وأنا مدير عام المحاكم التأديبية بمجلس الدولة وسوف أرفع دعوى أمام محكمة القضاء الإداري دائرة الأفراد، ضد نظام الحكم من رئيس الدولة إلى رئيس الوزراء ووزير الداخلية ومحافظ القاهرة ومدير أمن القاهرة، بسبب فقدان ابني عينه اليسرى برصاصةٍ مطاطية.» وقال زميل وائل الراقد على سرير بجواره: «اسمي أحمد سيد عبده بالمعهد العالي للدراسات التعاونية، كنت أسير بجوار وائل في المظاهرة نهتف حرية عدالة كرامة حين رأيتُ بعيني ضابطًا فوق مدرعة الشرطة يُصوِّب مثل القناص بالقنبلة في اتجاه عين وائل مباشرة، نقلوني بعد إصابتي إلى هنا مع وائل.» وقال محمود محمد أمين: «بعد إصابتي في شارع رمسيس بقنبلة أفقدتني عيني اليمنى أخذوني إلى مستشفى الهلال الأحمر حيث استقبلنا الأمن وليس الأطباء، ساعدني طبيبٌ شهم للهرب من الباب الخلفي للمستشفى؛ لأن الأمن كان يحمل المصابين إلى السجون ويضربهم، بعضهم يموت.» وكشف محمود عن جسمه، كانت شظايا القنبلة قد تركت علامات على ذراعه وصدره، وكسرت أسنانه في الفك السفلي. كريم سامي إبراهيم، عمره ٢٢ سنة، حاصل على ليسانس آثار جامعة القاهرة، فقد عينه اليمنى بقنبلةٍ مطاطية، كانت أمه تبكي إلى جواره، تمسح دموعها وتقول: «أنا فخورة بابني كريم، قرَّة عيني، خلعوا له عينه اليمنى لكن عينه اليسرى بخير ولن يسكت الشعب المصري على الذل، إحنا شعبٌ مسالم ابني وزمايله في المظاهرة كانوا يلموا الزبالة والحجارة من الشوارع بعد المظاهرة في أكياس نايلون بيضا، أولادنا بيحبوا يا دكتورة.»

أحد المصابين اسمه محمد مجدي محمد، أصابه عيارٌ ناري في بطنه، عمره ٢٠ عامًا، الشرطة أطلقت علينا الرصاص الحي. حمادة عبد الله كسروا عظام فكِّه الأيسر بضربة عصا، وغيره وغيره، أغلبهم فقد الإبصار في عينه، لخصوا جبروت النظام قالوا: «عشنا القهر منذ وُلدنا في التسعينيات من القرن العشرين والآن في القرن الواحد والعشرين يُفقدوننا البصر نحن مستقبل مصر.»

نساء تونس ونجاح الثورة الشعبيَّة

تفزع الحكومات العربية والحكومات خارج الوطن العربي (خاصة الحكومتَين الأمريكية الإسرائيلية) من ثورة تونس الحالية أو أي ثورةٍ شعبية أخرى، هذه الحكومات (المتعاونة داخليًّا وخارجيًّا) المتمرسة في عمل انقلابات ضد الشعوب. إنها تفهم لغة الانقلابات والمؤامرات فهمًا علميًّا محكمًا، لكنها تُصاب بالفزع والتخبُّط والجهل في مواجهة ثورة يقودها الشعب بنفسه، كما حدث في تونس في الشهر الأول من عام ٢٠١١م. سوف تنجح ثورة تونس رغم كل المناورات والتآمرات من داخل الوطن العربي وخارجه. سوف تنجح هذه الثورة الشعبية لأنها تشمل النساء والرجال والشباب والأطفال، تلاميذ المدارس من الابتدائية إلى الجامعة؛ لأنها ثورة قام بها الشعب التونسي رافعًا شعارات الحرية الكرامة العدالة، شعارات تشمل القيم الإنسانية التي تُساوي بين المواطنين، بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الطبقة أو الحزب السياسي أو اللغة أو اللون أو غيرها. هذه الشعارات النبيلة العليا، التي تسعى لتحقيق العدالة السياسية الاقتصادية الاجتماعية الثقافية الأخلاقية، وترتفع فوق كل الهويات الضيقة أو الانتماءات العرقيَّة الدينية الحزبية الأبوية الذكورية الجنسية، هذه العدالة والحرية والكرامة للجميع، نساء ورجالًا، صغارًا وكبارًا، هي التي تميز الثورات الشعبية عن الحركات العسكرية التي يقوم بها الجيش، أو الحركات العنصرية التي تقوم بها الجماعات الدينية أو العرفية الإثنيَّة، أو الحركات السياسية التي يقودها رجال الأحزاب والجماعات المسيطرة بحكم القوة الاقتصادية الطبقية أو الثقافية أو الجنسية. ارتفعت أصوات الملايين من الشعب التونسي بثلاث كلماتٍ هزت القلوب والعقول: الحرية الكرامة العدالة، يا لها من كلماتٍ ثلاث بصوت الملايين، نساءً ورجالًا، أطفالًا وشبابًا، تلاميذَ وتلميذات.

الضمان الوحيد لنجاح ثورة تونس هو حماية الشعب كله لها، نساء ورجالًا وشبابًا، بحيث لا تُجهض الثورة الشعبية، بالقلة المتمرسة داخلها على إجهاض الثورات، القلة من النخب الثقافية الأبوية الطبقية داخل كل بلد، القلة التي تخترق صفوف الشعب تحت اسم المعارضة أو الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو الديني أو الوطني أو القومي أو غيرها. هذه القلة المتدربة تاريخيًّا على القفز على الحكم الجديد تحت اسم الحكومة الانتقالية، أو إنقاذ الثورة الشعبية من الفوضى. انظروا ما يحدث في تونس اليوم، كيف يعمل وزراء ونخب «نظام بن علي الساقط» على التسلل والسيطرة على الحكومة الانتقالية، لإجهاض الثورة، لكل الشعب التونسي الواعي (نساء ورجالًا وشبابًا)، خرج إلى الشوارع مرة أخرى، كاشفًا المناورة الخفية، طاردًا النخب الانتهازية من الحكومة الانتقالية، لكن ما زالت المناورات والتآمرات الداخلية والخارجية تعمل معًا للقضاء على الثورة الشعبية التونسية.

السؤال الآن: أين المرأة التونسية المناضلة في هذه الحكومة الانتقالية؟ أغلب الوجوه التي رأيناها رجال، مع أن النساء التونسيات شاركن في الثورة الشعبية؟ قرأت في الصحف مؤخرًا أن مخرجةً تونسية أصبحت وزيرة للثقافة في الحكومة الجديدة، هذا خبرٌ جيد، لكن هل يكفي أن تكون المرأة مخرجةً سينمائية لتكون ضد القهر الطبقي الأبوي الداخلي والخارجي؟ هل تعيين امرأة وزيرة للثقافة يكفي لحماية الثورة الشعبية؟ هل يحمي الثورة الوزراء والوزيرات في الحكومات؟ أم المنظمات الشعبية التي قامت بالثورة، نساء ورجالًا؟ ألا تصبح الوزيرات النساء الثوريات (مثل الوزراء الرجال الثوريين) جزءًا من النظام الجديد الحاكم؟ ألم تتبنَّ النساء الوزيرات وعضوات البرلمان في بلادنا (والبلاد الأخرى في أمريكا وأوروبا بما فيها السويد) المصالح الطبقية الأبوية الدينية العرفية تحت اسم الديمقراطية؟ وإن تزايدت أعداد النساء في البرلمانات تحت اسم «الكوتة»؟ فهل زيادة العدد هي الفيصل أم تغيير العقلية الطبقية الأبوية العنصرية لدى النساء؟ لو نظَرنا إلى تاريخ القيادات الثورية في بلادنا والعالم فماذا نرى؟ ألم يتحوَّل الوزراء الاشتراكيون إلى رجالِ أعمالٍ رأسماليين بمجرد الجلوس في الكرسي؟ ألا يُغيِّر الكرسي من المبادئ التي يؤمن بها الرجل أو المرأة؟ ألم يخلعِ الرئيس التونسي المخلوع (بن علي) رئيسه السابق (الحبيب بورقيبة) تحت اسم ثورة التصحيح الديمقراطية الشعبية؟

منذ تولى «بن علي» الحكم في تونس زادت الدكتاتورية شراسةً تحت اسم الديمقراطية، بالضبط كما حدث منذ عصر أنور السادات في مصر مع الانفتاح على بضائع أمريكا وإسرائيل. تم اعتقال أو نفي أصحاب الفكر الإبداعي الحر خارج البلاد وداخلها، الخديعة

الطبقية الأبويَّة الاستعمارية، تحت اسم الديمقراطية والليبرالية الجديدة، أنا مثلًا دخلتُ سجن السادات في مذبحة المعارضة المصرية سبتمبر ١٩٨١م، وطوال عهد «بن علي» لم أدخل تونس، كنتُ أتلقى دعوات من الشعب التونسي، نساءً ورجالًا، قرءوا كتبي ورواياتي، يأتون بالآلاف لسماع محاضراتي، في إحدى المرَّات تعطل المرور في تونس بسبب الزحام على المحاضرة، مما دعا المنظمين إلى تغيير وقتها ومكانها، فاستقل الناس القطارات لحضورها في جامعة القيروان. كان ياسر عرفات (يومئذٍ) في اجتماع بتونس مع قياداتٍ عربية، منهم وزير الإعلام في عهد عبد الناصر، قال لي محمد فائق: «كانت محاضرتك حديث تونس وياسر عرفات قال إن شعبيتك في تونس مثل أم كلثوم.» وقلت: «شعبية أي كاتب (أو كاتبة) لا تقارن بشعبية لاعب كرة أو راقصة أو مطربة عادية فما بال أم كلثوم كلها؟» حتى أصدر بورقيبة (قبل سقوطه في ١٩٨٧م) قرارًا بمنعي من دخول تونس. قلتُ في حديث للتلفزيون التونسي إن الحركة النسائية النضالية عبر القرون هي التي تُحرِّر النساء وليس الحاكم الفرد (بورقيبة حينئذٍ). سمع بورقيبة هذا الحديث (صدفة في التلفزيون) فإذا به يفصل رئيس التلفزيون من منصبه. كان بورقيبة يعتبر نفسه المحرر الوحيد لنساء تونس، كيف يسمح رئيس التلفزيون لمخلوق أو لمخلوقة أن تسلب الإله الحاكم من حقه المسجَّل في التاريخ الوطني ومناهج التعليم؟ نشرتِ الصحف المغربية خبر فصل رئيس التلفزيون بقرار من بورقيبة ذاته، كاشفة عن ديمقراطيَّته الزائفة.

من يضمن استمرار الثورة التونسية لتحقق الحرية والكرامة والعدالة لنساء تونس ورجالها بالتساوي؟ كم مرة شاركت النساء في الثورات الشعبية (الثورة الجزائرية، الفلسطينية، المصريَّة، اللبنانيَّة، السودانيَّة وغيرها من الثورات) ما إن استقر الحكم الجديد حتى أصبحت حقوق النساء في خبر كان؟ سؤال ورد في مقال د. منى حلمي في بابها غناء القلم ٢٢ يناير ٢٠١١م: هل تتحرر النساء (أوتوماتيكيًّا) من القهر الأبوي في الأُسرة حين يتحرر الرجال من القهر الطبقي في الدولة؟ سؤال أجاب عنه التاريخ بالنفي؛ لأن العام لا ينفصل عن الخاص، البيت أو الأُسرة لا تنفصل عن الدولة، التحرير الطبقي والأبوي يحدث في آنٍ واحد، لا يمكن تأجيل تحرير نصف المجتمع، النساء، حتى يتحرر النصف الآخر، تكتب د. منى حلمي: «يثور الرجل ضد الحاكم المستبد في الدولة، ويرجع إلى بيته مشتاقًا للاستبداد بزوجته.»

الثورة المصريَّة تضع قيمًا وعقدًا اجتماعيًّا جديدًا

عشتُ لأشهد وأشارك في الثورة المصرية، من ٢٥ يناير ٢٠١١م حتى اللحظة التي أكتب فيها مقالي هذا (صباح الأحد ٦ فبراير ٢٠١١م). ملايين المصريين والمصريات، مسلمين ومسيحيين ومن كل الاتجاهات والعقائد، توحَّد الشعب المصري تحت راية الثورة الشعبية التلقائية، ضد النظام القائم المستبد الفاسد، من قمَّته إلى قدمَيه، من فرعون المقدس الأعلى (يتمسك بكرسي العرش وإن أراق دماء الشعب كله) وحكومته الفاسدة وحزبه الحاكم الذي يؤجر البلطجية لقتل الشباب، وبرلمانه المزوَّر المزيف، نواب الأراضي والنساء والمخدرات والرشاوي، ونخبته (يسمونها النخبة المثقفة) التي باعت أقلامها وضميرها، أفسدَتِ الثقافة والتعليم والتربية والأخلاق العامة والخاصة، وضلَّلتِ الرأي العام الجماعي والفردي، من أجل مصالح آنيَّة ومناصبَ في الحكم كبيرة أو صغيرة. انطلق الشباب والنساء والرجال والأطفال تلقائيًّا من بيوتهم، يقودون أنفسهم بأنفسهم، يحمون أنفسهم بأنفسهم، بعد أن سقطَتِ الشرطة ورجال الأمن، وسقطت النخبة المسيطرة على الإعلام والثقافة، ولجان الحكماء الواصلة إلى قمة الثروة والسلطة، والقيادات الحزبية الانتهازية التي ساندت هذا النظام الحاكم، سرًّا وعلنًا، على مدى نصف قرن. سقطَت الانتهازية والقيم الأخلاقية المزدوجة المراوغة، التي أفسدَتِ الدولة والأُسرة والأفراد، وأشاعت الفوضى تحت اسم الأمن، والدكتاتورية تحت اسم الديمقراطية، والفقر والبطالة تحت اسم التنمية والرخاء، والبغاء والخيانة الزوجية تحت اسم الأخلاق وحرية الاختيار، والمهانة والخضوع الذليل للاستعمار الأمريكي-الإسرائيلي تحت اسم المعونة والشراكة والصداقة أو عملية

السلام، وحبس أصحاب وصاحبات الأقلام الصادقة المفكرة المبدعة داخل الزنازين أو عزلهم وتشويه سمعتهم، أو طردهم إلى المنفى خارج الوطن وداخله.

خرج الملايين من المصريين والمصريات، إلى الشوارع من كل المحافظات، من القرى والمدن، من أسوان إلى الإسكندرية والسويس وبورسعيد وكل شبر من أرض الوطن. في العاصمة القاهرة عسكرنا في ميدان التحرير، أحد عشر يومًا ليلَ نهارَ حتى الآن، أصبح ميدان التحرير هو أرضنا، هو معسكرنا، نرابط فيه فوق الإسفلت وداخل الخيام كتلةً واحدة صلبة من البشر رجالًا ونساءً، لا نغادر مكاننا وإن هجم علينا البوليس متنكرًا في ثيابٍ مدنيَّة، وإن اقتحم الميدان (كما حدث يوم الأربعاء ٢ فبراير) عصاباتٌ مأجورة من النظام، أخذ كلٌّ منهم رشوة (خمسين جنيهًا وفرخة كنتاكي للجندي الصغير ورشاوى أكبر تزيد بازدياد الرتبة). اقتحموا علينا الميدان راكبين الخيول والجمال، مُسلَّحين بكل أنواع الأسلحة حمراء وصفراء وبيضاء، كاد أحد الأحصنة يدوسني وأنا واقفة في الميدان مع الشباب، حملوني بعيدًا عن قافلة الهجانة الهمجية، رأيتهم بعيني، راكبي الخيول والجمال، يبرطعون في الميدان، يطلقون النيران في كل مكان، وسط الغبار والدخان الذي غطى الميدان والمباني من حوله، رأيتُ كُرات النار تتطاير في الجو، وشباب يسقط ودماء تُراق، نشبت معركةٌ شبه حربية بين مأجوري النظام وبين الشعب المصري المسالم يُنادي بالحرية والكرامة والعدالة، لكن لجنة الدفاع من الشباب الثوري استطاعت أن تنتصر على البلطجية، وأن تقبض على بعض الأحصنة والجمال، وعلى مائة من المأجورين، بكل بطاقاتهم الشخصية، منهم ضباط أمن دولة، أمن مركزي، أمناء شرطة، بعضهم ليس لهم عمل، بلطجية من عصابات الشوارع والسجون، بعضهم اعترف بأخذ ٢٠٠ جنيه ووعد بـ ٥٠٠٠ جنيه لو فرَّقوا الشباب في الميدان وقضَوا عليهم بالسنج والسيوف والمولوتوف (قالوا عن شباب الثورة «العيال اللي عاملين الشغب») بلغة كبار رجال مبارك الذين أعطَوهم الأوامر مع الأموال.

الشباب أقاموا الخيام على أرض الميدان ليستريحوا بضع ساعات الليل، أمهاتٌ بأطفالهن الرضَّع افترشوا الأرض في البرد تحت المطر، مئات البنات الشابات لم يتحرش بهن أحد، يسرن رافعات الرءوس، يشعرن بالحرية والكرامة والمساواة بينهن وبين زملائهن. الأقباط يشاركون في الثورة جنبًا إلى جنب مع المسلمين، حوطني بعض شباب الإخوان المسلمين. قالوا لي: «نختلف مع بعض كتاباتك لكننا نحترمك ونحبك لأنك لم تنافقي أي حكم أو قوة في الداخل أو الخارج.» طوال سيري في الميدان يقبل عليَّ الشباب

نساءً ورجالًا من كافة الاتجاهات، يأخذونني بالأحضان يقولون: «يا د. نوال نحن الأجيال الجديدة التي قرأت كتبك واستلهمت الإبداع والتمرد والثورة من أفكارك المنشورة.» ابتلعت الدموع، قلت لهم: «هذا عيد لنا كلنا، عيد الحرية والكرامة والعدالة والإبداع والتمرد والثورة.» قالت إحدى الشابات اسمها رانيا رفعت: «نحن نطالب بدستورٍ جديد مدني لا يفرق بين الشعب على أساس الدين أو الجنس أو العقيدة أو العرق أو غيرها.» وقال شابٌّ مسيحي اسمه بطرس داوود: «نريد قانون أحوالٍ شخصية مدنيًّا موحدًا لجميع الشعب دون تفرقة على أساس الدين أو الجنس أو الملة أو الطائفية.» وقال شاب اسمه طارق الدميري: «الشباب صنعوا الثورة وعلينا أن نختار حكومتنا الانتقالية ولجنةً وطنية لتغيير الدستور.» وقال شاب اسمه محمد أمين: «نريد حل مجلس الشعب والشورى وعمل انتخاباتٍ نزيهة لاختيار رئيسٍ جديد ومجالسَ شعبيةٍ جديدة.» وقال شابٌّ اسمه أحمد جلال: «نحن ثورةٌ شعبية تضع عقدًا اجتماعيًّا جديدًا، ليس مجرد مطالب، شعار ثورتنا: مساواة حرية عدالة اجتماعية، من صنع الثورة هو من يضع قواعد الحكم الجديد، يختار الحكومة الانتقالية، يختار اللجنة الوطنية التي تُغيِّر الدستور، يشكل لجنة حكماء الثورة، حتى لا يفرض علينا الانتهازيون (أصحاب الثروة والسلطة) لجان حكماء لم تشارك معنا في الثورة، تأتي الآن إلينا بالطائرات من أوروبا أو أمريكا، من المصريين الذين عاشوا حياتهم خارج الوطن أو داخله، يأتون الآن ليصبحوا قيادة الثورة، نحن نقول: الذين قاموا بالثورة هم الذين يقودون الثورة، من بيننا حكماء من الشباب عمرهم ثلاثون سنة أو أربعون أو خمسون سنة. عندنا كفاءات في كل المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية وغيرها، نحن من نُشكِّل لجنة حكمائنا وحكومتنا الانتقالية، واللجنة الوطنية لتغيير الدستور والقوانين.» وقال الشاب محمد سعيد: «أشعر بالفخر لأول مرة في حياتي لأني مصري. راح اليأس والاكتئاب، تحولتِ الهزيمة إلى نصر، دفعنا ثمن الحرية بدم شهدائنا ولا تُوجد قوة تُعيدنا إلى الوراء أبدًا.»

تحوَّل الميدان إلى مدينةٍ كاملة بمرافقها، والمستشفى الملحق بها يرقد فيه المصابون والجرحى، تطوَّع الأطباء والممرضات من جموع الشباب، تطوع الأهالي بالبطاطين والأدوية والقطن والشاش والأطعمة والماء. شيء يشبه الحُلم والخيال، أعيش مع الشباب والشابات ليلَ نهار، تكوَّنت لجان منهم تتولى كل الأعمال من كنس الميدان إلى نقل المصابين إلى المستشفى، إلى توفير الطعام والأدوية، إلى تولي الدفاع عن الميدان والرد على أكاذيب النظام في الإعلام، إلى ترشيح أسماء الحكومة الانتقالية ولجنة الحكماء وغيرها. تلاشت جدران البيوت والمؤسسات والتابوهات التي فرقت بين المواطنين، النساء والرجال والمسلمين

والمسيحيين، أو غيرهم، أصبحنا شعبًا واحدًا لا انقسامات على أساس الجنس أو الدين أو غيرهما، الكل يطالب برحيل مبارك ومحاكمته ورجاله في الحزب والحكومة، على الدماء المراقة يوم الأربعاء ٢ فبراير وكل الأيام منذ ٢٥ يناير، والفساد والاستبداد على مدى ثلاثين عامًا من الحكم. وللحديث بقيَّة.

الثورة المصرية مستمرَّة حتى تحقِّق أهدافها كلها

اكتسب الشعب المصري ثقته بنفسه بعد نجاحه يوم ١١ فبراير في إسقاط حسني مبارك عن رئاسة الدولة، رغم كل المحاولات المضنية، المضحكة والمحزنة، والمناورات المعلنة والخفية في الداخل والخارج لإجهاض الثورة، وما قام به مبارك وأعوانه للترويع والتجويع، وإشاعة الفوضى وإراقة الدماء، لاستمرار مبارك وأعوانه في كراسي الحكم. نجحَت الثورة بسبب الوحدة الشعبية الكاملة، أزالت الفروق الجنسية والدينية والعنصرية والطبقية المفروضة علينا، بسطوة الحكم الطبقي الأبوي منذ العبودية. نجحت الثورة بسبب التنظيم والوعي، والإحساس بالمسئولية الوطنية التاريخية، والاستعداد الكامل والإحساس بالمسئولية الوطنية التاريخية، والاستعداد الكامل للتضحية حتى الموت، دفاعًا عن الحرية والكرامة والعدالة واستقلال الوطن. ثار الشعب المصري كله، رجالًا ونساءً من كل الفئات والأعمار والعقائد والمهن والطبقات، هذه الوحدة الشعبية الثورية الواعية السلميَّة هي قوَّة أكبر من أسلحة الحكم الاستبدادي. ثورة الملايين المتَّحدة الواعية هي أكبر من قوى البوليس أو الجيش أو الإعلام الكاذب، الذي حاول تشويه الصورة الوطنية المضيئة للشعب الثائر، وإشاعة الأكاذيب. واصل إعلام مبارك وسوزان مبارك وأنس الفقي (كانت وزارات الإعلام والثقافة تتبع السيدة الأولى ضمن وزارات وهيئات وجمعياتٍ حكومية تسمَّى غير حكومية) دأب هذا الإعلام الهابط على تزييف وعي الجماهير وتصوير الثوار والثائرات على أنهم خونة وعملاء لقوى خارجية، كنت أؤمن بقوة الشعوب على زلزلة العروش من قراءة التاريخ، لكنَّ الفرق كبير بين أن تقرأ وأن تعيش الثورة يومًا بيوم ولحظةً بلحظة حتى يسقط العرش ويتهاوى.

كان شعار الثورة المصرية «إسقاط النظام» فهل سقط النظام فعلًا؟ ما أراه الآن أن رأس النظام سقط، لكن جسد النظام لا زال قائمًا متجسدًا داخل الحكومة التي شكَّلها مبارك قبل أن يتنحَّى. المطلوب الآن حكومةٌ انتقالية جديدة ممن شاركوا في الثورة من وجوهٍ وطنية مخلصةٍ أمينة لم تجمع البلايين أو الملايين، ولم تسكت على الفساد والدكتاتورية. مطلوبٌ أن يكون نصف وزراء هذه الحكومة من الشباب (رجالًا ونساءً) الناضج الواعي. قابلتُ منهم في ميدان التحرير عددًا كبيرًا، الكفاءات بين الشباب والشابات كثيرة من مختلف التخصصات، حصلوا على أعلى الدرجات والخبرات، لماذا لا يشاركون في الحكومة الانتقالية، ولجنة تغيير الدستور والقوانين العامة والخاصة في الدولة والأُسرة، وجميع اللجان التي ستعمل على تغيير النظام تغييرًا جذريًّا من البيت إلى الشارع، من التعليم والثقافة والإعلام والقيم الأخلاقية والاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة وغيرها، لا يمكن للثورة المصرية الشعبية التي أسقطَت رأس النظام أن تعود إلى بيوتها وتفقد قوتها الجماعية الكبرى، بل هي مستمرة بقوتها واتحادها حتى يحكم الشعب نفسه بنفسه؛ فهذه هي الديمقراطية الحقيقية. أعلن المجلس الأعلى للقوات المسلحة ذلك، وأكد أن الجيش سوف يُسلِّم الحكم للشعب كله، لكن الملايين أرادوا جدولًا زمنيًّا من الجيش لتسليم الراية لحكومةٍ مدنية من كل فئات الشعب، وليس لفئة أو شلة أو حزب أو تيارٍ ما، بل للشعب كله لا فرق بين المواطنين على أساس الجنس أو الدين أو الطبقة أو غيرها، تريد الثورة ضمانات لتحقيق كل مطالبها دون نقصان أو تأجيل.

كشفت الثورة الشعبية عن عراقة وصلابة الشعب المصري. سر صمود الشعب في ميدان التحرير (من ٢٥ يناير حتى اليوم) أنه شعب عانى الجوع والبطالة والقهر البوليسي، فلم يعُد يهمه التجويع والترويع، رأيتُ أُسرة بكاملها داخل خيمتها تنام الليل في الميدان في البرد وتحت المطر، الأم ترضع طفلها والأب يكنس الخيمة، والأطفال يكتبون بقلمٍ أسود فوق اللافتة من القماش الأبيض: «مش هنمشي هو يمشي.» يوم الأربعاء الدامي ٢ فبراير شارك الأولاد الصغار والبنات مع الشباب في مطاردة الجمال والأحصنة التي أرسلها رجال مبارك لضرب الثورة، نجحوا في القبض على ثلاثة أحصنة، رأيتها مربوطة عند مدخل الميدان، قال لي أحد الأولاد (عمره ١٣ عامًا) إنهم لم يقبضوا على الجمال لأنها عالية جدًّا فلم يستطيعوا القبض على راكبها فهربت الجمال بمن فوقها، كشفَت الثورة أيضًا عن أصالة الشعب وأخلاقه المستقيمة، لم تحدث سرقةٌ واحدة رغم أن حقائب السيدات والبنات كانت مُلقاةً على الأرض داخل الخيام وخارجها. في الممرات بين

الخيام، لم يحدث تحرشٌ واحد بأي فتاة. تقاسم الجميع الطعام القليل، رأيت شابًّا يتخلى عن نصيبه من الطعام لأم تحمل طفلها الرضيع وقال لها إنها تحتاج للطعام أكثر منه لأنها ترضع طفلًا يبكي من الجوع. رأيت البنات والأولاد يكنسون الميدان وينظمون جمع القمامة ويبنون المراحيض وينقلون الجرحى ويكتبون القصائد والأغاني والمسرحيات. هذا هو سر صمود الثورة ونجاحها، وسوف تستمر حتى تُحقِّق كل أهدافها، وليس فقط إسقاط حسني مبارك، الهدف ليس تغيير وجوه النظام بل إسقاطه وخلعه من جذوره.

كشفَت الثورة أن الشخصية المصرية قوية وليست رخوة كما قال واحد من النخبة التي أحاطت بمبارك وحرمه: السيدة الأولى «التي طأطأت لها هامات النخب المنافقة لكل سلطةٍ حاكمة.» خضعوا لأوامر السيدة الحاكمة في الدولة رغم استبدادهم بزوجاتهم في البيوت، وتشدُّقهم بالإخلاص لله والوطن رغم خياناتهم المتكررة لزوجاتهم. ضربَت النخبة المصرية المثقفة مثلًا سيئًا للشخصية المصرية، زيفَتِ الوعي وأفسدَتِ الرأي العام. الأدباء والأديبات والصحافيون والصحافيات الذين يهرولون إلى كل حكمٍ جديد، من الحزب القومي إلى حزب مصر (الساداتي) إلى الحزب الوطني (المباركي) يكيلون المدح لكل حاكم، فإن مات أو سقط يكيلون القدح له والذم، نراهم اليوم يسارعون لضرب مبارك بعد أن سقط، يتملقون شباب الثورة الفتيَّة الجديدة بمبالغةٍ تصل إلى حد التقديس، لا يشعرون بالخزي أو الخجل من نفاقهم الواضح المكشوف، يتصورون أن الشعب الثائر ينسى ما كتبوه بالأمس، والجوائز التي منحها لهم مبارك. أحد الذين حصلوا على جائزة مبارك في الأدب قال إنَّه سوف يرفض الجائزة أو يطلب تغيير اسمها، هذا المثقَّف العظيم الحاصل على جميع جوائز الدولة التقديرية، تولَّى رئاسة الثقافة المصرية، وخدم مبارك وحرمه ضد الأدباء والأدبيات الثائرين والثائرات، كنت واحدة من هؤلاء الأديبات اللواتي بطش بهنَّ هذا الزعيم الثقافي إرضاءً لأصحاب الحكم، وبطَش بكل من عارضَه أو نقدَه أو رفض العمل معه.

كشفَت الثورة عن وجوه المنافقين في كل عصر وعهد. الشباب المصري الواعي يعرفهم ويكشفهم، وإن تَستَّروا تحت الأدب أو الإبداع والفلسفة، وإن تنكروا تحت وجوهٍ جديدة، وإن قدَّموا أنفسهم لخدمة السلطة الجديدة أو لترشيح أنفسهم للرئاسة أو مجلس الشعب أو المناصب الأخرى. لن ينتخب الشباب إلا واحدًا منهم شارك في ثورتهم، عانى البطالة والفقر والقهر، أُريقت دماء أخيه أو أخته أو زميله في ميدان التحرير، أحد شباب الثورة الشعبية (أو إحدى شابَّاتها) سيصبح رئيسًا للجمهورية المصرية الجديدة، لا يملك فيلًّا أو قصرًا، لا يملك شركة أو رصيدًا في البنوك.

هل يبدع العقل المصري بمبادرة استعماريَّة؟

قرأتُ في الصحف المصرية عن أن مبعوث الرئيس الأمريكي (د. أحمد زويل) جاء إلى مصر في ١٠ يناير ٢٠١٠م، وقابل رئيس الوزراء وعددًا من الوزراء والمجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا، من أجل تنفيذ خطة الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» للنهوض بالعلم والتعليم في بلادنا، على أساس الخطبة التي ألقاها أوباما في القاهرة في ٤ يونيو ٢٠٠٩م، ثم يعود المبعوث الأمريكي إلى واشنطن ليُقدِّم تقريره إلى الرئيس الأمريكي. تذكرتُ ما قرأته في الصحف في طفولتي خلال الأربعينيات من القرن الماضي، عن زيارة مبعوث الحماية البريطانية إلى مصر، لتطوير التعليم في مصر، ثم يعود إلى لندن ليقدم تقريره إلى الرئيس الإنجليزي.

أعلن المبعوث الأمريكي د. أحمد زويل أن أساس «مبادرة أوباما» بناء قاعدةٍ قوية للابتكار في بلادنا وربطها بقوى السوق، وإنشاء صندوق يحقق الدعم المادي لتحقيق ذلك.

هل مشكلة التعليم والعلم في مصر قلة الدعم المادي أم قلة التفكير النقدي الحر في جميع المسلَّمات السياسية والدينية وغيرهما؟

ولم نعرف ما علاقة قوى السوق والتجارة بتطوير التعليم والفكر الإبداعي في مصر؟ أيُّ سوق؟ السوق الحرة القائمة على حرية الأقوى في استغلال الأضعف دوليًّا ومحليًّا؟ رغم كراهيتي للتجارة والتجار منذ الطفولة، فأنا لست ضد السوق بشرط أن تقوم على الأمانة والمساواة بين البائع والمشتري، وليس على استخدام القوة بدلًا من العدل، والخداع بدلًا من الصدق، من أجل الكسب والنهب ومضاعفة الأرباح.

كما أنَّني لستُ ضد التبادل العلمي والثقافي والفكري بين البلاد، والاستفادة بخبرات العالم كله لتطوير العلم والتكنولوجيا في بلادنا، وقد سافرتُ أنا نفسي إلى بلادٍ متعددة في الغرب والشرق، لأتبادل التجارب والإبداع الفكري مع الآخرين من مختلف الثقافات والعلوم والفنون، لكن الإبداع الفكري أو التعليم الصحيح يقوم على تبادُل الخبرات والحوار والنقاش، وليس على تنفيذ خطةٍ مسبقة أو مبادرة أو توجيهات السيد الرئيس المصري أو الرئيس الأمريكي، أو الإنجليزي، أو غيرهم من الرؤساء في الداخل أو الخارج. كنت أستاذة «للإبداع والتمرُّد» لأكثر من ستة عشر عامًا في عدد من الجامعات خارج الوطن، تعلمتُ فيها من طلابي وطالباتي وعلَّمتُهم، كان حوار يدور بيننا دائمًا، وليس التلقين من طرفٍ واحد، ليس تلقيًا فقط من طرف الأستاذ أو الأستاذة أو الرئيس أو الرئيسة.

السؤال الأول الأساسي هو: كيف يمكن للعقل المصري أن يبدع في أي مجالٍ علمي أو فكري أو فني؟ لماذا يقوم التعليم في بلادنا على التقليد والنقل وليس على الابتكار والنقد؟ لماذا لم نستطع خلال القرون الماضية ابتكار شيء في مجال العلوم الطبيعية، النظرية والتطبيقية، وغيرهما؟

السؤال الثاني الأساسي: هل يمكن للاستعمار الخارجي أن يسعى إلى تطوير عقول سكان المستعمرات، إذا كانت العلاقة بينهما قائمة على الاستغلال والنهب تحت اسم الحماية أو الشراكة أو الصداقة أو غيرها من قاموس الكلمات الخادعة منذ الاستعمار البريطاني القديم حتى الاستعمار الأمريكي الجديد؟

وهل نذكر خطبة أوباما في القاهرة ٤ يونيو ٢٠٠٩م؟ ألم يكن هدفها الأساسي تدعيم المصالح المشتركة المادية التاريخية بين أمريكا وإسرائيل، وفتح الأسواق في بلادنا للبضائع الأجنبية والنهب الاستعماري عن طريق السوق التي يُسمُّونها حرة؟

لقد روَّعَتنا الفتن الدينية البشِعة المتكررة في مصر منذ السبعينيات منذ عصر السادات، تُزهَق فيها أرواح الأبرياء، آخرها مذبحة نجع حمادي في أول يناير ٢٠١٠م، نهتز لها بضعة أيام ثم نخمد؟ حتى تحدث مذبحةٌ جديدة فنهتز ثم نخمد.

والسؤال الأساسي هو: هل هناك علاقة بين الفتن الدينية أو تصاعد التيارات الدينية وبين تدهور التعليم والفن والعلم والسياسة وغيرها؟ هل تتعاون الحكومات المحلية مع الحكومات الاستعمارية الخارجية في إشعال الفتن الدينية لتقسيمنا إلى طوائفَ متناحرة؟ هل تعاون رونالد ريغان مع أنور السادات مع التيارات الإسلاميَّة والمسيحيَّة واليهوديَّة

في تحجيب عقولنا جميعًا (وليس فقط وجوه نصف المجتمع) تحت اسم الحماية من الشيطان أو العودة إلى حظيرة الإيمان أو الشراكة مع القوى الاستعمارية؟ هل تتحقق الشراكة الحقيقية في ظل القهر وعدم المساواة؟

لا أريد أن أُعلِّق مشاكلنا كلها على شماعة الاستعمار الأجنبي، وإعفاء المسئولية المحلية. لا يمكن الفصل بين الاستغلال المحلي والدولي، لابد أن نحاكم أنفسنا شعبًا وحكومة وأفرادًا كما نحاسب الاستعمار الخارجي. علينا أن نرفع الحجاب المفروض على عقولنا، تحت مسمياتٍ مختلفة سياسية ودينية.

أول خطوة لرفع الحجاب عن العقل هي العودة إلى المنطق الواضح البسيط، هل يمكن لمن يريد استغلالك ونهبك أن يسعى إلى تعليمك كيف تقاوم النهب والاستغلال؟ هل يمكن لمن يبث التفرقة على أساس الدين والجنس أن يسعى لتعلميك المساواة، بصرف النظر عن الدين أو الجنس؟ هل يمكن لمن يسلب حرِّيَّتك أن يسعى لتعليمك الحرية؟

ما علاقة المساواة والعدل والحرية بتطوير التعليم والعلم وتشجيع الإبداع الفكري؟ هل يمكن لعقلٍ تربى على الاستبداد والظلم والتعصب لدينٍ معين أن يفكر بحرية ويبدع في أي مجال؟

في سني الطفولة الأولى، قبل دخول المدرسة، كان لي صديقات وأصدقاء من كل أطفال الجيران، مسلمين وأقباطًا ويهودًا وغيرهم، كنا نلعب معًا ونأكل معًا، بنات وأولادًا، دون تفرقة بيننا، حتى دخلنا المدرسة وبدأ المدرسون يقسموننا حسب نوع الدين ونوع الجنس، ونوع العائلة، فقيرة أو غنية، هكذا بدأنا نتفرق ونتقسم ونتناحر دفاعًا عما سُمِّيت الهوية، من أنت؟

يقوم النظام التعليمي منذ الطفولة على التفرقة بين البشر على أساس الهوية الدينية والجنسية والطبقية والطائفية وغيرها. ينشأ الأطفال على هذه القيم العنصرية غير الإنسانية تحت أسماءٍ لامعة براقة منها حب الوطن، حب الله، حب الأب والأم وأفراد العائلة، (أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب). تتغلب روابط الدم والقرابة على العدل والإنسانية (النظافة من الإيمان والوساخة من النسوان). تترسب النظرة الدونية للمرأة وتُربط النساء بالقذارة والنجاسة (إن فاتك الميري اتمرَّغ في ترابه)، يتعلم الطفل الهوان والنفاق في مواجهة الحكومة والسلطة (العين لا ترتفع عن الحاجب)، تترسب مفاهيم العبودية في نفوس الأطفال، وعدم تغير العلاقة الثابتة بين السادة والعبيد. الأمثلة كثيرة عن القيم العبودية التي نتعلمها في المدارس منذ الطفولة، بالإضافة إلى كثير من المقدسات الموروثة والتقاليد العتيقة من عصور الرق.

أول مرة سمعت فيها كلمة «عضمة زرقا» كانت من مدرس الدين، عرفت أنها تعني صديقتي القبطية إزيس، وأنَّني مسلمة سأدخل الجنة، وهي ستدخل النار وتُشوي كالخروف في جهنم الحمراء. أصبحت أحلم بصديقتي في الليل وهي تُحرق وأبكي لصراخها، ثم أصبحت أتفادى اللعب معها لأنها كافرة كما وصفها المدرس، ولا آكل معها لأنَّ أكلها نجس، لم يحررني من هذه الأفكار العنصرية البشعة إلا أمي. قالت لي: إزيس بنتٌ ممتازة ولا يمكن تروح النار؛ لأن ما فيش نار ولا حاجة، هكذا حررتني أمي من الخوف أيضًا من نار الجحيم.

دعم أبي ما قالته أمي لي، وقال لي: «لا ترددي ما تسمعين كالببغاء، شغلي عقلك، لأن العقل أساس كل شيء.» بدأت أتمرد على مدرس الدين، وأنقد ما يقوله في الحصة مما لا يقبله عقلي، أصبح يقول عني البنت المشاغبة المتمردة الكافرة، ويعطيني صفرًا في الامتحانات، لكن تشجيع أبي وأمي جعلني أستمر في التعبير عن عقلي دون خوف من النار أو السقوط في الامتحان.

تعلمتُ منذ الطفولة حرية التفكير دون خوف من العقاب أو طمعًا في جائزة، فقدتُ كل الجوائز في مراحل عمري المختلفة لكني كسبت عقلي القادر على النقد والإبداع.

هل يمكن لمبادرة الرئيس الأمريكي أوباما أن تدرك هذا الأساس الأول لتطوير التعليم والعلم والابتكار في مصر؟ لماذا إذن لم يربط قاعدة الابتكار بالتربية في الطفولة وليس بالسوق والتجارة وصندوق الدعم المادِّي؟

أين العدالة الاجتماعيَّة أيُّها السادة؟

الوجوه في الصورة المنشورة، تحت المانشيت، بالبنط العريض إنشاء المجلس الوطني، اجتمعت القوى السياسية من كافة الفئات والأطياف وكل قوى ثورة يناير المجيدة في مؤتمر مصر الأول الذي ضم ٤٣٠٠ شخص، تحت شعار: الشعب يحمي ثورته، وتشمل أهداف المجلس الوطني إصدار وثيقة الثورة، والتقدم بقائمة موحدة لمرشحي مجلس الشعب في الانتخابات البرلمانية المقبلة، الوجوه تشبه الوجوه في النظام السابق، الطبقة ذاتها، والنخبة التي تكتب وتنشر في كل العهود، مع بعض التعديلات التجميلية، اللغة هي اللغة السابقة، بدلًا من حرب أكتوبر المجيدة يقولون ثورة يناير المجيدة، خيالهم يعجز عن إبداع كلمات جديدة، إنهم الناشطون مثل آبائهم في بورصة السياسة والمال والسوق الحرة والإعلام الحر والمنظمات الحقوقية، الحكومية وغير الحكومية، لا يزيدون عن خمسة آلاف، نخبة الحكم والمعارضة الشرعية، كلهم من الرجال العجائز. قد نرى في الصورة شابًّا أو اثنَين، أو امرأةً شابَّة أو اثنتَين الصفوف وراء الصفوف، ونرى رجالًا منتبهين متحفِّزين في كراسيهم القطيفيَّة الخضراء أو الحمراء، ينتهزون الفرصة للانقضاض على السلطة والثروة، وإلا فما هذا التكالُب بالمناكب على الوصول إلى العرش، هذا التنافس الرهيب بين مرشَّحي الرئاسة على الكرسي، وكلهم يقسمون أنَّهم سوف يضحُّون بآخر قطرة من دمهم من أجل الفقراء والمساكين وسكَّان القبور. يتشدَّقون بالعدالة الاجتماعيَّة، يسبُّون اللصوص السابقين، نهبوا أموال الشعب، وكلهم (إلا القليل النادر) كانوا هناك حاضرين في حفلات الرئيس والهانم والوزير، حاصلين على جوائز مبارك وفاروق حسني وجابر عصفور، وغيرهم.

أتأمَّل وجوههم، أسمع كلامهم، وأتعجَّب، أبتهج لأنني لست منهم، أزداد ثقة في نفسي، أنني أسير في الطريق الصحيح. وكيف تجتمع كل فئات الشعب وأطيافه دون

وجود الشعب ذاته؟! دون حضور الأغلبيَّة الساحقة المسحوقة، نساءً ورجالًا وشبابًا وأطفالًا؟ المنبوذون والمنبوذات الذين إن خرجوا يطالبون بالخبز أو الشرف والكرامة لأطفالهم، يضربوهم بالرصاص، أو وصموهم بالعار. مطالبهم فئويَّة وليست نبيلة، يخونون الثورة المجيدة، ثورة الطبقة الوسطى الأصيلة، ليست ثورة الجياع الرعاع، ساكني القبور والعشوائيَّات وأطفال الشوارع غير الشرعيِّين، أولاد الحرام. تبرز العضلات السياسيَّة والماليَّة والدينيَّة والثقافيَّة والصحفيَّة والأدبيَّة التي نمت وترعرعت في ظلِّ النظام السابق، يعرفون كيف يغازلون كل القوى في الساحة، السلفيِّين والإخوان والأقباط والعلمانيِّين والشيوعيِّين ورجال الأعمال والبورصة. يسار ويمين ووسط، وكل شيء، يردِّدون كلمة العدالة الاجتماعيَّة لإفراغها من معناها.

جمعتني جلسة مع بعض الأطفال غير الشرعيِّين وأمَّهاتهم، هم أطفال الله، أحباب الله كما كانت تسمِّيهم جدَّتي الفلاحة في قريتي كفر طحلة. كانت تقول: «الطفل بريء، أبوه هو المجرم، اغتصب أمه المسكينة وهرب، الأب اللِّي يتخلَّى عن مسئوليته ما لوش شرف، أب غير شرعي.» أنا تعلَّمت الأخلاق الصحيحة والعدالة الاجتماعيَّة من جدَّتي الفلاحة، ليس من شيخ الأزهر أو وزير التعليم أو أساتذة الجامعة والمدرِّسين. كانوا يصلُّون وراء الملك فاروق ويؤيِّدون الاستعمار البريطاني، وطبقة كبار الملَّاك والمضاربين في البورصة. كلمة البورصة ترتبط في عقلي منذ الطفولة بكلمة البرص، السحليَّة، الثعبان الصغير، ومرض البرص لا علاج له. لم يعجبني في عهد عبد الناصر إلا اختفاء كلمة البورصة، أصبحنا نسمع عن الإنتاج الزراعي والصناعي، أن نأكل ممَّا نزرع ونلبس التيل والقطن الذي تنتجه المحلَّة الكبرى من صناعتنا. نفخر بالكتابة باللغة العربيَّة، كانت لغة الخدم. تغيَّر النظام في عصر السادات ثم مبارك، أصبحنا ننتج ما لا نأكل ونأكل ما لا ننتج ونلبس ما لا نصنع. انتشرت مكاتب الاستيراد والتصدير، أصبحنا نستورد خبزنا وملابسنا وتعليمنا، طغت كلمة البورصة على الاقتصاد والسياسة والثقافة والأخلاق. تمَّت خصخصة القطاع العام، وتمَّ إغلاق المصانع لصالح الشركات الأجنبيَّة ووكلائهم من رجال الأعمال المصريِّين أصحاب شركات القطاع الخاص. كسبوا البلايين وملكوا القنوات الفضائيَّة. طغى الإعلام على الثقافة والفكر والأدب، أصبح المذيع أو المذيعة أهم من المفكِّر المبدع. تمَّت مطاردة المفكِّرين من الرجال والنساء في محاكم الحسبة والتكفير، حُكم عليهم بالسجن أو المنفى والتشريد وتشويه السمعة. زاد الأثرياء والحكَّام ثراءً، وعاش نصف الشعب المصري تحت خطِّ الفقر.

تصاعدَت القوى السياسيَّة الدينيَّة الإخوانيَّة والسلفيَّة، والنقاب للنساء تحت اسم الحرِّيَّات السياسيَّة والشخصيَّة. لماذا لا تُطبَّق هذه الحرِّيَّات على جميع فئات الشعب؟ لماذا الفصل بين الحقوق السياسيَّة والحقوق الاجتماعيَّة والاقتصادية والأخلاقيَّة للرجال والنساء والأطفال؟ قالت واحدة من الأمهات المسحوقات، تحمل علي كتفها طفلًا مسحوقًا: «نحن الأمَّهات المطلَّقات الحاضنات ليس لنا حزب أو اتحادٌ نسائي يدافع عن حقوقنا وحقوق أطفالنا، الرجل يطلِّق زوجته غيابيًّا دون علمها، ثم يتهرَّب من مسئوليَّة الإنفاق على ابنه، اشتغلتُ بالبيوت لأُنفق على طفلي وأعالجه، ثم يأتي أبوه يريد خطفه منِّي ليحرق قلبي، يتَّفق مع آباءٍ آخرين مثله لعمل مظاهرة للاستيلاء علي حقوق الأم، تحت اسم حق الأب في رؤية ابنه.» لو كان حريصًا على مصلحة ابنه لأرسل له مصاريف الطعام والعلاج، لكنَّه يستخدم ابنه الطفل المسكين ليبتزَّ أُمه المسكينة، ليفرض عليها التنازُل عن النفقة. تنازلت الأم عن نفقتها ونفقة ابنها حماية للطفل من سطوة أبيه، لكنَّه يهدِّدها تحت اسم حقِّه في رؤية الطفل ليأخذ شقَّتها وفلوسها التي تكسبها بعرق جبينها. جاء تعديل قانون الطفل الأخير لصالح الأطفال المساكين، وليس من أجل سوزان أو جيهان أو غيرهما، لكنَّ هؤلاء الآباء الفاسدين يسيطرون على الأمَّهات والأطفال بحكم السلطة الأبويَّة الطبقيَّة. النظام الأبوي الطبقي السائد يقف مع الأقوى ضد الأضعف.

يلعب العرف والشرع والقانون الوضعي دورًا في التحيُّز للرجل، وإن كان مغتصبًا غاصبًا، يستغل حب الأم لطفلها لابتزازها وسلبها حقوقها. تظاهر بعض الآباء أمام مشيخة الأزهر للمطالبة بإلغاء قانون الخلع وقانون الطفل الجديد تحت اسم الثورة المجيدة على قوانين الهانم سوزان أو جيهان، لكنَّ تعديل هذه القوانين القديمة المجحفة بحق الأطفال وأمَّهاتهم جاء بسبب نضال النساء والرجال من ذوي الضمائر الحيَّة، النضال الطويل على مدى القرون، دأب المنافقون والمنافقات على سلب الجهود من المناضلين وإعطائها للحكَّام من النساء والرجال.

وتقول الأم التي داخت في المحاكم لتأخذ حقَّ أطفالها الثلاثة من أبيهم غير المسئول، الرجل الذي يطلِّق زوجته أم أولاده، من أجل شهوته الجنسيَّة، ويعرِّضها لذُّل المحاكم (سعيًا وراء نفقة أطفالها): «هذا الرجل لا يستحقُّ الأبوَّة، ولا يستحقُّ أن يكون له أطفال، أين منظَّمات المرأة وحقوق الإنسان؟ لا نسمع لهم صوتًا إلا الدفاع عن حُريَّة المرأة لارتداء النقاب؟»

لم يَرَ واحدًا منهم له عينٌ واحدة

فتاةٌ — طفلة عمرها ١٨ سنة — زوَّجها أبوها رغم إرادتها لرجلٍ يكبرها بأربعين عامًا، لكن الزواج لم ينجح بالطبع، فكيف لطفلة — فتاةٍ صغيرة — أن تُنتهَك جسديًّا ونفسيًّا من قِبل رجلٍ عجوز من عمر جدِّها وضد إرادتها، ربَّما قاومَتْه الفتاة أو حاولَت الانتحار وفشِلَت وبقِيَت معه على مَضَض وكُره ثم حاولَت الهرب، فذهب إلى المأذون وطلَّقها بإرادته المنفردة. أمسكها وأوسَعَها ضربًا وركلًا، ثم أعادها إلى أبيها يتهمها بسوء السلوك، الحجَّة الجاهزة السهلة لأي رجلٍ معدوم الضمير يُطلِّق زوجته، العيب فيه أو العجز أو الرغبة في الانتقام منها لعدم قبولها الذل والهوان. المهم أنَّ الأب المعدوم الضمير، منذ البداية، أمسك ابنته الصغيرة الضعيفة العاجزة عن المقاومة، كبَّل يدَيها الصغيرتَين بحبلٍ متين، يساعده رجالُ الأسرة، أعمامها وأشقَّاؤها، لفُّوا حول فمها وأنفها شرائط لاصقة «البلاستر»، وألقَوا بها حيَّة في النيل، نشَرَت صحف القاهرة يوم ٢١ أبريل ٢٠١١م خبر العثور على جثَّتها وانتشالها من الماء، وقرَّر الطبيب الشرعي أنَّ سبب الوفاة أسفيكسيا الخنق.

كم منَّا قرأ هذا الخبر، وقد نُشر في عدد من الصحف منها الأهرام والمصري اليوم وغيرهما؟ الآلاف قرءوا الخبر ثم قلبوا الصفحة ليقرءوا الأخبار الأهم في نظرهم عن تنافس المرشَّحين على كرسي الرئاسة. الوعود للشعب بالعدالة الاجتماعيَّة، المُراقة بالحبر على ورق الصحف، المُذاعة بالأبواق على الجماهير. الوعود بالعدالة الاجتماعيَّة تختفي مع انتهاء الانتخابات والصعود إلى العرش. هل تألَّم أحد المرشحين المتحمِّسين للعدالة الاجتماعيَّة لخبر مقتل هذه الفتاة؟ حلبة الصراع على السلطة والثروة تتكرَّر في كل انتخابات وكل عهد، بالطريقة نفسها، وكيف تتغيَّر والنظام لم يتغيَّر بل تغيَّرت الوجوه فقط. لا زالت

القيم العنصريَّة والقوانين الأبويَّة الطبقيَّة هي التي تحكم العلاقات داخل الدولة والعائلة. الجميع (إلا القليل النادر) قلبوا الصفحة ونسوا الفتاة الطفلة البريئة المقتولة تحت اسم الدفاع عن شرف العائلة، كلمة الشرف ينطقها الأب والأعمام والأشقاء بصوت جهوري يهتزُّ له وجدان المحقِّقين والقضاة ورجال الحكم والدين. يتكتَّل الجميع في قوَّةٍ متينة من أجل شرف الرجال وكرامتهم ضد الفتاة الطفلة، ليس لها شرف ولا كرامة، ليس لها أحد في هذه الغابة، حتى أمُّها المسكينة ترتعد لكلمة الشرف، تساعد الرجال في قتل ابنتها أو على الأقل تسكت وتتستَّر على الجريمة، وكم من بناتٍ صغيرات تمَّ قتلهنَّ في بلادنا من أجل الشرف دون عقاب القتلة، أو عقابٍ مخفَّف تعاطفًا مع الرجال المدافعين عن شرفهم. نعم، ما زال مفهوم الشرف في بلادنا يرتبط بسلوك البنات الصغيرات أكثر من سلوك فطاحل الرجال في بورصة السياسة والمال والإعلام.

بعض الغارقين لآذانهم في حلبة التنافُس على الرئاسة قد يسخرون من اهتمامي بفتاةٍ صغيرة لا وزن لها في غابة السياسة والمال وتوازن القوى، ومن يحترم حق إنسانة أو إنسانٍ مصري ليس له قوَّة؟ وهل احترموا ملايين الشعب المصري إلا بعد ثورةٍ جماعية مليونيَّة أسقطت رءوس النظام وانتزعت حقَّها بقوَّة التنظيم والاتِّحاد؟ رفعت الثورة شعار الكرامة والحرِّيَّة والعدالة للجميع، بصرف النظر عن الدين أو الجنس أو الطبقة، لكن سرعان ما تكتَّلت القوى المسيطرة في السوق، القوى الأبويَّة الطبقيَّة التي تتمتَّع بالصوت العالي في الإعلام، والقوى الدينيَّة التي تُوظِّف الدين في السلطة الحاكمة لتُرعب من لا يخضع ويُطيع.

لماذا قامت الثورة المصريَّة؟ ألم تقم من أجل العدالة والحرِّيَّة والكرامة؟ ألم تقم من أجل هذه الفتاة وغيرها من الملايين المقهورات والمقهورين، من الشعب الفقير؟ هل انطفأت روح الثورة الإنسانيَّة العظيمة وعادت ريما لعادتها القديمة؟ عدنا إلى حلبة الصراع على السلطة والثورة بالطرق القديمة، فقدنا الإنسانيَّة الثوريَّة التي ترعى الضعفاء والأغلبيَّة المظلومة، عُدنا حيواناتٍ سياسيَّة لها عضلاتٌ انتخابيَّة بارزة وأبواقٌ إعلاميَّة زاعقة، وأموالٌ غزيرة من أرباح السوق الحُرَّة أو المناصب العُليا منذ عقود، والوعود التي لا تتحقَّق أبدًا حتى يموت الحاكم أو يُضرب بالرصاص أو يُسجن في الزنزانة. زهقنا من الوعود الزائفة التي تمرَّست بها النظم السابقة الساقطة، والتغنِّي بالكلام المعسول عن رفع الأجور وعدالة توزيع الثروة والسلطة، وكل عمليَّات النصب السياسي في الانتخابات الحرَّة المزيَّفة منذ العهود البائدة.

هل يتوقَّع عاقل أنَّ هذه الانتخابات القادمة خلال شهور للرئاسة أو للبرلمان سوف تقدِّم لنا حكَّامًا جددًا أو نظامًا جديدًا؟ على أي أساس يأتي الرئيس الجديد أو نائب البرلمان الجديد؟ والدستور قديم لم تتغيَّر فيه إلا القشور، والقوانين كلُّها، العامَّة والخاصَّة، قديمة، طبقيَّة أبويَّة مزدوجة عنصريَّة، تُطلق سراح الجاني الأقوى، وتعاقب الضحيَّة من الفقراء والنساء والأطفال؟ لماذا لم يتغيَّرِ الدستور والقوانين قبل الترشيحات؟ لماذا هذه السرعة والهرولة إلى الانتخابات؟ لماذا لا نتأنَّى ونُصدر قوانينَ جديدة عادلة تفرز عناصرَ شعبيَّة ثوريَّة من الرجال والنساء والشباب والشابَّات، من خارج تلك النخبة القلَّة المسيطرة على سوق السياسة والمال والبورصة والشاشة؟ كيف تتحقَّق الكرامة والعدالة والحرِّيَّة للشعب كله وليس لهذه الطبقة المميزة في كل العهود؟ النخبة من السياسيِّين والأحزاب الشكليَّة ورجال الأعمال ونساء الإعلام والماكياج؟ هؤلاء نما أغلبهم وترعرعوا في حضن النظم السابقة الفاسدة وصمتوا على فسادها السنين والسنين؟ يغيِّرون جلودهم ويطلُّون علينا بوجوهٍ جديدة ووعودٍ جديدة لا تتحقَّق.

هذه النخبة هي أعمدة النظام السابق، هي التي أفسدته وبرَّرت له الفساد وأوصلته إلى سجن طرة، ثم تخلَّت عنه بسرعة، نفضت عنه يدَيها وعادت إلينا بوجوهٍ مغسولة بريئة ترشِّح نفسها في كل الانتخابات المحلِّيَّة والعربيَّة والدوليَّة. وإن اعترض الشعب عليهم يقولون دون حياء: «كلنا عايشنا النظام السابق، كلنا كنا العبد المأمور، كلنا لم نستطع تَجاوُزَ الخطوط الحمراء وإلا تعرَّضنا للسجن أو النفي أو الطرد من المنصب أو تشويه السمعة أو ... أو ...» لكنَّ هناك قلَّة قليلة من الرجال والنساء كانت ذات شجاعة وضمائر حيَّة تعرَّضت لكل هذه الأنواع من الأذى، من أجل أن تقول كلمة صدق، فلماذا لا تُخلونَ الطريق أمام هؤلاء المخلصين والمخلصات؟ لماذا تحتلُّون كما كنتم، كل الأماكن وكل المساحات في صحف الحكومة والمعارضة، اليمين واليسار والوسط والإخوان المسلمين والمسيحيِّين والسلفيِّين والصوفيِّين، وكل القوى والمناصب في الدولة والدين والسياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام وكل شيء؟ المخلصون والمخلصات من الشعب المصري لا يتكالبون على المناصب ولا التنافُس في تمثيليَّة الانتخابات المُتكرِّرة في كل عهدٍ برتوش، وماكياجٍ جديد.

هذه النخبة تُفسد كل شيء، حتى شباب وشابَّات الثورة الشعبيَّة ذات المبادئ الإنسانيَّة الرفيعة راحت تفسدهم، وتبذر الخلافات بينهم لتتقسَّمهم، فَرِّقْ تَسُد، اختارت

منهم ما يتواءم معها ويتكيَّف مع مبادئها المطَّاطة المراوغة. تمَّ تغييب الأغلبيَّة من الشباب والشابَّات الذين صمدوا وضحَّوا بحياتهم ودمائهم وقلوبهم وعيونهم. قال لي شابٌّ فقد عينه اليمنى برصاص قنَّاصة: «كل شباب الثورة اللي بيظهروا في التلفزيون لابسين حلو وعينيهم الاتنين حلوين، ما شفتش واحد منهم له عين واحدة!»

فكر الثورة الواضح والفكر القديم المراوغ

يتميَّز الفكر الثوري بالوضوح: الكرامة الحرِّيَّة العدالة. كلمات بسيطة واضحة لا تحتاج إلى الفلاسفة الكبار الذين حصلوا على لقب كاتبٍ كبير أو مفكِّر كبير منذ العهود السابقة، ومساحةٍ دائمة «ملكيَّة خاصَّة» في الجريدة الحكوميَّة أو القوميَّة الكبيرة، تمَّ توزيعها عليهم وأبنائهم وبناتهم، مع أراضي الدولة واللجان والإقطاعيَّات، في المجلس الأعلى للثقافة والإعلام والساحل الشمالي والقطاميَّة والقاهرة الجديدة. كثير من هذه الأقلام الضخمة المتضخِّمة في الصحف الكبرى، التي بُريت أسنانها من طول تبرير وتجميل الفساد للحكَّام السابقين ووزرائهم وشركائهم، وتصوير عقل الواحد منهم المتواضع أنَّه عبقري زمانه وصاحب نظريَّةٍ فلسفيَّة، وفريدٌ من نوعه غيرُ مسبوق. كم جرت على ألسنتهم هذه العبارات التي فجَّرَت الثورة والشرايين في مخ الشعب: «اجتماعنا مع الرئيس مبارك كان فريدًا من نوعه غيرَ مسبوق»! بالذات كلمة «غير مسبوق» لم يَجِفَّ مِدادُها حتى اليوم، هؤلاء الكبار الذين تُطلُّ علينا صورهم القديمة بعد عمليات شد الجلد وصبغة الشعر، ما زالوا يكتبون كل يوم وكل أسبوع، تتلوَّن كتاباتهم حسب من يصعد إلى السلطة، كالوا المديح لشباب الثورة كما كالوا المديح لمبارك وزوجته وابنه، يمكن أن يفسدوا الشباب الجديد من نزيف كلماتهم الزائفة بالمديح، كما أفسدوا الحكَّام السابقين، وكما سوف يفسدون الحكَّام اللاحقين، طالما هم يكتبون ويراوغون ويتفنَّنون في النفاق وبلبلة العقول الشابَّة الجديدة.

اليوم قرأتُ لهم كلماتٍ مراوغة تخلط الأشياء حتى تختفي الحقيقة البسيطة الواضحة التي تقول إنَّ الدستور والقانون العادل ضروريَّان ليطبَّقا على الجميع، سواء أكان حاكمًا أم من الشعب، بل الحاكم، بصفته المسئول الأوَّل، يجب ألا يفلت من المحاكمة العادلة ويُعاقب أن ثبت جُرمه، سواء قتل المتظاهرين أو نهب الأموال أو التغطية على الفساد

أو كل ذلك. وقد أصبح مبارك مطلوبًا للمحاكمة، لكنَّ المحاكمة تتأجَّل وتتأجَّل لأسبابٍ صحِّيَّة أو سياسيَّة أو غيرهما. هناك بالطبع ضغوط من الخارج والداخل تريد إعفاء مبارك من المحاكمة تحت تبريراتٍ مختلفة يروِّجها كبار الكتَّاب، الذين ما زالوا يراوغون لإجهاض الثورة وإفراغها من معناها، لتصبح مجرَّد أغنيةٍ تُذاع كل عامٍ في ٢٥ يناير، كما تُذاع أغنية «يا حبيبتي يا أمي» في عيد الأُم الهزْلي، أو أغنية «يا حبيبتي يا مصر» في مواكب النفاق الوطني، التي يغنِّيها أصحاب البلايين في المهرجانات الثقافيَّة والإعلاميَّة، ومعاش الشهيد لا يزيد عن وجبةِ طعامٍ فاخرة على الساحل الشمالي أو الجنوبي.

اليوم قرأتُ الأعمدة اليوميَّة للكبار وبعض مقالاتهم، كلُّها متشابهة تدور حول الفكرة الخفيَّة ذاتها، كأنَّما يتَّفقون عليها بالليل، أو تصل إليهم من جهةٍ عليا في رسالات بشيفرةٍ سرِّيَّة، محاولة إعفاء مبارك وأُسرته من المحاكمة تحت أي تبرير، يا شباب الثورة النقي أنتم نبلاءُ تترفَّعون عن مشاعر الانتقام والتشفِّي، تترفَّعون فوق العقاب، العفو عند المقدرة يا شباب الثورة العظيمة الطاهرة الزكيَّة، ليست مثل الثورة الفرنسيَّة التي أعدمت لويس السادس عشر وأُسرته، ثورتكم بيضاءُ ليس فيها دم. تسيل دموعهم الغزيرة مع الحبر السائل من أقلامهم الكبيرة، لم يبكوا على الآلاف التي قُتلت وجُرحت في الشوارع وميدان التحرير بالرصاص الحي، وسيوف راكبي الأحصنة والجمال. لم يبكوا على الشباب الغض الذين فقدوا عيونهم بقنابل القنَّاصين المطَّاطيَّة. لم يبكوا على شعب مصر الذي عانى الفقر والبطالة والهوان، في السجون والمعتقلات، إن فتح أحدهم فمه بكلمة حق، إن كتب أحدهم كلمة صدق. لم يبكوا على كاتبةٍ شاعرة شابَّة «دُفِنَت بالحياة» لأنَّها لم تَمشِ في مواكب النفاق. لم يذرفوا الدموع إلا على حكَّامٍ أراقوا الدماء والأموال وحمَوا الفاسدين من المحاكمات. اليوم يحاولون بأقلامهم حماية الحكَّام الساقطين من محاكمات الشعب، تحت اسم الله. الله وحده هو صاحب العقاب أو الثواب، أخرجوا الأسلاف واللحى الطويلة من القبور ليقولوا الله هو الواحد القهَّار القادر على كل شيء، آمِنوا بالله يا شباب الثورة ولا تسمعوا كلام الكفَّار الحاقدين من ذوي القلوب السوداء الذين يطالبون بالقِصاص. أصبحوا ينافسون السلفيَّة والصوفيَّة والجهاديَّة في ترديد كلمة الله، في الاختباء وراء «الله» المسامح الكريم، لإلغاء أو تأجيل محاكمة مبارك إلى أجلٍ غير مسمًّى.

وما فائدة القانون أيَّها السادة الكبار، وكيف تكون هناك عدالةٌ دون محاكمة؟ لماذا تخافون من المحاكمة إذا كنتم أبرياء وإذا كان متَّهمكم بريئًا؟ لماذا لا تحاكمون الكبار وترجون لهم الرحمة والصفح؟ لماذا لا تحاكمون إلا الصغار على غرار محكمة العدل

الدوليَّة التي تركت جورج بوش حرًّا بريئًا وعاقبت الآخرين الضعفاء من حكَّام أفريقيا السوداء؟

مبارك كان هو الجهة العليا التي تُعطي الأوامر والتوجيهات للوزراء وكبار الكُتَّاب والكاتبات. يُوزِّع عليهم الجوائز والمناصب، لم يكن أحدهم يفتح فمه إلا ويلهج بالثناء والولاء والتوجيهات من السيِّد الرئيس. لا يجتمع الرئيس بهم إلا ويخرجون من الاجتماع يردِّدون في كورالٍ واحد: «اجتماع فريد من نوعه غير مسبوق، إي والله غير مسبوق!»

كتب بعضهم يقول: «كل الناس تخطئ يا شباب، أنتم في ربيع العمر، أنقياءُ رومانسيُّون، لم تعرفوا الحياة، ليس لكم تجارب، لكن نحن الكبار عركنا الحياة، كلنا عايشنا النظام السابق، كلنا تكيَّفنا مع النظام وعشنا معه، نحن الكُتَّاب الكبار، لم يكسر أكبرنا، الكاتب الكبير، الخطوط الحمراء، فقط في اجتماعاتنا الخاصَّة بعيدًا عن عيون الأمن وآذانهم قد يلمِّح أحدنا بغمزة عين، أو تورية. كانت لنا حدود لا نتخطَّاها وإلا السجن أو تجويع أولادنا أو تلفيق التهم لنا أو النفي خارج أو داخل البلاد، يا شباب لا بدَّ أن تتعالَوا على أنفسكم وتنبذوا الانتقام من مبارك، الضرب في الميِّت حرام يا جدعان، يجب ألا تفقدوا روح الثورة السامية، يكفي استرجاع المال المنهوب عن طريق القضاء، ونحمي مبارك وأُسرته من بهدلة المحاكمة، ويخرج من مصر آمنًا كريمًا دون انتقامٍ منه.»

هذه هي النغمة الجديدة التي يعزف عليها كبار النخبة المصريَّة اليوم، ١٨ أبريل ٢٠١١م، الأعمدة الفكريَّة للحكَّام السابقين المتربِّعون حتى اليوم على عروش الثقافة والإعلام والكتابة والفنون، تكاد تشتَمُّ منهم أنَّ المحاكمة لن تحدث، وإن حدثت فستكون شكليَّةً فقط تنتهي بالبراءة والسفر بأمان خارج البلاد. أرجو أن أكون خاطئة حماية لمصر من ثورةٍ أخرى حارقة.

ألا نتحرَّر من عبوديَّة تقديس الفرد؟

لماذا نشعر بالحنين إلى حكم الفرد في الدولة أو الدين أو العائلة أو المدرسة أو العمل أو أيِّ شيء؟ لماذا لم يلعب الطبُّ النفسي أو الثقافة العامَّة دورًا لتحرير العقل المصري من الخضوع لعبوديَّة السلطة الفرديَّة؟ هل الخضوع للعبوديَّة مرض سياسي يتحوَّل مع طول الزمن إلى مرض نفسي؟ بمعني عدم الرغبة في الشفاء من العبوديَّة، أو الخوف من الحرِّيَّة والمسئوليَّة؟ والحنين إلى الخضوع والهوان؟ هل يتدرَّب الطفل على الطاعة وقبول الإهانة من المدرِّس أو الناظر؟ هل تعشق الفتاة الرجل الفحل الحمش؟ هل يستعذب العاشق عذاب الحب؟ وإلا فلماذا هذه النكسة التي تصيب أي محاولة للتحرر من حكم الفرد؟ إن خلعنا رأس الدولة خلقنا رأسًا آخر نعبده ونقدِّسه في المؤسَّسات العامَّة والخاصَّة.

استطاعت الثورة المصريَّة الأخيرة في يناير ٢٠١١م التخلُّص من رئيس الدولة السابق وبعض أعوانه، إلا أنَّها لم تتخلَّص من القيم الموروثة التي تكرس حكم الفرد الواحد وسلطته المطلقة في حياتنا العامَّة والخاصَّة، في بيوتنا ومدارسنا ومعاهدنا العلميَّة والدينيَّة، وأحزابنا السياسيَّة، وجميع المؤسَّسات الثقافيَّة والفكريَّة والتعليميَّة والإعلاميَّة والصحافيَّة وغيرها.

عبوديَّة تقديس الفرد مرضٌ مزمن في النفوس والعقول البشريَّة، لا يمكن اقتلاعه بثورةٍ مهما عظُمت، إنَّه يحتاج إلى ثورات وثورات، ليست سياسيَّة فقط أو اجتماعيَّة أو اقتصاديَّة، بل ثورات فكريَّة ونفسيَّة لاقتلاع جذور العبوديَّة من أجساد وعقول البشر، رجالًا ونساءً وأطفالًا. تقديس الفرد الواحد مرضٌ عالمي ومحلِّي، شرقي وغربي، منذ العصر الحجري وقبل الحجري، تجلَّى في مصر القديمة تحت الحكم الفرعوني، الفرعون الإله الجالس على عرش الحكم فوق الأرض وفي السماء، يملك حياة البشر وموتهم حين

يريد، إن خالفوا أوامره أو رفضوا ظلمه، هو قادر على قتلهم وإبادتهم دون سؤال أو محاسبة، لأنَّه فوق المساءلة أو المحاسبة، ألم يتكرَّر ذلك في بلادنا حتى اليوم؟

ما هذا التقديس للفرد الواحد الأوحد الجالس على قمَّة أي شيء في مصر، وإن كان «كوم زبالة»؟ أو تراكُم تعليمٍ رديء، أو سياسة وأحزابًا رديئة؟ أو صحافة وإعلامًا أكثر رداءة؟ بالطبيعة أنا متفائلة، الأمل قوَّة واليأس ضعف، لكن مجرَّد قراءة الصحف المصريَّة (مثلًا) تقتلع الأمل من أي طفل أو طفلةٍ متفائلة مثلي، حين يسألونني عن سر شبابي في الثمانين من العمر أقول لهم إنَّ الطفلة المتفائلة في أعماقي لم تمُت، عجزت جميع القري العظمي (في الدولة والعائلة والخارج والداخل) عن قتل الطفلة في أعماقي. نعم أيُّها السادة ما زلت طفلة في العاشرة من عمري أحلم بالثورة، الثورة الحقيقيَّة التي تقتلع السلطة الفرديَّة المطلقة في أي مكان، يتشدَّق السياسيون دائمًا بحكم الشعب، يقولون الديمقراطيَّة تعني حكم الشعب، لكن ما إن يتولَّى أحدهم رئاسة مؤسَّسةٍ ما، وإن كانت لتربية الدواجن (أو لنشر مقالات للناس) حتى يصبح فرعونًا. الإله لا يقبل الجدل أو النقاش، كلُّنا نعرف كيف تتحكَّم السلطة الفرديَّة المطلقة في التعليم والثقافة والإعلام، هذه المؤسَّسات الثلاثة التي تُشكِّل العقل المصري.

لم أكن أفتح التلفزيون المصري في العهد السابق، حرصًا على الوقت الثمين، من أن يُهدر في الاستماع إلى الأكاذيب، تغيَّرت بعض الوجوه القديمة، إلا أنَّ السلطة الفرديَّة ما زالت موجودة، تغيَّرت الأكاذيب واتَّخذت شكلًا جديدًا، في المدارس أيضًا وفي الثقافة، وفوق أعمدة النور في الشوارع. تمَّ نزع صور الحاكم القديم وحرمه وابنه، وتمَّ تعليق صور أخرى لأصحاب السلطة الفرديَّة المطلقة الجديدة. في الصحافة تمَّ تغيير بعض الوجوه واستبقاء البعض دون أي معاييرَ مفهومة. بعض المنافقين ذهبوا، ليأتي آخرون أكثر نفاقًا. السلطة الفرديَّة المطلقة ظلَّت تحكم الصحافة، وتسلِّط الضوء على وجوه بعينها. كُتَّاب وصحافيُّون ومثقَّفون كانوا حماة الدكتاتوريَّة وحكم الفرد الإله منذ الملك والجمهوريَّة الأولى، أصبحوا من أبواق ديمقراطيَّةٍ دكتاتورية جديدة، يسيطرون على التعليم والثقافة والإعلام والصحافة. بالطبع هناك بعض وجوهٍ شابَّة جديدة ظهرت بعد الثورة هنا وهناك، دون معاييرَ مفهومة، كل الاختيارات تتم في الخفاء دون أن نعرف كيف ولماذا، نُفاجأ كل يوم بمجلسٍ جديد أو اتحادٍ جديد أو جمعيَّةٍ جديدة للشباب أو الرجال أو النساء، وأحزابٍ جديدة تظهر فجأة، وقياداتٍ ثوريَّة نضاليَّة تهبط بالطائرات، لا نعرف لها أي تاريخٍ نضالي. يسألني الشباب والشابَّات: هل تعرفين فلانًا الفلاني الذي

يتكلَّم عن الثورة في كل الإذاعات ويُشكِّل الحزب الجديد الكبير ويُرشِّح نفسه للرئاسة؟ أقول لهم: لا أعرفه والله العظيم ولا أعرف له تاريخًا في بلادنا (ربما كان بطلًا في بلادٍ أخرى وراء البحار). يسألونني: ما رأيك في هذا الإله الذي يتربَّع على عرش الصحافة اليوم ويُقدِّسه المنافقون وربما يرشِّحونه للرئاسة؟ أقول لهم: أعرف تاريخه جيِّدًا منذ مائة عام ولن أنتخبه وإن تكحَّل بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية. يسألونني: ومن تنتخبين يا دكتورة؟ أقول لهم: لا أحد، هذه الانتخابات السريعة القادمة للرئاسة أو للبرلمان لن تنتج إلا فراعنةً آخرين ودكتاتوريِّين جُددًا، لا بُدَّ من تأجيل الانتخابات بكل أنواعها، حتى نُغيِّر الدستور والقوانين لتصبح كلها عادلة لا تفرِّق بين المواطنين على أساس الدين أو الجنس أو الطبقة أو غيرها. جميع القوانين غير عادلة تكرس الحكم الطبقي الأبوي، تكرس حكم الفرد أو السلطة الفرديَّة المطلقة، من قمَّة الدولة حتى الأُسرة وسفح المجتمع الأسفل. لن تكون هناك انتخابات حرَّة تعكس إرادة الشعب دون وجود لسلطة الشعب، والعدالة السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في الدستور والقانون، دون القضاء على عبوديَّة تقديس الفرد في الثقافة والتعليم والإعلام.

هذه بديهيَّاتٌ بسيطة تَرِد لأيِّ عقلٍ سليم، لكنَّ عقولنا تعرَّضَت لعمليَّات قمعٍ ومسخ، تحت حكم السلطة المطلقة الفرعونيَّة الإلهيَّة، الطاعة أو الموت ماديًّا أو معنويًّا، تجمَّدَت عقولنا منذ العصر الحجري، نتمسَّك بقيم وأفكارٍ انقرضت منذ قرون، منها تقديس سلطة الفرد حيًّا وميتًا. لم نتعلَّم القيادة الجماعية في البيت أو المدرسة أو الدولة؟ ننتظر الكاتب الواحد الأوحد أو المفكِّر الواحد الأوحد أو الحاكم الواحد الأوحد ليحكمنا ويشكمنا، لنخضع ونستكين ونهدأ، ليكف فينا الحنين إلى العذاب والذل والعبوديَّة.

شهِدتُ في عيادتي النفسيَّة كثيرًا من هذه الشخصيَّات؛ رجلًا ضخم الشاربَين يشكو من رئيسته لأنَّها طيِّبةٌ رقيقة وليس لها سلطة على المرءوسين، زوجةً قويَّة الشكيمة تشكو زوجها لأنَّه رخو لا يشكمها ويتركها تخرج على حريتها، تلميذًا بليدًا لا يحترم مدرِّسه لأنَّه لا يمسك العصا ويضرب. هذه نماذج كيفيَّة ترسُّب قيم العبوديَّة في العقول. كيف أصبح عشق السلطة الفرديَّة المطلقة مرضًا ينخر في النفوس؟ قال أحدهم لي: تصوَّري يا دكتورة أحيانًا أشعر بالحنين لمبارك رغم أنَّه وضعَني في السجن وخَلعَ عين ابني في التحرير.

أقول لكم أيُّها السادة والسيِّدات

يا من تحاولون إعادة الزمن إلى الوراء، إلى ما قبل الثورات في بلادنا والعالم، من القاهرة في ميدان التحرير إلى ماديسون في ويسكونسن، وسوريا وليبيا واليمن والبحرين وغيرهم كثير من كافَّة بقاع الأرض. تحاولون إعادتنا إلى ما قبل الوعي الجماعي بالظلم والفساد والاستبداد في الدولة والعائلة والعالم، يترابط الكل من قمَّة الرأس إلى قاع القدمَين، من العالمي إلى الإقليمي إلى القومي إلى المحلِّي إلى العائلي إلى الفردي، من السياسي الاقتصادي الدولي إلى الجنسي الشخصي في الفراش، من خيانة دولةٍ عظمى لمبادئ دستورها لتغزو العراق وتنهب البترول، وتُساند إسرائيل في الغزو والنهب والقتل، من تلاعُب باراك أوباما في خطبة واشنطن بالثورات العربيَّة، من تلاعُب شيخ الأزهر بكلمة الرحمة لإنقاذ مبارك من عدالة القانون، من التجارة بالقيم الإنسانيَّة في بورصة السياسة والدين والأخلاق، من خيانة أرواح القتلى الآلاف في ميدان التحرير تحت اسم التسامُح والتصالُح، من خيانة رئيس صندوق النقد لشريكة حياته، وإخلاصه لشركاء السوق. لم يَفقدِ الرجل الاحترام بين الذكور رغم موت ضميره الإنساني، مثل غيره من الرجال الناجحين (من أهل المال أو السياسة أو الأدب أو الإعلام) يَسرِقون و«يُهبهِبون» بالورقة والقلم، بالحسابات الدقيقة المضبوطة في ظل القانون. ينتهكون أجساد النساء بالقانون دون عقاب أو عتاب، من نجيب الريحاني إلى بيرلوسكوني إلى ساركوزي إلى بيل كلينتون، وغيرهم من أزيار (جمع زير) النساء. يسيل لعابهم أمام أجساد السكرتيرات والخادمات من عمر بناتهم وحفيداتهم. الفساد الدولي والفساد الشخصي مترابطان، لا يفصل الذكر منهم بين نصفه الأعلى والأسفل، بين شهوته للسلطة والمال وشهوته للنساء وملذَّات الدنيا والآخرة؟ الفصل مستحيل كالفصل بين الدين والدولة؟ لم تنجح الأديان في كبح شهوات الرجال، مسيحيِّين مسلمين يهوديِّين بوذيِّين مؤمنين، لا دينيِّين، بينَ بين، بالإنجليزيَّة «أجنوستيك» «لا أدريِّين»

باللغة العربيَّة. يقول الرجل منهم: لا أدري، هل الإله موجود. يسقط أغلب الرجال أخلاقيًّا من كل الأجناس والأحزاب: ليبراليَّة، يمينيَّة، ماركسيَّة لينينيَّة أو تروتسكيَّة، رأسماليَّة وطنيَّة أو غير وطنيَّة؟ أثبت التاريخ أنَّ فساد الرجال الجنسي لا علاقة له بالسياسة أو الدين أو الأيديولوجيا، ليس مسألةً هرمونيَّة ذكوريَّة بيولوجيَّة تتعلَّق بالجينات، إنَّها مسألة قانونٍ سياسي طبقي أبوي مزدوج فاسد، يرفع الحاكم عن المحكوم، يرفع الرجل عن المرأة، القانون الأخلاقي غير أخلاقي. يتبع السياسي الاقتصادي العقائدي، هو أساس التربية والتعليم المزدوج الفاسد في البيوت والمدارس والأحزاب والبرلمان. يتمتَّع الحاكم بالحصانة السياسيَّة وإن قتل ونهب. يتمتَّع الأب والزوج بالحصانة الأخلاقية وإن فسق. الزوج الخائن يظلُّ محترمًا بين العباد في باريس أو القاهرة أو الرياض أو بلاد تركب الجمال والأفيال. يخون الرجل زوجته مرارًا وتكرارًا، مع خادمة في فندقه، أو سكرتيرة في مكتبه أو مزارعة في حقله، أو عاملة في مصنعه، أو موظَّفة في دولته. لا يقل احترام الناس له، يعتبرونه فحلًا ذكوريًّا، يحتقرون الخادمة الصغيرة إن اغتصبها فحلٌ منهم، إن أنجبت منه يعتبرون طفلها غير شرعي، ينضمُّ إلى أطفال الشوارع بالملايين، أُمُّه يُسمُّونها عاهرة، تدخل في السجن عنبر المومسات، يدخل الفحل سوق الانتخابات، رئاسيَّة برلمانيَّة مجالس محلِّيَّة أو شورى وغير شورى، يصبح رئيس دولة أو رئيس برلمان أو رئيس المجلس الأعلى، ولِمَ لا؟ الرجل لا يعيبه إلا جيبه وكُلُّه بالقانون والورقة والقلم. منذ ظهور العهد القديم في العصر العبودي أصبحَتِ القوانين كلُّها مزدوجة، تُفرِّق بين البشر على أساس الدين والجنس والطبقة، أَمَر الإله يهوه بقتل كلِّ مَن لا يؤمن به، قد يقتل مدينةً كاملة لأن طفلًا فيها لا يؤمن به. أَمَر يهوه بقتل الطفل والأُمِّ غير العذراء، والمرأة الخائنة لزوجها، أَمَر بإلقائها في الماء الغويط، إن غرِقَت فهي آثمة، وإن طفَت فهي بريئة، كانت تنجو من الموت المرأةُ المتدرِّبة على السباحة والخيانة، وتغرق الفتاة الغريرة البريئة. أمَّا الرجل فلم يَأمرْ يهوه بامتحان عذريَّته أو إخلاصه الزوجي، لم يكن للرجل عذريَّة، أباح يهوه الخيانة الزوجيَّة للرجال، لِيضمنَ ولاءهم له، هو يهوه صاحب السلطة المطلقة في الدولة. الرجل منهم، صاحب السلطة المطلقة في العائلة، يملك أطفاله ونساءه وعبيده وجوارِيَه، لا تعلوه سلطةٌ إلا سلطة يهوه. كان يهوه يَحرِم النساء من تعاطي السياسة أو المال أو الجنس، يلزمن البيوت يطبخن الطعام لرجالهن بعد انتهاء اجتماعاتهم في الحزب الحاكم مع رئيسهم يهوه. تمَّ تحريم الضحك على النساء؛ لأنَّ الضحك يكشف التناقُض، يقود الضحكُ إلى الوعي بالظلم، فتبدأ الثورة تطالب بإسقاط رأس النظام يهوه. فساد

البشر مثل فساد السمك يبدأ من الرأس، يعني العقل، هل أفسد يهوه عقول البشر؟ رئيس دولةٍ عظمى (بيل كلينتون) أو رئيس أعظم بنكٍ عالمي (دومينيك ستراوس كان) يشتهي جنسيًّا خادمةً من عمر حفيداته (ستراوس زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي مُحرِّر الكادحات) يغتصب الرجل الكبير البنت الصغيرة بمثل ما تغتصب دولةٌ كبرى أرض دولةٍ صغرى؟ يغتصب الجنود في أي جيشٍ أجساد النساء؟ لا يُوجد قانونٌ دولي حتى اليوم يعاقب دولةً قويَّة لاغتصابها أرضًا لا تَملِكها، أو عقاب جنديٍّ منتصر اغتصب امرأة. لا يُوجد قانونٌ يحاسب على الفساد والإفساد السياسي. لا يُوجد قانونٌ يعاقب رجلًا على الخيانة الزوجيَّة أو الجمع بين عددٍ مِن النساء، تُقتَل المرأة أو تُحبس أو تُحتقَر إن جمعَت بين رجلَين فقط، فما بالُ ثلاثة أو أربعة أو مائة؟ بدأت الثورة في مصر وبلادٍ أخرى كثيرة، عربيَّة وعالميَّة، لن تتوقف الثورات حتى تقضي على الفساد الدولي والمحلِّي، العامِّ والخاص، لن يعود الزمن إلى عصر العهد القديم، لن تعيش دولةٌ على قِيَم يهوه وشريعة الغاب، اغتصاب الأرض والمرأة. شُعلة الثورة أضاءت خلايا العقل المظلمة دون رجعة. لا يَنتكِس الوعي أبدًا إلى مَرحلةِ عدم الوعي، يتفتَّح عقل الشعوب على الأفكار المبدعة، يكتسب الملايين الوعي الضروري للثورة، لا يُمكِن أن يثور شعبٌ مظلوم إلا إذا اكتَسَب الوعي بالظلم. لا يمكن أن تثور امرأةٌ مقهورة إلَّا إذا اكتَسبَتِ الوعي بالقهر. هذا الوعي الممنوع، هذه المعرفة المؤثَّمة منذ يهوه، المُحرَّمة بالسياسة والتعليم والثقافة والخطوط الحمراء. لا يتجاوز الخطوطَ الحمراءَ إلا الشجاعة الثوريَّة، الثورة والشجاعة توءم المعرفة والوعي، أسقَطَتِ الثورة المصريَّة بعض رءوس النظام السابق، وسوف تَستمرُّ الثورة لإسقاط النظام كلِّه، رغم محاولات المنع والتحريم وخَلْق الخطوط الحمراء الجديدة. أقول لكم أيُّها السادة والسيِّدات، لقد انقضى العهد القديم، ومعه الخوف، كَسَر الشعب الحدود، انكشف المحجوب، وسقط الحجاب عن عقول الشباب.

هنداوي